التفسير المحرر

للقرآن الكريم

من سورة العلق إلى سورة الناس

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت

أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر سابقًا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الرابع والأربعون

الدرر السنية

www.dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة العلق إلى سورة الناس)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٤ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الرابع والأربعون - القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١ الظهران، ١٤٤٤ هـ

١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٠-١٦-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- التفسير الحديث   أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦   ١٤٤٤/٣٥٥

رقم الإيداع: ١٤٤٤/٣٥٥

ردمك: ٠-١٦-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية

٠١٣٨٦٨٠١٢٣ ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ nashr@dorar.net

dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة العلق إلى سورة الناس)

إعـدَادُ

القِسمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت

أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرافُ العَامُّ

الشَّيخ عَلَوي بن عبد القَادِر السَّقَّاف

المجلد الرابع والأبعون

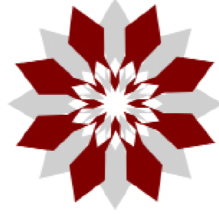
الدُّرَرُ السَّنِيَّة

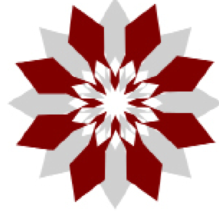
www.dorar.net

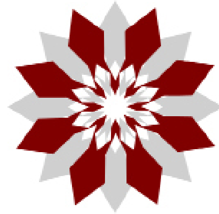
بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسيرُ

سُورَةِ العَلَقِ







سُورةُ العَلَقِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: العَلَقِ(١).

وسمِّيت أيضًا: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾:

فعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((صلَّى مُعاذُ بنُ جَبَلٍ الأنصاريُّ بأصحابه العِشاءَ، فطَوَّل عليهم، فقال له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أتُريدُ أن تكونَ فتَّانًا يا مُعاذُ؟ إذا أمَمْتَ النَّاسَ فاقرَأْ بـ «الشَّمسِ وضُحاها» و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ و«اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى»))(٢).

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

١- أنَّ الآياتِ الخَمْسَ مِن أوَّلِها هي أوَّلُ ما نزَل مِن القُرآنِ(٣).

فعن عائشةَ، زَوجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قالَتْ: ((كان أوَّلَ ما بُدِئَ به رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الرُّؤْيَا الصَّادِقةُ في النَّوم، فكان لا يَرى رُؤْيا إلَّا جاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ(٤)، ثُمَّ حُبِّب إليه الخلاءُ، فكان يَلْحَقُ بغارِ حِراءٍ فيَتَحَنَّثُ فيه -قال(٥): والتَّحَنُّثُ: التَّعَبُّدُ- اللَّيالِيَ ذَواتِ العَدَدِ(٦)، قبْلَ أنْ يَرْجِعَ إلى أهلِه

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لذِكْرِ لَفظِ العَلَقِ في أوَّلِها. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٤٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (٤٦٥).

(٣) وهو قولُ أكثرِ العلماءِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٣).

(٤) فَلَقِ الصُّبْحِ: أي: ضَوئِه وإنارَتِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٧١).

(٥) يَحتمِلُ أنْ يكونَ مِن كلامِ عُروةَ راوي الحديثِ عن عائشةَ، أو مَنْ دونَه مِن رواةِ الحديثِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٧١٧).

(٦) اللَّياليَ ذواتِ العَدَدِ: اللَّياليَ: مَنصوبةٌ على الظَّرفِ يتعَلَّقُ بقَولِه «يتحَنَّثُ»، وإبهامُ العددِ =

ويَتَزَوَّدُ لذلك، ثُمَّ يرجِعُ إلى خَديجةَ فيَتزَوَّدُ بِمِثْلِها، حتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ وهو في غارِ حِراءٍ، فجاءَه المَلَكُ، فقال: اقْرَأْ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما أنا بقارِئٍ، قال: فأَخَذَني فغَطَّني[(١)] حتَّى بَلَغ مِنِّي الجهْدَ[(٢)]، ثُمَّ أَرْسَلَني، فقال: اقْرَأْ، قُلْتُ: ما أنا بقارِئٍ، فأخَذني فغطَّني الثَّانيةَ حتَّى بَلَغ مِنِّي الجهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَني فقال: اقْرَأْ، قُلْتُ: ما أنا بقارِئٍ، فأخذني فغطَّني الثَّالثةَ حتَّى بَلَغ منِّي الجهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ الآياتِ إلى قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق: ١ - ٥]))[(٣)].

٢- في سُورةِ العلق سَجدةٌ.

وذلك عندَ قَولِه تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾[العلق: ١٩][(٤)]، وممَّا يدُلُّ على ذلك ما جاء عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْه، قال: ((سَجَدْنا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾[الانشقاق: ١]، و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾[العلق: ١]))[(٥)].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ العَلَقِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غَيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[(٦)].

= لاختلافِه، وهو بالنِّسبةِ إلى المُدَدِ الَّتي يتخَلَّلُها مَجيئُه إلى أهلِه، وإلَّا فأصلُ الخَلوةِ قد عُرِفت مُدَّتُها، وهي شَهرٌ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٣).

(١) فغَطَّني: الغَطُّ: العَصْرُ الشَّديدُ والكَبْسُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٧٣).

(٢) رُوِي بفتحِ الجيمِ والنَّصْبِ أيْ: بَلَغ الغَطُّ منِّي غايةَ وُسْعي، ورُوِي بضَمِّ الجيمِ والرَّفْعِ أيْ: بَلَغ منِّي الجُهْدُ مَبْلَغَه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٥٣)، ومسلم (١٦٠).

(٤) وهذا مذهبُ الجمهورِ مِن الحنفيَّة، والشَّافعيَّة، والحنابلة. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٢/ ١٠٤)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥٩)، ((كشاف القناع)) للبُهوتي (١/ ٤٤٧).

(٥) أخرجه مسلم (٥٧٨).

(٦) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير =

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

تَثْبيتُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتهديدُ كلِّ مَن يقِفُ في وجهِ دعوةِ الإسلامِ(١).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- التَّنويهُ بشَأنِ القِراءةِ والكِتابةِ، والعِلمِ والتَّعَلُّمِ.

٢- التَّهديدُ لكُلِّ مَن يَقِفُ في وَجهِ دَعوةِ الإسلامِ.

٣- إعلامُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ تعالى مُطَّلِعٌ على ما يُبَيِّتُه له أعداؤُه، وأنَّه سُبحانَه قامِعُهم، وناصِرُه عليهم.

٤- أمْرُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَمضِيَ في طَريقِه، وأن يُصَلِّيَ ويقتَرِبَ مِن رَبِّه.



= ابن عطية)) (٥/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١٧)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٤)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٥١).

الآيات (١-٥)

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَلَقٍ﴾: أي: دمٍ جامدٍ، جمعُ عَلَقةٍ، والعَلَقُ: التَّشَبُّثُ بالشَّيءِ، وأصلُ (علق): يدُلُّ على تعلُّقِ شَيءٍ بشَيءٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُخاطِبًا نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قائلًا له: اقرَأْ -يا محمَّدُ- ما أُنزِلَ إليك مِن القُرآنِ مُفتَتِحًا بذِكرِ اسمِ رَبِّك الخالِقِ، خَلَق الإنسانَ مِن قِطعةِ دَمٍ غَليظٍ، اقرَأِ القُرآنَ، ورَبُّك الكَثيرُ الخَيراتِ ذو المحاسِنِ والمحامِدِ، الَّذي عَلَّم عِبادَه الخَطَّ بالقَلَمِ، علَّم الإنسانَ العُلومَ الَّتي لم يكُنْ يَعلَمُها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٢٥)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٣١٨)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

قال الماوَرْديُّ: (العَلَقُ جَمْعُ عَلَقةٍ، والعَلَقةُ: قِطْعةٌ مِن دَمٍ رَطْبٍ؛ سُمِّيَتْ بذلك لأنَّها تعَلَقُ لرُطوبتِها بما تَمُرُّ عليه، فإذا جَفَّتْ لم تكنْ عَلَقةً). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٠٤).

وقال ابن عاشور: (العَلَقُ: اسمُ جمعِ عَلَقةٍ، وهي قِطعةٌ قَدْرَ الأُنْمُلَةِ مِن الدَّمِ الغليظِ الجامدِ الباقي رَطْبًا لم يَجِفَّ، سُمِّي بذلك تشبيهًا لها بدودةٍ صغيرةٍ تُسَمَّى عَلَقةً، وهي حمراءُ داكِنةٌ تكونُ في المياهِ الحُلوةِ، تمتصُّ الدَّمَ مِن الحيوانِ إذا عَلِقَ خُرْطومُها بجِلْدِه، وقد تَدخلُ إلى فَمِ الدَّابَّةِ -وخاصَّةً الخيلَ والبِغالَ- فتَعْلَقُ بلَهاتِه ولا يتَفَطَّنُ لها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٨).

أي: اقرَأْ -يا محمَّدُ- ما أُنزِلَ إليك مِن القُرآنِ مُفتَتِحًا بذِكرِ اسمِ ربِّك الخالِقِ[1].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّها قالت: ((أوَّلُ ما بُدِئَ به رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيا الصَّالِحةُ في النَّومِ، فكان لا يرى رُؤيا إلَّا جاءت مِثْلَ فَلَقِ الصُّبحِ، ثمَّ حُبِّبَ إليه الخَلاءُ، وكان يخلو بغارِ حِراءٍ، فيَتحَنَّثُ فيه -وهو التَّعبُّدُ- اللَّياليَ ذَواتِ العَدَدِ قبْلَ أن يَنزِعَ[2] إلى أهْلِه، ويَتزَوَّدُ لذلك، ثمَّ يَرجِعُ إلى خديجةَ فيَتزَوَّدُ لِمِثْلِها، حتَّى جاءه الحَقُّ وهو في غارِ حِراءٍ، فجاءه المَلَكُ فقال: اقرَأْ. قال: ما أنا بقارِئٍ. قال: فأخَذَني فغَطَّني حتَّى بَلَغ منِّي الجَهْدَ، ثمَّ أرسَلَني، فقال: اقرَأْ. قُلتُ: ما أنا بقارِئٍ، فأخَذَني فغَطَّني الثَّانيةَ حتَّى بَلَغ منِّي الجَهْدَ ثمَّ أرسَلَني، فقال: اقرَأْ. فقُلتُ: ما أنا بقارِئٍ. فأخَذَني فغَطَّني الثَّالِثةَ ثمَّ أرسَلَني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ١ - ٣]))[3].

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان خلْقُ الإنسانِ أوَّلَ النِّعَمِ الفائضةِ عليه من الله سبحانه وتعالَى، وأقدَمَ الدَّلائلِ الدَّالَّةِ على وُجودِه عزَّ وجلَّ وكَمالِ قُدرتِه وعِلمِه وحِكمتِه؛ وَصَفَ ذاتَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٦، ٤٣٧).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه: ﴿ٱقْرَأْ﴾ وإن كان خِطابًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أوَّلًا، فهو خِطابٌ لكُلِّ أحدٍ). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٣٢٤، ٣٢٥).

(٢) يَنْزِعَ: أي: يَرْجِعَ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٣).

(٣) رواه البخاري (٣) واللَّفظُ له، ومسلم (١٦٠).

تعالَى بذلكَ أوَّلًا ليَستَشهِدَ عليه السَّلامُ بِهِ على تَمكينِه تعالَى لَه مِنَ القِراءةِ[1].

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾.

أي: خَلَق الإنسانَ مِن دَمٍ غَليظٍ جامدٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٨].

﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾.

أي: اقرَأْ -يا محمَّدُ- القُرآنَ، ورَبُّك ذو المحاسِنِ والمحامِدِ، الكامِلُ الصِّفاتِ، الكَثيرُ الخَيراتِ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧].

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾.

أي: الَّذي عَلَّم عِبادَه الخَطَّ بالقَلَمِ؛ فانتَفَعوا بالكِتابةِ نَفْعًا عَظيمًا[4].

كما قال تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠).

قال ابنُ عطيَّة: (﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ على جهةِ التَّأنيس، كأنَّه يقولُ: امْضِ لِما أُمِرْتَ به، ورَبُّك ليس كهذه الأربابِ، بل هو الأكرَمُ الَّذي لا يَلحَقُه نَقصٌ، فهو يَنصُرُك ويُظهِرُك). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَبَّه على ما في الكتابةِ مِنَ المنافِعِ الَّتي لا يُحيطُ بها غيرُه سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّه انبَنَت عليها استقامةُ أُمورِ الدُّنيا والدِّينِ في الدُّنيا والآخِرةِ، وهي كافيةٌ في الدَّلالةِ على دَقيقِ حِكمتِه تعالى، ولطيفِ تَدبيرِه- زاد ذلك عَظَمةً على وَجهٍ يَعُمُّ غَيرَه، فقال[١]:

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥﴾.

أي: علَّم الإنسانَ العُلومَ والأشياءَ النَّافعةَ الَّتي لم يكُنْ يَعلَمُها[٢].

كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ إلى قَولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ أنَّ أوَّلَ السُّورةِ يدُلُّ على مَدحِ العِلمِ، وآخِرَها على مَذَمَّةِ المالِ، وكفى بذلك مُرَغِّبًا في الدِّينِ والعِلْمِ، ومُنَفِّرًا عن الدُّنيا والمالِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ تنبيهٌ على أنَّ العِلمَ أشرَفُ الصِّفاتِ الإنسانيَّةِ، كأنَّه تعالى يقولُ: الإيجادُ والإحياءُ والإقدارُ والرَّزقُ كَرَمٌ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: عَلَّم الإنسانَ الخطَّ بالقَلَمِ ولم يكُنْ يَعلَمُه، مع أشياءَ غيرِ ذلك ممَّا عَلَّمَه ولم يكُنْ يَعلَمُه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢١).

ورُبوبيَّةٌ، أمَّا الأكرَمُ فهو الَّذي أعطاك العِلمَ؛ لأنَّ العِلمَ هو النِّهايةُ في الشَّرَفِ[(١)].

٣- قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ فافتتح سُبحانَه السُّورةَ -وهي أوَّلُ سورةٍ أنزَلها اللهُ في كتابِه- بالأمْرِ بالقِراءةِ النَّاشئةِ عن العِلمِ، وذكَر فيها ما مَنَّ به على الإنسانِ مِن تعليمِه ما لم يعلَمْ، فذكَر فيها فضلَه بتعليمِه، وتفضيلَه الإنسانَ بما علَّمه إياه، وذلك يدلُّ على شَرَفِ التَّعليمِ والعِلمِ[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ التَّنبيهُ على فَضيلةِ الكِتابةِ[(٣)]، وفيه إشارةٌ إلى الاهتمامِ بعِلمِ الكِتابةِ، وبأنَّ اللهَ يُريدُ أن يُكتَبَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما يَنزِلُ عليه مِن القُرآنِ؛ فمِن أجلِ ذلك اتَّخَذَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كُتَّابًا للوَحيِ مِن مَبدأِ بَعثتِه[(٤)].

٥- إنَّ دواءَ النِّسيانِ هو الكِتابةُ؛ ولهذا امْتَنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ على عبادِه بها، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، ثُمَّ قال: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ يعني: اقرَأْ مِن حِفْظِك، فإنْ لَمْ يكُنْ فمِنْ قَلَمِك؛ فاللهُ تبارك وتعالى بَيَّنَ لنا كيف نُداوي هذه العِلَّةَ -وهي عِلَّةُ النِّسيانِ-، وذلك بأنْ نُداويَها بالكِتابةِ، والآنَ أصبَحَتِ الكتابةُ أدَقَّ مِن الأوَّلِ؛ لأنَّه وُجِدَ -بحمدِ اللهِ- الآنَ المُسجِّلُ[(٥)]، وغيرُه من الوسائلِ الحديثةِ.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- جِيءَ في وَصْفِ الرَّبِّ بطَريقِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾؛ لأنَّ في ذلك استِدلالًا على انفرادِ اللهِ بالإلهيَّةِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ سيُتْلى على المشركين؛ لِما تُفيدُه المَوصوليَّةُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤١).

(٥) يُنظر: ((شرح المنظومة البيقونية)) لابن عثيمين (ص: ٣٩).

مِن الإيماءِ إلى عِلَّةِ الخبَرِ، وإذا كانت عِلَّةُ الإقبالِ على ذِكرِ اسمِ الرَّبِّ هي أنَّه خالقٌ، دلَّ ذلك على بُطلانِ الإقبالِ على ذِكرِ غيرِه الَّذي ليس بخالقٍ، فالمُشرِكون كانوا يُقْبِلون على اسمِ اللَّاتِ واسمِ العُزَّى، وكونُ اللهِ هو الخالقَ يَعترِفونَ به؛ قال تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، فلمَّا كان المَقامُ مَقامَ ابتِداءِ كِتابِ الإسلامِ دِينِ التَّوحيدِ، كان مُقتضيًا لِذكرِ أدلِّ الأوصافِ على وَحدانيَّتِه[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قولِه: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ هذا القَدْرُ مِن هذه السُّورةِ هو الَّذي نَزَلَ أوَّلًا بخِلافِ بقيَّةِ السُّورةِ، فإنَّما نَزَلَ بعدَ ذلك بزَمانٍ، والحِكمةُ في هذه الأوَّليَّةِ أنَّ هذه الآياتِ الخَمسَ اشتَمَلتْ على مَقاصِدِ القرآنِ، ففيها بَراعةُ الاستِهلالِ[٢]، وهي جديرةٌ أنْ تُسَمَّى «عُنوانَ القُرآنِ»؛ لأنَّ عُنوانَ الكتابِ يجمَعُ مَقاصِدَه بعبارةٍ وجيزةٍ في أوَّلِه، وبيانُ كَونِها اشتَمَلتْ على مَقاصِدِ القرآنِ أنَّها تنحَصِرُ في علومِ التَّوحيدِ والأحكامِ والأخبارِ، وقد اشتَمَلتْ على الأمرِ بالقراءةِ والبُداءةِ فيها بـ«بِاسْمِ اللهِ»، وفي هذه الإشارةُ إلى الأحكامِ، وفيها ما يتعلَّقُ بتوحيدِ الرَّبِّ وإثباتِ ذاتِه وصِفاتِه مِن صفةِ ذاتٍ وصِفةِ فِعلٍ، وفي هذا إشارةٌ إلى أُصولِ الدِّينِ، وفيها ما يتعلَّقُ بالأخبارِ مِن قولِه: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ استدَلَّ به مَن قال بوُجوبِ قراءةِ التَّسميةِ في ابتداءِ كُلِّ سُورةٍ، كما أنزَلَ اللهُ تعالى وأمَرَ به[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٧).

(٢) تقدَّم تعريفُه (٤٣/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٧١٨، ٧١٩).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ١٦٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢١٥). =

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ سُؤالٌ عن توجيهِ الأمرِ بالقِراءةِ إلى نبيٍّ أمِّيٍّ!

الجوابُ: لا تَعارُضَ فيه؛ لأنَّ القِراءةَ تكونُ مِن مَكتوبٍ، وتكونُ مِن مَتْلوٍّ، وهنا مِن مَتْلُوٍّ يَتلوه عليه جبريلُ عليه السَّلامُ، وهذا إبرازٌ للمُعجِزةِ أكثَرَ؛ لأنَّ الأمِّيَّ بالأمسِ صار مُعَلِّمًا اليومَ، وقد أشار السِّياقُ إلى نوعَيِ القِراءةِ هذَينِ؛ حيثُ جَمَع القراءةَ مع التَّعليمِ بالقَلَمِ[١].

٥- قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قَولِه: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ في الاقتِصارِ على أمرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقِراءةِ، ثمَّ إخبارِه بأنَّ اللهَ عَلَّم الإنسانَ بالقَلَمِ: إيماءٌ إلى استمرارِ صِفةِ الأمِّيَّةِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّها وَصفٌ مُكمِّلٌ لإعجازِ القُرآنِ؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾[٢] [العنكبوت: ٤٨].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قَولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ جَمَعت هذه الآياتُ الخَمسُ مِن أوَّلِ السُّورةِ أُصولَ الصِّفاتِ الإلهيَّةِ؛ فوَصفُ الرَّبِّ يتضَمَّنُ الوُجودَ والوحدانيَّةَ، ووَصفُ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ ووَصْفُ ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ يَقتَضيانِ صِفاتِ الأفعالِ، معَ ما فيه مِنَ الاستدلالِ القَريبِ على ثُبوتِ ما أُشيرَ إليه مِنَ الصِّفاتِ بما تَقتَضيه المَوصوليَّةُ مِن الإيماءِ إلى وَجهِ بِناءِ الخَبَرِ الَّذي يُذكَرُ معها، ووَصفُ ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ يتضَمَّنُ صِفاتِ الكَمالِ، والتَّنزيهَ عن النَّقائِصِ[٣].

= ويُنظَرُ لتفصيلِ الكَلامِ في البَسْملةِ وما يَتعَلَّقُ بقِراءتِها، وهل هي آيةٌ مِن الفاتِحةِ ومِن كلِّ سورةٍ أو ليست كذلك: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٨/ ٨٣).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤٠).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أنَّه ما مِن شَيءٍ في السَّماءِ ولا في الأرضِ مِن خَفيٍّ وظاهرٍ وصَغيرٍ وكَبيرٍ إلَّا وهو مخلوقٌ للهِ عزَّ وجَلَّ؛ ولهذا قال: ﴿خَلَقَ﴾ وحَذَفَ المفعولَ؛ إشارةً للعُمومِ؛ لأنَّ حَذْفَ المفعولِ يفيدُ العُمومَ؛ إذْ لو ذَكَرَ المفعولَ لَتَقَيَّدَ الفِعلُ به، لو قال: خَلَقَ كذا، تَقَيَّدَ الخَلْقُ بما ذُكِرَ فقط، لكنْ إذا قال: ﴿خَلَقَ﴾ وأَطْلَقَ، صار عامًّا، فهو خالقُ كلِّ شيءٍ جلَّ وعَلا[١].

٨- قولُه تبارك وتعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ تنبيهٌ على أنَّ الرَّبَّ معروفٌ عند المخاطَبينَ، وأنَّ الفِطرةَ مُقِرَّةٌ به[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ القَولَ بأنَّ المعرِفةَ لا تحصُلُ إلَّا بالنَّظَرِ: غَلَطٌ؛ فإنَّ أوَّلَ ما أوجَبَ اللهُ على رَسولِه وعلى المؤمِنينَ هو ما أَمَرَ به في الآيةِ الكريمةِ هنا، والَّذين قالوا: المعرِفةُ لا تحصُلُ إلَّا بالنَّظَرِ قالوا: لو حَصَلَتْ بغَيرِه لَسَقَطَ التَّكليفُ بها، فيُقالُ لهم: وليس فيما قَصَّ اللهُ علينا مِن أخبارِ الرُّسُلِ أنَّ منهم أحدًا أوجَبَها، بل هي حاصِلةٌ عندَ الأُمَمِ جَميعِهم[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ وفي قَولِه: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ دَلالةٌ على ثُبوتِ صِفاتِ الكَمالِ له سُبحانَه، وأنَّه لم يَزَلْ مُتَّصِفًا بها[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ جُعِلَت العَلَقةُ مَبدَأَ الخَلْقِ، ولم تُجعَلِ النُّطْفةُ مَبدأَ الخَلْقِ؛ لأنَّ النُّطفةَ اشتَهَرت في ماءِ الرَّجُلِ، فلو لم تُخالِطْه نُطفةُ المرأةِ لم تَصِرِ العَلَقةُ، فلا يتخَلَّقُ الجنينُ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ خَلْقَ الإنسانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣٦٨).

مِن عَلَقٍ ثمَّ مَصيرَه إلى كَمالِ أشُدِّه هو خَلْقٌ يَنطوي على قُوًى كامِنةٍ، وقابليَّاتٍ عَظيمةٍ، أقصاها قابليَّةُ العِلمِ والكِتابةِ(١).

وأيضًا وقَعَتِ الإشارةُ إلى «العَلَقةِ» دونَ «النُّطْفةِ»؛ لأنَّه ليس كلُّ نُطْفةٍ تصيرُ ولَدًا، وذلك بعدَ الأربعينَ الأُولى في أوَّلِ الطَّورِ الثَّاني؛ ولهذا -واللهُ أعلمُ- وقعتِ الإشارةُ إليه في أوَّلِ سُورةٍ أنزَلَها على رَسولِه؛ إذْ خَلْقُه من عَلَقةٍ هو أوَّلُ مَبدأِ الإنسانيَّةِ، وحينَئذٍ يُكتَبُ رِزْقُه وأَجَلُه وعَمَلُه، وشَقاوتُه أو سَعادتُه(٢).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ سُؤالٌ: أنَّه بَيَّنَ سُبحانَه في آياتٍ أُخرى أنَّه خَلَقَ الإنسانَ مِن تُرابٍ، وفي آياتٍ أخرى: خَلَقَه مِن طينٍ، وفي آياتٍ أخرى: مِن صَلْصالٍ كالفَخَّارِ، وفي آياتٍ أُخرى: مِن ماءٍ دافقٍ، وفي آياتٍ أخرى: مِن ماءٍ مَهينٍ، وفي هذه الآيةِ: مِن عَلَقٍ، فهل في هذا تناقُضٌ؟

الجوابُ: ليس هناك تناقُضٌ، لكنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَذْكُرُ أحيانًا مَبدأَ الخَلْقِ مِن وجهٍ، ومَبدأَ الخَلْقِ مِن وَجهٍ آخَرَ؛ فخَلْقُه من ترابٍ لأنَّ أوَّلَ ما خُلِقَ الإنسانُ مِن التُّرابِ، ثُمَّ صُبَّ عليه الماءُ فكان طينًا، ثُمَّ استمرَّ مُدَّةً فكان حَمَأً مَسْنونًا، ثُمَّ طالَتْ مُدَّتُه فكان صَلْصالًا، ثُمَّ خَلَقَه عزَّ وجلَّ لحمًا وعَظْمًا وعَصَبًا... إلى آخِرِه، هذا ابتِداءُ الخَلْقِ المتعلِّقِ بآدَمَ. والخَلْقُ الآخرُ مِن بَنِيه أوَّلُ مَنْشَئِهم مِن نُطْفةٍ، وهي الماءُ المَهينُ، وهي الماءُ الدَّافِقُ، هذه النُّطْفةُ تبقى في الرَّحِمِ أربعينَ يومًا، ثُمَّ تتحَوَّلُ شيئًا فشَيئًا، وبتَمامِ الأربعينَ تتقَلَّبُ بالتَّطوُّرِ والتَّدريجِ حتَّى تكونَ دَمًا عَلَقةً(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٨).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أنَّ مِن إعجازِ القُرآنِ العِلميِّ ذِكْرَ العَلَقةِ؛ لأنَّ الثَّابتَ في العِلمِ الآنَ أنَّ الإنسانَ يَتخلَّقُ مِن بُويضةٍ دَقيقةٍ جِدًّا لا تُرى إلَّا بالمِرآةِ المُكبِّرةِ أضعافًا، ولا تَقبَلُ التَّخلُّقَ حتَّى تُخالِطَها نُطفةُ الرَّجُلِ، فتَمتزِجَ معها، فتَأخُذَ في التَّخلُّقِ إذا لم يَعُقْها عائقٌ، كما قال تعالَى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]، فإذا أخذَت في التَّخلُّقِ والنُّموِّ امتَدَّ تَكوُّرُها قَليلًا، فشابَهَت العَلَقةَ الَّتي في الماءِ[١] مُشابَهةً تامَّةً في دِقَّةِ الجِسمِ وتَلوُّنِها بلَونِ الدَّمِ الَّذي هي سابحةٌ فيه، وفي كَونِها سابحةً في سائلٍ كما تَسبَحُ العَلَقةُ[٢].

١٤- قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ فالقادِرُ على إيجادِ إنسانٍ في أحسنِ تقويمٍ مِن هذه العلقةِ، قادرٌ على جعلِك قارئًا وإن لم تكُنْ تعلَمُ القراءةَ مِن قبلُ، كما أوجَد الإنسانَ مِن تلك العلقةِ ولم يكُنْ موجودًا مِن قبلُ، ولأنَّ الذي يتعهَّدُ تلك العلقةَ حتَّى تكتمِلَ إنسانًا يتعهَّدُها بالرِّسالةِ[٣].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ إشارةٌ إلى ما ينطوي في أصلِ خَلْقِ الإنسانِ مِن بَديعِ الأطوارِ والصِّفاتِ الَّتي جعَلَتْه سُلطانَ هذا العالَمِ الأرضيِّ[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ مجيءُ الوَصفِ هنا بـ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ بدلًا مِن أيِّ صِفةٍ أُخرى؛ لِما في هذه الصِّفةِ مِن تلاؤُمٍ للسِّياقِ ما لا يُناسِبُ مَكانَها غيرُها؛

(١) يُنظر ما تقدَّم (ص: ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٨).

والمَعروفُ أنَّ العَلَقةَ -وهي الطَّورُ الثَّاني الَّذي تَنتَقِلُ إليه النُّطْفةُ- أهَمُّ ما يُميِّزُها في هذه المَرحَلةِ هو التَّعلُّقُ، فوَصْفُ العَلَقةِ العالِقةِ بجِدارِ الرَّحِمِ والمُحاطةِ بالدَّمِ المُتَجمِّدِ هو أَدَقُّ وَصْفٍ لهذه المَرْحلةِ؛ ففيها جُمْلةُ تَعلُّقاتٍ. يُنظر: ((خلق الإنسان)) للبار (ص: ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تتمة الأضواء)) لعطية سالم (٩/ ١٥، ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٨).

لِعظَمِ العَطاءِ، وجَزيلِ المِنَّةِ؛ فأوَّلًا: رحمةُ الخليقةِ بهذه القراءةِ الَّتي ربَطَت العِبادَ برَبِّهم، وكفى. وثانيًا: نِعمةُ الخَلْقِ والإيجادِ؛ فهما نِعمتانِ مُتكامِلَتانِ: الإيجادُ مِنَ العَدَمِ بالخَلْقِ، والإيجادُ الثَّاني مِن الجَهلِ إلى العِلمِ، ولا يكونُ هذا كُلُّه إلَّا مِن الرَّبِّ الأكرَمِ سُبحانَه(١).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ سمَّى اللهُ ووَصَفَ نفْسَه بالكَرَمِ، وبأنَّه الأكرَمُ بعدَ إخبارِه أنَّه خَلَقَ؛ لِيُتبيَّنَ أنَّه يُنعِمُ على المخلوقينَ ويُوصِلُهم إلى الغاياتِ المحمودةِ، كما قال في موضعٍ آخَرَ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣]، وكما قال موسى عليه السَّلامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وكما قال الخليلُ عليه السَّلامُ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، فالخَلْقُ يتضمَّنُ الابتداءَ، والكَرَمُ يتضمَّنُ الانتهاءَ، وكما قال في أمِّ القُرآنِ: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ثمَّ قال ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ولَفظُ الكَرَمِ لَفظٌ جامِعٌ للمحاسِنِ والمحامِدِ، لا يُرادُ به مجرَّدُ الإعطاءِ، بل الإعطاءُ مِن تمامِ معناه؛ فإنَّ الإحسانَ إلى الغيرِ تمامُ المحاسِنِ، والكَرَمُ كثرةُ الخَيرِ ويُسْرتُه(٢).

١٨- قَولُه تعالى: ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ يَقتضي اتِّصافَه بالكَرَمِ في نفْسِه، وأنَّه الأكرَمُ، وأنَّه مُحْسِنٌ إلى عبادِه؛ فهو مُستحِقٌّ للحَمدِ لمحاسِنِه وإحسانِه(٣).

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ أخبَرَ أنَّه «الأكرَمُ» بصيغةِ التَّفضيلِ والتَّعريفِ لها؛ فدلَّ على أنَّه الأكرَمُ وَحْدَه، بخلافِ ما لو قال: «وربُّك أكرَمُ»؛ فإنَّه لا يدُلُّ على الحَصرِ، وقَولُه: ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ يدُلُّ على الحَصرِ، ولم يَقُلْ: «الأكرَمُ مِن كذا»، بل أطلَقَ الاسمَ؛ لِيُبيِّنَ أنَّه الأكرمُ مطلقًا غيرَ مُقيَّدٍ؛ فدلَّ على أنَّه متَّصِفٌ بغايةِ

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣١٧).

الكَرَمِ الَّذي لا شيءَ فوقَه، ولا نَقْصَ فيه[١].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ سؤالٌ: أنَّه إذا كان تعالى تمدَّح بأنَّه عَلَّم بالقَلَمِ، وفي ذلك إشادةٌ بشأنِ القَلَم، فلماذا لم يكُنِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كاتبًا به، ولا مِن أهْلِه، بل كان أمِّيًّا لا يقرأُ ولا يكتُبُ؟!

الجوابُ مِن جِهَتينِ:

الأُولى: أنَّه أكمَلُ للمُعجِزةِ؛ حيث أصبحَ النَّبيُّ الأمِّيُّ مُعَلِّمًا، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

الثَّانيةُ: أنَّه لم يكُنْ هذا النَّبيُّ الأمِّيُّ مُغفِلًا شأنَ القَلَمِ، بل عُنِيَ به كُلَّ العنايةِ، وأوَّلُها وأعظَمُها أنَّه اتَّخذ كُتَّابًا للوَحْيِ يَكتُبونَ ما يُوحى إليه بيْن يَدَيه، مع أنَّه يَحفَظُه ويَضبِطُه، وتعهَّدَ اللهُ له بحِفْظِه وبضَبْطِه[٢].

٢١- قولُه تعالى: ﴿ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ كأنَّه ليس وَراءَ التَّكرُّمِ بإفادةِ الفوائدِ العِلميَّةِ تكرُّمٌ؛ فدَلَّ على كَمالِ كَرَمِه بأنَّه علَّمَ عِبادَه ما لم يَعلَموا، ونَقَلَهم مِن ظُلمةِ الجهْلِ إلى نُورِ العِلمِ، ونبَّهَ على فَضلِ عِلمِ الكتابةِ؛ لِما فيه مِن المنافعِ العَظيمةِ الَّتي لا يُحيطُ بها إلَّا هو، وما دُوِّنَت العلومُ، ولا قُيِّدَت الحِكَمُ، ولا ضُبِطَت أخبارُ الأوَّلينَ ولا مَقالاتُهم ولا كُتبُ اللهِ المُنزَّلةِ؛ إلَّا بالكتابةِ، ولولا هي لَما استَقامَتْ أُمورُ الدِّينِ والدُّنيا، ولو لم يكُنْ على دَقيقِ حِكمةِ اللهِ تعالَى ولَطيفِ تَدبيرِه دَليلٌ إلَّا أمْرَ الخطِّ والقلَمِ؛ لَكَفى به[٣].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٨، ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٧).

٢٢- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وقد حصَلَت مِن ذِكرِ التَّعليمِ بالقلَمِ والتَّعليمِ الأعمِّ، إشارةٌ إلى ما يَتلقَّاهُ الإنسانُ مِن التَّعاليمِ، سواءٌ أكان بالدَّرسِ أمْ بمُطالَعةِ الكُتبِ، وأنَّ تَحصيلَ العلومِ يَعتمِدُ أُمورًا ثلاثةً:

أحدُها: الأخْذُ عن الغيرِ بالمراجَعةِ والمُطالَعةِ، وطَريقُهما الكتابةُ وقِراءةُ الكتبِ؛ فإنَّ بالكتابةِ أمكَنَ للأُمَمِ تَدوينُ آراءِ عُلماءِ البشَرِ، ونَقْلُها إلى الأقطارِ النَّائيةِ، وفي الأجيالِ الجائيةِ.

والثَّاني: التَّلقِّي مِن الأفواهِ بالدَّرسِ والإملاءِ.

والثَّالثُ: ما تَنقدِحُ به العقولُ مِن المُستنبَطاتِ والمختَرَعاتِ، وهذانِ داخلانِ تحتَ قولِه تعالَى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، وفي ذلك اطمئنانٌ لنفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ عَدَمَ مَعرفته الكتابةَ لا يَحولُ دونَ قِراءتِه؛ لأنَّ اللهَ علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعلَمْ، فالَّذي علَّمَ القراءةَ لأصحابِ المعرفةِ بالكتابةِ قادرٌ على أنْ يُعلِّمَك القراءةَ دونَ سَبْقِ مَعرفةٍ بالكتابةِ[1].

٢٣- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ ذكَرَ التَّعليمَ بالقلَمِ الَّذي هو مِن أعظَمِ نِعَمِه على عبادِه؛ إذ به تَخلُدُ العُلومُ، وتَثبُتُ الحقوقُ، وتُعلَمُ الوصايا، وتُحفَظُ الشَّهاداتُ، ويُضبَطُ حِسابُ المعاملاتِ الواقعةِ بيْن النَّاسِ، وبه تُقَيَّدُ أخبارُ الماضينَ للباقينَ اللَّاحِقينَ، ولولا الكتابةُ لَانقطَعَت أخبارُ بَعضِ الأزمنةِ عن بعضٍ، ودَرَسَت السُّنَنُ، وتخَبَّطَت الأحكامُ، ولم يَعرِفِ الخَلَفُ مَذاهِبَ السَّلَفِ، وكان مُعظَمُ الخَلَلِ الدَّاخِلِ على النَّاسِ في دينِهم ودُنياهم إنَّما يَعتريهم مِن النِّسيانِ الَّذي يمحو صُوَرَ العِلمِ مِن قُلوبِهم، فجَعَل لهم الكتابَ وِعاءً حافِظًا للعِلمِ مِنَ الضَّياعِ، كالأوعيةِ الَّتي تحفَظُ الأمتعةَ مِنَ الذَّهابِ والبُطلانِ؛ فنِعمةُ اللهِ عزَّ وجَلَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤١).

بتعليمِ القَلَم بعدَ القرآنِ مِن أجَلِّ النِّعَمِ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾

- لم يُذكَرْ لفِعلِ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ مَفعولٌ؛ إمَّا لأنَّه نُزِّلَ مَنزِلةَ اللَّازمِ وأنَّ المَقصودَ: أَوجِدِ القراءةَ، وإمَّا لظُهورِ المَقروءِ مِن المَقامِ، وتَقديرُه: اقرَأْ ما سنُلْقِيه إليك مِن القرآنِ[(٢)].

- وقولُه: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ فيه وُجوهٌ؛ أوَّلُها: أنْ يكونَ افتتاحَ كَلامٍ بعْدَ جُملةِ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وهو أوَّلُ المَقروءِ، أي قُلْ: باسمِ اللهِ، فتَكونَ الباءُ للاستعانةِ، فيَجوزُ تَعلُّقُه بمَحذوفٍ تَقديرُه: ابتَدِئْ، ويَجوزُ أنْ يَتعلَّقَ بـ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الثَّاني، فيَكونَ تَقديمُه على مَعمولِه للاهتمامِ بشَأنِ اسمِ اللهِ، ومعْنى الاستعانةِ باسمِ اللهِ ذِكرُ اسمِه عِندَ هذه القِراءةِ، وإقحامُ كَلمةِ (اسم)؛ لأنَّ الاستعانةَ بذِكرِ اسمِه تعالَى لا بِذاتِه، وهذا الوجْهُ يَقْتضي أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: (باسمِ اللهِ) حِينَ تَلقَّى هذه الجُملةَ.

الثَّاني: أنْ تكونَ الباءُ للمُصاحَبةِ، ويكونَ المَجرورُ في مَوضعِ الحالِ من ضَميرِ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الثَّاني مُقدَّمًا على عامِلِه للاختصاصِ، أي: اقرَأْ ما سَيُوحى إليك مُصاحِبًا قِراءتَك (اسْم ربِّك)، فالمُصاحَبةُ مُصاحَبةُ الفَهمِ والملاحظةِ لجَلالِه، ويكونَ هذا إثباتًا لوَحدانيَّةِ اللهِ بالإلهيَّةِ، وإبطالًا للنِّداءِ باسمِ الأصنامِ الَّذي كان يَفعَلُه المشرِكون؛ يَقولون: باسمِ اللَّاتِ، باسمِ العُزَّى، فهذا أوَّلُ ما جاء من قَواعدِ الإسلامِ قدِ افتُتِحَ به أوَّلُ الوحْيِ.

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٧٨، ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٦).

الثَّالثُ: أنْ تكونَ الباءُ بمعْنى (على)، كقولِه تعالَى: ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ﴾ [آل عمران: ٧٥]، أي: على قِنطارٍ، والمعْنى: اقرَأْ على اسمِ ربِّك، أي: على إذْنِه، أي: إنَّ المَلَكَ جاءك على اسمِ ربِّك، أي: مُرسَلًا مِن ربِّك، فذِكرُ (اسم) على هذا مُتعيِّنٌ(١).

- قولُه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ جاءَ باسمِ ربِّك، ولم يأتِ بلَفظِ الجَلالةِ؛ لِمَا في لَفْظِ الرَّبِّ مِن معنى الَّذي ربَّاك ونظَر في مصلحتِك؛ فعُدِلَ عن اسْمِ اللهِ العَلَمِ إلى صِفةِ ﴿رَبِّكَ﴾؛ لِما يُؤذِنُ وَصْفُ الرَّبِّ مِن الرَّأفةِ بالمَربوبِ والعِنايةِ به، مع ما يَتأتَّى بذِكرِه مِن إضافتِه إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إضافةً مُؤذِنةً بتَبْليغِه عليه السَّلامُ إلى الغايةِ القاصيةِ مِنَ الكَمالاتِ البَشريَّةِ بإنْزالِ الوَحيِ المُتواتِرِ، وأنَّه المُنفرِدُ برُبوبيَّتِه عندَه، ردًّا على الَّذين جَعَلوا لأنفُسِهم أربابًا مِن دُونِ اللهِ، فجاء الخِطابُ ﴿رَبِّكَ﴾؛ ليدُلَّ على الاختصاصِ والتَّأنيسِ، أي: ليس لك رَبٌّ غيرُه(٢).

- ووَصْفُ الربِّ بقَولِه تعالَى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ لتَذكيرِ أوَّلِ النَّعماءِ الفائضةِ على الإنسانِ من الله تعالَى، والتَّنبيهِ على أنَّ مَنْ قدَرَ عَلى خلْقِ الإنسانِ على ما هو عليه مِن الحياةِ وما يَتْبَعُها مِنَ الكَمالاتِ العِلميَّةِ والعَمَليَّةِ، مِن مادَّةٍ لم تَشَمَّ رائحةَ الحياةِ فضْلًا عن سائرِ الكَمالاتِ؛ قادرٌ على تَعليمِ القراءةِ للحيِّ العالِمِ المُتكلِّمِ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٦، ٥٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٧).

- وكذلك في قولِه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ لم يَذكُرْ مَفعولَ ﴿خَلَقَ﴾ الأوَّلِ، ثمَّ قال: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ وذلك إمَّا ألَّا يُقدَّرَ له مَفعولٌ لتَنزيلِ الفِعلِ مَنزلةَ اللَّازمِ، أي: الَّذي هو الخالقُ، وأنْ يُرادَ أنَّه الَّذي حَصَلَ منه الخَلْقُ واسْتأثَرَ به، لا خالقَ سِواهُ، وإمَّا أنْ يُقدَّرَ له مَفعولٌ، ويُرادَ: خَلَقَ كلَّ شَيءٍ، فيَتناوَلَ كلَّ مَخلوقٍ؛ لأنَّه مُطلَقٌ، فليس بَعضُ المخلوقاتِ أَولى بتَقديرِه مِن بَعضٍ، ويكونَ قولُه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ تَخصيصًا للإنسانِ بالذِّكرِ مِن بيْنِ ما يَتناوَلُه الخَلْقُ؛ لأنَّ التَّنزيلَ إليه، وهو أشرَفُ ما على الأرضِ، وأظهَرُ صُنْعًا وتَدْبيرًا، وأدَلُّ على وُجوبِ العبادةِ المقصودةِ مِن القراءةِ، أو أنْ يكونَ تَقديرُه: الَّذي خَلَقَ الإنسانَ؛ اعتمادًا على ما يَرِدُ بعْدَه مِن قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، فقيل: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ مُبهَمًا، ثمَّ فسَّرَه بقولِه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ تَفخيمًا لخلْقِ الإنسانِ، ودَلالةً على عَجيبِ فِطرتِه[١].

- وجُملةُ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ بدَلًا مِن جُملةِ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ بدَلَ مُفصَّلٍ مِن مُجمَلٍ، إنْ لم يُقدَّرْ له مَفعولٌ، أو بدَلَ بَعضٍ، إنْ قُدِّرَ له مَفعولٌ عامٌّ، وسُلِكَ طَريقُ الإبدالِ؛ لِما فيه مِن الإجمالِ ابتداءً لإقامةِ الاستِدلالِ على افتقارِ المَخلوقاتِ كلِّها إليه تعالَى؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ الشُّروعِ في تَأسيسِ مِلَّةِ الإسلامِ، ففي الإجمالِ إحضارٌ للدَّليلِ مع الاختصارِ، مع ما فيه مِن إفادةِ التَّعميمِ، ثمَّ يكونُ التَّفصيلُ بعْدَ ذلك لزِيادةِ تَقريرِ الدَّليلِ، ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ بيانًا مِن ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إذا قُدِّرَ لفِعلِ ﴿خَلَقَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٥)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٧).

الأوَّلِ مَفعولٌ دلَّ عليه بَيانُه، فيَكونَ تَقديرُ الكلامِ: اقرَأْ باسمِ ربِّك الَّذي خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَقٍ[١].

- وخُصَّ خلْقُ الإنسانِ بالذِّكرِ مِن بيْنِ بَقيَّةِ المخلوقاتِ؛ لأنَّه المُطَّرِدُ في مَقامِ الاستدلالِ؛ إذ لا يَغفُلُ أحدٌ مِن النَّاسِ عن نفْسِه، ولا يَخْلو مِن أنْ يَخطُرَ له خاطِرُ البحثِ عن الَّذي خَلَقَه وأوجَدَه؛ ولذلك قال تعالَى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وفيه تَعريضٌ بتَحميقِ المشركين الَّذين ضلُّوا عن تَوحيدِ اللهِ تعالَى مع أنَّ دَليلَ الوَحدانيَّةِ قائمٌ في أنفُسِهم[٢]!

- قولُه: ﴿مِنۡ عَلَقٍ﴾، أيْ: دم جامدٍ؛ لبَيانِ كَمالِ قُدرتِه تعالَى بإظهارِ ما بيْن حالتِه الأُولى والآخرةِ مِن التَّبايُنِ البَيِّنِ. وإيرادُه بلَفْظِ الجمْعِ؛ لأنَّ الإنسانَ في معنى الجَمعِ، كقولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر: ٢]، ولمُراعاةِ الفَواصلِ. ولعلَّه هو السِّرُّ في تَخصيصِه بالذِّكرِ مِن بيْنِ سائرِ أطْوارِ الفِطرةِ الإنسانيَّةِ، مع كَونِ النُّطفةِ والتُّرابِ أدَلَّ منه على كَمالِ القُدرةِ؛ لكَونِهما أبعَدَ منْهُ بالنِّسبةِ إلى الإنسانيَّةِ[٣].

- وقيل: إنَّما ذُكِرَ مَن خُلِقَ مِن عَلَقٍ؛ لأنَّهم مُقِرُّون به، ولم يُذكَرْ أصْلُهم آدَمُ؛ لأنَّه ليس مُتقرِّرًا عندَ الكفَّارِ، فسِيقَ الفرْعُ، وتُرِكَ أصْلُ الخِلقةِ تَقريبًا لأفهامِهم[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٥، ٧٧٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٧). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٠١-٤٠٢).

- قولُه: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ جاء الأمرُ بالقِراءةِ ثانيًا تأنيسًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كأنَّه قِيل: امْضِ لِما أُمِرْتَ به، وربُّك ليس مِثلَ هذه الأربابِ، بلْ هو الأكرَمُ الَّذي لا يَلحَقُه نقْصٌ[١]. وقيل: قولُه: ﴿اقْرَأْ﴾، أي: افعَلْ ما أُمِرْتَ به؛ تَكرَّرَ للمُبالَغةِ، وتأكيدًا للإيجابِ، وتَمهيدًا لِما يَعقُبُه مِن قولِه تعالَى: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ...﴾ إلخ؛ فِفعلُ ﴿اقْرَأْ﴾ الثَّاني تأكيدٌ لـ﴿اقْرَأْ﴾ الأوَّلِ؛ للاهتمامِ بهذا الأمرِ. وقيل: الأوَّلُ مطلقٌ، والثَّاني للتَّبليغِ أو في الصَّلاةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ جُملةٌ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، فلها حُكْمُ الاستئنافِ، و(ربُّكَ) مُبتدأٌ، وخَبرُه إمَّا ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، وإمَّا جُملةُ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، وهذا الاستِئنافُ بَيانيٌّ، فإذا نَظَرْتَ إلى الآيةِ مُستقِلَّةً عمَّا تَضمَّنَه حَديثُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها في وَصْفِ سَببِ نُزولِها، كان الاستِئنافُ ناشئًا عن سُؤالٍ يَجيشُ في خاطِرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَقولَ: كيف أقرَأُ وأنا لا أُحسِنُ القِراءةَ والكتابةَ؟ فأُجيبَ بأنَّ الَّذي علَّمَ القراءةَ بواسطةِ القَلَمِ -أي: بواسطةِ الكِتابةِ- يُعلِّمُك ما لم تَعلَمْ، وإذا قرَنْتَ بيْن الآيةِ وبيْن الحديثِ المذكورِ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢٩).

وقال ابن عثيمين: (﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ﴿اقْرَأْ﴾ تكرارٌ للأُولى، لكِنْ هل هي توكيدٌ أو هي تأسيسٌ؟ الصَّحيحُ أنَّها تأسيسٌ، وأنَّ الأُولى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ قُرِنَت بما يتعلَّقُ بالرُّبوبيَّةِ، و﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ قُرِنَت بما يتعلَّقُ بالشَّرعِ؛ ... لأنَّ التَّعليمَ بالقَلَمِ أكثَرُ ما يعتَمِدُ الشَّرعُ عليه؛ إذ إنَّ الشَّرعَ يُكتَبُ ويُحفَظُ، والقُرآنَ يُكتَبُ ويُحفَظُ، والسُّنَّةَ تُكتَبُ وتُحفَظُ، وكلامَ العُلَماءِ يُكتَبُ ويُحفَظُ؛ فلهذا أعادها اللهُ مرَّةً ثانيةً). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٩).

كان الاستئنافُ جَوابًا عن قولِه لجِبريلَ: ((ما أنا بقارِئٍ))[(١)]؛ فالمعْنى: لا عَجَبَ في أنْ تَقرَأَ وإنْ لم تكُنْ مِن قبْلُ عالِمًا بالقِراءةِ؛ إذ العِلمُ بالقِراءةِ يَحصُلُ بوَسائلَ أُخرَى، مِثلُ الإمْلاءِ والتَّلقينِ والإلهامِ، وقد علَّمَ اللهُ آدَمَ الأسماءَ ولم يكُنْ آدَمُ قارئًا[(٢)].

- ووصْفُ ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ قيل: إنَّه مَصوغٌ للدَّلالةِ على قوَّةِ الاتِّصافِ بالكرَمِ، وليس مَصوغًا للمُفاضَلةِ، فهو مَسلوبُ المُفاضَلةِ، وقيل: هو على ظاهرِه، والمفضَّلُ عليه محذوفٌ لقصدِ العموم[(٣)].

- ومَفعولَا ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ مَحذوفانِ دلَّ عليهما قولُه: ﴿بِٱلْقَلَمِ﴾؛ إذ المَقصودُ إسنادُ التَّعليمِ إلى اللهِ تعالَى، وتَقديرُهما: علَّم الكاتِبينَ، أو علَّمَ ناسًا الكتابةَ[(٤)]. وفي حذْفِ المفعولِ أوَّلًا، وإيرادِه بعُنوانِ عدَمِ المَعلوميَّةِ ثانيًا مِن الدَّلالةِ على كَمالِ قُدرته تعالَى، وكَمالِ كَرَمِه، والإشعارِ بأنَّه تعالَى يُعلِّمُه مِن العلومِ ما لا تُحيطُ به العقولُ؛ ما لا يَخْفى[(٥)].

- ومُقْتضَى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: (وعلَّمَ بالقلَمِ)، فعُدِلَ عن الإضمارِ؛ لتَأكيدِ ما يُشعِرُ به (ربُّك) مِن العِنايةِ المُستفادةِ مِن قولِه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، وأنَّ هذه القِراءةَ شَأنٌ مِن شُؤونِ الرَّبِّ، اختصَّ بها عَبْدَه؛ إتمامًا لِنعمةِ الرُّبوبيَّةِ عليه، وليَجرِيَ على لَفظِ الرَّبِّ وَصْفُ ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾[(٦)].

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٩).

(٣) يُنظر: ((حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي))(٨/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٩).

- وقيل: تَخصيصُ هذه الصِّلةِ ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ بالذِّكرِ، وجَعْلُها مُعترِضةً بيْنَ المُبتدأِ ﴿وَرَبُّكَ﴾ والخبَرِ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ للإيماءِ إلى إزالةِ ما خطَرَ ببالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن تعذُّرِ القِراءةِ عليه؛ لأنَّه لا يَعلَمُ الكِتابةَ، فكيفَ القِراءةُ؟! إذ قال للمَلَكِ: ((ما أنا بقارئٍ)) ثَلاثَ مرَّاتٍ؛ لأنَّ قولَه: ((ما أنا بقارئٍ)) اعتذارٌ عن تَعذُّرِ امتثالِ أمْرِه بقولِه: ﴿ٱقْرَأْ﴾؛ فالمعْنى: أنَّ الَّذي علَّمَ النَّاسَ الكتابةَ بالقَلَمِ والقراءةَ قادِرٌ على أنْ يُعلِّمَك القراءةَ وأنت لا تَعلَمُ الكِتابةَ[١].

- وقولُه: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ بدَلُ اشتمالٍ[٢] مِن ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، أي: علَّمَه بِه وبدُونِه مِنَ الأمورِ الكُلِّيَّةِ والجُزئيَّةِ، والجَليَّةِ والخَفيَّةِ ما لم يَخطُرْ ببالِه[٣].

- وتَعريفُ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ تَعريفَ الجِنسِ، فيكونَ ارتقاءً في الإعلامِ بما قدَّرَه اللهُ تعالَى مِن تَعليمِ الإنسانِ بتَعميمِ التَّعليمِ بعْدَ تَخصيصِ التَّعليمِ بالقلَمِ، فعدَّدَ عليه اكتسابَ العُلومِ بعْدَ الجهْلِ بها[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٠).

(٢) بَدلُ الاشتمالِ: هو الَّذي يدُلُّ على مَعنًى في مَتْبوعِه أو صِفةٍ فيه، مِثلُ: أعْجَبَني مُحمَّدٌ خُلُقُه؛ فـ(خُلُقُه) بَدَلٌ مِن (مُحمَّدٌ)؛ بَدَلُ اشْتِمالٍ. يُنظر: ((أوضح المسالك)) لابن هشام (٣/ ٣٦٥)، ((توضيح المقاصد)) للمرادي (٢/ ١٠٣٧)، ((شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك)) لابن مالك (٣/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٨).

قال أبو العباسِ القرطبي: (﴿مَا﴾ لإبهامِها للعمومِ؛ إذ الله تعالى علَّم كلَّ واحدٍ مِن نوعِ الإنسانِ ما لم يكُنْ يعلَمُ، لكنَّ الامتنانَ إنَّما يحصُلُ بالعلومِ النَّافعةِ لا غيرُ، فهي المقصودةُ بهذا العمومِ، والله أعلمُ). ((المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم)) (٧/ ٤٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤١).

- وفيه ترتيبٌ حسنٌ بديعٌ، حيثُ عدَّدَ سُبحانه وتعالَى مَبدَأَ أمْرِ الإنسانِ ومُنتهاهُ إظهارًا لِما أنْعَمَ عليه؛ مِن أنْ نَقَلَه مِن أخسِّ المَراتبِ إلى أعْلاها؛ تَقريرًا لرُبوبيَّتِه، وتَحقيقًا لِأكْرَميَّتِه، وأشار أوَّلًا إلى ما يدُلُّ على مَعرفتِه عقْلًا، ثمَّ نبَّهَ على ما يدُلُّ عليها سَمْعًا(١).



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٥).

الآيات (٦-١٩)

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ (٦) أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ (٨) أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ (٩)
عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ (١٠) أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ (١١) أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ (١٢) أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ (١٣) أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ
ٱللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ (١٦) فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ (١٧) سَنَدۡعُ
ٱلزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ (١٩)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَيَطۡغَىٰٓ﴾: أي: يَتَجاوَزُ الحَدَّ في الخُروجِ عن الحَقِّ، وأصلُ (طغى): هو مجاوَزةُ الحَدِّ في العِصْيانِ[(١)].

﴿ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾: أي: المَرجِعَ والرُّجوعَ، يُقالُ: رجَعَ إليه يرجِعُ رُجوعًا ومَرجِعًا، ورُجْعَى: مصدَرٌ على فُعْلَى. وأصلُ (رجع): يدُلُّ على رَدٍّ وتَكرارٍ[(٢)].

﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾: أي: لَنَقبِضَنَّ بناصيتِه ونَجُرُّه بها ذليلًا، والسَّفْعُ: الجَذْبُ بشِدَّةٍ، يُقالُ: سَفَعَه: إذا اقتلَعَه مِن مَوضِعِه بجَذْبِ بَعْضِه جَذبًا شَديدًا. وقيل: أي: لَنُحرِقَنَّه ولَنُسَوِّدَنَّ وَجْهَه؛ مأخوذٌ من سفَعَتْه النَّارُ: إذا أحرَقَتْه، وغَيَّرَت وَجْهَه إلى حالِ تسويدٍ. والنَّاصيةُ: شَعرُ مُقَدَّمِ الرَّأسِ، وقد يُعَبَّرُ بها عن جملةِ الإنسانِ، وأصلُ (سفع): يدُلُّ على السَّوادِ، وعلى تناوُلِ شَيءٍ باليَدِ[(٣)].

﴿خَاطِئَةٖ﴾: الخاطِئُ: اسمُ فاعِلٍ مِن خَطِئَ: إذا فَعَل الخطيئةَ، وهي الإثمُ والذَّنبُ،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٥).

ومَصْدَرُه: الخِطْءُ، وأصلُه: يدُلُّ على تعَدِّي الشَّيءِ، والذَّهابِ عنه[(١)].

﴿نَادِيَهُۥ﴾: أي: قَومَه وعَشيرتَه وأهلَ مَجلِسِه، يُقالُ: نَدَوْتُ القَومَ أَنْدُوهم نَدْوًا: إذا جمَعْتَهم، ويُقالُ للمَوضِعِ الَّذي يجتَمِعون فيه: النَّادِي، وأصلُ (ندو): يدُلُّ على تجَمُّعٍ[(٢)].

﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾: أي: ملائِكةَ العَذابِ الغِلاظَ الشِّدادَ؛ مأخوذٌ مِنَ الزَّبْنِ، وهو الدَّفعُ بشِدَّةٍ، وسُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم يَدفَعونَ أهلَ النَّارِ إليها، وأصلُ (زبن): يدُلُّ على الدَّفعِ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا الأسبابَ الَّتي تحمِلُ الإنسانَ على الطُّغيانِ: كَلَّا! إنَّ من شأنِ الإنسانِ وطَبْعِه أن يطغَى إذا كَثُرَ مالُه، ورأى نَفْسَه غَنِيًّا بما أنعمَ اللهُ عليه، مُستَغنيًا عن غَيْرِه بذلك!

ثُمَّ يَتوعَّدُ اللهُ تَعالى مَن يَطْغى ويَعِظُه، فيقول: إنَّ إلى رَبِّك -يا محمَّدُ- المَرجِعَ والمصيرَ.

ثُمَّ يقولُ تَعالى مُعَجِّبًا نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن حالِ شَقِيٍّ مِن الأشْقِياءِ وأمْثالِه: أرأَيْتَ -يا محمَّدُ- هذا الطَّاغيَ أبا جَهلٍ الَّذي يَنهاك عن الصَّلاةِ؟ فماذا لو كان هذا العَبدُ المَنهيُّ عن الصَّلاةِ على استقامةٍ وسَدادٍ في صلاتِه لرَبِّه، أو كان آمِرًا بتقوى اللهِ؟!

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١١)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٠٢) و(٢٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٢).

أرأيتَ- يا محمَّدُ- هذا الَّذي كذَّبَ بالحَقِّ، وأعرَضَ عن اتِّباعِه، ألم يعلَمْ بأنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عليه وعلى أفعالِه وأقوالِه؟

ثُمَّ يقولُ تَعالى مُتوعِّدًا هذا الكافِرَ الشَّقِيَّ: كَلَّا! لَئِنْ لم يتوقَّفْ عن نهيِ محمَّدٍ عن الصَّلاةِ لَنأخُذَنَّ بناصيتِه إذلالًا له؛ تلك النَّاصيةِ الكاذِبةِ في أقوالِها، الخاطِئةِ في أفعالِها.

ثُمَّ يقولُ تَعالى مُتَهكِّمًا مِن هذا الكافِرِ: فلْيَدْعُ أبو جَهلٍ أهلَ مَجلِسِه مِن قَومِه وعَشيرتِه؛ لِيَستنصِرَ بهم، ونحن سَندعو ملائِكةَ العَذابِ الغِلاظَ الشِّدادَ.

ثُمَّ يَأمُرُ اللهُ تَعالى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يُداوِمَ على عِبادةِ رَبِّه، وألَّا يَنْقادَ لنَهْيِ هذا الكافِرِ، فيقولُ: كلَّا! لا تُطِعْه -يا محمَّدُ- في نَهْيِه لك عن الصَّلاةِ، ولا تُبالِ به، واسجُدْ لرَبِّك في صَلاتِك واقتَرِبْ منه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قال أبو جَهلٍ: هل يُعفِّرُ محمَّدٌ وَجْهَه[١] بيْنَ أظهُرِكم[٢]؟! فقيل: نعَمْ. فقال: واللَّاتِ والعُزَّى لئِنْ رأيتُه يَفعَلُ ذلك لَأطأَنَّ على رقَبتِه، أو لَأُعفِّرَنَّ وَجْهَه في التُّرابِ، فأتى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يصَلِّي؛ زعَمَ لِيَطَأَ على رَقَبتِه، قال: فما فَجِئَهم منه إلَّا وهو يَنكِصُ على عَقِبَيه، ويتَّقي بيَدَيه. فقيل له: ما لَك؟! فقال: إنَّ بيْني وبيْنه لَخَنْدقًا مِن نارٍ وهَولًا

(١) هل يُعَفِّرُ محمَّدٌ وجْهَه: أي: يَسجُدُ ويُلصِقُه بالعَفَرِ، وهو التُّرابُ. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) لعياض (٨/ ٣٢٩).

(٢) بيْنَ أظْهُرِكم: أي: بيْنَكم. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٦/ ١٧٦).

وأجنحةً! فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لو دنا منِّي لَاختَطَفَته الملائكةُ عُضوًا عُضوًا، فأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ -لا ندري في حديثِ أبي هُرَيرةَ، أو شَيءٌ بلَغَه[١]-: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ * أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ * أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ * أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ * أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٦ - ١٣] -يعني: أبا جَهلٍ- ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ * كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ * سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٤ - ١٩])[٢].

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى في مقَدِّمةِ السُّورةِ دلائِلَ ظاهِرةً على التَّوحيدِ والقُدرةِ والحِكمةِ بحيثُ يَبعُدُ مِن العاقِلِ ألَّا يطَّلِعَ عليها، ولا يَقِفَ على حقائِقِها؛ أتْبَعَها بما هو السَّبَبُ الأصليُّ في الغَفلةِ عنها، وهو: حُبُّ الدُّنيا، والاشتِغالُ بالمالِ والجاهِ، والثَّروةِ والقُدرةِ؛ فإنَّه لا سَبَبَ لعَمى القَلبِ في الحقيقةِ إلَّا ذلك[٣].

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾.

أي: ما هكذا يَنبغي أن يكونَ الإنسانُ؛ أن يُنعِمَ عليه رَبُّه بخَلْقِه وتعليمِه، ثمَّ يَكفُرَ به، ويَتجاوَزَ حَدَّه، ويَستكبِرَ عليه[٤]!

---

(١) هذا مِن قولِ الرَّاوي عن أبي هريرةَ، يقولُ: لا نعلَمُ هل الإخبارُ عن إنزالِ الآيةِ داخلٌ فيما رآه أبو هريرةَ وحضَره، أو شيءٌ بلَغه عن غيرِه ممَّن حضَره ورآه. يُنظر: ((الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم)) للهرري (٢٥/ ٤٠١).

(٢) رواه مسلم (٢٧٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٠). =

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾.

أي: إنَّ مِن شأنِ الإنسانِ وطَبْعِه أن يَطغى إذا كَثُرَ مالُه، ورأى نَفْسَه غَنِيًّا بما أنعمَ اللهُ عليه، مُستَغنيًا عن غَيْرِه بذلك[1].

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨﴾.

أي: إنَّ إلى رَبِّك -يا محمَّدُ- المَرجِعَ والمصيرَ، فيُجازي ذلك الطَّاغيَ على أعمالِه[2].

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠﴾.

أي: أرأَيْتَ -يا محمَّدُ- هذا الطَّاغيَ أبا جَهلٍ الَّذي ينهى عَبدًا للهِ -وهو محمَّدٌ

= قال الألوسي: (﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لمَن كفَر مِن جنسِ الإنسانِ بنعمةِ الله تعالى عليه بطغيانه، وإن لم يُذكَرْ لدلالةِ الكلامِ عليه، وذلك لأنَّ مفتتحَ السُّورةِ إلى هذا المقطعِ يدلُّ على عظيمِ منَّتِه تعالى على الإنسانِ، فإذا قيل: ﴿كَلَّآ﴾ كان ردعًا للإنسانِ الذي قابَل تلك النِّعمَ الجلائلَ بالكفرانِ وبالطُّغيانِ، وكذلك التعليلُ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ أي: ليتجاوزُ الحدَّ في المعصيةِ واتِّباعِ هوَى النَّفسِ، ويستكبرُ على ربِّه عزَّ وجلَّ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٠٣).

وقال ابنُ القيِّم: (الإنسانُ هو الإنسانُ مِن حيثُ هو، من غيرِ اختصاصٍ بواحدٍ بعَينِه). ((الروح)) (ص: ١٢٦).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (كَلَّا: هي ردٌّ على أقوالِ أبي جَهلٍ وأفعالِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٢).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٤، ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٦).

قال الألوسي: (الخطابُ قيل: للإنسانِ... وجُوِّز أنْ يكونَ الخطابُ لسيدِ المخاطَبينَ صلَّى الله عليه وسلَّم... ولعلَّه الأظهرُ نظرًا إلى الخطاباتِ قبلَه). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٠٤).

عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- إذا صلَّى لله سُبحانَه عِندَ الكَعْبةِ[(١)]؟

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١﴾.

أي: ماذا لو كان هذا العَبدُ المَنهيُّ عن الصَّلاةِ على استقامةٍ وسَدادٍ في صلاتِه لِرَبِّه[(٢)]؟

﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾.

أي: أو كان آمِرًا بتقوى اللهِ والحَذَرِ مِن سَخَطِه وعَذابِه، وأنت تَزجُرُه وتتوعَّدُه إن صلَّى، فكيف يَجدُرُ ذلك بمَن تلك صِفتُه[(٣)]؟!

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣﴾.

أي: أرأَيتَ- يا محمَّدُ- هذا الَّذي كذَّبَ بالحَقِّ، وأعرَضَ عن اتِّباعِه[(٤)]؟

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾.

أي: ألم يعلَمْ بأنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عليه وعلى أفعالِه وأقوالِه، وسيُجازيه على ذلك[(٥)]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨).

قال ابنُ عطيَّة: (لم يختَلِفْ أحدٌ مِن المفسِّرينَ في أنَّ النَّاهيَ: أبو جَهلٍ، وأنَّ العبدَ المصَلِّيَ: محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٣).

﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يقولُ هذا الرَّجُلُ! وأُقسِمُ لَئِنْ لم يتوقَّفْ عن نهيِ محمَّدٍ عن الصَّلاةِ لَنأخُذَنَّ بمُقَدَّمِ رأسِه؛ إذلالًا له(١).

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ [الرحمن: ٤١].

﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾.

أي: لَنأخُذَنَّ بتلك النَّاصيةِ الكاذِبةِ في أقوالِها، الخاطِئةِ في أفعالِها(٢).

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين - جزء عم)) (ص: ٢٦٤).
وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ السَّفعَ: هو الأخذُ بعُنفٍ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة.
وممَّن قال بنَحْوِ هذا القَولِ مِن السَّلَف: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٦٦).
قال ابنُ جرير: (﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ يقولُ: لنأخُذَنَّ بمقَدَّمِ رأسِه، فلَنُضِيمَنَّه ولَنُذِلَّنَّه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٦).
وقال الرازي: (هذا السَّفْعُ يحتملُ أنْ يكونَ المرادُ منه إلى النَّارِ في الآخرةِ، وأنْ يكونَ المرادُ منه في الدُّنيا). ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٤).
ممن اختار الأوَّلَ -أي: لَنَأْخُذَنَّ بناصِيَتِه ولَنَجُرَّنَّه إلى النَّار: ابنُ أبي زَمَنِين، والسَّمعاني، والبغوي، والرَّسْعَني، والعُلَيمي، والشَّوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٥٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٨٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧٢).
وقال ابنُ جُزَي: (ويظهَرُ لي أنَّ هذا الوعيدَ نفذ عليه يومَ بدرٍ حينَ قُتِل وأُخِذ بناصيتِه فجُرَّ إلى القَليب). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٨).
وقيل: سَفْعُ النَّاصيةِ هو وَسْمُها بالسَّوادِ يومَ القيامةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠).

أي: فلْيَدْعُ أبو جَهلٍ أهلَ مَجلِسِه مِن قَومِه وعَشيرتِه؛ لِيَستنصِرَ بهم[١].

عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصلِّي عندَ المقامِ، فمرَّ به أبو جهلِ بنِ هشامٍ، فقال: يا محمَّدُ ألم أنهَكَ عن هذا؟ وتوعَّدَه، فأغلَظ له رسولُ اللهِ وانتهرَه، فقال: يا محمَّدُ بأيِّ شيءٍ تُهدِّدُني؟ أما واللهِ إنِّي لأكثرُ هذا الوادي ناديًا، فأنزَل اللهُ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ * سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾، قال ابنُ عباسٍ: لو دعا ناديَه أخذتْه زبانيةُ العذابِ من ساعتِه))[٢].

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨﴾.

أي: ونحن سنَدعو ملائكةَ العَذابِ الغِلاظَ الشِّدادَ إنْ دعا أبو جَهلٍ قَومَه[٣].

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ١٩﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يزعُمُ أبو جَهلٍ! فلا تُطِعْه في نَهيِه لك عن الصَّلاةِ، ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٤٩)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٦٨٤)، وأحمد (٣٠٤٤) باختلافٍ يسيرٍ، وابن جرير في ((التفسير)) (٢٤/ ٥٢٥) واللفظُ له

قال الترمذي: (حسنٌ غريبٌ صحيحٌ). وقال الحاكم في ((المستدرك)) (٣٨٥٥): (صحيحُ الإسنادِ). وقال الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٢٧٥): (إسنادُه صحيحٌ على شرطِ مسلمٍ). وقال شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٥/ ١٦٧): (إسنادُه صحيحٌ).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٥).

وحُذِفَت الواوُ مِن ﴿سَنَدْعُ﴾ لَفظًا لالتِقاءِ السَّاكِنَينِ، وحُذِفَت في خَطِّ المُصحَفِ إتباعًا لِلَّفظِ، اختِصارًا وتخفيفًا. أو مشاكلةً لـ﴿فَلْيَدْعُ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤١٠).

تُبالِ به، ولا تَخْشَهْ، واسجُدْ لرَبِّك في صَلاتِك واقتَرِبْ منه[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أقرَبُ ما يكونُ العَبدُ مِن رَبِّه وهو ساجِدٌ؛ فأكثِروا الدُّعاءَ))[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ وعيدٌ للطَّاغي، وتحقيرٌ لغِنًى ينقَطِعُ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ أنَّ المالَ أحيانًا يُفْسِدُ صاحِبَه، ويَحمِلُه على أنْ يَستَكْبِرَ على الخَلْقِ، ويَرُدَّ الحَقَّ[٤]!

٣- قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ عِلَّةُ هذا الخُلُقِ أنَّ الاستِغناءَ تُحَدِّثُ صاحِبَه نَفْسُه بأنَّه غيرُ مُحتاجٍ إلى غَيرِه، وأنَّ غَيرَه محتاجٌ، فيرى نَفْسَه أعظَمَ مِن أهلِ الحاجةِ، ولا يزالُ ذلك التَّوَهُّمُ يَرْبو في نَفْسِه حتَّى يَصيرَ خُلُقًا،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٠، ٥٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٧٢، ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٦).

قال البقاعي: (﴿كَلَّآ﴾ أي: لا يَقدِرُ على دُعاءِ ناديه، ولا يَنتهي عن أذاه للمُطيعِ بالتَّهديدِ؛ فلْيَرتَدِعْ عن كُلٍّ مِن ذلك). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ١٧٢).

وقال السعدي: (هذا عامٌّ لكُلِّ ناهٍ عن الخَيرِ، ومَنهيٍّ عنه، وإن كانت نازِلةً في شأنِ أبي جَهلٍ حينَ نهى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الصَّلاةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠، ٩٣١).

وقال ابنُ عثيمين: (المرادُ بالسُّجودِ هنا الصَّلاةُ، لكِنْ عَبَّر بالسُّجودِ عن الصَّلاةِ؛ لأنَّ السُّجودَ ركنٌ في الصَّلاةِ لا تَصِحُّ إلَّا به؛ فلهذا عَبَّرَ به عنها). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٦).

(٢) رواه مسلم (٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٥٤٦).

حيث لا وازِعَ يَزَعُه مِن دينٍ أو تفكيرٍ صَحيحٍ؛ فَيطغى على النَّاسِ لشُعوره بأنَّه لا يَخافُ بأسَهم؛ لأنَّ له ما يَدفَعُ به الاعتِداءَ مِن لَأْمةٍ (أي: دِرعٍ) سِلاحٍ، وخَدَمٍ وأعوانٍ، ومُنتَفِعينَ بمالِه مِن شُرَكاءَ وعُمَّالٍ وأُجَراءَ، فهو في عِزَّةٍ عندَ نَفْسِه، فقد بَيَّنَت هذه الآيةُ حَقيقةً نَفسيَّةً عَظيمةً مِن الأخلاقِ وعِلمِ النَّفسِ، ونَبَّهَت على الحَذَرِ مِن تَغَلْغُلِها في النَّفسِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ عِظةٌ للنَّاسِ، وتهديدٌ لِمَن يمنَعُ غَيرَه عن الطَّاعةِ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾، وقولُه: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾، وقولُه: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، وقولُه: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، وقولُه سُبحانَه: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقَولُه: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] هذا شَأْنُ الإنسانِ مِن حيثُ ذاتُه ونفْسُه، وأمَّا خروجُه عن هذه الصِّفاتِ فهو بفَضْلِ ربِّه وتوفيقِه له ومِنَّتِه عليه، لا مِن ذاتِه؛ فليس له مِن ذاتِه إلَّا هذه الصِّفاتُ، وما به مِن نعمةٍ فمِن اللهِ وَحْدَه(٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ أنَّ هذا هو الطَّبعُ الغالِبُ في الإنسانِ؛ متى استغنى عن شَيءٍ عَمِيَ عن مَواضِعِ افتِقارِه، فتغَيَّرت أحوالُه معه، وتجاوَزَ فيه ما ينبغي له الوُقوفُ عندَه، ((ولا يَمْلأُ جَوْفَ ابنِ آدَمَ إلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٤، ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٦).

التُّرابُ!))[(١)]، ومَن كان مفتَقِرًا إلى شَيءٍ كان مُنطاعًا له، كما في حديثِ ((آخِرُ أهلِ النَّارِ خُروجًا منها))[(٢)]، يُقسِمُ لرَبِّه أنَّه لا يَسألُ غَيرَ ما طَلَبه، فإذا أُعطِيَه واستغنى به سأل غَيرَه حتَّى يَدخُلَ دارَ القَرارِ[(٣)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ بيانُ حِكمةِ تَضييقِه تعالى للرِّزقِ على مَن ضَيَّقَه عليه، وأنَّ مِن حِكَمِ ذلك أنَّ بَسْطَ الرِّزقِ للإنسانِ قد يحمِلُه على البَغْيِ والطُّغيانِ، وكقَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾[(٤)] [الشورى: ٢٧].

٤- قَولُه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ فيه مِن لُطفِ التَّعبيرِ قَولُه: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ أي: أنَّ الطُّغيانَ الَّذي وقَعَ فيه؛ عن وَهمٍ تراءى له أنَّه استَغنى سواءٌ بمالِه أو بقُوَّته؛ لأنَّ حقيقةَ المالِ ولو كان جِبالًا ليس له منه إلَّا ما أكَلَ ولَبِسَ وأنفَقَ، وهل يستطيعُ أن يأكُلَ لُقمةً واحِدةً إلَّا بنِعمةِ العافيةِ؟! فإذا مَرِضَ فماذا ينفَعُه مالُه؟! وإذا أكَلَها فهل يستفيدُ منها إلَّا بنِعمةٍ مِنَ اللهِ عليه؟! ومِن هذه الآيةِ أخَذَ بعضُ النَّاسِ أنَّ الغَنيَّ الشَّاكِرَ أعظَمُ من الفقيرِ الصَّابرِ؛ لأنَّ

(١) أخرجه البخاري (٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٤٩) مطوَّلًا مِن حديثِ عبدِالله بنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٦) مطوَّلًا من حديثِ عبدِالله بنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٦٢).

ثُمَّ قال البِقاعيُّ: (ولعَلَّه نَبَّهَ بهذا على أنَّ هذه الأُمَّةَ المُحتاجةَ ستُفتَحُ لها خَزائنُ الأرضِ، فيُطغيها الغِنى كما أَطْغى مَن قبلَها وإن كانوا هم يُنكِرونَ ذلك كما قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم...، «واللهِ ما الفَقْرَ أَخْشى عليكم، ولكن أَخْشى أن تُبسَطَ عليكم الدُّنْيا كما بُسِطَتْ على مَن كان قَبْلَكم، فتَنافَسوها كما تَنافَسوها، فتُهلِكَكم كما أَهلَكَتْهم» [البخاري «٣١٥٨»، ومسلم «٢٩٦١»] أو كما قال صلَّى الله عليه وسلَّم).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٠).

الغِنى مُوجِبٌ للطُّغيانِ، وقد قال بعضُ النَّاسِ: الصَّبرُ على العافيةِ أشَدُّ مِنَ الصَّبرِ على الحاجةِ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ لم يَقُلْ: «إنِ استَغْنى»، بل جَعَلَ الطُّغيانَ ناشئًا عن رُؤيةِ غِنَى نفْسِه، ولم يَذْكُرْ هذه الرُّؤيةَ في سورةِ (اللَّيلِ)، بل قال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [اللَّيل: ٨ - ١٠]، وهذا -واللهُ أعلمُ- لأنَّه ذَكَرَ موجِبَ طُغيانِه، وهو رؤيةُ غِنَى نفْسِه، وذَكَرَ في سورةِ (اللَّيلِ) مُوجِبَ هلاكِه، وعدَمِ تيسيرِه لليُسْرى، وهو استِغناؤه عن ربِّه بتَرْكِ طاعتِه وعُبوديَّتِه؛ فإنَّه لوِ افتقرَ إليه لَتَقَرَّبَ إليه بما أَمَرَه مِن طاعتِه، فِعْلَ المملوكِ الَّذي لا غِنَى له عن مَولاه طَرْفةَ عينٍ، ولا يَجِدُ بُدًّا مِنِ امتثالِ أوامرِه؛ ولذلك ذَكَر معه بُخْلَه، وهو تَرْكُه إعطاءَ ما وَجَبَ عليه مِنَ الأقوالِ والأعمالِ وأداءِ المالِ، وجَمَعَ إلى ذلك تكذيبَه بالحُسْنى، وهي الَّتي وَعَدَ بها أهلَ الإحسانِ بقولِه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]؛ فالاستغناءُ عنِ اللهِ سببُ هلاكِ العبدِ وتيسيرِه لكُلِّ عُسْرى، ورؤيتُه غِنَى نفْسِه سَبَبُ طُغيانِه، وكِلاهما مُنافٍ للفَقرِ والعُبوديَّةِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ رَبطٌ لطيفٌ بأوَّلِ السُّورةِ؛ إذ كان خَلْقُ الإنسانِ من عَلَقٍ -وهي أحوَجُ ما يكونُ إلى لُطفِ اللهِ وعِنايتِه ورَحمتِه في رَحِمِ أمِّه-، فإذا بها مُضغةٌ ثمَّ عِظامٌ، ثمَّ تُكسَى لحمًا، ثمَّ تنشَأُ خَلْقًا آخَرَ، ثمَّ يأتي إلى الدُّنيا طِفلًا رَضيعًا لا يملِكُ إلَّا البُكاءَ، فيُجري اللهُ له نهرَينِ من لَبَنِ أمِّه، ثمَّ يُنبِتُ له الأسنانَ، ويَفتِقُ له الأمعاءَ، ثمَّ يَشِبُّ ويَصيرُ غُلامًا يافِعًا، فإذا ما ابتلاه رَبُّه بشَيءٍ مِن المالِ أو العافيةِ فإذا هو يَنسى كلَّ ما

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٤).

تقَدَّمَ! ويَنسى حتَّى رَبَّه، ويَطغى ويَتجاوَزُ حَدَّه حتَّى مع اللهِ خالِقِه ورازِقِه! كما رَدَّ عليه تعالى بقَولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(١) [يس: ٧٧ - ٧٩].

٧- في قولِه تعالى: ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ إيذانٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ أبا جَهْلٍ سيُكَذِّبُه حينَ يَدْعوه إلى الإسلامِ وسيَتولَّى(٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ إثباتُ صفةِ الرُّؤيةِ للهِ عزَّ وجلَّ(٣).

٩- هناك فرقٌ بين الخاطِئِ والمُخْطِئِ؛ فالخاطِئُ -مثلًا- مَن قَتَلَ متعمِّدًا، أمَّا مَن قَتَلَ غيرَ متعمِّدٍ فهو مُخطِئٌ؛ ولذلك فإنَّ الخاطِئَ مُعَذَّبٌ، كما في قَولِه تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾، والمُخْطِئَ غيرُ مُعَذَّبٍ(٤).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ مُعجِزةٌ خاصَّةٌ مِن مُعجِزاتِ القُرآنِ؛ فإنَّه تحدَّى أبا جَهلٍ بهذا، وقد سَمِعَ أبو جَهلٍ القُرآنَ، وسَمِعَه أنصارُه، فلم يُقدِمْ أحدٌ منهم على السَّطْوِ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع أنَّ الكلامَ يُلهِبُ حَميَّتَه(٥)!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ أنَّه ((أقرَبُ ما يكونُ العَبدُ مِن رَبِّه وهو ساجِدٌ))(٦).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٩).
(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٢).
(٦) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٩٥). =

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لظُهورِ أنَّه في غرَضٍ لا اتِّصالَ له بالكلامِ الَّذي قبْلَه، وحرْفُ ﴿كَلَّآ﴾ ردْعٌ وإبطالٌ، وليس في الجُملةِ الَّتي قبْلَه ما يَحتمِلُ الإبطالَ والرَّدعَ؛ فوُجودُ ﴿كَلَّآ﴾ في أوَّلِ الجُملةِ دَليلٌ على أنَّ المقصودَ بالرَّدعِ هو ما تَضمَّنَه قولُه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾، وحقُّ (كلَّا) أنْ تقَعَ بعْدَ كَلامٍ لإبطالِه والزَّجرِ عن مَضمونِه، فوُقوعُها هنا في أوَّلِ الكلامِ يَقْتضي أنَّ معْنى الكلامِ الآتي بعْدَها حَقيقٌ بالإبطالِ، وبرَدْعِ قائلِه، فابتُدِئَ الكلامُ بحرْفِ الرَّدعِ للإبطالِ، وللمُبالَغةِ في الزَّجرِ[1].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ مَوقعُ هذه الجُملةِ موقعُ المُقدِّمةِ لِما يَرِدُ بعْدَه مِن قولِه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ إلى قولِه: ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ [العلق: ٩-١٩]؛ لأنَّ مَضمونَه كَلمةٌ شاملةٌ لمَضمونِ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ إلى قولِه: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾[2] [العلق: ١٧].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ بَيانٌ للمَردوعِ، والمَردوعِ عنه[3].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ للجِنسِ، أي: مِن طَبْعِ الإنسانِ أنْ يَطْغى إذا أحسَّ مِن نفْسِه الاستغناءَ، واللَّامُ مُفيدةٌ الاستغراقَ العُرفيَّ، أي: أغلَبُ النَّاسِ في ذلك الزَّمانِ إلَّا مَن عَصَمَه خُلقُه أو دِينُه[4].

= والحديث أخرجه مسلمٌ (٤٨٢) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٤).

- وتَأكيدُ الخبَرِ بحرْفِ التَّأكيدِ ولامِ الابتداءِ؛ لقَصْدِ زِيادةِ تَحقيقِه لغَرابتِه، حتَّى كأنَّه ممَّا يُتوقَّعُ أنْ يَشُكَّ السَّامعُ فيه(١).

- قولُه: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ مَفعولٌ له، أي: يَطْغى لأنْ رَأى نفْسَهُ مُستغنيًا، وتَعليلُ طُغيانِه برُؤيتِه لا بنَفْسِ الاستغناءِ؛ للإيذانِ بأنَّ مَدارَ طُغيانِه زَعْمُه الفاسدُ(٢).

- والاستِغناءُ: شِدَّةُ الغِنى؛ فالسِّينُ والتَّاءُ فيه للمُبالَغةِ في حُصولِ الفِعلِ، مِثلُ: استجابَ، واستقَرَّ(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ مُعترِضةٌ بيْن المُقدِّمةِ والمَقصدِ، والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: مَرجِعُ الطَّاغي إلى اللهِ، وهذا مَوعظةٌ وتَهديدٌ على سَبيلِ التَّعريضِ لِمَن يَسمَعُه مِن الطُّغاةِ، وتَعليمٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتَثبيتٌ له، أي: لا يَحزُنْك طُغيانُ الطَّاغي؛ فإنَّ مَرجِعَه إلَيَّ، ومَرجعَ الطَّاغي إلى العَذابِ؛ قال تبارك تعالَى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٢١، ٢٢]، وهي مَوعظةٌ للطَّاغي بأنَّ غِناهُ لا يَدفَعُ عنه الموتَ، والموتُ: رُجوعٌ إلى اللهِ. وتَأكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ) مُراعًى فيه المعْنى التَّعريضيُّ؛ لأنَّ مُعظَمَ الطُّغاةِ يَنسَون هذه الحقيقةَ بحيث يُنزَّلون مَنزِلةَ مَن يُنكِرُها(٤).

وقيل: هو كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لخطابِ الإنسانِ تَهديدًا له، وتَحذيرًا له من عاقِبةِ الطُّغيانِ، وتَحقيرًا لِما هو فيه مِن حيث مآلُه إلى البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤٦).

على طُغيانِه، والالْتفاتُ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ للتَّشديدِ في التَّهديدِ(١).

- وتَقديمُ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾؛ للاهتمامِ بذلك(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾

- جُملةُ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ إلى آخِرِها، هي المَقصودُ مِن الرَّدعِ الَّذي أفادَهُ حرْفُ ﴿كَلَّآ﴾ في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: ٦]؛ فهذه الجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا مُتَّصلًا باستِئنافِ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾(٣).

- قولُه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ تَقبيحٌ وتَشنيعٌ لحالِه، وتَعجيبٌ منها(٤).

- وكَلمةُ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ تَعجيبٌ مِن حالٍ، تُقالُ لِلَّذي يُعْلَمُ أنَّه رَأى حالًا عَجيبةً، والرُّؤيةُ عِلميَّةٌ، أي: أعلِمْتَ الَّذي يَنْهَى عبْدًا؟ والمُستفهَمُ عنه هو ذلك العِلمُ، والمفعولُ الثَّاني لـ (رأيت) مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه في آخِرِ الجُمَلِ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ؛ لأنَّ الحالةَ العَجيبةَ مِن شَأنِها أنْ يُستفهَمَ عن وُقوعِها استِفهامَ تَحقيقٍ وتَثبيتٍ لنَبَئِها؛ إذ لا يَكادُ يُصدَّقُ به. ويَجوزُ أنْ تكونَ الرُّؤيةُ بَصريَّةً؛ لأنَّها حِكايةُ أمْرٍ وَقَعَ في الخارجِ، والخِطابُ في ﴿أَرَءَيْتَ﴾ لغيرِ مُعيَّنٍ(٥). وقيل: قولُه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ هو إيذانٌ بأنَّ حالَه مِنَ الشَّناعةِ والغَرابةِ بحيثُ يجِبُ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٦، ٤٤٧).

يَراها كلُّ مَن يَتأتَّى مِنْه الرُّؤيةُ، ويَقْضي منها العجَبَ(١).

- و﴿ٱلَّذِى يَنۡهَىٰ﴾ هو أبو جَهْلٌ؛ إذ قال قولًا يُريدُ به نهْيَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يُصلِّيَ في المسجدِ الحرام، فقال في ناديه: (لئنْ رَأَيتُ محمَّدًا يُصلِّي في الكعبةِ لَأطأَنَّ على عُنقِه)؛ فإنَّه أراد بقولِه ذلك أنْ يَبلُغَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فعُبِّرَ بالفِعلِ ﴿يَنۡهَىٰ﴾؛ لأنَّه تَهديدٌ يَتضمَّنُ النَّهيَ عن أنْ يُصلِّيَ في المسجدِ الحرامِ، ولم يُرْوَ أنَّه نَهاهُ مُشافَهةً(٢).

- والمرادُ بالعبْدِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإطلاقُ العبْدِ هنا على معْنى الواحدِ مِن عِبادِ اللهِ، أي: شَخْصٌ، وعُدِلَ عن التَّعبيرِ عنه بضَميرِ الخِطابِ؛ لأنَّ التَّعجيبَ مِن نفْسِ النَّهيِ عن الصَّلاةِ، بقَطْعِ النَّظَرِ عن خُصوصيَّةِ المُصلِّي، فشُمولُه لنَهْيِه عن صَلاةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أوقَعُ(٣).

- وأيضًا لَفظُ العَبدِ وتَنكيرُه؛ لتَفخيمِه عليهِ السَّلامُ، والدَّلالةِ على كَمالِ عُبوديَّةِ المنهيِّ، وللمُبالَغةِ في تَقبيحِ النَّهيِ واستِعظامِه، وتَأكيدِ التَّعجُّبِ منه(٤).

- وكذلِك صِيغةُ المضارِعِ في قولِه: ﴿يَنۡهَىٰ﴾؛ لاستِحضارِ الحالةِ العَجيبةِ، وإلَّا فإنَّ نَهْيَه قدْ مضَى. والمَنهيُّ عنه مَحذوفٌ، يُغْني عنه تَعليقُ الظَّرفِ بفِعلِ ﴿يَنۡهَىٰ﴾، أي: يَنْهاه عن صَلاتِه(٥).

- وقولُه: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ تَعجيبٌ آخَرُ مِن حالٍ مَفروضٍ وُقوعُه، أي: أتَظُنُّه يَنْهى أيضًا عبْدًا مُتمكِّنًا مِن الهُدى فتَعجَبَ مِن نَهْيِه، والتَّقديرُ: أرأَيْتَه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٧).

إنْ كان العبدُ على الهُدى، أيَنْهاهُ عن الهُدى؟! أو إنْ كان العبْدُ آمِرًا بالتَّقوى، أيَنْهاهُ عن ذلك؟! والمعْنى: أنَّ ذلك هو الظَّنُّ به، فيُعَجِّبُ المخاطَبَ مِن ذلك؛ لأنَّ مَن يَنْهى عن الصَّلاةِ وهي قُربةٌ إلى اللهِ، فقدْ نَهى عن الهُدى، ويُوشِكُ أنْ يَنْهى عن أنْ يَأمُرَ أحدٌ بالتَّقوى[(١)].

- وفُصِلَت جُملةُ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ لوُقوعِها مَوقعَ التَّكريرِ؛ لأنَّ فيها تَكريرَ التَّعجيبِ مِن أحوالٍ عَديدةٍ لشَخصٍ واحدٍ[(٢)].

- وأُتِيَ بحَرفِ الشَّرطِ (إنْ) الَّذي الغالبُ فيه عدَمُ الجَزمِ بوُقوعِ فِعلِ الشَّرطِ؛ مُجاراةً لحالِ الَّذي يَنْهى عَبدًا[(٣)].

- ونَظْمُ الأمرِ والتَّكذيبِ والتَّوَلِّي في سِلكِ الشَّرطِ المتردِّدِ بيْنَ الوُقوعِ وعدَمِه ليس باعتِبارِ نفْسِ الأفعالِ المذكورةِ مِن حيثُ صُدورُها عن الفاعلِ؛ فإنَّ ذلك ليس في حيِّزِ التَّردُّدِ أصلًا، بلْ باعتبارِ أوصافِها الَّتي هي كَونُها أمْرًا بالتَّقوى وتَكذيبًا وتَوَلِّيًا[(٤)].

- قولُه: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ الرُّؤيةُ هنا عِلميَّةٌ، وحُذِفَ مَفعولَا فِعلِ الرُّؤيةِ اختصارًا؛ لدَلالةِ ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ [العلق: ٩] على المَفعولِ الأوَّلِ، ودَلالةِ قولِه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، أو قولِه: ﴿يَنْهَىٰ﴾ على المفعولِ الثَّاني في الجُملةِ قبْلَها، والتَّقديرُ: أرأَيْتَه[(٥)].

- و﴿عَلَى﴾ للاستِعلاءِ المُفيدِ شِدَّةَ التَّمكُّنِ مِن الهُدى بحيثُ يُشبِهُ تَمكُّنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣١).

المُسْتعلي على المكانِ[١].

- وجوابُ ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ * أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ محذوفٌ، تَقديرُه: أيَنْهاهُ أيضًا[٢]؟!

وقيل: جَوابُ الشَّرطِ الَّذي في حيِّزِ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثَّانيةِ والثَّالثةِ في قولِه: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ و﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ مَحذوفٌ، تَقديرُه هنا: إنْ كان على الهُدى أو أمَرَ بالتَّقوى، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾، وإنَّما حُذِفَ؛ لدَلالةِ ذِكرِه في جَوابِ الشَّرطِ الثَّاني، وتَقديرُ جَوابِ الشَّرطِ في الثَّالثةِ ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أفلَمْ يَعلَمْ بأنَّ اللهَ يَرى، أي: على تَقديرِ الفاءِ[٣].

- قولُه: ﴿إِن كَانَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائدًا على المصلِّي، وإنَّما ضُمَّ إلى فِعلِ الصَّلاةِ الأمرُ بالتَّقْوى في قولِه: ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ * أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾؛ لأنَّ أبا جَهلٍ كان يشُقُّ عليه مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمْرانِ: الصَّلاةُ، والدُّعاءُ إلى اللهِ تعالَى، ولأنَّه كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يُوجَدُ إلَّا في أمْرَينِ: إصلاحُ نفْسِه بفِعلِ الصَّلاةِ، وإصلاحُ غيرِه بالأمْرِ بالتَّقوى[٤].

- ولعلَّه ذكَرَ الأمرَ بالتَّقوى في التَّعجُّبِ والتَّوبيخِ ولم يَتعرَّضْ له في النَّهيِ؛ لأنَّ النَّهيَ كان عن الصَّلاةِ والأمرِ بالتَّقوَى، فاقتَصرَ على ذِكرِ الصَّلاةِ؛ لأنَّه دَعوةٌ بالفِعلِ، أو لأنَّ نهْيَ العبدِ إذا صلَّى يَحتمِلُ أنْ يكونَ لها ولغَيرِها، وعامَّةُ أحوالِها مَحصورةٌ في تَكميلِ نفْسِه بالعِبادةِ وغيرِه بالدَّعوةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦).

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ للتَّهديدِ والوَعيدِ على التَّكذيبِ والتَّولِّي[١]؟!

- والهمزةُ للاستفهامِ؛ للتَّقريرِ والتَّعجُّبِ[٢].

- والمفعولُ الأوَّلُ لـ (رَأيْتَ) مَحذوفٌ، وهو ضَميرٌ عائدٌ إلى ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ [العلق: ٩]، والتَّقديرُ: أرأَيْتَه إنْ كذَّبَ... إلى آخِرِه[٣].

- وجَوابُ ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ مُقدَّرٌ يدُلُّ عليه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾، والتَّقديرُ: إنْ كذَّبَ وتَولَّى فاللهُ عالِمٌ به؛ كِنايةً عن تَوعُّدِه، وجُملةُ ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ مُستأنَفةٌ لإنكارِ جَهْلِ المُكذِّبِ بأنَّ اللهَ سيُعاقِبُه، والشَّرطُ وجَوابُه سادَّانِ مَسدَّ المَفعولِ الثَّاني[٤].

- وكذلِك حُذِفَ مَفعولُ ﴿كَذَّبَ﴾؛ لدَلالةِ ما قبْلَه عليه، والتَّقديرُ: إنْ كذَّبَه، أي: العبدَ الَّذي صلَّى[٥].

- وإنَّما أُفرِدَ التَّكذيبُ والتَّوَلِّي بشَرطيَّةٍ مُستقِلَّةٍ مَقرونةٍ بالجَوابِ مُصدَّرةٍ باستخبارٍ مُستأنَفٍ، ولم يُنظَمَا في سِلكِ الشَّرطِ الأوَّلِ بعَطْفِهما على (كانَ)؛ للإيذانِ باستقلالِهما بالوُقوعِ في نفْسِ الأمرِ، واستتباعِ الوعيدِ الَّذي يَنطِقُ بهِ الجَوابُ، وأما قبلَها فأمرُ الشَّرطِ فيه ليس إلَّا لتوسيعِ الدَّائرةِ، وهو السِّرُّ في تجريدِه عن الجوابِ، والإحالةِ به على جوابِ الشَّرطيةِ بعدَه[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٨).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٨، ٤٤٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٠٦).

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾، أي: يطَّلِعُ على أحوالِه مِن هُداهُ وضَلالِه، فيُجازِيه على حسَبِ ذلك، -وذلك على أنَّ الضميرَ في قولِه: ﴿إِن كَانَ﴾ يعودُ للنَّاهي-، وكُنِّيَ بأنَّ اللهَ يَرى عن الوَعيدِ بالعِقابِ، ففيه وَعْدٌ بأنَّ اللهَ ينتصِفُ له مِنْه[١].

وقيل: المعْنى: أرأيتَ الَّذي يَنْهى عبْدًا إذا صلَّى، وهو على الهُدى وأمَرَ بالتَّقوى، والنَّاهي مُكذِّبٌ مُتوَلٍّ عن الذِّكرِ، أي: فما أعجَبَ هذا! ألَمْ يَعلَمْ أبو جَهلٍ بأنَّ اللهَ تعالَى يَراهُ ويَعلَمُ فِعلَه؟! فهذا تَقريرٌ وتَوبيخٌ[٢]. وذلك على أنَّ الضَّميرَ في ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ يعودُ على المُصلِّي.

- وأيضًا قولُه: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ إكمالُ التَّوبيخِ والوعيدِ بحسَبِ التَّوقيفاتِ الثَّلاثةِ -أي: في قولِه: ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ [العلق:٩، ١١، ١٣]- يَصلُحُ مع كلِّ واحدٍ منها، فجاء بها في نَسَقٍ، ثمَّ جاء بالوعيدِ الكافي بجَميعِها اختصارًا واقتِضابًا، ومع كلِّ تَقريرٍ تَكملةٌ مُقدَّرةٌ تتَّسِعُ العِباراتُ فيها، و﴿أَلَمۡ يَعۡلَم﴾ دالٌّ عليها مُغْنٍ[٣].

- والاستِفهامُ إنكاريٌّ، أي: كان حقُّه أنْ يَعلَمَ ذلك، ويَقِيَ نفْسَه العِقابَ[٤].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَرَىٰ﴾؛ ليَعُمَّ كلَّ مَوجودٍ[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ﴿كَلَّا﴾ رَدعٌ لأبي جَهلٍ وخُسوءٌ له عن نَهْيِه عن عِبادةِ اللهِ تعالى، وأمْرِه بعِبادةِ اللَّاتِ[1]. وأُكِّدَ الرَّدعُ الأوَّلُ ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ -على أنَّ المرادَ بالرَّدعِ أبو جهلٍ على قولٍ- بحَرْفِ الرَّدعِ الثَّاني في آخِرِ الجُملةِ، وهو المَوقعُ الحَقيقُ بحرْفِ الرَّدعِ؛ إذ كان تَقديمُ نَظيرِه في أوَّلِ الجُملةِ؛ لِما دَعا إليه المقامُ مِن التَّشويقِ[2].

- قولُه: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ أُعقِبَ الرَّدعُ بالوعيدِ على فِعلِه إذا لم يَرتدِعْ ويَنتَهِ عنه. واللَّامُ مُوطِّئةٌ للقسَمِ، وجُملةُ ﴿لَنَسْفَعًۢا﴾ جوابُ القسَمِ، وأمَّا جَوابُ الشَّرطِ فمَحذوفٌ دلَّ عليه جَوابُ القسَمِ[3].

- قولُه: ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ السَّفْعُ: القَبْضُ على الشَّيءِ وجَذْبُه بشِدَّةٍ، والنَّاصيةُ: مُقدَّمُ شَعرِ الرَّأسِ، والأخْذُ من النَّاصيةِ أخْذُ مَن لا يُترَكُ له تَمكُّنٌ من الانفلاتِ؛ فهو كِنايةٌ عن أخْذِه إلى العَذابِ، وفيه إذلالٌ؛ لأنَّهم كانوا لا يَقبِضون على شَعرِ رَأسِ أحدٍ إلَّا لضَرْبِه أو جَرِّه، وأُكِّدَ ذلك السَّفعُ بالباءِ المَزيدةِ الدَّاخلةِ على المَفعولِ؛ لتَأكيدِ اللُّصوقِ[4].

- والتَّعريفُ في (النَّاصيةِ) للعهْدِ التَّقديريِّ[5]، أي: بناصيتِه، أي: ناصيةِ الَّذي

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٠).

قال القرطبي: (خَصَّ النَّاصيةَ بالذِّكرِ على عادةِ العَرَبِ فيمَن أرادوا إذلالَه وإهانتَه، أخَذوا بناصيتِه). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٥).

(٥) قال الشهاب الخفاجي: (العهدُ الذِّكري قد يكونُ بإعادةِ المتقدِّمِ بعينِه، وقد يكونُ بإعادةِ لازمِه ووصفِه، وإن لم يَجرِ له صريحُ ذِكرٍ، ويُسمَّى العهدَ التقديريَّ، وذلك بأنْ يُسندَ إلى الموصوفِ =

يَنْهى عبْدًا إذا صلَّى، وعُبِّرَ بالنَّاصيةِ عن جَميعِ الشَّخصِ، واكتُفِيَ بتَعريفِ العهْدِ عن الإضافةِ؛ إذ عُلِمَ أنَّها ناصيةُ النَّاهي[١].

- قولُه: ﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ ﴿ نَاصِيَةٍ ﴾ بدَلٌ مِن (النَّاصيةِ)، وتَنكيرُها لاعتبارِ الجِنسِ، أي: هي مِن جِنسِ ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئةٍ[٢].

- ووُصِفَت النَّاصيةُ بالكذِبِ، والمرادُ: كاذبٌ صاحِبُها، خاطئٌ صاحِبُها؛ وذلك للمُبالَغةِ، وفيه مِن الحُسنِ والجَزالةِ ما ليس في قولِك: (ناصيةِ كاذبٍ خاطئٍ)، والمُبالَغةُ فيه أنَّ الكافرَ بَلَغَ في الكذِبِ والخطَأِ إلى حيثُ إنَّ الكذِبَ والخطَأَ ظاهِرانِ مِن ناصيتِه، على نحْوِ قَولِهم: وَجْهُه نِصفُ الجَمالِ[٣].

٧- قولُه تعالَى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ * سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾

- قولُه: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾ تَفريعٌ على الوَعيدِ؛ فالفاءُ الفَصيحةُ، أي: إنِ استَمرَّ في غُلَوائِه وإنْ أصرَّ على المُعانَدةِ والمُكابَرةِ، فلْيَدْعُ[٤].

- ولامُ الأمرِ في ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾ للتَّعجيزِ؛ لأنَّ أبا جَهْلٍ هدَّدَ النَّبيَّ صلَّى

= ما يَستَدْعي تلك الصِّفةَ، فتُذكرُ الصِّفةُ معرفةً كأنَّها جرَى ذكرُها، كما إذا قيل لك: شتَمك زيدٌ، فتقولُ: أفعَل السَّفيهُ؟ فإنَّ الشَّتمَ تنبيهٌ على سفاهتِه، حتَّى كأنَّه قيل: اعترَض لك سفيهٌ، أو أنْ يكونَ الموصوفُ عَلَمًا في تلك الصِّفةِ حقيقةً أو ادِّعاءً، فمتى ذُكِر عُلِمتْ صِفَتُه). ((حاشيته على تفسير البيضاوي)) (١/ ٣٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٤).

اللهُ عليه وسلَّم بكَثرةِ أنصارِه، وهم أهلُ ناديه، فرَدَّ اللهُ عليه بأنْ أمَرَه بدَعوةِ ناديه؛ فإنَّه إنْ دَعاهم لِيَسْطُوا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، دَعا اللهُ مَلائكةً فأهْلَكوه، وقولُه: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ جَوابُ الأمرِ التَّعجيزيِّ، أي: فإنْ دَعا ناديَه، دَعَونا لهمُ الزَّبانيةَ[١].

- وإضافةُ النَّادي إلى ضَميرِ أبي جَهْلٍ؛ لأنَّه رَئيسُهم، ويَجتمِعون إليه[٢].

- قولُه: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ (كَلَّا) رَدعٌ بعْدَ رَدعٍ، وزَجرٌ إثرَ زَجرٍ؛ فهو تأكيدٌ للرَّدعِ والزجْرِ لأبي جهْلٍ؛ فهو رَدعٌ لإبطالِ ما تَضمَّنَه قولُه: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾، أي: وليس بفاعلٍ، وهذا تأكيدٌ للتَّحدِّي والتَّعجيزِ[٣].

- قولُه: ﴿لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ هذا فَذْلَكةٌ[٤] للكلامِ المُتقدِّمِ مِن قولِه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩، ١٠]، أي: لا تَترُكْ صَلاتَك في المسجدِ الحرامِ، ولا تَخْشَ منه[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٤).

(٤) الفَذْلَكة: من فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحوقَلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحساب، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كُنَّاشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

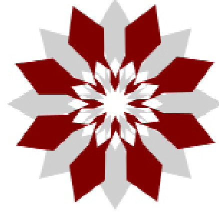
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٣).

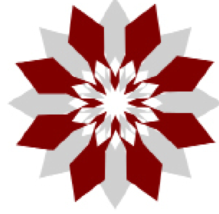
- وأُكِّدَ قولُه: ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ بجُملةِ ﴿وَٱسْجُدْ ﴾؛ اهتمامًا بالصَّلاةِ. وعُطِفَ عليه ﴿وَٱقْتَرِب ﴾؛ للتَّنويهِ بما في الصَّلاةِ مِن مَرضاةِ اللهِ تعالَى، بحيث جَعَل المُصلِّيَ مُقْتربًا مِن اللهِ تعالَى[1].

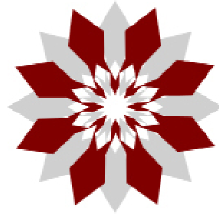
- والاقتِرابُ: افتِعالٌ مِن القُربِ، عُبِّرَ بصِيغةِ الافتعالِ؛ لِما فيها مِن معْنى التَّكلُّفِ والتَّطلُّبِ، أي: اجتهِدْ في القُربِ إلى اللهِ بالصَّلاةِ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

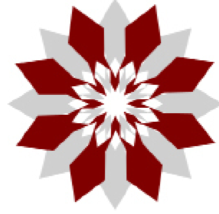


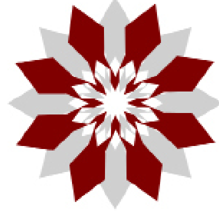


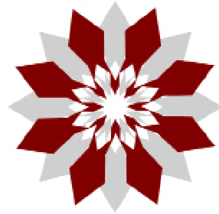


تَفْسِيرُ

سُورَةِ القَدْرِ







سُورةُ القَدْرِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (القَدْرِ)[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ القَدْرِ مُختَلَفٌ فيها[٢]؛ فقيل: إنَّها مَكِّيَّةٌ[٣]، وقيل: مَدَنيَّةٌ[٤].

---

(١) وَجهُ التَّسميةِ بذلك: تَكرارُ لَفظِ (القَدْرِ) فيها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ٥٣).

(٣) ممَّن اختار أنَّها مَكِّيَّةٌ: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، والواحديُّ، والبغوي، والزمخشري، والرازي، والنسفي، وابن جُزَي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٠)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

ونَسَبَ هذا القَولَ لأكثَرِ المفَسِّرينَ وجُمهورِهم: الماوَرْديُّ، والسيوطيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١١)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٥).

(٤) وممَّن اختار أنَّها مَدَنيَّةٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، ومكِّيٌّ، والسمعاني، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٦٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٠٥).

ونَسَبَه لأكثَرِ المفَسِّرينَ: الثعلبيُّ، والخازن، وأبو حيان، والشربيني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٦٤).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

ذِكرُ فَضائلِ لَيلةِ القَدْرِ، والتَّنْويهُ بشَأنِ القُرْآنِ الَّذي أُنزِلَ فيها(١).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- التَّنويهُ بَشأنِ القُرآنِ، والإعلاءُ مِن قَدْرِه.

٢- بيانُ فَضلِ اللَّيلةِ الَّتي نَزَل فيها، وهي لَيلةُ القَدْرِ، والتَّرْغيبُ في إحْيائِها.



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦١).

الآيات (١-٥)

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾.

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُخبِرًا بأنَّه تعالى أنزَلَ القُرآنَ في لَيلةِ القَدْرِ مِن شَهرِ رَمَضانَ، ثمَّ عظَّم شأنَها قائلًا: وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ لَيلةُ القَدْرِ؟!

ثمَّ بيَّن الله سُبحانَه مَظاهِرَ فَضْلِها، فقال: لَيلةُ القَدْرِ في خَيرِها وبرَكتِها وثَوابِ الأعمالِ فيها: أفضَلُ مِن ألْفِ شَهرٍ.

تَهبِطُ الملائكةُ وجبريلُ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ في لَيلةِ القَدْرِ بإذْنِ رَبِّهم مِن كُلِّ أمرٍ، وهي لَيلةٌ ذاتُ سلامةٍ مِن كُلِّ شَرٍّ وأذًى، وذلك مِن بَعْدِ غُروبِ الشَّمسِ إلى طُلوعِ الفَجْرِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾.

أي: إنَّا أنزَلْنا القُرآنَ في لَيلةِ القَدْرِ مِن شَهرِ رَمَضانَ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

قال الرازي: (أجمَعَ المفَسِّرونَ على أنَّ المرادَ: إنَّا أنزَلْنا القُرآنَ في لَيلةِ القَدْرِ). ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٨).

قال ابنُ جُزَي: (وفي كَيْفيَّةِ إنْزالِه في لَيْلةِ القَدْرِ قَوْلانِ:

أحَدُهما: أنَّه ابْتَدَأَ إنْزالُه فيها. =

= والآخَرُ: أنَّه أُنزِلَ القُرآنُ فيها جُمْلةً واحِدةً إلى السَّماءِ، ثُمَّ نَزَلَ به جِبْريلُ إلى الأرضِ بطولِ عِشْرينَ سَنةً). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٩). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١١).
ممَّن اختارَ القَولَ الأوَّلَ -أنَّ المُرادَ: أنَّ ابْتِداءَ نُزولِه على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان في لَيلةِ القَدْرِ-: القاسِميُّ، والسعديُّ، وابنُ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٩).
وممَّن قال بهذا مِن السَّلَفِ: الشَّعْبيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١٢).
وممَّن اختار القَولَ الثَّانيَ -أنَّ المرادَ إنزالُه كامِلًا مِن اللَّوحِ المحفوظِ إلى السَّماءِ الدُّنيا-: ابنُ جريرٍ، والزَّجَّاجُ، والسَّمرقنديُّ، ومكِّيٌّ، والواحِديُّ، والسَّمعانيُّ، والبَغَويُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٣).
وممَّن قالَ بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسَعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، والرَّبيعُ بنُ أنَسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٦٧).
ومِمَّن جمَعَ بيْنَ القَولَينِ: البِقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٦، ٤٥٧).
واخْتُلِفَ في سَبَبِ تَسْميةِ لَيْلةِ القَدْرِ بذلك؛ فقيل: سُمِّيَتْ بذلك لأنَّها اللَّيلةُ الَّتي يُقَدِّرُ اللهُ تَعالى ويَحكُمُ ويَقْضي فيها أمورَ سَنةٍ كامِلةٍ. وممَّن ذهَبَ إلى هذا القَولِ: ابنُ قُتَيْبةَ، وابنُ جَريرٍ، والواحِديُّ، والبَغَويُّ، وابنُ جُزَي، والعُلَيْمي، والشنقيطي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٣).
قال البَغَويُّ: (سُمِّيَتْ لَيْلةَ القَدْرِ؛ لأنَّها لَيْلةُ تَقديرِ الأمورِ والأحكامِ، يُقدِّرُ اللهُ فيها أمْرَ السَّنةِ في عِبادِه وبِلادِه إلى السَّنةِ المُقْبِلةِ). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٣).
قال الرَّازيُّ: (وهذا القَولُ اختيارُ عامَّةِ العُلَماءِ). ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٩).
وقال ابنُ جُزَي: (وسُمِّيَتْ لَيْلةَ القَدْرِ مِن تَقْديرِ الأمورِ فيها، أو مِن القَدْرِ بمَعْنى الشَّرَفِ، ويَترجَّحُ الأوَّلُ بقَوْلِه: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٠).
وممَّن اختارَ أنَّها سُمِّيَتْ بذلك مِن الشَّرَفِ والفَضْلِ كما قال تعالى في سورةِ الدُّخَانِ: ﴿إِنَّآ =

= أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣] أي: لَيْلةِ القَدْرِ والشَّرَفِ عندَ اللهِ تَعالى: ابنُ عاشورٍ، ونَسَبَه ابنُ عَطيَّةَ وغيرُه للزُّهْريِّ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٥).

وقيل: المرادُ: أنَّ لها قَدْرًا عظيمًا، وشَرَفًا كبيرًا، والأعمالُ فيها ذاتُ قَدْرٍ وشرَفٍ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) (٢٢/ ١٧٨).

ومِمَّن جمَعَ بيْنَ المَعْنَيينِ السابقين في الجُملةِ (أي: الشرف والتقدير): السعديُّ، وابنُ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٠).

قال السعديُّ: (سُمِّيَتْ لَيْلةَ القَدْرِ؛ لِعِظَمِ قَدْرِها، وفَضْلِها عندَ اللهِ، ولأنَّه يُقدَّرُ فيها ما يكونُ في العامِ مِنَ الأجَلِ والأرْزاقِ والمَقاديرِ القَدَريَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

وقيلَ غيرُ ذلك في سَبَبِ التَّسْميةِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٨٩).

قال الرَّسْعنيُّ: (اخْتَلَفوا: هلْ هي باقِيةٌ، أو كانت في زَمَنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خاصَّةً؟ على قَولَينِ. والصَّحيحُ: أنَّها باقِيةٌ.

واختَلَفوا: هل هي مَخْصوصةٌ بشَهرِ رَمَضانَ، أو تكونُ في جَميعِ السَّنةِ؟ على قَولَينِ. والصَّحيحُ: اخْتِصاصُها بشَهرِ رمضانَ.

وذهَبَ الأكثَرونَ إلى اخْتِصاصِ الأفْرادِ مِن العَشرِ الأخيرِ منه بها، وعليه تدُلُّ الأحاديثُ الصَّحيحةُ، والآثارُ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٩٠).

وقد اختلفوا في تعيينِ ليلةِ القدرِ، وأرجاها عندَ الجمهورِ ليلةُ سبعٍ وعشرينَ، ومِن أهلِ العلمِ مَن رجَّح أنَّها تتنقَّلُ في ليالي العَشْرِ الأواخِرِ مِن رَمَضانَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين: جزء عم)) (ص: ٢٧٢).

قال ابنُ حجرٍ: (قال العلماءُ: الحِكمةُ في إخفاءِ ليلةِ القدرِ؛ ليحصلَ الاجتهادُ في التماسِها، بخلافِ ما لو عُيِّنتْ لها ليلةٌ لاقتُصِر عليها). ((فتح الباري)) (٤/ ٢٦٦). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥١).

وقال ابن عثيمين: (إنَّما أبهمها اللهُ عزَّ وجلَّ لفائدتينِ عظيمتينِ:

الفائدة الأولى: بيانُ الصَّادقِ في طلبِها مِن المتكاسِلِ...

الفائدة الثانية: كثرةُ ثوابِ المسلمينَ بكثرةِ الأعمالِ؛ لأنَّه كلَّما كثُر العملُ كثُر الثَّوابُ). =

كما قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((تحَرَّوا لَيلةَ القَدْرِ في العَشْرِ الأواخِرِ مِن رَمَضانَ))[١].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عُلِمَ مِنَ السِّياقِ تعظيمُ لَيلةِ القَدْرِ بعَظَمةِ ما أُنزِلَ فيها، وبالتَّعبيرِ عنها بهذا، قال مؤكِّدًا لذلك التَّعظيمِ؛ حَثًّا على الاجتهادِ في إحيائِها؛ لأنَّ للإنسانِ مِنَ الكَسَلِ والتَّداعي إلى البَطالةِ ما يُزَهِّدُه في ذلك[٢]:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢﴾.

= ((تفسير ابن عثيمين: جزء عم)) (ص: ٢٧٣).

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أرأيتَ إنْ عَلِمْتُ أيُّ ليلةٍ ليلةُ القَدرِ، ما أقولُ فيها؟ قال: قُولي: اللَّهُمَّ، إنكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفوَ فاعْفُ عَنِّي)). رواه أحمد (٦/ ١٧١) (٢٥٤٢٣)، والترمذي (٣٥١٣)، وابن ماجة (٣٨٥٠)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٤/ ٤٠٧) (٧٧١٢)، والحاكم (١/ ٧١٢). قال الترمذي: (حسنٌ صحيحٌ)، وقال الحاكم: (صحيحٌ على شرطِ الشيخيْنِ ولم يخرجاه)، وقال النووي في ((الأذكار)) (٢٤٧): (إسنادُه صحيحٌ)، وصححه ابن القيم في ((أعلام الموقعين)) (٤/ ٢٤٩)، والألباني في ((صحيح الترمذي)) (٣٥١٣).

وعن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه قال: ((... أخبَرَنا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّها تطلُعُ يومَئذٍ لا شُعاعَ لها)). رواه مسلم (٧٦٢).

وفي لفظٍ آخَرَ لِمُسلمٍ عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((وأمارَتُها أن تطلُعَ الشَّمسُ في صبيحةِ يَومِها بيضاءَ لا شُعاعَ لها)).

(١) رواه البخاري (٢٠٢٠)، ومسلم (١١٦٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٧٨).

أي: قال اللهُ تعالى مُفَخِّمًا شأنَها، ومُعَظِّمًا لها: وما الَّذي أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ لَيلةُ القَدْرِ(١)؟!

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣﴾.

أي: إنَّ لَيلةَ القَدْرِ -في خَيرِها وبَرَكتِها وثَوابِ الأعمالِ فيها- أفضَلُ مِن ألْفِ شَهرٍ، ليس فيها ليلةُ القدرِ(٢).

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن قام لَيلةَ القَدْرِ إيمانًا واحتِسابًا غُفِرَ له ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِه))(٣).

﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤﴾.

أي: تَهبِطُ الملائكةُ وجِبريلُ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ في لَيلةِ القَدْرِ بإذْنِ رَبِّهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

قال ابنُ عاشور: (أي: يَعسُرُ على شَيءٍ أن يُعَرِّفَك مِقدارَها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

قال ابن كثير: (عن مجاهدٍ: ليلةُ القدرِ خيرٌ من ألفِ شهرٍ، ليس في تلك الشُّهورِ ليلةُ القدرِ. وهكذا قال قتادةُ بنُ دعامةَ، والشافعيُّ، وغيرُ واحدٍ... وهذا القولُ بأنَّها أفضلُ مِن عبادةِ ألفِ شهرٍ، وليس فيها ليلةُ القدرِ هو اختيارُ ابنِ جريرٍ، وهو الصَّوابُ لا ما عداه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٧).

وقال ابنُ كثير أيضًا: (الألْفُ شَهرٍ عِبارةٌ عن ثلاثٍ وثمانينَ سَنةً وأربعةِ أشهُرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤٢).

وقال ابنُ عثيمين: (المرادُ بالخَيريَّةِ هنا ثوابُ العمَلِ فيها، وما يُنزِلُ اللهُ تعالى فيها مِن الخَيرِ والبَرَكةِ على هذه الأُمَّةِ؛ ولذلك كان مَن قامها إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٠، ٢٧١).

(٣) رواه البخاري (١٩٠١)، ومسلم (٧٦٠).

لهم[١] مِن كُلِّ أمرٍ مِمَّا أمَرَ اللهُ به[٢].

(١) قيل: تهبِطُ إلى السَّماءِ الدُّنيا. ومِمَّن قال به: الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨١).
وقيل: تهبِطُ إلى الأرضِ. ومِمَّن قال بهذا: الرازيُّ، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَي، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٣٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧١).
قال الرَّازي: (اختيارُ الأكثَرينَ أنَّهم يَنزِلونَ إلى الأرضِ، وهو الأوجَهُ؛ لأنَّ الغَرَضَ هو التَّرغيبُ في إحياءِ هذه اللَّيلةِ، ولأنَّه دَلَّت الأحاديثُ على أنَّ الملائِكةَ يَنزِلونَ في سائِرِ الأيَّامِ إلى مَجالِسِ الذِّكرِ والدِّينِ، فلَأَنْ يَحصُلَ ذلك في هذه اللَّيلةِ مع عُلُوِّ شَأنِها: أَولى، ولأنَّ النُّزولَ المُطلَقَ لا يُفيدُ إلَّا النُّزولَ مِن السَّماءِ إلى الأرضِ). ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٧، ٥٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٣٣).
قيل: معنى ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٍ﴾: مِن كُلِّ أمرٍ قَضاه اللهُ في تلك السَّنةِ؛ مِن رِزقٍ، وأجَلٍ، وغيرِ ذلك. ومِمَّن ذهب إلى هذا: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ومكِّيٌّ، والسَّمعانيُّ، والزمخشري، والرَّسْعَني، والقرطبي، والنسفي، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، والشربيني، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٧٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٣٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٦٦)، ((تفسير ابن جزي (٢/ ٥٠٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧٦).
وقيل: ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٍ﴾: أي بكلِّ أمْرٍ مِن الخَيرِ والبَرَكةِ، ومِمَّن اختارَه: البَغَويُّ، والخازِنُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٣).
وقيل: إنَّ المَجْرورَ يَتعَلَّقُ بما بَعْدَه، والمَعْنى: أنَّها سَلامٌ من كلِّ أمْرٍ، أي: سَلامةٌ مِن الآفاتِ. ومِمَّن اختار هذا المعنى: السَّمَرْقَنديُّ، قال: (قال عزَّ وجَلَّ: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ يَعْني: يَنزِلونَ بأمْرِ ربِّهم ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٍ * سَلَٰمٌ﴾، يَعْني: تلك اللَّيْلةُ مِن كلِّ أمْرٍ سَلامٌ، يَعْني: مِن كلِّ آفةٍ سَلامةٌ، يَعْني: في هذه اللَّيلةِ لأمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٢). =

كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانَه فضائِلَ لَيلةِ القَدْرِ، كانت النَّتيجةُ أنَّها متَّصِفةٌ بالسَّلامةِ التَّامَّةِ، كاتِّصافِ الجنَّةِ -الَّتي هي سَبَبُها- بها؛ فكان ذلك أدَلَّ على عظَمَتِها[(١)].

﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

أي: لَيلةُ القَدْرِ سالِمةٌ مِن كُلِّ شَرٍّ وأذًى، وذلك مِن بَعْدِ غُروبِ الشَّمسِ إلى زَمَنِ طُلوعِ الفَجْرِ[(٢)].

= قال ابنُ جُزَي: (والأَظهَرُ أنَّ الكَلامَ تَمَّ عِندَ قَولِه: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾، ثُمَّ ابتدأَ قَولَه: ﴿سَلَٰمٌ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٠).

وقال الشَّوْكانيُّ: (قَولُه: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: مِن أجْلِ كلِّ أمْرٍ مِن الأمورِ الَّتي قَضى اللهُ بها في تلك السَّنةِ. وقيلَ: إنَّ ﴿مِّن﴾ بمَعْنى اللَّامِ، أي: لكلِّ أمْرٍ. وقيلَ: هي بمَعْنى الباءِ، أي: بِكلِّ أمْرٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧٦).

وقال ابن عاشور: (و﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ بَيانِيَّةً تُبَيِّنُ الإذْنَ مِن قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾، أيْ: بإذنِ رَبِّهم الَّذي هو في كلِّ أمر. ويجوزُ أن تكونَ [مِنْ] بمعنى الباءِ، أي: تتنَزَّلُ بكُلِّ أمرٍ، مِثلُ ما في قَولِه تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، أي: بأمرِ اللهِ، وهذا إذا جعَلْتَ باءَ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ سَببيَّةً، ويجوزُ أن تكونَ للتَّعليلِ، أي: مِن أجْلِ كُلِّ أمرٍ أراد اللهُ قَضاءَه بتَسخيرِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٤).

وقال ابنُ عثيمين: (قيلَ: إنَّ ﴿مِّن﴾ بمعنى الباءِ، أي: بكُلِّ أمرٍ مِمَّا يأمُرُهم اللهُ به، وهو مُبهَمٌ لا نعلَمُ ما هو، لكِنَّا نقولُ: إنَّ تنَزُّلَ الملائكةِ في الأرضِ عُنوانٌ على الخَيرِ والرَّحمةِ والبَرَكةِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧١). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ مَن تأمَّلَ هذه السُّورةَ عَلِمَ منها ما للقُرآنِ مِن العَظَمةِ؛ فأقبَلَ عليه بكُلِّيَّتِه يَتْلوه حَقَّ تِلاوتِه[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ فيه تحريضُ المُسلِمينَ على

= قال الزمخشري: (﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ ما هي إلَّا سلامةٌ، أي: لا يُقَدِّرُ اللهُ فيها إلَّا السَّلامةَ والخَيرَ، ويُقضَى في غيرِها بلاءٌ وسَلامةٌ. أو: ما هي إلَّا سلامٌ؛ لكَثرةِ ما يُسَلِّمونَ على المؤمنينَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨١).

ممَّن اختارَ في الجُمْلةِ أنَّ ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: سَلامةٌ وخَيْرٌ وبَرَكةٌ، فلا شَرَّ فيها: مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، وابنُ جَريرٍ، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، والثَّعْلَبيُّ، والخازِنُ، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، ومُجاهِدٌ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٩).

وممَّن اخْتارَ أنَّ ﴿سَلَٰمٌ﴾ مِن التَّسْليمِ؛ وذلك لتَسْليمِ المَلائِكةِ على المُؤمِنينَ: جَلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والعُلَيْميُّ. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٠٧).

وممَّن قال به مِن السَّلَفِ: الشَّعْبيُّ، والكَلْبيُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٩).

وقال عَطاءٌ: (يُريدُ: سَلامٌ على أولياءِ اللهِ، وأهْلِ طاعتِه). يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٧).

قال ابنُ عاشورٍ: (يُطلَقُ السَّلامُ على التَّحيَّةِ والمِدْحةِ، وفُسِّرَ السَّلامُ بالخَيْرِ، والمَعْنيانِ حاصِلانِ في هذه الآيةِ؛ فالسَّلامةُ تَشملُ كُلَّ خَيرٍ؛ لأنَّ الخَيرَ سَلامةٌ مِنَ الشَّرِّ ومِنَ الأذى، فيَشملُ السَّلامُ: الغُفرانَ، وإجْزالَ الثَّوابِ، واستِجابةَ الدُّعاءِ بخَيرِ الدُّنيا والآخِرةِ. والسَّلامُ بمَعْنى: التَّحيَّةِ والقَولِ الحَسَنِ، مُرادٌ به ثَناءُ المَلائكةِ على أهْلِ لَيلةِ القَدْرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٨٢).

تحيُّنِ لَيلةِ القَدْرِ بالقيام[١]. فيَنبغي للإنسانِ أنْ يَجتَهِدَ في كلِّ لَيالي العَشرِ الأواخرِ مِن رمضانَ حتَّى لا يُحرَمَ مِن فَضْلِ لَيلةِ القَدْرِ وأَجْرِها[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ عَرَّف بمُنتهاها؛ ليَحرِصَ النَّاسُ على كثرةِ العَمَلِ فيها قبلَ انتِهائِها[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِن تَسديدِ تَرتيبِ المُصحفِ أنْ وُضِعَت سُورةُ (القَدْرِ) عَقِبَ سُورةِ (العَلَقِ) مع أنَّها أقَلُّ عدَدَ آياتٍ مِن سُورةِ (البيِّنة) وسُوَرٍ بعْدَها، كأنَّه إيماءٌ إلى أنَّ الضَّميرَ في ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ يَعودُ إلى القرآنِ الَّذي ابتُدِئَ نُزولُه بسُورةِ العلَقِ[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ أجمَعَ المفَسِّرونَ على أنَّ المرادَ: إنَّا أنزَلْنا القُرآنَ في لَيلةِ القَدْرِ، ولكِنَّه تعالى تَرَك التَّصريحَ بالذِّكرِ؛ لأنَّ هذا التَّركيبَ يدُلُّ على عِظَمِ القُرآنِ مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:

أحَدُها: أنَّه أسنَدَ إنزالَه إليه، وجعَلَه مُختَصًّا به دونَ غَيْرِه.

والثَّاني: أنَّه جاء بضَميرِه دونَ اسمِه الظَّاهرِ؛ شهادةً له بالنَّباهةِ والاستغناءِ عن التَّصريحِ.

والثَّالِثُ: تعظيمُ الوَقتِ الَّذي أُنزِلَ فيه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٤/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٤٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٦، ٤٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٨).
ويُنظر ما يأتي في بلاغةِ الآيات (ص: ٧٦).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ فيه سؤالٌ: ما معنى أنَّه أُنزِلَ في لَيلةِ القَدْرِ، مع العِلمِ بأنَّه أُنزِلَ مُفرَّقًا؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: قال الشَّعبيُّ: (ابتدَأَ إنزالُه لَيلةَ القَدْرِ؛ لأنَّ البَعثَ كان في رمَضانَ).

الوَجهُ الثَّاني: قال ابنُ عبَّاسٍ: (أُنزِلَ إلى سماءِ الدُّنيا جملةً لَيلةَ القَدْرِ، ثمَّ إلى الأرضِ نُجومًا). أي: مفرَّقًا.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ التَّقديرَ: أنزَلْنا هذا الذِّكرَ في لَيلةِ القَدْرِ، أي: في فضيلةِ لَيلةِ القَدْرِ، وبَيانِ شَرَفِها[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ نُزولُ القرآنِ في زمانٍ بعَيْنِه يَقتضي فَضْلَ ذلك الزَّمانِ[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ صَريحٌ في أنَّ الآياتِ الأُوَلَ مِن القُرآنِ الكريمِ نَزَلت ليلًا[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ ذَكَرَ اللهُ تعالى نفْسَه بالعَظَمةِ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾؛ لأنَّه سُبحانَه وتعالى العَظيمُ الَّذي لا شيءَ أعظمُ منه، واللهُ تعالى يَذْكُرُ نفْسَه أحيانًا بصيغةِ العَظَمةِ، مِثلُ هذه الآيةِ الكريمةِ، ومِثلُ قَولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٨، ٢٢٩).

وضعَّف ابنُ جُزَي الوجهَ الثَّالثَ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٩).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٦٢).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٧).

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ومِثلُ قولِه تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس: ١٢]، وأحيانًا يَذكُرُ نفْسَه بصيغةِ الواحدِ، مِثلُ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]؛ وذلك لأنَّه واحِدٌ عظيمٌ، فباعتبارِ الصِّفةِ يأتي ضَميرُ العَظَمةِ، وباعتبارِ الوَحدانيَّةِ يأتي ضميرُ الواحِدِ[(١)].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ لا تعارُضَ بيْنه وبيْن قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]؛ لأنَّ اللَّيلةَ المُباركةَ هي ليلةُ القَدْرِ، وهي مِن شهرِ رَمَضانَ بنَصِّ قَولِه تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فما يَزعُمُه كثيرٌ مِنَ العُلَماءِ مِن أنَّ اللَّيلةَ المباركةَ لَيلةُ النِّصفِ مِن شَعبانَ تَرُدُّه هذه النُّصوصُ القُرآنيَّةُ[(٢)].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ * وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ * لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ * تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ * سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ ليلةَ القَدْرِ ثابتةٌ باقيةٌ، خِلافًا لِمَن زعَمَ أنَّها رُفِعَت[(٣)].

٩- قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ * لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ كلُّ موضعٍ في القرآنِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد عُقِّب ببيانِه، وكلُّ موضعٍ ذُكِر بلَفظِ: ﴿وَمَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص:٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٦٢٣)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٢٩٥).
قال النووي: (وأجمَعَ مَن يُعتَدُّ به على وُجودِها ودوامِها إلى آخرِ الدَّهرِ؛ للأحاديثِ الصحيحةِ المشهورةِ) ((شرح النووي على مسلم)) (٨/ ٥٧).

يُدۡرِيكَ﴾ لم يُعقَّبْ ببيانِه، نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾[1] [الشورى: ١٧].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ خَصَّ اللهُ بها نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأُمَّتَه حينَ جَعَلَ أعمارَهم قصيرةً، فأعطاهم فَضْلَ هذه اللَّيلةِ؛ لِيَبْلُغوا بها وحْدَها فوقَ ما بَلَغَتِ الأُمَمُ السَّالِفةُ في طُولِ أعمارِهم؛ جُودًا وكرَمًا وتفضيلًا لهذا النَّبيِّ على مَن تَقَدَّمَه مِن الأنبياءِ، وتفضيلًا لأُمَّتِه على أُمَمِهم؛ لأنَّه خاتَمُ الأنبياءِ إلى أنْ تقومَ السَّاعةُ[2].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ تفاضُلُ الأعمالِ باعتبارِ الزَّمانِ[3].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾، فيه سُؤالٌ: صَحَّ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: ((إنَّ لَكِ مِن الأجْرِ على قَدْرِ نَصَبِك ونَفَقَتِك))[4]، ومِن المَعْلومِ أنَّ الطَّاعةَ في ألْفِ شَهْرٍ أَشَقُّ مِن الطَّاعةِ في لَيلةٍ

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٩٧).
وقال الفَرَّاءُ: (كلُّ ما كان في القرآنِ مِن قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أدراه، وما كان من قولِه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُدْرِه). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٨٠).
وأخرج ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٢٣/ ٢٠٧) بسندِه عن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنةَ، قال: (ما في القرآنِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُخبِرْه، وما كان: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أخبَرَه). وأخرجه أيضًا ابنُ المُنذِرِ وابنُ أبي حاتمٍ، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٦٤).
قال ابنُ عاشور: (مُرادُهم أنَّ مَفعولَ «ما أدراك» مُحقَّقُ الوقوعِ؛ لأنَّ الاستفهامَ فيه للتَّهويلِ، وأن مَفعولَ «ما يُدْريك» غيرُ مُحقَّقِ الوقوعِ؛ لأنَّ الاستفهامَ فيه للإنكارِ، وهو في معْنى نفْيِ الدِّرايةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥٩).
(٤) أخرجه الحاكِمُ (١٧٣٣) مِن حديثِ عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها. =

واحِدةٍ، فكيف يُعقَلُ اسْتِواؤُهما[(١)]؟

الجَوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجْهُ الأوَّلُ: أنَّ الفِعلَ الواحِدَ قد يَخْتلِفُ حالُه في الحُسْنِ والقُبْحِ بسَبَبِ اخْتِلافِ الوُجوهِ المُنْضَمَّةِ إليه؛ فالأفْعالُ تَختَلِفُ آثارُها في الثَّوابِ والعِقابِ لاخْتِلافِ وُجوهِها، فلا يَبعُدُ أن تكونَ الطَّاعةُ القَليلةُ في الصُّورةِ مُساويةً في الثَّوابِ للطَّاعاتِ الكَثيرةِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ مَقصودَ الحَكيمِ سُبْحانَه أن يَجُرَّ الخَلْقَ إلى الطَّاعاتِ؛ فتارةً يَجعَلُ ثَمَنَ الطَّاعةِ ضِعْفَينِ، ومَرَّةً عَشْرًا، ومرَّةً سَبْعَمِئةٍ، وتارةً بحَسَبِ الأزْمِنةِ، وتارةً بحَسَبِ الأمْكِنةِ، والمَقصودُ الأصْليُّ مِن الكلِّ جَرُّ المُكلَّفِ إلى الطَّاعةِ، وصَرْفُه عن الاشْتِغالِ بالدُّنْيا[(٢)].

والعَمَلُ القَليلُ قد يَفضُلُ الكَثيرَ باعْتِبارِ الزَّمانِ، وباعْتِبارِ المَكانِ، وباعْتِبارِ كَيْفيَّةِ الأداءِ، كصَلاةٍ واحِدةٍ أُدِّيَتْ بجَماعةٍ؛ فإنَّها تَعدِلُ خَمْسًا وعِشْرينَ مَرَّةً صَلاةً مِثلَها أُدِّيَتْ على الانْفِرادِ، إلى غَيرِ ذلك. نَعمْ، هذه الأَفضَليَّةُ قد تُعقَلُ في بعضٍ، وقد لا، كما فيما نحن فيه، ولا حَجْرَ على اللهِ عزَّ وجلَّ، ولا يَعلَمُ ما عندَه

= صحَّحَه الحاكمُ وقال: (على شَرْطِ الشَّيخَينِ)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٢١٦٠).

(١) قولُ بعضِ النَّاسِ: الثوابُ والأجرُ على قدرِ المشقَّةِ ليس بمستقيمٍ على الإطلاقِ، فليس الأجرُ على قدرِ المشقَّةِ في كلِّ شيءٍ، ولكنَّ الأجرَ على قدرِ منفعةِ العملِ ومصلحتِه وفائدتِه، وعلى قدرِ طاعةِ أمرِ اللهِ ورسولِه. فأيُّ العملينِ كان أحسنَ، وصاحبُه أطوعَ وأتبعَ كان أفضلَ؛ فإنَّ الأعمالَ لا تتفاضلُ بالكثرةِ، وإنَّما تتفاضلُ بما يحصُلُ في القلوبِ حالَ العملِ، نعم كثيرًا ما يكثُرُ الثَّوابُ على قدرِ المشقَّةِ والتَّعبِ، لا لأنَّ المشقَّةَ مقصودةٌ من العملِ؛ ولكن لأنَّ العملَ مستلزمٌ للمشقَّةِ والتَّعبِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٢٠، ٦٢٢) و (٢٥/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٢).

سُبحانَه إلَّا هو جَلَّ شَأنُه[١].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ فيه سؤالٌ: قَولُه: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥] يُنافي قَولِه تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾؟

الجوابُ: نَصرِفُ الحالتَينِ إلى زمانَينِ مختَلِفينِ[٢].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ نزولُ الملائكةِ إلى الأرضِ، وهذا عُنوانٌ على الرَّحمةِ والخَيرِ والبَركةِ؛ ولهذا إذا امتنَعَتِ الملائكةُ مِن دُخولِ شَيءٍ كان ذلك دليلًا على أنَّ هذا المكانَ الَّذي امتنَعَتِ الملائكةُ مِن دُخولِه قد يَخْلو مِن الخَيرِ والبَركةِ[٣].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أنَّ الملائكةَ تَنْتَشِرُ في الأرضِ، فيَبْطُلُ سُلطانُ الشَّياطينِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ اشتَمَلَتْ هذه الآيةُ على تَنويهٍ عَظيمٍ بالقرآنِ، فافتُتِحَت بحرْفِ (إنَّ)، وبالإخبارِ عنها بالجُملةِ الفِعليَّةِ، وكِلاهما مِن طُرقِ التَّأكيدِ والتَّقوِّي، ويُفيدُ هذا التَّقديمُ قَصرًا، وهو قَصْرُ قلْبٍ[٥]؛ للرَّدِّ على

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ١٨٢).

(٥) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على =

المشرِكين الَّذي نَفَوا أنْ يكونَ القرآنُ مُنزَّلًا من اللهِ تعالَى[١].

- ولَيلةُ القدْرِ: اسمٌ جَعَلَه اللهُ لِلَّيلةِ الَّتي ابتُدِئَ فيها نُزولُ القُرآنِ، ويَظهَرُ أنَّ أوَّلَ تَسميتِها بهذا الاسمِ كان في هذه الآيةِ، ولم تكُنْ مَعروفةً عندَ المسلمينَ، وبذلك يكونُ ذِكْرُها بهذا الاسمِ تَشويقًا لمَعرفتِها؛ ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾[٢] [القدر: ٢].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡقَدۡرِ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، ولم يَقُلْ: (في لَيلةِ قدْرٍ) بالتَّنكيرِ؛ لأنَّه قُصِدَ جَعْلُ هذا المُركَّبِ بمَنزلةِ العَلَمِ لتلك اللَّيلةِ كالعَلَمِ بالغَلَبةِ؛ لأنَّ تَعريفَ المُضافِ إليه باللَّامِ مع تَعريفِ المُضافِ بالإضافةِ، أوغَلُ في جَعْلِ

= مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وترَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصِرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مَبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زَيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التَّأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٩٢ - ١٠٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٥٧).

ذلك المركَّبِ لَقَبًا؛ لاجتماعِ تَعريفَينِ فيه[(١)].

- قولُه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ * وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ عظَّمَ القرآنَ من ثَلاثةِ أوجُهٍ؛ **أحدُها**: أنْ أسنَدَ إنْزالَه إليه، وجَعَلَه مُختَصًّا به دونَ غيرِه، وهذا مُنبِئٌ عن كَمالِ العِنايةِ به، وفي إيثارِ صِيغةِ الجمْعِ وضَميرِ العظَمةِ تشريفٌ للقرآنِ، وتَعظيمٌ دونَه كلُّ تَعظيمٍ.

والثَّاني: أنَّه جاء بضَميرِه دونَ اسمِه الظَّاهرِ؛ شَهادةً له بالنَّباهةِ والاستِغناءِ عن التَّنبيهِ عليه، وإيماءً إلى أنَّه حاضرٌ في أذهانِ المسلِمينَ؛ لشِدَّةِ إقبالِهم عليه، فكونُ الضَّميرِ دونَ سبْقِ مَعادٍ إيماءٌ إلى شُهرتِه بيْنَهم.

والثَّالثُ: الرَّفعُ مِن مِقدارِ الوقتِ الَّذي أُنزِلَ فيه بقولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾؛ لِما فيه مِنَ الدَّلالةِ على أنَّ عُلوَّ قَدرِها خارجٌ عن دائرةِ درايةِ الخَلْقِ، ولا يَدْريها إلَّا علَّامُ الغُيوبِ، كما يُشعِرُ به قولُه تعالَى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾؛ فالمَقصودُ من تَشريفِ اللَّيلةِ الَّتي كان ابتداءُ إنزالِ القرآنِ فيها -على قولٍ- تَشريفٌ آخَرُ للقرآنِ بتَشريفِ زَمانِ ظُهورِه؛ تَنبيهًا على أنَّه تعالَى اختارَ لابتداءِ إنزالِه وَقْتًا شَريفًا مُبارَكًا؛ لأنَّ عِظَم قدْرِ الفعلِ يَقْتضي أنْ يُختارَ لإيقاعِه أفضْلُ الأوقاتِ والأمكنةِ، فاختيارُ أفضْلِ الأوقاتِ لابتداءِ إنزالِه يُنبِئُ عن عُلوِّ قَدْرِه عندَ اللهِ تعالَى[(٢)].

٢- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ تَفخيمٌ لشَأنِها، وتَنويهٌ بطَريقِ الإبهامِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٦، ٤٥٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٧).

المرادِ به أنَّ إدراكَ كُنْهِها ليس بالسَّهلِ؛ لِما ينطوي عليه مِن الفضائلِ الجَمَّةِ(١).

- وأُعِيدَ اسمُ (لَيلة القَدْرِ) مَرتَّينِ على خِلافِ مُقتضى الظَّاهرِ؛ لأنَّ مُقتضى الظَّاهرِ الإضمارُ، فقُصِدَ الاهتمامُ بتَعيينِها تَعظيمًا لِلَيلتِه، فحَصَلَ تعظيمُ لَيلةِ القدْرِ صَريحًا، وحَصَلَت كِنايةٌ عن تَعظيمِ ما أُنزِلَ فيها، وأنَّ اللهَ اختار إنْزالَه فيها؛ ليَتطابَقَ الشَّرَفانِ، وقد تَكرَّرَ هذا اللَّفظُ ثلاثَ مرَّاتٍ، والمَرَّاتُ الثَّلاثُ يَنْتهي عندَها التَّكريرُ غالبًا(٢).

٣- قولُه: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ بَيانٌ أوَّلُ لشَيءٍ مِن الإبهامِ الَّذي في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ٢]؛ فلذلك فُصِلَت الجُملةُ -أي: لم تُعطَفْ على الَّتي قبْلَها-؛ لأنَّها استِئنافٌ بَيانيٌّ، كأنَّها جَوابٌ لسُؤالٍ نَشَأَ عن تَفخيمِ لَيلةِ القدْرِ، تَقديرُه: وما فَضائلُها؟ أو لأنَّها كعطْفِ البيانِ، فهي بَيانٌ إجماليٌّ لشَأنِها إثْرَ تَشويقِه عليه السَّلامُ إلى دِرايتِها؛ فإنَّ ذلكَ مُعرِبٌ عن الوعدِ بإدْرائِها(٣).

- وعدَدُ الألْفِ قيل: إنَّه مقصودٌ، وقيل: إنَّه مُستعمَلٌ في وَفرةِ التَّكثيرِ، كقولِه: واحدٌ كألْفٍ، وإنَّما جُعِلَ تَمييزُ عدَدِ الكثرةِ هنا بالشَّهرِ؛ للرَّعْيِ على الفاصلةِ الَّتي هي بحَرْفِ الرَّاءِ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٨، ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٩)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٦٤). =

٤- قولُه: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۞ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾:

- مَوقعُ قولِه: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ إلى قولِه: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ من جُملةِ ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]؛ مَوقعُ الاستِئنافِ البَيانيِّ، أو مَوقعُ بدَلِ الاشتمالِ[١]، فلِمُراعاةِ هذا الموقعِ فُصِلَتِ الجُملةُ عن الَّتي قبْلَها، ولم تُعطَفْ عليها مع أنَّهما مُشترِكتانِ في كَونِ كلٍّ واحدةٍ منهما تُفيدُ بَيانًا لجُملةِ ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر: ٢]، فأُوثِرَت مُراعاةُ مَوقعِها الاستِئنافيِّ أو البَدَليِّ على مُراعاةِ اشتِراكِهما في كَونِها بَيانًا لجُملةِ ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾؛ لأنَّ هذا البَيانَ لا يَفوتُ السَّامعَ عندَ إيرادِها في صُورةِ البَيانِ أو البدَلِ، بخِلافِ ما لو عُطِفَت على الَّتي قبْلَها بالواوِ؛ لفَواتِ الإشارةِ إلى أنَّ تَنزُّلَ الملائكةِ فيها مِن أحوالِ خَيريَّتِها[٢].

- قولُه: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۞ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ إذا ضُمَّ هذا البيانُ الثَّاني لِما في قولِه: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر: ٢] مِن الإبهامِ التَّفخيميِّ؛ حَصَلَ منهما ما يدُلُّ دَلالةً بيِّنةً على أنَّ اللهَ جَعَلَ مِثلَ هذه الفَضيلةِ لكلِّ لَيلةٍ مِن لَيالي الأعوامِ تَقَعُ في مِثلِ اللَّيلةِ مِن شَهْرِ نُزولِ

= وقال القاسمي: (لك أن تَقِفَ في التَّفضيلِ عندَ النَّصِّ، وتُفَوِّضَ الأمرَ في تحديدِ ما فُضِّلَت عليه اللَّيلةُ بألْفِ شَهرٍ إلى اللهِ تعالى؛ فهو الَّذي يعلَمُ سَبَبَ ذلك، ولم يبيِّنْه لنا، ولك أن تُجريَ الكلامَ على عادتِهم في التَّخاطُبِ، وذلك في الكتابِ كثيرٌ... فيكونُ التَّحديدُ بالألْفِ لا مفهومَ له، بل الغَرَضُ منه التَّكثيرُ، وأنَّ أقَلَّ عَدَدٍ تَفضُلُه هو ألْفُ شَهرٍ... فهي ليلةٌ خيرٌ مِن الدَّهرِ إنْ شاء اللهُ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥١٦، ٥١٧).

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٣).

القُرآنِ كَرامةً للقُرآنِ، ولِمَن أُنزِلَ عليه، وللدِّينِ الَّذي نَزَلَ فيه، وللأُمَّةِ الَّتي تتَّبعُه، ألَا تَرى أنَّ مُعظَمَ السُّورةِ كان لذِكرِ فَضائلِ لَيلةِ القدْرِ؟ فما هو إلَّا للتَّحريضِ على تطَلُّبِ العمَلِ الصَّالحِ فيها؛ فإنَّ كَونَها خَيرًا مِن ألْفِ شَهرٍ أومَأَ إلى ذلك، وبيَّنَتْه الأخبارُ الصَّحيحةُ[١].

- والتَّعبيرُ بالفِعلِ المُضارعِ في قولِه: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ مُؤذِنٌ بأنَّ هذا التَّنزُّلَ مُتكرِّرٌ في المستقبَلِ بعْدَ نُزولِ هذه السُّورةِ[٢].

- قولُه: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾، الرُّوحُ: جِبريلُ، وإنَّما أُفرِدَ بالذِّكرِ؛ تَنويهًا بفَضْلِه[٣].

- ولَفظةُ ﴿كُلِّ﴾ مُستعمَلةٌ في معْنى الكثرةِ للأهمِّيَّةِ، أي: في أُمورٍ كَثيرةٍ عَظيمةٍ[٤].

- وتَنوينُ ﴿أَمْرٍ﴾ للتَّعظيمِ[٥].

٥- قولُه: ﴿سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ بيانٌ لمَضمونِ ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾، وهو كالاحتِراسِ[٦]؛ لأنَّ تنزُّلَ الملائكةِ يكونُ للخيرِ ويكونُ للشَّرِّ لعِقابِ مُكذِّبي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) الاحتِراسُ: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ والتَّحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتى بكلامٍ يَدفعُ ذلك الاحتمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه بعضُهم: التَّكميلَ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٤٥)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٢٠٨)، ((البرهان =

الرُّسلِ، فأُخبرَ هنا أنَّ تَنزُّلَ الملائكةِ لَيلةَ القدْرِ لتَنفيذِ أمْرِ الخَيرِ للمُسلِمينَ الَّذين صاموا رَمَضانَ، وقاموا لَيلةَ القدْرِ، فهذه بِشارةٌ[(١)].

- وتَنكيرُ ﴿سَلَٰمٌ﴾ للتَّعظيمِ، وأُخبِرَ عن اللَّيلةِ بأنَّها سَلامٌ للمُبالَغةِ؛ لأنَّه إخبارٌ بالمَصدرِ[(٢)].

- وتَقديمُ المُسنَدِ -وهو ﴿سَلَٰمٌ﴾- على المُسنَدِ إليهِ -وهو ﴿هِيَ﴾- لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: ما هي إلَّا سَلامٌ، والقصْرُ ادِّعائيٌّ[(٣)]؛ لعدَمِ الاعتدادِ بما يَحصُلُ فيها لغَيرِ الصَّائمينَ القائمينَ[(٤)].

ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ مُرادًا به الإخبارُ فقطْ. ويَجوزُ أنْ يُرادَ بالمصدرِ الأمرُ، والتَّقديرُ: سلِّموا سَلامًا؛ فالمصدرُ بَدلٌ مِن الفعلِ، وعُدِلَ عن نَصْبه إلى الرَّفعِ؛ ليُفيدَ التَّمكُّنَ، والمعْنى: اجْعَلوها سَلامًا بيْنَكم، أي: لا نِزاعَ ولا خِصامَ[(٥)].

- وقولُه: ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ غايةٌ لِما قبْلَه مِن قولِه: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إلى ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾، والمَقصودُ مِن الغايةِ إفادةُ أنَّ جَميعَ أحيانِ تلك اللَّيلةِ مَعمورةٌ بنُزولِ الملائكةِ والسَّلامةِ، فالغايةُ هنا مُؤكِّدةٌ لمَدلولِ (لَيلةٍ)؛ لأنَّ اللَّيلةَ قد تُطلَقُ على بَعضِ أجْزائِها[(٦)].

= في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٤، ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٦٥).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٦٥، ٤٦٦).

- وقيل: جِيءَ بحرْفِ ﴿حَتَّىٰ﴾ لإدخالِ الغايةِ ﴿مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾؛ لبَيانِ أنَّ لَيلةَ القدْرِ تَمتَدُّ بعْدَ مَطلعِ الفَجرِ، بحيث إنَّ صَلاةَ الفجْرِ تُعتبَرُ واقعةً في تلك اللَّيلةِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ نِهايتَها كنِهايةِ الفِطرِ بآخِرِ جُزءٍ مِن اللَّيلِ، وهذا تَوسعةٌ مِن اللهِ في امتدادِ اللَّيلةِ إلى ما بعْدَ طُلوعِ الفَجرِ(١).

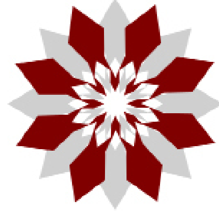


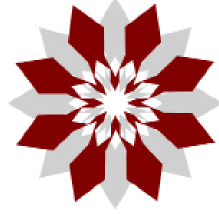
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٦).

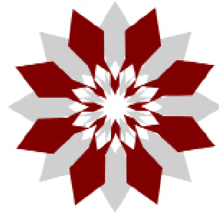
قال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاسٍ والمفسِّرون: إلى مَطلِعِ الفجرِ. والمطلعُ: الطُّلوعُ). ((البسيط)) (٢٤/ ١٩٨).

وقال السعدي: (﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: مبتداها مِن غُروبِ الشَّمسِ، ومنتهاها طلوعُ الفجرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: إلى مطلعِ الفجرِ، وإذا طلَع الفجرُ انتهَتْ ليلةُ القَدْرِ). ((تفسير ابن عثيمين: جزء عم)) (ص: ٢٧٢).

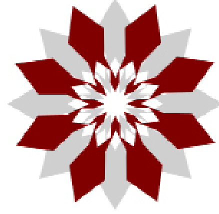


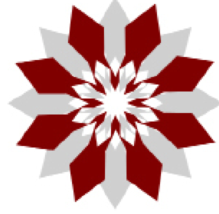


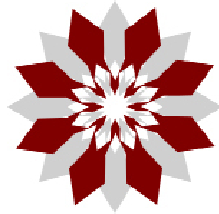


تَفْسِيرُ

سُورَةِ البَيِّنَةِ







سُورةُ البَيِّنةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ البَيِّنةِ(١).

وسُمِّيت أيضًا: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾(٢)، فعن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لأُبَيِّ بنِ كَعبٍ: إنَّ اللهَ أمَرَني أن أقرَأَ عليك: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. قال: وسَمَّاني لك؟! قال: نعم. فبَكَى))(٣).

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ البَيِّنةِ مَدَنيَّةٌ(٤)..

(١) سمِّيت بذلك لوُرودِ لَفظِ البَيِّنةِ فيها، في قَولِه: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾.

(٢) سمِّيت بذلك لأنَّها أوَّلُ جُملةٍ افتُتِحَت بها. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٧).

وتُسمَّى أيضًا سورةَ ﴿لَمۡ يَكُنِ﴾ وسورةَ القَيِّمة، وسورةَ المُنفَكِّينَ، وسورةَ البَرِيَّة، وسورةَ الِانْفِكاكِ. يُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لعلم الدين السخاوي (ص: ٩٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٣٣)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٣٨٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩).

(٤) وممَّن اختار أنَّها مَدَنيَّةٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، وابن أبي زَمَنِين، والثعلبي، والماوَرْدي، والرازي، وابن جُزَي، والسيوطي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٤/ ٧٧٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٥٩)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١٥)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٢٠).

ونَسَب هذا القَولَ إلى الجُمهور: الماوَرْديُّ، وابنُ الجوزيِّ، والعِزُّ بنُ عبدِ السَّلام، والقُرطبيُّ، والخازنُ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير العز بن عبد السلام)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٣٨)، ((تفسير =

وقيل: مَكِّيَّةٌ[1].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورة:

توبيخُ المشرِكينَ وأهلِ الكِتابِ على تكذيبِهم بالقرآنِ والرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبيانُ مآلِهم ومآلِ المؤمنينَ[2].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- توبيخُ أهلِ الكِتابِ والمُشرِكينَ على إصرارِهم على ضَلالِهم مِن بَعْدِ أن تبَيَّنَ لهم الحَقُّ.

٢- التَّعجيبُ مِن تناقُضِ أحوالِهم، وبيانُ أنَّ كُفرَهم كان بسَبَبِ جُحودِهم وعِنادِهم وحَسَدِهم للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

٣- التَّسجيلُ عليهم بأنَّهم شَرُّ البَرِيَّةِ، وأنَّ المؤمِنينَ هم خَيرُ البَرِيَّةِ.

٤- الثَّناءُ على الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ، وذِكرُ جزائِهم في الآخِرةِ.



= الخازن)) (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧٨).

(١) وممَّن اختار أنَّها مَكِّيَّةٌ: المهدويُّ، والبغوي، والزمخشري، وابن عطية، والثعالبي، والعُلَيمي. يُنظر: ((التحصيل)) للمهدوي (٧/ ١٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٧)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٦١٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١١).

ونَسَب هذا القولَ إلى الجُمهورِ: ابنُ عطيَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٨).

الآيات (١-٥)

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿مُنفَكِّينَ﴾: أي: زائِلينَ عن كُفْرِهم، والانفِكاكُ: الانفِصالُ والبَينونةُ مِنَ الشَّيءِ بَعْدَ الملابَسةِ والاجتِماعِ، وأصلُ (فكك): يدُلُّ على تفتُّحٍ وانفِراجٍ[1].

﴿الْبَيِّنَةُ﴾: أي: محمَّدٌ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. والبَيِّنةُ: الحُجَّةُ الظَّاهِرةُ الَّتي يَتمَيَّزُ بها الحَقُّ مِنَ الباطِلِ، وأصلُ (بين): يدُلُّ على انكِشافِ الشَّيءِ[2].

﴿قَيِّمَةٌ﴾: أي: مُستَقيمةٌ صادِقةٌ عادِلةٌ، وأصلُ (قوم): يدُلُّ على انتِصابٍ[3].

﴿حُنَفَاءَ﴾: أي: مُسلِمينَ مائِلينَ عن العقائِدِ الزَّائِغةِ، جمعُ حَنيفٍ: وهو المائِلُ عن الدِّينِ الباطِلِ إلى الدِّينِ الحَقِّ، المُقبِلُ على اللهِ، المُعرِضُ عمَّا سِواه، وأصلُ الحنَفِ: المَيلُ عن الشَّيءِ بالإقبالِ على آخَرَ، وأصْلُه مَيلٌ في إبهامَي

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣، ١٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٢).

القَدمَينِ مِن كلِّ واحدةٍ على صاحِبَتِها، وأصلُ (حنف): يدُلُّ على المَيلِ[١].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ سُبحانَه هذه السُّورةَ الكريمةَ قائِلًا: لم يكُنِ الكُفَّارُ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى والمُشرِكينَ عَبَدةِ الأصنامِ بتارِكينَ دينَهم مِن قَبلِ أن تأتيَهم علامةٌ واضِحةٌ مِن رَبِّهم تَدُلُّهم على الحَقِّ، وتلك البَيِّنةُ هي رَسولُ اللهِ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرأُ عليهم القُرآنَ المكتوبَ في صُحُفٍ مُنَزَّهةٍ عن كُلِّ سُوءٍ، في تلك الصُّحُفِ كُتُبٌ مُستقيمةٌ.

ثُمَّ بيَّن سبحانَه ما كان عليه أهلُ الكتابِ مِن جَحدٍ للحقِّ معَ علمِهم به، فقال: وما تفَرَّق اليَهودُ والنَّصارى في شأنِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلَّا بعْدَما بعَثَه اللهُ؛ فكَذَّب به بعضُهم، وآمَنَ بَعضُهم!

ثُمَّ بيَّن الله تعالى ما كان يجِبُ عليهم أن يَفْعلوه، فقال: وما أُمِروا إلَّا بعِبادةِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١٩)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (١/ ٢٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٩، ٤١٢).

قال ابن فارس: (الحَنَف: اعْوجاجٌ في الرِّجْلِ إلى داخِلٍ. ورجُلٌ أحنَفُ، أي: مائِلُ الرِّجْلَينِ، وذلك يكونُ بأنْ تَتَدانَى صُدورُ قَدَمَيْه ويَتَباعَدَ عَقِباه. والحَنيفُ: المائِلُ إلى الدِّينِ المستقيمِ). ((مقاييس اللغة)) (٢/ ١١٠).

وقيل: الحَنيفُ: المسلمُ المستقيمُ، وذلك بِناءً على قولِ مَن قال: إنَّ الحَنيفَ هو المستقيمُ مِن كلِّ شيءٍ. والحنَفَ: الاستقامةُ، وجعَلوا الرَّجُلَ الَّذي تُقبلُ إحدَى قَدَميه على الأُخرى، إنَّما قيل له: أحنَفُ، على جهةِ التَّفاؤُلِ، كما قيل للمَهْلَكةِ مِن البلادِ: المَفازَةُ، بمعنَى الفَوزِ بالنَّجاةِ منها والسَّلامةِ، وكما قيل لِلَّديغ: السَّليمُ؛ تَفاؤلًا له بالسَّلامةِ مِن الهلاكِ، وما أشْبَهَ ذلك. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩١)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٦).

اللهِ وَحْدَه مُخلِصينَ مُسلِمينَ مائِلينَ عن الشِّركِ إلى التَّوحيدِ، وأُمِروا بإقامةِ الصَّلَواتِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وذلك الَّذي أُمِروا به مِنَ التَّوحيدِ وإقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ: هو دينُ الإسلامِ المُستقيمُ العادِلُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ①﴾.

أي: لم يكُنِ الكُفَّارُ مِنَ اليَهودِ، والنَّصارى، والمُشرِكينَ عَبَدةِ الأوثانِ والأصنامِ: بتارِكينَ لدينِهم مِن قَبلِ أن تأتيَهم علامةٌ واضِحةٌ مِن رَبِّهم تَدُلُّهم على الحَقِّ(١).

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٨٦، ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧١، ٤٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين - جزء عم)) (ص: ٢٧٦).

و﴿مِنْ﴾ للتَّبيينِ. وممَّن اختاره: الكرمانيُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٤٢)، ((تفسير الألوسي)) (١/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٣).

وقيل: ﴿مِنْ﴾ للتَّبعيضِ. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٦٩).

قال ابن جُزَي: (ومعنى ﴿مُنفَكِّينَ﴾: مُنفَصِلينَ، ثمَّ اختُلِف في هذا الانفصالِ على أربعةِ أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّ المعنى: لم يَكونوا مُنفصِلينَ عن كُفرِهم حتَّى تأتيَهم البَيِّنةُ؛ لِتَقومَ عليهم الحُجَّةُ.

الثَّاني: لم يَكونوا منفصِلينَ عن معرفةِ نُبوَّةِ سيِّدِنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم حتَّى بعثه اللهُ.

الثَّالثُ: اختاره ابنُ عطيَّةَ، وهو: لم يَكونوا منفصلينَ عن نظَرِ الله وقُدرتِه حتَّى يَبعَثَ الله إليهم رسولًا يُقيمُ عليهم الحُجَّةَ.

الرَّابعُ: وهو الأظهَرُ عندي، أنَّ المعنى: لم يَكونوا لِيَنفَصِلوا مِن الدُّنيا حتَّى بعث الله لهم سيِّدُنا محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم فقامت عليهم الحُجَّةُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠١).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ في الجملةِ -أي: زائلينَ عن كُفرِهم وشِركِهم، ومُفارِقينَ لدينِهم ومُنتَهينَ عنه ومُنفصِلينَ عن ضَلالِهم-: الزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، والثعلبيُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن أبي =

= زمنين)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٦).

قالوا: و﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ﴾ أي: حتَّى أتَتْهم، مُستقبَلٌ بمعنى الماضي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٠).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ -أي: مُفترِقينَ في أمرِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم-: ابنُ جرير، والنَّحَّاسُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ١٦٨).

قال النَّحَّاس: (لم يكُنِ الكفَّارُ متفرِّقينَ إلَّا مِن بَعدِ أن جاءهم الرَّسولُ؛ لأنَّهم فارَقوا ما عِندَهم مِن صفةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فكفَروا بعدَ البَيانِ. وهذا القولُ في العربيَّةِ أَوْلى؛ لأنَّ ﴿مُنفَكِّينَ﴾ لو كان بمعنى زائلينَ لَاحتاج إلى خبَرٍ، ولكن يكونُ مِن انفَكَّ الشَّيءُ مِن الشَّيءِ، أي: فارَقه). ((إعراب القرآن)) (٥/ ١٦٨).

ونحو ذلك قولُ أبي السعود: (﴿مُنفَكِّينَ﴾: أي: عمَّا كانوا عليه مِن الوعدِ باتباعِ الحقِّ والإيمانِ بالرسولِ المبعوثِ في آخرِ الزمانِ، والعزمِ على إنجازِه). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٢)

وممَّن اختار القولَ الثَّالثَ: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ تيميَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٩٤).

قال ابن تيميَّةَ عن هذا القولِ: (هو أَصَحُّ الأقوالِ لفظًا ومعنًى؛ أمَّا مِن جهةِ اللَّفظِ ودَلالتِه وبيانِه فإنَّ هذا اللَّفظَ هو مُستعمَلٌ فيما يُلزَمُ به الإنسانُ بغيرِ اختياره، ويُقهَرُ عليه إذا تخلَّصَ منه، فقولُه: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ أي: لم يَكونوا مَتروكينَ باختيارِ أنفُسِهم يَفعلونَ ما يَهْوونَه لا حَجْرَ عليهم، كما أنَّ المُنفَكَّ لا حَجْرَ عليه. وهو لم يقُلْ: «مَفْكُوكينَ»، بل قال: ﴿مُنفَكِّينَ﴾، وهذا أحسَنُ؛ فإنَّه نفيٌ لِفِعْلِهم، ولو قال «مَفكوكينَ» كان التَّقديرُ: لم يَكونوا مُسَيَّبينَ مُخَلَّيْنَ، فهو نفْيٌ لِفعلِ غيرِهم. والمقصودُ أنَّهم لم يَكونوا مَتروكينَ لا يُؤْمَرونَ ولا يُنْهَوْنَ ولا تُرسَلُ إليهم رُسلٌ، بل يَفعلون ما شاؤوا ممَّا تَهواه الأنفُسُ! والمعنى: أنَّ اللهَ ما يُخلِّيهم ولا يَترُكُهم، فهو لا يَفُكُّهم حتَّى يَبعَثَ إليهم رسولًا، وهذا كقولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٣، ١٣٤].

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه أجمَلَ البيِّنةَ، ثمَّ فصَّلها فيما بَعْدَها، فقال[1]:

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾.

أي: وتلك البَيِّنةُ هي رَسولٌ مِنَ اللهِ -وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- يَقرأُ عليهم القُرآنَ المكتوبَ في صُحُفٍ مُنَزَّهةٍ عن كُلِّ سُوءٍ[2].

= سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] لا يُؤمَرُ ولا يُنهَى، أي: أيَظُنُّ أنَّ هذا يكونُ؟! هذا ما لا يكونُ الْبَتَّةَ، بل لا بُدَّ أن يُؤمَرَ ويُنهَى). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٤٩٤، ٤٩٥).

قال الواحديُّ: (وهذه الآيةُ مِن أصعَبِ ما في القرآنِ نظمًا وتفسيرًا، وقد تخبَّط فيها الكِبارُ مِن العُلماءِ، وسلَكوا في تفسيرِها طُرُقًا لا تُفضي بهم إلى الصَّوابِ). ((البسيط)) (٢٤/ ٢٠٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٩).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٦، ٢٧٧).

قال ابن كثير: (يعني: محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما يَتلوه مِن القُرآنِ العظيمِ، الَّذي هو مُكتَتَبٌ في الملأِ الأعلى، في صُحُفٍ مُطَهَّرةٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٦).

وقال السعدي: (محفوظةٌ عن قِرْبانِ الشَّياطينِ، لا يَمَسُّها إلَّا المطهَّرونَ؛ لأنَّها في أعلى ما يكونُ مِن الكَلامِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

قال الماوَرْدي: (﴿يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ يعني: القُرآنَ. ويحتَمِلُ ثانيًا: يتعقَّبُ بنُبوَّتِه نُزولَ الصُّحُفِ المطَهَّرةِ على الأنبياءِ قَبْلَه). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١٦). =

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾.

أي: في تلك الصُّحُفِ كُتُبٌ مُستقيمةٌ ليس فيها خَطَأٌ؛ لأنَّها مِن عِندِ اللهِ تعالى(١).

= وقيل: (جائزٌ أن يكونَ قَولُه: ﴿يَتْلُوا صُحُفًا﴾: القرآنَ وسائِرَ الصُّحُفِ؛ لأنَّ سائِرَ الصُّحُفِ فيه).
يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٥٩٠).
قال السمرقندي: (ويُقالُ: سُمِّيَ القُرآنُ صُحُفًا؛ مِن كثرةِ السُّوَرِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٣).
(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٧).
قال الماوَرْدي: (﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: يعني: كُتُبَ اللهِ المستقيمةَ الَّتي جاء القُرآنُ بذِكْرِها، وثبت فيه صِدْقُها. حكاه ابنُ عيسى. الثَّاني: يعني: فُروضَ اللهِ العادِلةَ. قاله السُّدِّيُّ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١٦).
وقال ابنُ أبي زَمَنِين: (﴿قَيِّمَةٌ﴾ أي: مُستَقيمةٌ لا عِوَجَ فيها، يعني: الَّتي جاءَتْ بها الأنبياءُ). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥١).
وقال ابنُ عاشور: (معنى كَونِ الكُتُبِ كائِنةً في الصُّحُفِ: أنَّ الصُّحُفَ الَّتي يُكتَبُ فيها القُرآنُ تَشتَمِلُ على القُرآنِ، وهو يَشتَمِلُ على ما تضَمَّنَتْه كُتُبُ الرُّسُلِ السَّابِقينَ مِمَّا هو خالِصٌ مِن التَّحريفِ والباطِلِ، وهذا كما قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩]، فالقُرآنُ زُبدةُ ما في الكُتُبِ الأُولى ومَجمَعُ ثَمَرتِه؛ فأُطلِقَ على ثَمَرةِ الكُتُبِ اسمُ كُتُبٍ... [أو] المرادُ بالكُتُبِ أجزاءُ القُرآنِ أو سُوَرُه، فهي بمَثابةِ الكُتُبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٧). ويُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٥٩٠).
وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: الأحكامُ المكتوبةُ فيها، ﴿قَيِّمَةٌ﴾ أي: عادلةٌ، مُستقيمةٌ، غيرُ ذاتِ عِوَجٍ، تُبيِّنُ الحقَّ مِن الباطِلِ: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، وابن عطية. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٧).
قال السمعاني: (والكتابُ يأتي بمعنَى الحُكمِ، والكُتُبُ بمعنى الأحكامِ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٣).
وقال ابن عطيَّة: (فيه حذفُ مُضافٍ، تقديرُه: فيها أحكامُ كُتُبٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٧).=

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾

أي: وما تفَرَّق اليَهودُ والنَّصارى في شأنِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فكَذَّبوا به إلَّا بعْدَما بعَثَه اللهُ، فتفرَّقوا فيه؛ فكَذَّب به بعضُهم، وآمَنَ بَعضُهم، وقد كانوا قبْلَ مَبعَثِه مُتَّفقينَ على نُبوَّتِه وتَصديقِه[١]!

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

أي: وما أَمَر اللهُ اليَهودَ والنَّصارى إلَّا بعِبادتِه مُفْرِدينَ له الطَّاعةَ، لا يُشارِكونَ في عبادَتِه معَه غيرَه[٢].

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

= قال السعدي: (﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي: أخبارٌ صادِقةٌ، وأوامِرُ عادِلةٌ تَهدي إلى الحَقِّ وإلى صِراطٍ مُستقيم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

وقال مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ: (إنَّما سُمِّيت ﴿كُتُبٌ﴾؛ لأنَّ فيها أمورًا شَتَّى كثيرةً مِمَّا ذَكَر اللهُ -عزَّ وجَلَّ- في القرآنِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٠).

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].

﴿حُنَفَآءَ﴾.

أي: مائِلينَ ومُعرِضينَ عن الشِّركِ إلى التَّوحيدِ، مُستَقيمينَ على دينِ الإسلامِ[١].

قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣].

﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر أصْلَ الدِّينِ أتْبَعَه الفُروعَ؛ فبدأ بأعظَمِها الَّذي هو مَجمَعُ الدِّينِ، ومَوضِعُ التَّجَرُّدِ عن العَوائِقِ، فقال[٢]:

﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: وأُمِروا بإقامةِ الصَّلواتِ بحُدودِها وشُروطِها وأركانِها في أوقاتِها[٣].

﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩٥).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى صِلةَ الخالِقِ؛ أتْبَعَها صِلةَ الخلائِقِ، بقَولِه تعالى[(١)]:

﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾.

أي: وأُمِروا بإيتاءِ الزَّكاةِ إلى أهلِها المُستَحِقِّينَ لها[(٢)].

﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾.

أي: وذلك الَّذي أُمِروا به مِنَ التَّوحيدِ وإقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ: هو دينُ الإسلامِ المُستقيمُ العادِلُ[(٣)].

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣٠، ٣١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فيه تنبيهٌ على ما يجِبُ مِن تحصيلِ الإخلاصِ مِن ابتداءِ الفِعْلِ إلى انتِهائِه[(٤)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ تحريمُ الرِّياءِ[(٥)]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((رياض الصالحين)) للنووي (ص: ٤٥٧)، ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٣٣٨).

وأنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يُخْلِصَ النِّيَّةَ للهِ سُبحانَه وتعالى في جميعِ عباداتِه، وألَّا يَنويَ بعباداتِه إلَّا وَجْهَ اللهِ تعالى، والدَّارَ الآخِرةَ(١).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ فيه أنَّ الكمالَ في كُلِّ شَيءٍ إنَّما يَحصُلُ إذا حَصَل الأصلُ والفَرعُ معًا؛ فقومٌ أطنَبوا في الأعمالِ مِن غَيرِ إحكامِ الأُصولِ، وهم اليَهودُ والنَّصارى والمجوسُ، فإنَّهم رُبَّما أتعَبوا أنفُسَهم في الطَّاعاتِ، ولكِنَّهم ما حَصَّلوا الدِّينَ الحَقَّ، وقَومٌ حَصَّلوا الأصولَ وأهملوا الفُروعَ، وهم المُرجِئةُ الَّذين قالوا: (لا يَضُرُّ الذَّنبُ مع الإيمانِ)! واللهُ تعالى خطَّأَ الفريقَينِ في هذه الآيةِ، وبيَّنَ أنَّه لا بُدَّ مِن العِلمِ والإخلاصِ، في قَولِه تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ﴾، ومِنَ العَمَلِ، في قَولِه تعالى: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ثمَّ قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ المجموعُ كُلُّه هو ﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾، أي: البيِّنةِ المُستقيمةِ المعتَدِلةِ، فكما أنَّ مجموعَ الأعضاءِ بَدَنٌ واحِدٌ، كذا هذا المجموعُ دِينٌ واحِدٌ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الشِّركُ المُطلَقُ في القُرآنِ لا يَدخُلُ فيه أهلُ الكِتابِ، وإنَّما يَدخُلونَ في الشِّركِ المُقيَّدِ؛ قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ فقد جعَلَ سُبحانَه هنا المُشرِكينَ قِسمًا غيرَ أهلِ الكتابِ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾[الحج: ١٧] فجعَلَهم قِسمًا غيرَهم، فأمَّا دُخولُهم في المُقيَّدِ ففي قَولِه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٥).

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، فوَصَفَهم بأنَّهم مُشرِكونَ، وسببُ هذا أنَّ أصلَ دِينِهم الَّذي أنْزَلَ اللهُ به الكُتُبَ وأرسَلَ به الرُّسُلَ ليس فيه شِركٌ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، ولكِنَّهم بَدَّلوا وغَيَّروا، فابتدَعوا مِن الشِّركِ ما لَمْ يُنَزِّلْ به اللهُ سُلطانًا؛ فصار فيهم شِرْكٌ باعتبارِ ما ابتدَعوا، لا باعتبارِ أصلِ الدِّينِ(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ قال: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾، ولم يقُلْ: (مِنَ اليَهودِ والنَّصارى)؟

الجوابُ: لأنَّ قَولَه: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يدُلُّ على كَونِهم عُلَماءَ، وذلك يَقتضي إمَّا مَزيدَ تَعظيمٍ، فلا جرَمَ ذُكِروا بهذا اللَّقَبِ دونَ اليَهودِ والنَّصارى، أو لأنَّ كَونَه عالِمًا يَقتضي مَزيدَ قُبحٍ في كُفْرِه، فذُكِروا بهذا الوَصفِ؛ تنبيهًا على تلك الزِّيادةِ مِن العِقابِ(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ فَسَّرَ اللهُ تعالى قولَه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بـ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وبـ(الْمُشْرِكِينَ)، فهذا يَقتضي كوْنَ الكُلِّ واحِدًا في الكُفرِ، فمِن ذلك قال العُلَماءُ: الكُفرُ كُلُّه مِلَّةٌ واحِدةٌ؛ واستُدِلَّ به على توارُثِ أهلِ الكفرِ فيما بيْنَهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٩). ويُنظر أيضًا: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٤١).
وهو مذهبُ الإمامَينِ أبي حنيفةَ والشَّافعيِّ، وروايةٌ عن الإمامِ أحمدَ: أنَّه يَثبُتُ التَّوارُثُ =

٤- قولُه تعالى: ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ ظاهِرُه أنَّ الرَّسولَ يَقرأُ المَكتوبَ مِن الكِتابِ، مع أنَّه مُنتفٍ في حقِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لكَونِه أُمِّيًّا، فالمرادُ أنَّه يَتْلو ما في الصُّحفِ عن ظَهرِ قَلبِه[(١)]، ولا يَقرَؤُه من صُحُفٍ، فمعنى ﴿يَتْلُوا صُحُفًا﴾ يَتْلو ما هو مكتوبٌ في صُحُفٍ، والقرينةُ ظاهِرةٌ، وهي اشتِهارُ كَونِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمِّيًّا[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ إقامةُ الحُجَّةِ على أهلِ الشَّرائعِ، وذَمُّ تَفرُّقِهم واختلافِهم، وأنَّ ذلك بعدَ أنْ جاءتهم البَيِّنةُ[(٣)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ أنَّ أهلَ التَّوراةِ والإنجيلِ قبْلَ النَّسخِ والتَّبديلِ مُسلِمونَ حُنفاءُ على مِلَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[(٤)].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ استُدِلَّ به على وُجوبِ النِّيَّةِ في العِباداتِ؛ لأنَّ الإخلاصَ لا يكونُ بدُونِها[(٥)]. فالأصلُ المُستقِرُّ في جميعِ العباداتِ المقصودةِ: أنَّها لا تَصِحُّ إلَّا بنيَّةٍ؛ لهذه الآيةِ[(٦)]. فاللهُ

= بيْنَهم وإنِ اختلفَتْ مِلَلُهم. وذهب الإمامُ مالكٌ إلى أنَّهم ثلاثُ مِلَلٍ: فاليهودُ مِلَّةٌ، والنَّصارى مِلَّةٌ، ومَن عَداهم مِلَّةٌ. وعندَ الإمامِ أحمدَ في روايةٍ عنه: هم مِلَلٌ شَتَّى. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢/ ٣٠٩).

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير آيات أَشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٢٧٩).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٩٥).

(٦) يُنظر: ((شرح العمدة لابن تيمية- كتاب الحج)) (٢/ ٥٨٢).

سُبحانَه لم يأمُرْهم إلَّا بعَمَلٍ هو عبادةٌ قد أخلَصَ عامِلُها النِّيَّةَ فيها لرَبِّه عزَّ وجلَّ، ومَعلومٌ أنَّ النِّيَّةَ جُزءٌ مِن العبادةِ، بل هي رُوحُ العبادةِ؛ فعُلِمَ أنَّ العَمَلَ الَّذي لم يُنْوَ ليس بعِبادةٍ، ولا مأمورٍ به، فلا يكونُ فاعِلُه متقرِّبًا إلى اللهِ تعالى، وهذا ممَّا لا يَقْبَلُ نِزاعًا[1].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ قد استدَلَّ كثيرٌ مِنَ الأئمَّةِ -كالزُّهْريِّ والشَّافِعيِّ وأحمدَ- بهذه الآيةِ الكريمةِ على أنَّ الأعمالَ داخِلةٌ في الإيمانِ[2]، فقد جَعَلَ سُبحانَه عبادةَ اللهِ تعالى، وإخلاصَ القلبِ، وإقامَ الصَّلاةِ، وإيتاءَ الزَّكاةِ؛ كلَّه: مِن الدِّينِ[3].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ في هذه الآيةِ رَدٌّ صَريحٌ على أولئك الَّذين يُنادُون بدونِ عِلمٍ إلى وَحْدةِ الأديانِ! فهذا النَّصُّ الصَّريحُ بأنَّ ذلك الَّذي جاء به القرآنُ هو دِينُ القَيِّمةِ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وهي أفعَلُ تفضيلٍ، فلا يمكِنُ أن يُعادَلَ ويُساوى مع غيرِه أبدًا! وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، فأخَذَ اللهُ العَهدَ على جميعِ الأنبياءِ لَئِنْ أدركوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَيُؤمِنُنَّ به ولَيَنصُرُنَّه وليَتَّبِعُنَّه، وقد أخبَرَ الرُّسُلُ أُمَمَهم بذلك؛ فلم يَبْقَ مجالٌ في هذا الوقتِ ولا غيرِه

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٤٨).
(٣) يُنظر: ((لمعة الاعتقاد)) لابن قدامة (ص: ٢٦).

لدعوةِ الجاهِليَّةِ بعُنوانٍ مُجوَّفٍ (وَحدةُ الأديانِ!)، بل الدِّينُ الإسلاميُّ وَحْدَه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾(١) [آل عمران: ٨٥].

١٠- في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أنَّ النَّاسَ لم يُؤمَروا بشَيءٍ يَتعلَّقُ بأُمورِ الدُّنيا، أو بشَيءٍ يُكلِّفُهم، بل هو شيءٌ سَهلٌ عليهم وهو: عِبادةُ اللهِ عزَّ وجلَّ(٢)!

١١- التَّعبيرُ بالفِعلِ المُسنَدِ للمَجهولِ ﴿أُمِرُوٓا۟﴾ مُفيدٌ مَعنيَينِ، أي: ما أُمِروا في كِتابِهم إلَّا بما جاء به الإسلامُ، أو المعْنى: وما أُمِروا في الإسلامِ إلَّا بمِثلِ ما أمَرَهُم به كِتابُهم؛ فلا مَعذرةَ لهم في الإعراضِ عن الإسلامِ على كِلا التَّقديرينِ(٣).

١٢- قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ المَقصودُ إقامةُ الحُجَّةِ على أهلِ الكتابِ وعلى المشرِكين تَبَعًا لهم بأنَّهم أعْرَضوا عمَّا هم يَتطلَّبونه؛ فإنَّهم جميعًا مُقِرُّون بأنَّ الحَنيفيَّةَ هي الحقُّ، والمشرِكون يَزعُمون أنَّهم يَطلُبون الحَنيفيَّةَ ويأخُذون بما أدْرَكوه مِن بَقاياها، ويَزعُمون أنَّ اليهوديَّةَ والنَّصرانيَّةَ تَحريفٌ للحَنيفيَّةِ(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ هذا الكلامُ مَسوقٌ مَساقَ نقْلِ الأقوالِ المُستغرَبةِ المُضطرِبةِ الدَّالَّةِ

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٨٢).

على عدَمِ ثَباتِ آراءِ أصْحابِها؛ فهو مِن الحِكايةِ لِما كانوا يَعدون به، فهو حِكايةٌ بالمعْنى، كأنَّه قِيل: كُنتُم تَقولون: لا نَترُكُ ما نحنُ عليه حتَّى تَأتِيَنا البيِّنةُ، وهذا تَعريضٌ بالتَّوبيخِ بأُسلوبِ الإخبارِ المُستعمَلِ في إنشاءِ التَّعجيبِ أو الشِّكايةِ مِن صَلَفِ المُخبَرِ عنه، وهو استعمالٌ عَزيزٌ بَديعٌ؛ فالخبَرُ مُوجَّهٌ لكلِّ سامعٍ، ومَضمونُه قَولٌ كان صدَرَ مِن أهلِ الكتابِ واشتَهَرَ عنهم وعُرِفوا به، وتَقرَّرَ تَعلُّلُ المشركينَ به لأهلِ الكتابِ حينَ يَدْعُونهم إلى اتِّباعِ اليَهوديَّةِ أو النَّصرانيَّةِ، فيَقولون: لمْ يَأتِنا رسولٌ كما أتاكم؛ قال تعالَى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]. وتَقرَّر تَعلُّلُ أهلِ الكتابِ به حِينَ يَدْعوهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للإسلامِ؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عمران: ١٨٣] الآيةَ، وشُيوعُه عن الفريقينِ قَرينةٌ على أنَّ المرادَ مِن سياقِه دَمْغُهم بالحُجَّةِ، وبذلك كان التَّعبيرُ بالمُضارعِ المُستقبَلِ في قولِه: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ مُصادفًا المَحزَّ(١)؛ فإنَّهم كانوا يَقولون ذلك قبْلَ مَجيءِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحاصلُ المعْنى: أنَّكم كُنتم تَقولون: لا نَترُكُ ما نحنُ عليه مِن الدِّينِ حتَّى تَأتِيَنا البيِّنةُ، أي: العلامةُ الَّتي وُعِدْنا بها، وقد جُعِلَ ذلك تَمهيدًا وتَوطئةً لقولِه بعْدَه: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ إلخ(٢).

- قولُه: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: اليهودُ والنَّصارَى، وإيرادُ

(١) المَحَزُّ: مَوضِعُ الحَزِّ، أي: القَطعِ. وأصابَ المحزَّ: عبارةٌ عن فِعلِ الأمرِ على ما يَنبَغي ويَليقُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧١، ٤٧٢).

الصِّلةِ فِعلًا؛ لِما أنَّ كُفْرَهم حادثٌ بعْدَ أنبيائِهم[١].

- ومُتعلَّقُ ﴿مُنفَكِّينَ﴾ مَحذوفٌ، دلَّ عليه وَصْفُ المُتحدَّثِ عنهم بصِلةِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، والتَّقديرُ: مُنفكِّين عن كُفْرِهم وتاركينَ له، سواءٌ كان كُفْرُهم إشراكًا باللهِ، مِثل كُفرِ المشركينَ، أو كان كُفْرًا بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

- والبيِّنةُ: الحُجَّةُ الواضحةُ والعلامةُ على الصِّدقِ، ولعلَّ إيثارَ التَّعبيرِ بها هنا؛ لأنَّها أحسَنُ ما تُترجَمُ به العبارةُ الواقعةُ في كُتبِ أهلِ الكتابِ ممَّا يَحومُ حولَ معْنى الشَّهادةِ الواضحةِ لكلِّ مُتبصِّرٍ، كما وَقَعَ في إنْجيلِ مَتَّى لَفظُ: (شَهادة لجَميعِ الأُمَمِ)، ولعلَّ التزامَ هذه الكلمةِ هنا مرَّتينِ كان لهذه الخُصوصيَّةِ[٣].

- والتَّعريفُ في (البيِّنة) تَعريفُ العهْدِ الذِّهنيِّ، وهو أنْ يُرادَ مَعهودٌ بنَوعِه لا بشَخْصِه، كقَولِهم: ادخُلِ السُّوقَ، لا يُريدون سُوقًا مُعيَّنةً، بلْ ما يُوجَدُ فيه ماهيَّةُ سُوقٍ، فالمعرَّفُ بهذه اللَّامِ هو في المعْنى نَكِرةٌ، فكأنَّه قِيل: حتَّى تَأتيَهم بيِّنةٌ. ويَجوزُ أنْ يكونَ التَّعريفُ لمَعهودٍ عندَ المخبَرِ عنهم، أي: البيِّنةُ الَّتي هي وَصايا أنْبيائِهم، فهي مَعهودةٌ عندَ كلِّ فَريقٍ منهم وإنِ اختلَفوا في تَخيُّلِها، وابتَعَدوا في تَوهُّمِها بما تُمْليه عليهم تَخيُّلاتُهم واختلاقُهُم[٤].

وقيل: التَّعريفُ في قولِه: ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ للتَّفخيمِ، أي: هو البيِّنةُ الَّتي لا مَزيدَ عليها، أو البيِّنةُ كلُّ البيِّنةِ؛ لأنَّ التَّعريفَ قد يكونُ للتَّفخيمِ، وكذا التَّنكيرُ، وقد جمَعَهما اللهُ هاهنا في حقِّ الرَّسولِ عليه السَّلامُ؛ فبَدَأَ بالتَّعريفِ، وهو لفظ ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾، ثمَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٧٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ثَنَّى بالتَّنكيرِ فقال: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: هو رَسولٌ، وأيُّ رسولٍ[١]!

- قيل: إنَّما قدَّمَ أهلَ الكتابِ على المشركين هنا في قولِه: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ ...﴾ مع أنَّ كُفرَ المشركين أشدُّ مِن كُفْرِ أهلِ الكتابِ؛ لأنَّ لأهلِ الكتابِ السَّبْقَ في هذا المقامِ؛ فهمُ الَّذين بَثُّوا بيْن المشرِكين شُبهةَ انطباقِ البيِّنةِ الموصوفةِ بيْنَهم، فأيَّدوا المشرِكين في إنكارِ نُبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما هو أتقَنُ مِن تُرَّهاتِ المشرِكين؛ إذ كان المشركون أُمِّيِّينَ لا يَعلَمون شيئًا مِن أحوالِ الرُّسلِ والشَّرائعِ، فلمَّا صَدَمَتْهم الدَّعوةُ المُحمَّديةُ، فَزِعوا إلى اليهودِ ليَتلقَّوا منهم ما يرُدُّون به تلك الدَّعوةَ، وخاصةً بعْدَ ما هاجَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى المدينةِ، فالمَقصودُ بالإبطالِ ابتداءً هو دَعْوى أهلِ الكتابِ، وأمَّا المشركون فتَبَعٌ لهم[٢].

وقيل: لأنَّ السُّورةَ مَدَنيَّةٌ، فكأنَّ أهلَ الكِتابِ هم المقصودونَ بالذِّكْرِ.

وقيل: لأنَّهم لكَونِهم عُلَماءَ يَقتَدي غيرُهم بهم، فكان كُفرُهم أصلًا لكُفرِ غَيرِهم؛ فلهذا قُدِّموا في الذِّكرِ.

وقيل: لأنَّهم كانوا عُلَماءَ بالكُتُبِ، فكانت قُدرتُهم على معرفةِ صِدقِ محمَّدٍ أتَمَّ، فكان إصرارُهم على الكُفرِ أقبَحَ[٣]. فالعالِمُ لَمَّا كان أَولى باتِّباعِ الحَقِّ، وأشَدَّ جُرمًا عندَ فِعلِ ما يقتَضي اللَّومَ؛ بدأ بقَولِه: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: مِنَ اليَهودِ والنَّصارى الَّذين كان أصلُ دينِهم حَقًّا[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ يَجوزُ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٨٦).

يكونَ الكلامُ انتهى عندَ قولِه: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾؛ فيكونَ الوقفُ هناك، ويكونَ قولُه: ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إلى آخِرِها جُملةً مُستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا، أي: هي رسولٌ مِن اللهِ، يعني: لأنَّ ما في البيِّنةِ مِن الإبهامِ يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عن صِفةِ هذه البيِّنةِ، وهي جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ إلى آخِرِها، وبيْن جُملةِ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [البينة: ٤].

ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿رَسُولٞ﴾ بدَلًا مِن ﴿ٱلۡبَيِّنَةُ﴾، فيَقْتضي أنْ يكونَ مِن تَمامِ لَفظِ (بيِّنة)؛ فيكونَ مِن حِكايةِ ما زَعَموه، وأُريدَ بذلك إبطالُ مَعاذيرِهم، وإقامةُ الحُجَّةِ عليهم بأنَّ البيِّنةَ الَّتي يَنتظِرونها قد حلَّت، ولكنَّهم لا يَتدبَّرون، أو لا يُنصِفون، أو لا يَفقَهون، قال تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، وتَنكيرُ ﴿رَسُولٞ﴾ للنَّوعيَّةِ المرادِ منها تَيسيرُ ما يُستصعَبُ، وفي هذا التَّبيينِ إبطالٌ لمَعاذيرِهم، كأنَّه قيل: فقدْ جاءتْكم البيِّنةُ، على حدِّ قولِه تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞ﴾ [المائدة: ١٩]، وهو يُفيدُ أنَّ البيِّنةَ هي الرَّسولُ، وذلك مِثلُ قولِه تعالَى: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا * رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١]، وفي هذا تَذكيرٌ بغَلَطِهم؛ فإنَّ كُتبَهم ما وَعَدَت إلَّا بمَجيءِ رَسولٍ معه شَريعةٌ وكِتابٌ مُصدِّقٌ لِما بيْن يَدَيْه(١).

- قولُه: ﴿رَسُولٞ﴾ بدَلٌ مِن ﴿ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ -على قولٍ- بدَلَ كلٍّ مِن كلٍّ، على سَبيلِ المُبالَغةِ، جُعِلَ الرَّسولُ نفْسَ البيِّنةِ، وعُبِّرَ عنه عليهِ السَّلامُ بالبيِّنةِ؛ للإيذانِ بغايةِ ظُهورِ أمرِه، وكَونِه ذلكَ المَوعودَ في الكتابَينِ، وللإعلامِ بأنَّ ذاتَه كانت بيِّنةً على نُبوَّتِه؛ لأنَّه كان في نِهايةٍ مِن الجِدِّ في تَقريرِ النُّبوَّةِ، وفي غايةٍ مِن الصِّدقِ، وكَمالٍ مِن العقْلِ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٥، ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢، ٢٣٩، ٢٤٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٢٨)، =

- ولعلَّ السِّرَّ في جَعْلِه البيِّنةَ تَوطئةً لذِكرِ الرَّسولِ، التَّعريضُ بهم وبقَولِهم: النَّبيُّ الموعودُ الَّذي هو مَكتوبٌ في التَّوراةِ والإنجيلِ، كما وبَّخهم بقولِه: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣]، ولهذا السِّرِّ أيضًا أُفرِدَ ذِكرُهم عن المشركين في قولِه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، كأنَّهم عُيِّروا بالتَّفرُّقِ وهم أهلُ الكتابِ؛ لأنَّ جُحودَ العالِمِ أقبَحُ مِن إنكارِ الغافِلِ(١).

- قولُه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿رَسُولٌ﴾، أو بمُضمَرٍ هو صِفةٌ لـ﴿رَسُولٌ﴾ مُؤكِّد لِما أفادَه التَّنوينُ مِن الفَخامةِ الذَّاتيَّةِ بالفَخامةِ الإضافيَّةِ، أي: رَسولٌ وأيُّ رَسولٍ كائنٌ منْهُ تعالى. ولم يُسلَكْ طَريقُ الإضافةِ؛ ليَتأتَّى تَنوينُ ﴿رَسُولٌ﴾، فيُشعِرَ بتَعظيمِ هذا الرَّسولِ(٢).

- وجُملةُ ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا ...﴾ إلخ صِفةٌ ثانيةٌ، أو حالٌ، وهي إدماجٌ(٣) بالثَّناءِ

= ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٢).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٢٨).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائد (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٦).

(٣) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -من مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

على القرآنِ[١].

- والتِّلاوةُ: إعادةُ الكلامِ دونَ زِيادةٍ عليه ولا نقْصٍ منه، سواءٌ كان كلامًا مَكتوبًا أو مَحفوظًا عن ظَهرِ قلْبٍ، ففِعلُ ﴿يَتْلُوا﴾ مُؤذِنٌ بأنَّه يَقرَأُ عليهم كَلامًا لا تُبدَّلُ ألْفاظُه، وهو الوحْيُ المُنزَّلُ عليه[٢].

- والصُّحفُ: الأوراقُ والقَراطيسُ الَّتي تُجعَلُ لأنْ يُكتَبَ فيها، وتكونُ مِن رَقٍّ أو جِلدٍ، أو مِن خِرَقٍ، وتَسميةُ ما يَتْلوه الرَّسولُ صُحفًا باعتِبارِ ما سيَؤولُ إليه؛ لأنَّه مَأمورٌ بكِتابتِه، فهو عندَ تِلاوتِه سيَكونُ صُحفًا، وهذا إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ أمَرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بكِتابةِ القرآنِ في الصُّحفِ وما يُشبِهُ الصُّحفَ مِن أكتافِ الشَّاءِ والخِرَقِ والحِجارةِ، وأنَّ الوحْيَ المُنزَّلَ على الرَّسولِ سُمِّيَ كِتابًا في قولِه تعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] مِن أجْلِ هذا المعْنى[٣].

- ووُصِفَت الصُّحفُ بـ ﴿مُّطَهَّرَةً﴾، وهو وَصْفٌ مُشتَقٌّ مِن الطَّهارةِ، أي: كَونُ مَعانيه لا لَبْسَ فيها، ولا تَشتمِلُ على ما فيه تَضليلٌ، وهذا تَعريضٌ ببَعضِ ما في أيْدي أهلِ الكتابِ مِن التَّحريفِ والأوهامِ[٤].

- والقَيِّمةُ: المُستقيمةُ، أي: شَديدةُ القيامِ الَّذي هو هنا مُعبَّرٌ به عن الكَمالِ والصَّوابِ، وهذا مِن تَشبيهِ المَعقولِ بالمَحسوسِ تَشبيهًا بالقائمِ لاستِعدادِه للعملِ النافعِ، وضِدُّه العِوَجُ؛ قال تعالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ * قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١، ٢]، أي: لم يَجعَلْ فيه نقْصَ الباطلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والخطَأِ، فالقيِّمةُ مُبالَغةٌ في القائمِ، مِثلُ السيِّدِ للسائدِ، والميِّتِ للمائتِ، وتَأنيثُ الوصْفِ؛ لاعتبارِ كَونِه وَصْفًا لجمْعٍ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ كلامٌ مَسوقٌ لغايةِ تَشنيعِ أهلِ الكِتابِ خاصَّةً، وتَغليظِ جِناياتِهم ببَيانِ أنَّ ما نُسِبَ إليهم مِن الانفكاكِ[2] لم يكُنْ لاشتباهٍ مَا في الأمرِ، بلْ كان بعْدَ وُضوحِ الحقِّ، وتَبيُّنِ الحالِ، وانقطاعِ الأعذارِ بالكُلِّيَّةِ، وهو السِّرُّ في وصْفِهم بإيتاءِ الكتابِ المُنبِئِ عن كَمالِ تَمكُّنِهم مِن مُطالَعتِه والإحاطةِ بما فِي تَضاعيفِه مِن الأحكامِ والأخبارِ، الَّتي مِن جُملتِها نُعوتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعْدَ ذِكْرِهم فيما سبَقَ بما هُو جارٍ مَجْرى اسمِ الجنسِ للطائفتينِ[3].

- وهو ارتقاءٌ في الإبطالِ، وهو إبطالٌ ثانٍ لدَعْواهم بطَريقِ النَّقضِ الجَدَليِّ المُسمَّى بالمُعارَضةِ، وهو تَسليمُ الدَّليلِ، والاستدلالُ لِما يُنافي ثُبوتَ المَدلولِ[4]، وهذا إبطالٌ خاصٌّ بأهْلِ الكتابِ اليهودِ والنَّصارى؛ ولذلك أظْهَرَ فاعلَ ﴿تَفَرَّقَ﴾ ولم يَقُلْ: (وما تَفرَّقوا إلَّا مِن بعْدِ ما جاءتْهم البيِّنةُ)؛ إذ لو أُضمِرَ لتُوهِّمَتْ إرادةُ المشركين مِن جُملةِ معادِ الضَّميرِ، فيَجوزُ أنْ تكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٧، ٤٧٨).

(٢) أي: عمَّا كانوا عليه مِن الوعدِ باتباعِ الحقِّ، والإيمانِ بالرسولِ المبعوثِ في آخرِ الزمانِ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٥).

(٤) ذكر أبو الوليدِ الباجي أنَّ معنى المُعارَضةِ: (أن يَستدِلَّ المُستدِلُّ بدَليلٍ، فيُسَلِّمَ السَّائلُ صِحَّتَه، ويُعارِضَه بدليلٍ مِثْلِه أو أقوى منه)، ثمَّ ذكر أنَّه إذا (عارَضه بمثلِ دليلِه أو بما هو أقوى منه، فلا حُجَّةَ للمُستدِلِّ؛ لأنَّ للسَّائلِ أن يقولَ له: إذا تساوى الدَّليلانِ فلِمَ تَعلَّقْتَ بالدَّليلِ الَّذي استَدلَلْتَ به دونَ ما يُخالِفُه مِن الدَّليلِ الَّذي عارَضْتُك به، ويلزمُ المُستدِلَّ ترجيحُ دليلِه على دليلِ السَّائلِ، وإلَّا كان مُنقَطِعًا). ((الحدود في الأصول)) (ص: ١٢٦).

الواوُ للعطْفِ عاطفةً إبطالًا على إبطالٍ، ويَجوزُ أنْ تكونَ واوَ الحالِ[١].

- وجُمِعَ بيْن أهلِ الكتابِ والمشركينَ أوَّلًا، ثمَّ أُفرِدَ أهلُ الكِتابِ في قولِه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ للدَّلالةِ على شَناعةِ حالِهم؛ لأنَّهم كانوا على عِلمٍ به؛ لوُجودِه في كُتبِهم، وعِلمِهم بنُبوَّتِه، وأنَّهم لَمَّا تَفرَّقوا مع عِلمِهم كان غيرُهم ممَّن لا كِتابَ له أدخَلَ في هذا الوصْفِ وأولى[٢]. أو لأنَّ المُشركينَ لم يُقَرُّوا على دينِهم، فمَنْ آمَنَ فهو المرادُ، ومَن لم يؤمِنْ قُتِلَ، بخِلافِ أهلِ الكِتابِ الَّذين يُقَرُّونَ على كُفْرِهم ببَذْلِ الجِزيةِ[٣]. وقيل غيرُ ذلك[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ مَسوقةٌ لبَيانِ قُبحِ ما فَعَلوا واسْتِسماجِه، وهو التَّفرُّقُ بعْدَ مَجيءِ البيِّنةِ الَّتي يجبُ أنْ يَصدَعَ بها كلُّ مَن له مُسْكةٌ -أي: بقيَّةٌ- مِن عقْلٍ[٥].

- وهذا إبطالٌ ثالثٌ لتَنصُّلِهم مِن مُتابَعةِ الإسلامِ بعِلَّةِ أنَّهم لا يَترُكون ما همْ عليه حتَّى تَأتيَهم البيِّنةُ، وزَعْمِهم أنَّ البيِّنةَ لم تَأتِهم، وهو إبطالٌ بطَريقِ القولِ بالمُوجَبِ[٦] في الجدَلِ، أيْ: إذا سَلَّمْنا أنَّكم مُوصونَ بالتَّمسُّكِ بما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٣).

(٦) القولُ بالموجَبِ في اصطلاحِ الأصوليِّينَ: هو تسليمُ ما جعَله المُستدِلُّ موجبًا لعِلَّتِه مع استبقاءِ الخِلافِ، ومعنى ذلك: أن يسلِّمَ الخصمُ الدَّليلَ الَّذى استدلَّ به المستدِلُّ، إلَّا أنَّه يقولُ: هذا الدَّليلُ ليس فى محلِّ النزاعِ، إنَّما هو في غيرِه؛ فيبقَى الخلافُ بيْنَهما. ومنه قولُه تعالى: ﴿يَقُولُونَ =

أنتم عليه لا تَنْفَكُّونَ عنه حتَّى تأتِيكم البيِّنَةُ، فليسَ في الإسلامِ ما يُنافي ما جاءَ به كتابُكم لأنَّ كِتابَكم يَأْمُرُ بما أمَر به القرآنُ، وهو عبادةُ اللَّهِ وحدَه دونَ إشراكٍ، وذلك هو الحنيفِيَّةُ وهي دينُ إبراهيمَ الَّذي أخَذ عليهم العهدَ به، فذلك دينُ الإسلامِ وذلك ما أُمِرْتُمْ به في دينِكم[١].

- ومُتعلَّقُ ﴿أُمِرُوٓاْ﴾ مَحذوفٌ للعُمومِ، أي: ما أُمِروا بشَيءٍ إلَّا بأنْ يَعبُدوا اللهَ، أو التَّقديرُ: وما أُمِروا بما أمَرْناهم به مِن شَرائعَ وأحكامٍ[٢].

- والغرَضُ مِن السِّياقِ إظهارُ تَوبيخِ أهلِ الكِتابِ، والنَّعْيُ على تَعكيسِ أمْرِهم؛ لأنَّ جُملةَ قولِه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ الآيةَ إمَّا حالٌ مِن فاعلِ ﴿تَفَرَّقَ﴾ مُقرِّرةٌ لجِهةِ الإشكالِ، أو عطْفٌ على جُملةِ قولِه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني: كان مِن مُوجبِ اتِّفاقِ الكتابينِ -أي: ما معهم، وهذا

= ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ فقد قال رأسُ النِّفاقِ ابنُ سَلولَ: ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ من غزوةِ بني المُصْطَلِقِ ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ﴾ -يَقصِدُ نفْسَه- ﴿مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ﴾ يعني: محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابَه؛ فأجابه الله تبارك وتعالى بمُوجَبِ قولِه مع عدمِ تسليمِه له، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ فإنه لَمَّا ذكر صِفةً -وهي العزَّةُ- وأثبَت لها حُكمًا -وهو الإخراجُ مِن المدينة-، ردَّ عليه ربُّ العِزَّةِ تبارك وتعالى بأنَّ هذه الصِّفةَ ثابتةٌ لكن لا لِمَن أراد ثُبوتَها له؛ فإنَّها ثابتةٌ لغيرِه، باقيةٌ على اقتضائِها للحُكمِ، وهو الإخراجُ؛ فالعزَّةُ موجودةٌ لكن لا له، بل للهِ ولرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم وللمؤمنينَ. يُنظر: ((المنهاج)) للباجي (ص: ١٧٣)، ((الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة)) لابن الجوزي (ص٣٣٥)، ((تشنيف المسامع بجمع الجوامع)) للزركشي (٤ / ٣٦١)، ((البحر المحيط)) للزركشي (٥/ ٢٩٧)، ((شرح المحلِّي على جمع الجوامع)) (٢ / ٣١٦)، ((غاية الوصول شرح لب الأصول)) لزكريا الأنصاري (ص: ١٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٩، ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٣).

القُرآن المجيد- على دِينِ التَّوحيدِ؛ المُوافقةُ مع مَن يُوافِقُهم فيه، ومُعاضدتُه، والتَّفادي عن مُخالَفتِه والتَّفرُّقِ عنه، وهمْ قد عَكَسوا! ونظْمُ الآيةِ أنَّه تعالَى لَمَّا عيَّر أهلَ الكتابِ والمشركين في تَقاعُدِهم عمَّا وَعَدوا مِن أنفُسِهم، وما كانوا يَقولون قبْلَ المَبعثِ: لا نَنفَكُّ عن دِينِنا حتَّى يُبعَثَ النَّبيُّ الموعودُ، ثمَّ بيَّن ما لَهم مِن الخِزيِ دُنيا، والنَّكالِ دُنيا وعُقبى، وما لأعدائِهم مِن الَّذين قامُوا على ما وَعَدوا تخجيلًا لأولئك وتَحسيرًا لهم، مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ إلى آخِرِ السُّورة؛ وَسَّطَ بيْن الكلامينِ النَّعْيَ على أهلِ الكِتابِ خاصَّةً، وأظهَرَ أنَّهم أشدُّ غيًّا وعِنادًا، حيث خالَفوا مع ما يُوجِبُ المُوافَقةَ[١].

- وحُنفاءُ: جمْعُ حَنيفٍ، وهو لقَبٌ للَّذي يُؤمِنُ باللهِ وحْدَه دونَ شَريكٍ، وهذا الوصْفُ تأكيدٌ لمعْنى ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، مع التَّذكيرِ بأنَّ ذلك هو دِينُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ الَّذي مُلِئَت التَّوراةُ بتَمجيدِه واتِّباعِ هَدْيِه[٢].

- وفي عطْفِ ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ على ﴿لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ المُقيَّدِ بالإخلاصِ، واختصاصِهما بالذِّكْرِ دونَ سائرِ العِباداتِ: الدَّلالةُ على شَرَفِهما، واستِبدادِهما بشَرْطِ الإخلاصِ[٣]، وكَونِهما العِبادتَينِ اللَّتَينِ مَن قام بهما قام بجَميعِ شرائعِ الدِّينِ[٤].

- قولُه: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ مِن عِبادةِ اللهِ تعالَى، والإخلاصِ، وإقامةِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ. وما في الإشارةِ مِن معْنى البُعدِ؛ للإشعارِ بعُلوِّ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٣١ - ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

رُتبةِ هذا الدِّينِ، وبُعدِ مَنزلتِه[١].

- و﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ إضافتُه على بابِها؛ فتكونَ ﴿ٱلْقَيِّمَةِ﴾ مُرادًا به غيرُ المرادِ بـ﴿دِينُ﴾ ممَّا هو مُؤنَّثُ اللَّفظِ ممَّا يُضافُ إليه دِينٌ، أي: دِينُ الأُمَّةِ القيِّمةِ أو دِينُ الكُتبِ القيِّمةِ، وهذا إلزامٌ لهم بأحَقِّيَّةِ الإسلامِ، وأنَّه الدِّينُ القيِّمُ. وقيل: أضافَ الدِّينَ إلى القيِّمةِ وهي نَعْتُه؛ لاختلافِ اللَّفظَينِ. أو هو مِن بابِ إضافةِ الشَّيءِ إلى نفْسِه، ودَخَلَت الهاءُ للمَدْحِ والمُبالَغةِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٤).

الآيات (٦-٨)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾: أي: الخَلْقِ، مأخوذٌ مِن بَرَأَ اللهُ الخَلْقَ، أي: خلَقَهم، وأصلُ (برأ) هنا: يدُلُّ على خَلْقٍ[1].

﴿عَدْنٍ﴾: أي: إقامةٍ وخُلدٍ، واستقرارٍ وثَباتٍ، وأصلُ (عدن): يدُلُّ على الإقامةِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا سوءَ عاقِبةِ هؤلاءِ الجاحِدينَ مِن أهلِ الكتابِ ومِن المشركينَ: إنَّ الكُفَّارَ -مِن اليَهودِ والنَّصارى والمُشرِكينَ- في نارِ جَهنَّمَ ماكِثينَ فيها، أولئك هم شَرُّ الخَليقةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه حُسنَ عاقبةِ المؤمنينَ، فيقولُ: إنَّ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ أولئك هم خَيرُ الخَليقةِ، ثوابُهم عِندَ رَبِّهم جنَّاتُ إقامةٍ دائِمةٍ تجري الأنهارُ من

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

تحتِها، ماكِثينَ في الجنَّةِ أبَدًا، رَضِيَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه، ذلك الثَّوابُ الكريمُ لِمَن خاف اللهَ تعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَر حالَ الكُفَّارِ أوَّلًا في قَولِه: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١]، ثمَّ ذكَر ثانيًا حالَ المؤمِنينَ في قَولِه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [البينة: ٥]؛ أعاد في آخِرِ هذه السُّورةِ ذِكرَ كِلا الفَريقَينِ، فبَدَأ أيضًا بحالِ الكُفَّارِ[(١)].

وأيضًا بعْدَ أنْ أنْحَى على أهلِ الكتابِ والمشركين معًا، ثمَّ خصَّ أهْلَ الكتابِ بالطَّعنِ في تَعلُّلاتِهم، والإبطالِ لشُبهاتِهم الَّتي يُتابِعُهم المشركون عليها؛ أعْقَبَه بوَعيدِ الفريقَينِ جَمْعًا بيْنَهما، كما ابتَدَأ الجمْعَ بيْنَهما في أوَّلِ السُّورةِ؛ لأنَّ ما سَبَقَ مِن المَوعظةِ والدَّلالةِ كافٍ في تَذليلِ أنفُسِهم للمَوعظةِ[(٢)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾.

أي: إنَّ الكُفَّارَ مِن اليَهودِ، والنَّصارى، والمُشرِكينَ باللهِ: في نارِ جَهنَّمَ يومَ القيامةِ، ماكِثينَ فيها أبَدًا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٢، ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٣).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾.

أي: أولئك الكُفَّارُ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى والمُشرِكينَ هم شَرُّ الخَليقةِ الَّتي خَلقَها اللهُ(١).

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر الأعداءَ، وبدأَ بهم؛ أتْبَعه الأولياءَ، فقال(٢):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧﴾.

أي: إنَّ الَّذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ: أولئك هم خَيرُ الخَليقةِ الَّتي خلَقَها اللهُ تعالى(٣).

﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا خَصَّ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ بالخَيريَّةِ؛ ذكَرَ ثَوابَهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٢٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩٧).

﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

أي: ثَوابُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ في الآخِرةِ عِندَ رَبِّهم: جنَّاتُ إقامةٍ دائِمةٍ لا تَحوُّلَ عنها، تجري الأنهارُ مِن تحتِ قصورِها وأشجارِها بلا انقِطاعٍ(١).

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾.

أي: ماكِثينَ في الجنَّةِ أبَدًا، يتنعَّمونَ في كُلِّ وَقتٍ بلا موتٍ ولا خروجٍ(٢).

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾.

أي: رَضِيَ اللهُ عنهم؛ بسَبَبِ إيمانِهم وطاعتِهم له، ورَضُوا هم عن اللهِ؛ لِمَا آتاهم مِن النَّعيمِ(٣).

﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾.

أي: ذلك الثَّوابُ الكريمُ والنَّعيمُ العَظيمُ يكونُ لِمَن خاف اللهَ في الدُّنيا وعَظَّمَه؛ فامتَثَل أوامِرَه، واجتَنَب نواهِيَه(٤).

قال تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ * مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣١ - ٣٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين - جزء عم)) (ص: ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين - جزء عم)) (ص: ٢٨٣).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ هذا تنبيهٌ على أنَّ وَعيدَ عُلَماءِ السُّوءِ أعظَمُ مِن وَعيدِ كُلِّ أحَدٍ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ أنَّه لَمَّا ذَكَرَ اللهُ حُكْمَ الكُفَّارِ مِن اليَهودِ والنَّصارى والمُشرِكينَ، ذَكَرَ حُكْمَ المؤمِنينَ، والقرآنُ الكريمُ مَثانٍ تُثَنَّى فيه المعاني، فيُؤتى بالمعنى وما يُقابِلُه، ويأتي بأصحابِ النَّارِ وأصحابِ الجَنَّةِ، ويأتي بآياتِ التَّرهيبِ وآياتِ التَّرغيبِ، وهَلُمَّ جرًّا؛ مِن أجْلِ أنْ يكونَ الإنسانُ سائرًا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بيْنَ الخَوفِ والرَّجاءِ، ولئلَّا يَمَلَّ؛ فإنَّ تنويعَ الأساليبِ وتنويعَ المواضيعِ لا شَكَّ أنَّه يعطي النَّفْسَ قوَّةً واندِفاعًا، بخلافِ ما لو كان الكَلامُ على وتيرةٍ واحدةٍ؛ فإنَّ الإنسانَ قد يَمَلُّ ولا تتحرَّكُ نَفْسُه[٢]!

٣- أنَّ مَن كان مؤمنًا كاملَ الإيمانِ فإنَّه يَرى أنَّه أعَزُّ خَلْقِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ قال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، وكما أنَّ المؤمِنَ أكرمُ الخَلْقِ عندَ اللهِ وأعزُّهم، فالكافِرُ أذَلُّهم عندَ اللهِ وأحَطُّهم؛ قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، فلا يجوزُ للمُسلمِ أنْ يَستَذِلَّ أمامَ الكافِرِ[٣]!

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٣/ ٣٢٠).

فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ هذه الآيةُ إذا ضُمَّ إليها آيةُ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨]، صار المجموعُ دليلًا على فَضْلِ العِلمِ والعُلَماءِ؛ فهذه الآيةُ المذكورةُ مِن سورةِ (فاطرٍ) دَلَّت على أنَّ العالِمَ يكونُ صاحِبَ الخَشيةِ، وقَولُه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ يدُلُّ على أنَّ صاحِبَ الخَشيةِ تكونُ له الجنَّةُ(١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾، أي: خاف المُحسِنَ إليه خوفًا يَليقُ به، فلم يَركَنْ إلى التَّسويفِ والتَّكاسُلِ، ولم يُطَبِّعْ نَفْسَه بالشَّرِّ بالجَريِ مع الهوى في التَّطَعُّمِ بالمحَرَّماتِ، بل كان ممَّن يَطلُبُ معاليَ الأخلاقِ، فيَستفتي قَلْبَه فيما يُرضي رَبَّه، فكان تواتُرُ إحسانِه يَزيدُه خوفًا، فيَزيدُه شُكرًا؛ فإنَّ الخَشيةَ مِلاكُ الأمرِ، والباعِثُ على كُلِّ خَيرٍ(٢).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ اسمُ الإشارةِ مُنصَبٌّ على مجموعِ الجزاءِ المتقَدِّمِ، وهو للَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، وهنا يقولُ: إنَّه لِمَن خَشِيَ رَبَّه؛ مِمَّا يفيدُ أنَّ تلك الأعمالَ تَصدُرُ منهم عن رَغبةٍ ورَهبةٍ؛ رَغبةٍ فيما عندَ اللهِ، ورَهبةٍ مِنَ اللهِ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ ذكَرَ: ﴿كَفَرُواْ﴾ بلَفظِ الفِعْلِ، ﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ باسمِ الفاعِلِ؟

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩٨، ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٥٤).

الجوابُ: تنبيهًا على أنَّ أهلَ الكِتابِ ما كانوا كافِرينَ مِن أوَّلِ الأمرِ، بخلافِ المُشرِكينَ؛ فإنَّهم وُلِدوا على عبادةِ الأوثانِ، وإنكارِ الحَشْرِ والقيامةِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ المُشرِكينَ كانوا يُنكِرونَ النُّبُوَّةَ، ويُنكِرونَ القيامةَ، أمَّا أهلُ الكتابِ فكانوا مُقِرِّينَ بكُلِّ هذه الأشياءِ، إلَّا أنَّهم كانوا مُنكِرينَ لنُبُوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكان كُفرُ أهلِ الكِتابِ أخفَّ مِن كُفرِ المُشرِكينَ، وإذا كان كذلك، فكيف يجوزُ التَّسويةُ بيْن الفريقَينِ في العَذابِ؟

الجوابُ: أنَّ الفريقَينِ وإن اشتَرَكا في ذلك، لكِنَّه لا يُنافي اشتِراكُهم في هذا القَدْرِ تَفاوُتَهم في مَراتِبِ العَذابِ[٢].

٣- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ فيه سؤالٌ: ما السَّبَبُ في أنَّه لم يقُلْ هاهنا: (خَالِدِينَ فيها أبَدًا)، وقال في صِفةِ أهلِ الثَّوابِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ [البينة: ٨]؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: التنبيهُ على أنَّ رَحمتَه تعالى أَزيدُ مِن غَضَبِه.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ العُقوباتِ والحُدودَ والكَفَّاراتِ تتداخَلُ، أمَّا الثَّوابُ فأقسامُه لا تتداخَلُ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ فيه سُؤالٌ: ما الفائِدةُ في قَولِه تعالى: ﴿هُمۡ شَرُّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ٱلْبَرِيَّةِ﴾؟

الجوابُ: أنَّه يُفيدُ النَّفيَ والإثباتَ، أي: هم دونَ غيرِهم[١].

٥- التَّرَضِّي يكونُ عن الصَّحابةِ، ويكونُ عن التَّابِعينَ، ويكونُ عن تابِعي التَّابِعينَ، ويكونُ عمَّن كان عابدًا للهِ على الوجهِ الَّذي يَرضاه إلى يومِ القيامةِ، ودليل ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۞ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾، ذلك لِمَن خَشِيَ ربَّه إلى يوم القيامةِ، لكنْ جرَتْ عادةُ المُحَدِّثينَ رحِمَهم اللهُ أنْ يَخُصُّوا الصَّحابةَ بالتَّرضِّي عنهم؛ ومَن بَعْدَهم بالتَّرحُّم عليهم؛ فيَقولوا في الصَّحابيِّ: رضيَ اللهُ عنه، ويقولوا فيمَن بعدَ الصَّحابةِ: رحِمَه اللهُ، ولكنْ لو أنَّك قلتَ للصَّحابيِّ: رحِمه اللهُ، وفي غيرِه: رضيَ اللهُ عنه؛ فلا حَرَجَ عليك، إلَّا إذا خَشِيت أنْ يَتوهَّمَ السَّامعُ بأنَّ التَّابعيَّ صحابيٌّ؛ والصَّحابيَّ تابعيٌّ! فهنا لا بُدَّ أنْ تُبيِّنَ فتقولَ: قال عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ -وهو من الصَّحابةِ- رحمه اللهُ، أو قال مجاهِدٌ -وهو من التَّابعينَ- رضيَ اللهُ عنه؛ حتَّى لا يَتوهَّمَ أحدٌ أنَّ ابنَ مسعودٍ من التَّابِعينَ، ومُجاهِدًا من الصَّحابةِ[٢]!

٦- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ قد استدَلَّ بهذه الآيةِ أبو هُريرةَ وطائفةٌ مِنَ العُلَماءِ على تفضيلِ المؤمنينَ مِنَ البَرِيَّةِ على الملائكةِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٦٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٨).
المنقولُ عن السَّلَفِ أنَّ صالِحي البَشَرِ أفضَلُ مِن الملائكةِ، ونَقَل ابنُ القَيِّم عن ابنِ تيميَّةَ أنَّ صالِحي البشَرِ أفضَلُ باعتبارِ كَمالِ النِّهايةِ، والملائكةَ أفضَلُ باعتبارِ البدايةِ؛ فإنَّ الملائكةَ الآنَ =

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ أنَّ الخشيةَ تُوجِبُ الإيمانَ والعمَلَ الصَّالِحَ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ أنَّ الجَنَّةَ لا تَفْنى[٢]، وفيه بِشارةٌ بأنَّها مَسكَنُهم الخالِدُ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في بَيانِ حالِ الفَريقين في الآخرةِ، بعْدَ بَيانِ حالِهم في الدُّنيا[٤]، فالجُملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ[٥].

- وذَكَر المُشركينَ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ اختِصاصُ الحُكْمِ بأهلِ الكتابِ حسَبَ اختصاصِ مُشاهَدةِ شَواهِدِ النُّبوَّةِ في الكِتابِ بهم[٦].

- وقُدِّمَ أهلُ الكتابِ على المشرِكينَ في الوَعيدِ؛ استِتباعًا لتَقديمِهم عليهم

= في الرَّفيقِ الأعلى مُنَزَّهونَ عمَّا يُلابِسُه بنو آدَمَ، مُستَغرِقونَ في عبادةِ الرَّبِّ تعالى، ولا ريبَ أنَّ هذه الأحوالَ الآنَ أكمَلُ مِن أحوالِ البَشَرِ، وأمَّا يومَ القيامةِ بعدَ دُخولِ الجنَّةِ فيصيرُ حالُ صالِحي البشَرِ أكمَلَ مِن حالِ الملائكةِ. قال ابنُ القَيِّم: (وبهذا التَّفصيلِ يَتبيَّنُ سِرُّ التَّفضيلِ، وتتَّفِقُ أدِلَّةُ الفَريقَين، ويُصالَحُ كُلٌّ منهم على حَقِّه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ١٦٣). ويُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٤/ ٣٥٢). وهذه المسألةُ من فُضولِ المسائلِ، ولا يترتَّبُ عليها عمَلٌ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تعليق مختصر على لمعة الاعتقاد)) لابن عثيمين (ص: ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٢، ٤٨٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٦).

في سَببِه، ولأنَّ مُعظَمَ الرَّدِّ كان مُوجَّهًا إلى أحوالِهم مِن قولِه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إلى قولِه: ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٤، ٥]، ولأنَّه لو آمَنَ أهلُ الكتابِ لَقامت الحُجَّةِ على أهلِ الشِّركِ[(١)]، ولأنَّ جنايةَ أهلِ الكتابِ في حقِّ الرَّسولِ عليه السَّلامُ كانت أعظَمَ؛ لأنَّ المشركين رأَوْه صغيرًا، ونشأ فيما بيْنَهم، ثمَّ سفَّهَ أحلامَهم، وأبطَلَ أديانَهم، وهذا أمرٌ شاقٌّ، أمَّا أهلُ الكتابِ فقد كانوا يَستَفتِحونَ برسالتِه، ويُقِرُّون بمَبعَثِه، فلمَّا جاءهم أنكَروه مع العِلمِ به؛ فكانت جنايَتُهم أشَدَّ[(٢)].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ)؛ للرَّدِّ على أهلِ الكتابِ الَّذين يَزعُمون أنَّهم لا تَمَسُّهم النَّارُ إلَّا أيَّامًا مَعدودةً؛ فإنَّ الظَّرفيَّةَ الَّتي اقتَضَتْها ﴿فِي﴾ تُفيدُ أنَّهم غيرُ خارِجينَ منها، وتأكَّدَ ذلك بقَولِه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، وأمَّا المشرِكون فقدْ أنْكَروا الجَزاءَ رَأسًا[(٣)].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ...﴾ إيرادُ الجُملةِ الاسميَّةِ؛ للإيذانِ بتَحقُّقِ مَضمونِها لا مَحالةَ، أو أنَّهم فيها الآنَ؛ على تَنزيلِ مُلابَستِهم لِما يُوجِبُها مَنزِلةَ مُلابستِهم لها[(٤)].

أو الإخبارُ عنهم بالكَونِ في نارِ جهنَّمَ إخبارٌ بما يَحصُلُ في المُستقبَلِ بقَرينةِ مَقامِ الوعيدِ؛ فإنَّ الوعيدَ كالوعْدِ يَتعلَّقُ بالمُستقبَلِ، وإنْ كان شأنُ الجُملةِ الاسميَّةِ غيرِ المُقيَّدةِ بما يُعيِّنُ زَمانَ وُقوعِها أنْ تُفيدَ حُصولَ مَضمونِها في الحالِ، كما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٦).

تقولُ: زَيدٌ في نِعمةٍ[١].

- وجُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ كالنَّتيجةِ لكَونِهم في نارِ جَهنَّمَ خالِدينَ فيها؛ فلذلك فُصِلَت عن الجُملةِ الَّتي قبْلَها، وهو إخبارٌ بسُوءِ عاقبتِهم في الآخرةِ[٢].

- وقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إليهم باعتبارِ اتِّصافِهم بما هُم فيه مِن القبائحِ المذكورةِ، وما فيه مِن مَعْنى البُعدِ للإشعارِ بغايةِ بُعدِ مَنزلتِهم في الشَّرِّ، أي: أولئكَ البُعداءُ المذكورونَ ﴿هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ شرُّ الخَليقة، أي: أعمالًا، فيكونُ في حيِّزِ التَّعليلِ لخُلودِهم في النَّارِ، أو شرُّهم مقامًا ومَصيرًا، فيكونُ تأكيدًا لفَظاعةِ حالِهم[٣].

- وأُدخِلَ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بيْن اسمِ (إنَّ) وخبَرِها؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أحرياءُ بالحكْمِ الواردِ بعْدَ اسمِ الإشارةِ مِن أجْلِ الأوصافِ الَّتي قبْلَ اسمِ الإشارةِ[٤].

- وتَوسيطُ ضَميرِ الفصْلِ (هُمْ)؛ لإفادةِ اختِصاصِهم بكَونِهم شرَّ البَريَّةِ، لا يُشارِكُهم في ذلك غيرُهم مِن فِرَقِ أهلِ الكفْرِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ قُوبِلَ حالُ الكَفرةِ مِن أهلِ الكِتابِ وحالُ المشركينَ بحالِ الَّذين آمَنوا بعْدَ أنْ أُشيرَ إليهم بقولِه: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]؛ استيعابًا لأحوالِ الفِرَقِ في الدُّنيا والآخرةِ، وجَرْيًا على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ نِذارةِ المُنذَرينَ بِبشارةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المُطمَئنِّينَ، وما تَرتَّبَ على ذلك مِن الثَّناءِ عليهم.

وقُدِّمَ الثَّناءُ عليهم على بِشارتِهم، على عَكسِ نظْمِ الكلامِ المُتقدِّمِ في ضِدِّهم؛ ليكونَ ذِكرُ وَعْدِهم كالشُّكرِ لهم على إيمانِهم وأعمالِهم؛ فإنَّ اللهَ شَكورٌ، والجُملةُ استئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن تَكرُّرِ ذِكرِ الَّذين كَفَروا مِن أهلِ الكتابِ والمشْرِكين؛ فإنَّ ذلك يُثيرُ في نُفوسِ الَّذين آمَنوا مِن أهلِ الكتابِ والمشرِكين تَساؤلًا عن حالِهم؛ لعلَّ تَأخُّرَ إيمانِهم إلى ما بعْدَ نُزولِ الآياتِ في التَّنديدِ عليهم يَجعَلُهم في انحطاطِ دَرَجةٍ، فجاءت هذه الآيةُ مُبيِّنةً أنَّ مَنْ آمَنَ منهم هو مَعدودٌ في خَيرِ البَرِيَّةِ[١].

أو قَدَّمَ اللهُ الثَّناءَ على المؤمنينَ الَّذين عَمِلوا الصَّالحاتِ على ذِكْرِ جزائِهم؛ لأنَّ ثناءَ اللهِ عليهم أعظَمُ مَرتبةً، وأعلى مَنقَبةً؛ فلذلك قَدَّمَه على الجزاءِ الَّذي هو جزاؤُهم في يومِ القيامةِ[٢].

- وأُدخِلَ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بيْنَ اسمِ (إنَّ) وخبَرِها؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أحرياءُ بالحكْمِ الواردِ بعدَ اسمِ الإشارةِ مِن أجْلِ الأوصافِ الَّتي قبْلَ اسمِ الإشارةِ[٣].

- وتَوسيطُ ضَميرِ الفصلِ (هم)؛ لإفادةِ اختِصاصِهم بكَونِهم خيرَ البَرِيَّةِ، لا يُشارِكُهم في ذلك غيرُهم مِن البشَرِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾

- جُملةُ ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ إلى آخِرِها مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٤، ٤٨٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٨٤، ٤٨٥).

﴿هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، و﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ظرْفٌ وقَعَ اعتراضًا بيْنَ ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ وبيْنَ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾؛ للتَّنويهِ بعِظَمِ الجزاءِ بأنَّه مُدَّخرٌ لهم عندَ ربِّهم تكرمةً لهم؛ لِما في ﴿عِندَ﴾ مِن الإيماءِ إلى الحُظوةِ والعِنايةِ، وما في لَفظِ ﴿رَبِّهِمْ﴾ مِن الإيماءِ إلى إجزالِ الجزاءِ بما يُناسِبُ عِظَمَ المُضافِ إليه (عِند)، وما يُناسِبُ شَأنَ مَن يَرُبُّ أنْ يَبلُغَ بمَربوبِه عَظيمَ الإحسانِ[1].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ * جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ فيه عِدَّةُ مُبالَغاتٍ؛ وهي: تَقديمُ المدْحِ بالخَيريَّةِ، وذِكرُ الجزاءِ المُؤذِنِ بأنَّ ما مُنِحوا في مُقابَلةِ ما وُصِفوا به، والحُكْمُ عليه بأنَّه مِن ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ المُنبِئةِ عن التَّربيةِ والتَّبليغِ إلى الكَمالِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِهم، وجمْعُ جنَّاتٍ، وتَقييدُها إضافةً ووَصْفًا بما تَزدادُ لها نَعيمًا، وتَأكيدُ الخُلودِ بالتَّأبيدِ، وذلك كلُّه فيه مِن الدَّلالةِ على غايةِ حُسنِ حالِهم ما لا يَخفى[2].

- وإضافةُ ﴿جَنَّٰتُ﴾ إلى ﴿عَدْنٍ﴾ لإفادةِ أنَّها مَسكَنُهم؛ لأنَّ العَدْنَ الإقامةُ، أي: ليس جَزاؤهم تَنزُّهًا في الجنَّاتِ، بلْ أقوى مِن ذلك بالإقامةِ فيها[3].

- وجُعِلَ جَزاءُ الجماعةِ جمْعَ الجنَّاتِ؛ فيَجوزُ أنْ يكونَ على وَجْهِ التَّوزيعِ، أي: لكلِّ واحدٍ جنَّةٌ، ويَجوزُ أنْ يكونَ لكلِّ أحدٍ جنَّاتٌ مُتعدِّدةٌ، والفضلُ لا يَنحصِرُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٨٦).

- وجَرْيُ النَّهرِ مُعبَّرٌ به عن انتقالِ السَّيلِ تَشبيهًا لسُرعةِ انتقالِ الماءِ بسُرعةِ المشْيِ، وإسنادُ الجرْيِ إلى الأنهارِ تَوسُّعٌ في الكلامِ؛ لأنَّ الذي يَجْري هو ماؤُها، وهو المُعتبَرُ في ماهيَّةِ النَّهرِ(١).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ تَذييلٌ(٢) آتٍ على ما تَقدَّمَ مِن الوعْدِ للَّذين آمَنوا، والوعيدِ للَّذين كَفَروا، بُيِّنَ به سَببُ العَطاءِ وسَببُ الحِرمانِ، وهو خَشيةُ اللهِ تعالَى بمَنطوقِ الصِّلةِ ومَفهومِها، وماصَدَقَ(٣) (مَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) هم المؤمِنون، واللَّامُ للمِلكِ، أي: ذلك الجَزاءُ للمؤمنينَ الَّذين خَشُوا ربَّهم، فإذا كان ذلك مِلكًا لهم لم يكُنْ شَيءٌ منه مِلْكًا لغَيرِهم، فأفاد حِرمانَ الكفَرةِ المُتقدِّمِ ذِكرُهم، وتمَّ التَّذييلُ(٤).

- والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ المُعرِبةِ عن المالكيَّةِ والتَّربيةِ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾؛ للإشعارِ بعِلَّةِ الخَشيةِ، والتَّحذيرِ مِن الاغترارِ بالتَّربيةِ(٥).

- وأيضًا في ذِكرِ الرَّبِّ هنا دونَ أنْ يُقالَ: (ذلك لِمَن خَشِيَ اللهَ) تَعريضٌ بأنَّ الكفَّارَ لم يَرْعَوا حقَّ الرُّبوبيَّةِ؛ إذ لم يَخْشَوا ربَّهم، فهُم عَبيدُ سُوءٍ(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٦).

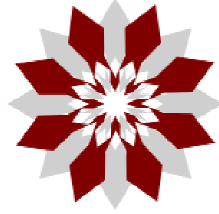
(٢) التَّذييل: هو أن يُذَيِّلَ المتكلِّمُ كلامَه بعْدَ تمام معناهُ بجملةٍ تحقِّقُ ما قبْلَها، وذلك على ضربَينِ: ضرْبٍ لا يَزيدُ على المعنى الأوَّلِ، وإنَّما يؤكِّدُه ويحقِّقُه. وضرْبٍ يُخرِجُه المتكلِّمُ مخرجَ المثلِ السَّائرِ؛ ليشتهرَ المعنى؛ لكثرةِ دوَرانِه على الألسِنةِ. يُنظر: ((البديع)) لأسامة بن منقذ (ص: ١٢٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٣٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٦- ٨٨).

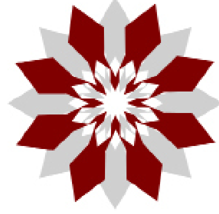
(٣) تقدَّم تعريفُه (٤٣/ ٥٢٧).

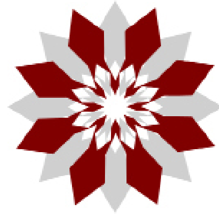
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٦، ٤٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٧).

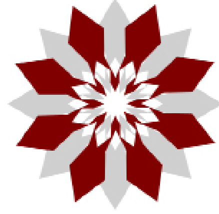


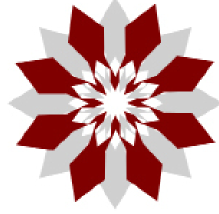


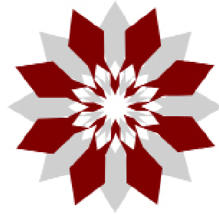


تَفْسِيرُ

سُورَةِ الزَّلْزَلَةِ







سُورةُ الزَّلْزَلةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ الزَّلْزَلةِ[(١)]. وسُمِّيتْ أيضًا بسورةِ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾[(٢)].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الزَّلزلةِ مُختَلَفٌ فيها[(٣)]؛ فقيل: مَكِّيَّةٌ[(٤)]. وقيل: مَدَنيَّةٌ[(٥)].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

إثْباتُ البعْثِ وما في يومِ القيامةِ مِن أهوالٍ، والجزاءِ على الأعمالِ مِن خَيرٍ

---

(١) وَجهُ التَّسميةِ بذلك: ذِكرُ لَفظِ الزَّلْزلةِ فيها، في قَولِه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، وهي تسميةٌ بالمعنى لا بِحكايةِ بَعضِ كَلِماتِها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٩).

(٢) قال ابنُ عاشور: (سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ في كَلامِ الصَّحابةِ سورةَ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾... وكذلك عَنوَنَها البُخاريُّ والتِّرمذيُّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٩).

وذكَر أيضًا مِن أسمائِها: سورةَ (الزلزالِ)، وسورةَ (زُلزلت). يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ٥٤).

(٤) ممَّن اختار أنَّها مَكِّيَّةٌ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، ومكِّيٌّ، والبغويُّ، والرازي، والخازن، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٤/ ٧٨٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٢)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٥٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٩).

(٥) وممَّن اختار أنَّها مَدَنيَّةٌ: الزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والواحديُّ، والزمخشري، وابن جُزَي، والشربيني، وأبو السعود. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٨).

ونسَبَ ابنُ الجَوزيِّ هذا القولَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٧٧).

أو شَرٍّ[1].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- ذِكرُ يومِ القيامةِ، وما اشتَمَل عليه مِن أهوالٍ.

٢- التَّأكيدُ على أنَّ كُلَّ إنسانٍ سيُجازى على حَسَبِ عَمَلِه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ.



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٠)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٧٥).

الآيات (١-٨)

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا
۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ
أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿زُلْزِلَتِ﴾: أي: حُرِّكَتْ حَرَكةً شَديدةً، ورَجَفَتْ واهْتَزَّتْ، والزِّلْزالُ هو التَّحْريكُ الشَّديدُ(١).

﴿أَثْقَالَهَا﴾: أي: مَوتاها، وأصلُ (ثقل): يدُلُّ على ضِدِّ الخِفَّةِ(٢).

﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾: أي: يَرجِعونَ عن مَوقِفِ الحِسابِ فِرَقًا؛ لِيَنزِلوا منازِلَهم مِن الجنَّةِ والنَّارِ، ومفردُ أشتاتٍ: شَتٌّ، وأصلُ (صدر): يدُلُّ على خِلافِ الوِرْدِ، وأصلُ (شتت): يدُلُّ على تَفرُّقٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٨٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٣).

قال ابن عاشور: (فِعلُ «زلْزَلَ» مَأخوذٌ مِن الزَّلَلِ، وهو زَلَقُ الرِّجلَين، فلمَّا عَنَوا شِدَّةَ الزَّلَلِ ضاعَفوا الفِعلَ؛ للدَّلالةِ بالتَّضعيفِ على شِدَّةِ الفِعلِ، كما قالوا: كَبْكَبَه، أي: كبَّه، ولَمْلَمَ بالمكانِ، من اللَّمِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧١).

قال الهَرَويُّ: (﴿أَثْقَالَهَا﴾ يُقالُ: مَوْتاها؛ لأنَّها تَثقُلُ بهم). ((الغريبين في القرآن والحديث)) (١/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٧، =

﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾: أي: زِنَةَ نَملةٍ صَغيرةٍ. وقيلَ: الذَّرُّ: ما يُرى في شُعاعِ الشَّمسِ مِنَ الهباءِ، وأصلُ (ثقل): يدُلُّ على ضِدِّ الخِفَّةِ، وأصلُ (ذرر): يدُلُّ على لَطافةٍ وانتِشارٍ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ قائِلًا: إذا حُرِّكَت الأرضُ يومَ القيامةِ واضطَرَبت، وأخرَجَت ما في بَطْنِها مِن الأمواتِ للحِسابِ والجَزاءِ، وقال الإنسانُ حينَئذٍ: ما للأرضِ زُلزِلَت وأخرَجَت أثقالَها؟! في ذلك اليَومِ تتكَلَّمُ الأرضُ بما فعَل النَّاسُ على ظَهْرِها مِن خيرٍ أو شَرٍّ؛ بسَبَبِ وَحْيِ اللهِ إليها، وإذْنِه لها بذلك، وفي ذلك اليَومِ ينصَرِفُ النَّاسُ عن مَوقِفِ الحِسابِ فِرَقًا؛ ليرى كُلُّ واحدٍ منهم جزاءَ عَمَلِه؛ فمَن يَعمَلْ في الدُّنيا وَزنَ ذَرَّةٍ خَيرًا يَرَه ويجِدْ ثوابَه في الآخِرةِ، ومَن يَعمَلْ في الدُّنيا وَزنَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه ويجِدْ ثوابَه في الآخِرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١)﴾.

أي: إذا حُرِّكَت الأرضُ يومَ القيامةِ تحريكَها الشَّديدَ، واضطَرَبت اضطِرابَها العَظيمَ[(٢)].

= ٣٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢) و(٢/ ٣٤٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٠٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢).

قال ابن عاشور: (وجملةُ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ إلخ جَوابُ ﴿إِذَا﴾... والتَّقديرُ يومَ إذْ تُزَلْزَلُ الأرضُ وتُخرِجُ أثقالَها ويَقولُ النَّاسُ: ما لَها؛ تُحَدِّثُ أخبارَها... إلخ). ((تفسير ابن =

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾.

أي: وأخرَجَت الأرضُ ما في بَطْنِها مِن الأمواتِ، فيَبعَثُهم اللهُ أحياءً للحِسابِ والجَزاءِ[1].

= عاشور)) (٣٠/ ٤٩٢). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٧٣).

وقيل: العاملُ في: ﴿إِذَا﴾ فِعلٌ مُضمَرٌ يَقتضيه المعنى، وتقديرُه: تُحشَرون أو تُجازَون. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٠).

قال ابنُ الجَوْزيِّ: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ فيه قَوْلانِ:

أحَدُهما: ما فيها مِن المَوْتى، قالَه ابنُ عبَّاسٍ.

والثَّاني: كُنوزُها، قالَه عَطِيَّةُ.

وجمَعَ الفَرَّاءُ بيْنَ القَولَينِ، فقال: لفَظَتْ ما فيها مِن ذهَبٍ أو فِضَّةٍ أو مَيِّتٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٧٧).

مِمَّن اختارَ القولَ الأوَّلَ: ابنُ جَريرٍ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ جُزَي، واقتَصَر عليه ابنُ كَثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٠).

وممَّن قال بذلك مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وابنُ جُبَيْرٍ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٩٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٩٢).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾: يَعني: المَوْتى الَّذين في جَوْفِها، وذلك عندَ النَّفْخةِ الثَّانيةِ في الصُّورِ. وقيلَ: هي الكُنوزُ، وهذا ضَعيفٌ؛ لأنَّ إخْراجَها للكُنوزِ وَقْتَ الدَّجَّالِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٣).

وقال ابنُ عَطيَّةَ: (وليسَتِ القيامةُ مَوْطنًا لإخْراجِ الكُنوزِ، وإنَّما تُخرِجُ كُنوزَها وَقْتَ الدَّجَّالِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٠).

وقال الألوسيُّ: (وهذه الكُنوزُ على هذا القَولِ غيرُ الكُنوزِ الَّتي تخرجُ أيَّامَ الدَّجَّالِ على ما وَرَدَتْ به الأخبارُ، وذلك بأن تُخرِجَ بَعضًا في أيَّامِه وبَعضًا عندَ النَّفْخةِ الثَّانيةِ، ولا بُعْدَ في أن تكونَ بَعْدَ الدَّجَّالِ كُنوزٌ أيضًا فتُخرِجَها معَ ما كان قد بَقِيَ يَومَئذٍ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٣٤).

وممَّن جمَعَ بيْن المَعنيَينِ السَّابقَينِ لأثْقالِها: الفَرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والسَّمَرْقَنديُّ، والثَّعْلَبيُّ، =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣، ٤].

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾.

أي: ويَقولُ الإنسانُ حينَئذٍ: أيُّ شَيءٍ عرَض للأرضِ، وما الَّذي حدَث، وما شأنُها[1]؟!

= والواحِديُّ، والبَغَويُّ، والنَّسَفيُّ، وجَلالُ الدِّينِ المَحلِّيُّ، والعُلَيْميُّ، والشربينيُّ، والسعديُّ.
يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٦)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٦٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٥)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٤).
قال القرطبي: (معنى ﴿مَا لَهَا﴾ أي: ما لَها زُلزِلَت؟! وقيل: ما لَها أخرَجَت أثقالَها؟!). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٨).
وممَّن جمع بيْن المعنيَين: القاسِميُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٢٦).
قال ابنُ عطيَّة: (قَولُ الإنسانِ: ﴿مَا لَهَا﴾ هو قولٌ على معنى التَّعجُّبِ مِن هَولِ ما يَرى، قال جمهورُ المفَسِّرينَ: الإنسانُ هنا يرادُ به الكافِرُ، وهذا ممكِنٌ؛ لأنَّه يرى ما لم يَظُنَّ به قطُّ ولا صَدَّقَه، وقال بعضُ المتأوِّلينَ: هو عامٌّ في المؤمِنِ والكافِرِ؛ فالكافِرُ على ما قدَّمْناه، والمؤمِنُ وإن كان قد آمَنَ بالبعثِ فإنَّه استَهْوَلَ المَرأى، وقد قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «ليس الخبَرُ كالمُعايَنةِ» [أخرجه أحمدُ «٢٤٤٧»، وابنُ حِبَّانَ «٦٢١٣»، والحاكمُ «٣٢٥٠»، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) «٥٣٧٤»، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) «٤/ ٢٦١»]). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٠).
وقال الماوَرْديُّ: (وفي المرادِ بهذا الإنسانِ قولان:
أحدُهما: أنَّ المرادَ جميعُ النَّاسِ مِن مؤمنٍ وكافرٍ، وهذا قولُ مَن جعَله في الدُّنيا مِن أشراطِ =

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾.

أي: في ذلك اليَومِ تتكَلَّمُ الأرضُ بما فعَل النَّاسُ على ظَهْرِها مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، فتَشهَدُ عليهم بأعمالِهم[1].

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾﴾.

أي: تُحدِّثُ الأرضُ أخبارَها؛ بسَبَبِ وَحْيِ اللهِ إليها، وإذْنِه لها بذلك[2].

= السَّاعةِ؛ لأنَّهم لا يَعلمونَ جميعًا أنَّها مِن أشراطِ السَّاعةِ في ابتداءِ أمرِها حتَّى يتحقَّقوا عُمومَها؛ فلذلك سأَل بعضُهم بعضًا عنها.

الثَّاني: أنَّهم الكفَّارُ خاصَّةً، وهذا قولُ مَن جعَلها زلزلةَ القيامةِ؛ لأنَّ المؤمنَ يَعترِفُ بها، فهو لا يَسألُ عنها، والكافرُ جاحدٌ لها؛ فلذلك يَسألُ عنها). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالإنسانِ الكافرُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسَّمرقندي، ومكِّي، والواحدي، والسَّمعاني، والقرطبي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٩٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالإنسانِ: الجنسُ، وعُمومُ النَّاسِ، وأنَّه يَشملُ كلَّ فردٍ مِن أفرادِ الإنسانِ: ابنُ جرير، والزَّمخشريُّ، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والنَّسفي، وأبو حيَّان، والشَّوكاني، وابنُ عاشور، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٣)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٤).

وقال ابنُ عاشور: (قال النَّاسُ: ما لَها، أي: النَّاسُ الَّذين هم أحياءٌ ففَزِعوا وقال بعضُهم لبعضٍ، أو قال كُلُّ أحدٍ في نَفْسِه حتَّى استوى في ذلك الجَبانُ والشُّجاعُ، والطَّائِشُ والحكيمُ؛ لأنَّه زلزالٌ تَجاوَزَ الحَدَّ الَّذي يَصبِرُ على مِثْلِه الصَّبورُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١١)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦﴾.

أي: في ذلك اليَومِ يَنصَرِفُ النَّاسُ عن مَوقِفِ الحِسابِ فِرَقًا كثيرةً؛ ليرى كُلُّ واحدٍ منهم عمَلَه الَّذي عَمِل، وجزاءَه عليه من الثَّوابِ في الجنَّةِ، أو العِقابِ في النَّارِ(١).

= (٢٠/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٩، ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٦).

قال الماوَرْديُّ: (﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ فيه قَوْلان:

أحَدُهما: أنَّه يَومَ القِيامةِ يَصدُرونَ مِن بَيْنِ يَدَيِ اللهِ تعالى فِرَقًا فِرَقًا، مُختَلِفينَ في قَدَرِهم وأعمالِهم؛ فبَعضُهم إلى الجَنَّةِ وهُمْ أصحابُ الحسَناتِ، وبَعضُهم إلى النَّارِ وهم أصحابُ السَّيِّئاتِ. قالَه يَحيى بنُ سَلَّامٍ.

الثَّاني: أنَّهم في الدُّنيا عِنْدَ غَلَبةِ الأهْواءِ يَصدُرونَ فِرَقًا؛ فبَعضُهم مُؤمِنٌ وبَعضُهم كافِرٌ، وبَعضُهم مُحسِنٌ وبَعضُهم مُسيءٌ، وبَعضُهم مُحِقٌّ وبَعضُهم مُبطِلٌ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٢٠).

ممَّن اختارَ القَولَ الأوَّلَ في الجُملةِ -أي: أنَّ المَعْنى: أنَّهم يَنصَرِفونَ من مَوقِفِ الحِسابِ بعْدَ العَرْضِ فِرَقًا مُختَلِفينَ ما بيْنَ سَعيدٍ وشَقِيٍّ، مِنهم مَن يَأخُذُ ذاتَ اليَمينِ إلى الجَنَّةِ، ومنهم مَن يَأخُذُ ذاتَ الشِّمالِ إلى النَّارِ-: مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، وابن جرير، والسَّمَرْقَنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، والثَّعْلَبيُّ، ومَكِّيٌّ، والواحِديُّ، والبَغَويُّ، وابنُ الجَوْزيِّ، والرَّسْعنيُّ، وابنُ جُزَي، والخازِنُ، وابنُ كَثيرٍ، وجَلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والعُلَيْميُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٦٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٦٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٠٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢). =

كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۞ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ

= وقيلَ: المَعْنى: يَصدُرُ النَّاسُ مِن قُبورِهم إلى مَوقِفِ الحِسابِ مُتَفَرِّقينَ بحَسَبِ مَراتِبِهم؛ مِن مُؤمِنٍ وكافِرٍ، وآمِنٍ وخائِفٍ، ومُطيعٍ وعاصٍ، وسَعيدٍ وشَقِيٍّ. وممَّن اختارَه في الجُملةِ: البَيْضاويُّ، والبِقاعيُّ، والشَّوْكانيُّ، والقاسِميُّ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٢٦).

قال ابنُ عطيَّةَ: (... قال جُمهورُ النَّاسِ: الوِرْدُ: هو الكَونُ في الأَرْضِ بالمَوْتِ والدَّفْنِ. والصَّدْرُ: هو القِيامُ للبَعْثِ، وأَشْتاتًا: مَعْناه: قَوْمٌ مُؤمِنونَ، وقَوْمٌ كافِرونَ، وقَوْمٌ عُصاةٌ مُؤمِنونَ، والكُلُّ سائِرٌ إلى العَرْضِ ليرى عَمَلَه، ويَقِفَ عليه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١١).

وأمَّا قَولُه: ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ فقيلَ: أي: ثَوابَها وجَزاءَها. وممَّن اختارَه: مَكِّيٌّ، والماوَرْديُّ، والكرمانيُّ، والقُرْطُبيُّ، وجَلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والعُلَيْميُّ، والشَّوْكانيُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٩٢)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٢٠)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٥٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٨٥).

قال الواحديُّ: (قَولُه: ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: لِيُرَوا جَزاءَ أعمالِهم. والمَعنى: أنَّهم يَرجِعونَ عن المَوقِفِ فِرَقًا لِيُرَوا مَنازِلَهم في الجَنَّةِ أو النَّارِ). ((البسيط)) (٢٤/ ٢٢٨).

وقيلَ: المَعْنى: أنَّ اللهَ يُريهم أعْمالَهم الَّتي عَمِلوها. وممَّن اختارَه: السَّمْعانيُّ، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٦).

قال الخازِنُ: (قيلَ: مَعْناه: لِيُرَوا صَحائِفَ أعْمالِهم الَّتي فيها الخَيْرُ والشَّرُّ). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٩).

وممَّن جَمَع بيْنَ المَعْنَيينِ السَّابِقَينِ: ابنُ جَريرٍ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢).

قال ابنُ جرير: (فيَرى المُحسِنُ في الدُّنْيا المُطيعُ للهِ عمَلَه وما أَعَدَّ اللهُ له يَوْمَئذٍ مِن الكَرامةِ على طاعتِه إيَّاه كانت في الدُّنْيا، ويَرى المُسِيءُ العاصي للهِ عمَلَه وجَزاءَ عَمَلِه وما أَعَدَّ اللهُ له مِن الهَوانِ والخِزْيِ في جَهنَّمَ على مَعْصيتِه إيَّاه كانت في الدُّنْيا، وكُفْرِه به). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٦٢).

ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ [الروم: ١٤ - ١٦].

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ ﴾.

أي: فمَن يَعمَلْ في الدُّنيا خَيرًا ولو كان بمِقْدارِ وَزنِ ذَرَّةٍ، فإنَّه سيَراه ويَجِدُ ثَوابَه في الآخِرةِ[١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٧).

قيلَ: المُرادُ بالذَّرَّةِ: النَّمْلةُ الصَّغيرةُ. وممَّن اخْتارَه: مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، والواحِديُّ، والبَغَويُّ، والزَّمَخْشَريُّ، وابنُ عطيَّةَ، والرَّسْعَنيُّ، والنَّسَفيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كَثير، وجَلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والعُلَيْميُّ، والشَّوْكانيُّ، والقاسِميُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٠٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٧٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٧).

قال مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ: (يَعني: وَزْنَ نَملةٍ؛ أَصغَرِ النَّمْلِ الأَحمَرِ الَّتي لا تَكادُ نَراها من صِغَرِها). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٩١).

وقيلَ: الذَّرُّ: ما يُرَى في شُعاعِ الشَّمْسِ مِن الهَباءِ. وممَّن اخْتارَه: السَّمَرْقَنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٢١).

قال السعديُّ في هذه الآيةِ والتي تليها: (هذا شامِلٌ عامٌّ للخَيْرِ والشَّرِّ كُلِّه؛ لأنَّه إذا رأى مِثْقالَ الذَّرَّةِ الَّتي هي أَحقَرُ الأشياءِ، وجُوزيَ عليها، فما فَوْقَ ذلك مِن بابِ أَوْلى وأَحْرى!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٥٢).

وقال القُرْطُبيُّ: (وهي [أي: الذَّرَّةُ] في الجُملةِ عِبارةٌ عن أَقَلِّ الأشْياءِ وأَصغَرِها). ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٩٥). =

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سُئِلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الحُمُرِ، فقال: ما أُنزِلَ علَيَّ فيها إلَّا هذه الآيةُ الجامِعةُ الفاذَّةُ[١]: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾))[٢].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الخَيرَ؛ أتْبَعَه ضِدَّه، فقال[٣]:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

أي: ومَن يَعمَلْ في الدُّنيا شَرًّا ولو كان بمِقْدارِ وَزنِ ذَرَّةٍ، فإنَّه سيَراه ويَجِدُ جَزاءَه في الآخِرةِ[٤].

قال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

= وقال ابنُ العربي: (قَد اتَّفق العُلَماءُ على عُمومِ هذه الآيةِ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٤٤٠).

(١) الفَاذَّةُ: أي: المُنْفَرِدةُ في معناها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٢٦٦).

(٢) رواه البخاري (٣٦٤٦)، ومسلم (٩٨٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٤).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُه تبارك وتعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا...﴾ فيه التَّحذيرُ والتَّخويفُ مِن زلزلةِ الأرضِ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ هذا مُضافٌ، والمضافُ يَقتضي العُمومَ، وظاهِرُه أنَّهم يَرونَ الأعمالَ؛ الصَّغيرَ والكبيرَ -وذلك على قولٍ-، إلَّا ما غَفَرَه اللهُ مِن قَبْلُ بحَسَناتٍ أو دُعاءٍ، أو ما أَشْبَهَ ذلك؛ فهذا يُمْحَى، كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]؛ ولهذا يجبُ على الإنسانِ ألَّا يُقْدِمَ على شَيءٍ لا يُرضِي اللهَ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه يَعلَمُ أنَّه مكتوبٌ عليه، وأنَّه سوف يُحاسَبُ عليه[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ فيه الحثُّ على الأعمالِ الصَّالحةِ[٣]، والتَّرغيبُ في قَليلِ الخيرِ وكَثيرِه، والتَّحذيرُ مِن قليلِ الشَّرِّ وكَثيرِه[٤]، ومَن فَقِهَ ذلك لم يُحَقِّرْ ذَنبًا وإن دَقَّ؛ لأنَّه يجتَمِعُ إلى أمثالِه فيَصيرُ كَبيرًا[٥]! وفيه أنَّ العَمَلَ لا يَضِيعُ مهما قَلَّ، حتَّى لو كان مِثقالَ ذرَّةٍ أو أقَلَّ؛ فإنَّه لا بُدَّ أنْ يراه الإنسانُ ويَطَّلِعَ عليه يومَ القيامةِ[٦].

٤- عن إبراهيمَ التَّيْميِّ، قال: (سمِعتُ الحارثَ بنَ سُويدٍ يقرأُ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٩٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٠٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٠).

حتَّى بلَغ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ...﴾، قال: فبكى، ثمَّ قال: إنَّ هذا الإحصاءَ شديدٌ)[١].

٥- (جاء سائلٌ إلى بابِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، فقالت لجاريتِها: أطعِميه، فذهَبت ثمَّ رجَعت، فقالت لها: ما وجدْتُ شيئًا أُطعِمُه، قالت: ارجِعي فابتَغي له، فرجَعَتْ، فوجَدَتْ تمرةً، فأتَت بها، فقالت عائشةُ: أعطيه إيَّاها؛ فإنَّ فيها مَثاقيلَ ذرَّةٍ إنْ تُقُبِّلَتْ)[٢]. (وأتَى سعدَ بنَ مالِكٍ سائِلٌ وبينَ يَدَيْه طَبَقٌ عليه تَمْرٌ، فأَعْطاه تَمْرةً، فقَبَض يَدَه، أو قال: فكَفَّ يَدَه، فقال: إنَّ اللهَ تَعالى يَقبَلُ مِنَّا الذَّرَّةَ والخَرْدَلَةَ، فكائِنٌ في هذه مَثاقيلُ ذَرٍّ)[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ شَهادةُ الأرضِ؛ مِن أجْلِ بيانِ عَدْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه سُبحانَه وتعالى لا يُؤاخِذُ النَّاسَ إلَّا بما عَمِلوه، وإلَّا فإنَّ اللهَ تعالى بكلِّ شيءٍ مُحيطٌ، ويكفي أنْ يقولَ لعِبادِه جَلَّ وعلا: عَمِلتُم كذا وعَمِلتُم كذا، لكنْ مِن بابِ إقامةِ العَدلِ، وعدمِ إنكارِ المجرمِ؛ لأنَّ المجرمينَ يُنكِرون أنْ يَكونوا مُشرِكين؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٤] [الأنعام: ٢٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أنَّ الأرضَ يومَ القيامةِ تَشهَدُ على ما عُمِلَ فيها مِن خَيرٍ وشَرٍّ[٥].

(١) يُنظر: ((مصنف ابن أبي شيبة)) (٧/ ٢٢٦).
(٢) يُنظر: ((شُعَب الإيمان)) للبيهقي (٥/ ١٣٢).
(٣) يُنظر: ((الأموال)) لابن زنجويه (٢/ ٧٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٥).
(٥) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ١٦٥).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا﴾ انتزَع بَعضُهم مِن هذه الآيةِ أنَّ: «حَدَّثَنا» و«أخبَرَنا» سَواءٌ، وهو قولُ مالكٍ وغَيرِه، خِلافًا لِمَن فرَّق بيْنَهما وقال: «أخبَرَنا» يجوزُ أن يُقالَ في المسموعِ على العالِمِ مِن غَيرِ لَفظِه، و«حَدَّثَنا» لا يُقالُ إلَّا فيما سُمِعَ مِن لَفظِ العالِمِ، وهو قَولُ ابنِ وَهبٍ[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ لَمْ يقلْ: (أوحى إليها)؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ ﴿أَوۡحَىٰ لَهَا﴾، أي: أوحى إليها.

الوَجهُ الثَّاني: لَعَلَّه إنَّما قال: ﴿لَهَا﴾، أي: فعَلْنا ذلك لأجْلِها؛ حتَّى تتوسَّلَ الأرضُ بذلك إلى التَّشَفِّي مِنَ العُصاةِ[٢].

الوَجهُ الثَّالِثُ: عَدَل عن قَولِه (إليها) إلى قَولِه تعالى: ﴿لَهَا﴾؛ إيذانًا بالإسراعِ في الإيحاءِ[٣].

٥- قال تبارك وتَعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ * وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تَقتضي أنَّ كلَّ إنسانٍ كافِرًا كانَ أو مُسلمًا يُجازى بالقليلِ مِنَ الخيرِ والشَّرِّ.

وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على خِلافِ هذا العُمومِ، أمَّا ما فعَله الكافِرُ من الخيرِ فالآياتُ تُصرِّحُ بإحباطِه، كقولِه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٦٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٠٦)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٧٤).

وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وكقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ.

وأمَّا ما عمِلَه المُسلمُ مِن الشَّرِّ فقد صرَّحت الآياتُ بعَدمِ لُزومِ مؤاخَذتِه به؛ لاحتِمالِ المَغفرةِ أو لوعدِ اللهِ بها، كقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وقَولِه: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [النساء: ٣١]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ.

والجوابُ عن هذا مِن ثلاثةِ أوجهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ الآيةَ مِن العامِّ المخصوصِ، والمعنى: فمَن يَعمَلْ مِثقالَ ذرَّةٍ خيرًا يَرَه إنْ لم يُحبِطْه الكُفرُ؛ بدليلِ آياتِ إحباطِ الكفرِ عمَلَ الكفَّارِ، ومَن يَعمَلْ مثقالَ ذرَّةٍ شرًّا يَرَه إن لم يَغفِرْه اللهُ له؛ بدليلِ آياتِ احتمالِ الغُفرانِ والوَعْدِ به.

الثَّاني: أنَّ الآيةَ على عُمومِها، وأنَّ الكافِرَ يَرى جزاءَ كلِّ عمَلِه الحسَنِ في الدُّنيا، كما يدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾ الآيةَ [هود: ١٥]، وقولُه: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقولُه تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور: ٣٩]، والمُؤمنُ يَرى جزاءَ عمَلِه السَّيِّئِ في الدُّنيا بالمَصائِبِ والأمْراضِ والآلامِ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ الآيةَ أيضًا على عُمومِها، وأنَّ معناها أنَّ المُؤمنَ يَرى كلَّ ما قدَّم مِن خيْرٍ وشَرٍّ، فيَغفِرُ اللهُ له الشَّرَّ ويُثيبُه بالخيْرِ، والكافِرُ يَرى كلَّ ما قدَّم مِن خيْرٍ وشَرٍّ، فيُحبِطُ ما قدَّمَ مِن خيْرٍ، ويجازِيه بما فعَل مِن الشَّرِّ[(١)].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ نَبَّه به على أنَّ ما فوقَ الذَّرَّةِ يراه، قليلًا كان أو كثيرًا، وهذا يُسَمَّى مَفهومَ الخِطابِ، وهو أن يكونَ المذكورُ والمسكوتُ عنه في حُكمٍ واحدٍ، بل يكونُ المسكوتُ عنه بالأَولى في ذلك الحُكمِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾[(٢)] [الإسراء: ٢٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ قيامُه سُبحانَه بالقِسْطِ، وقيامُه على كلِّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ؛ فهو لا يَظْلِمُ مِثقالَ ذرَّةٍ[(٣)]، يُحصي أعمالَ العِبادِ، أي: يَضْبِطُها بالعدَدِ، فلا يَنْقُصُ أحدًا شَيئًا[(٤)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ أنَّ الثَّوابَ على قَدْرِ العَمَلِ[(٥)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ أنَّ العمَلَ يُطْلَقُ على القَولِ والفِعلِ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٨١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٥٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٢٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٦٥).

(٦) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣١٨).

١٠- قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: (أحكمُ آيةٍ في القرآنِ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾)[١].

١١- قَولُه تعالى: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الأعمالَ تُوزنُ[٢]، ووجهُ الدَّلالةِ: أنَّ تقديرَ الآيةِ: فمَن يَعمَلْ عمَلًا مِثقالَ ذرَّةٍ، وفيه سؤالٌ عن وَزْنِ العمَلَ مع أنَّه ليس جِسمًا يمكِنُ أنْ يوضَعَ في الميزانِ، بلِ العمَلُ عمَلٌ انتهى وانقضى؟

الجوابُ:

أوَّلًا: على المرءِ أنْ يُصَدِّقَ بما أخْبَرَ اللهُ تعالى به ورسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أمورِ الغَيبِ، وإنْ كان عقْلُه قد يَحارُ فيه ويَتَعَجَّبُ، ويقولُ: كيف يكونُ هذا؟! فعليه التَّصديقُ؛ لأنَّ قدرةَ اللهِ تعالى فوقَ ما نتصوَّرُ، فالواجبُ على المسلمِ أنْ يُسَلِّمَ ويَستَسلِمَ ولا يقولَ: كيف؟ لأنَّ أمورَ الغيبِ فوقَ ما يتصوَّرُ.

ثانيًا: أنَّ اللهَ تعالى يَجعَلُ هذه الأعمالَ أجسامًا توضَعُ في الميزانِ وتَثْقُلُ وتَخِفُّ، واللهُ تعالى قادرٌ على أنْ يَجْعَلَ الأمورَ المعنويَّةَ أجسامًا، كما صَحَّ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال ((يُؤتَى بالموتِ كهَيئةِ كَبْشٍ أمْلَحَ، فيُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجَنَّةِ، فيَشْرَئِبُّون[٣] ويَنظُرونَ، فيقولُ: هل تَعرِفونَ هذا؟ فيقولونَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٦٦).

(٢) قال ابنُ عُثَيمينَ: (الَّذي يُوزَنُ العَمَلُ، ولكن رُبَّما يكونُ بعضُ النَّاسِ تُوزَنُ صَحائِفُ أعمالِه، وبعضُ النَّاسِ يُوزَنُ هو بنفْسِه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٩).

وقال ابنُ أبي العِزِّ: (ثَبَت وزنُ الأعمالِ والعاملِ وصحائِفِ الأعمالِ، وثَبَت أنَّ الميزانَ له كِفَّتانِ. واللهُ تعالى أعلَمُ بما وراءَ ذلك مِن الكيفيَّاتِ). ((شرح الطحاوية)) (٢/ ٦١٣). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٧٢-٧٤).

(٣) فيَشْرَئِبُّونَ: أي: يَرفَعونَ رُؤوسَهم إلى المُنادي. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٨٥).

نَعم، هذا الموتُ -وكلُّهم قد رآه- ثمَّ يُنادي: يا أهلَ النَّارِ، فيَشْرَئِبُّون ويَنظُرون، فيقولُ: هل تَعرِفون هذا؟ فيَقولون: نعم، هذا الموتُ، وكلُّهم قد رآه))، مع أنَّه في صورةِ كَبشٍ، والموتُ معنًى ليس جِسمًا، ولكنَّ اللهَ تعالى يَجْعَلُه جسمًا يومَ القيامةِ، ((فيُذْبَحُ، ثمَّ يقولُ: يا أهلَ الجَنَّةِ خُلودٌ فلا مَوْتَ، ويا أهلَ النَّارِ خُلودٌ فلا موتَ))[١]، وبهذا يَزولُ الإشكالُ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا﴾

- افتِتاحُ الكلامِ بظَرْفِ الزَّمانِ ﴿إِذَا﴾ مع إطالةِ الجُمَلِ المُضافِ إليها الظَّرفُ، تَشويقٌ إلى مُتعلَّقِ الظَّرفِ؛ إذ المَقصودُ ليس تَوقيتَ صُدورِ النَّاسِ أشتاتًا لِيُرَوا أعمالَهم، بلِ الإخبارُ عن وُقوعِ ذلك، وهو البعثُ، ثمَّ الجزاءُ، وفي ذلك تَنزيلُ وُقوعِ البَعثِ مَنزلةَ الشَّيءِ المُحقَّقِ المَفروغِ منه، بحيث لا يُهِمُّ النَّاسَ إلَّا مَعرفةُ وَقتِه وأشراطِه، فيكونُ التَّوقيتُ كِنايةً عن تَحقيقِ وُقوعِ المُوقَّتِ[٣].

- وإنَّما بُنِيَ فِعلُ ﴿زُلْزِلَتِ﴾ بصِيغةِ النَّائبِ عن الفاعلِ؛ لأنَّه مَعلومٌ فاعلُه، وهو اللهُ تعالَى[٤].

- وانتَصَبَ ﴿زِلْزَالَهَا﴾ على المفعولِ المُطلَقِ المؤكِّدِ لفِعلِه؛ إشارةً إلى هَولِ

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٧٣٠) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٨٤٩) مِن حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٩١).

ذلك الزِّلزالِ[١].

- وأُضيفَ الزِّلزالُ إلى الأرضِ؛ لإفادةِ تَمكُّنِه منها وتَكرُّرِه، حتَّى كأنَّه عُرِفَ بِنسبتِه إليها؛ لكَثرةِ اتِّصالِه بها، أو ليَدُلَّ على أنَّها زُلزِلَت الزِّلزالَ المخصوصَ بها على مُقْتضى المَشيئةِ المَبْنيَّةِ على الحِكَمِ البالغةِ، وهو الزِّلزالُ الشَّديدُ الَّذي لا غايةَ وَراءَه، أو زِلزالَها العَجيبَ الَّذي لا يُقادَرُ قَدْرُه، أو زِلزالَها الدَّاخلَ في حيِّزِ الإمكانِ[٢].

فقولُه: ﴿زِلۡزَالَهَا﴾ ليس مِن التَّكرارِ؛ فإنَّ إضافةَ الزِّلزالِ يفيدُ معنًى زائدًا، وهو زِلزالُها المختَصُّ بها، المعروفُ منها، المتوقَّعُ منها، كما تقولُ: غَضِبَ زيدٌ غضَبَه، وقاتَلَ قِتالَه، أي: غضَبَه الَّذي يُعْهَدُ منه، وقِتالَه المختَصَّ به الَّذي يُعْرَفُ منه[٣].

- وإعادةُ لَفظِ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ في قولِه: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لزِيادةِ التَّقريرِ، وتَفخيمِ هَولِ السَّاعةِ، أوْ للإيماءِ إلى تبَدُّلِ الأرضِ غَيرَ الأرضِ، أو لأنَّ إخراجَ الأثقالِ حالُ بَعضِ أجزائِها[٤].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ قيل: هو تَعريفُ الجِنسِ المُفيدُ للاستغراقِ، أي: وقال النَّاسُ: ما لَها؟ على أنَّ الكافرَ يقولُ هذا بطَريقِ التَّعجُّبِ، والمؤمنَ يَقولُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٨).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٩).

بطَريقِ الاستعظامِ؛ فالمؤمنُ -وإنْ كان مُؤمنًا بالبعثِ- فإنَّه استَهوَلَ المَرْأى.

وقيل: ذلك قولُ الكافرِ؛ لأنَّه يَرى ما لم يَقَعْ في ظنِّه قطُّ ولا صَدَّقَه، لأنَّه كان لا يُؤمِنُ بالبعثِ، فأمَّا المؤمنُ فيَقولُ: هذا ما وعَدَ الرَّحمنُ وصَدَقَ المُرسَلون[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ حُذِفَ مَفعولُ ﴿تُحَدِّثُ﴾ الأوَّلُ لظُهورِه، أي: تُحدِّثُ الإنسانَ؛ لأنَّ الغرَضَ مِن الكلامِ هو إخبارُها، لا ذِكرُ الخلْقِ؛ لِما فيه مِن التَّهويلِ، وتَعظيمِ اليومِ[٢].

- قولُه: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ يَتعلَّقُ بفِعلِ ﴿تُحَدِّثُ﴾، ومعْناه: تُحدِّثُ أخبارَها بسَببِ إيحاءِ ربِّك لها، وأمْرِه إيَّاها بالتَّحديثِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾ بدَلًا مِن ﴿أَخْبَارَهَا﴾، وأُظهِرَت الباءُ في البدَلِ؛ لتَوكيدِ تَعديةِ فِعلِ ﴿تُحَدِّثُ﴾ إليه، كأنَّه قِيلَ: يومَئذٍ تُحدِّثُ بأخبارِها بأنَّ ربَّك أَوحى لها؛ لأنَّك تَقولُ: حدَّثْتُه كذا، وحدَّثْتُه بكذا[٣].

- وعُدِّيَ فِعلُ ﴿أَوْحَىٰ﴾ باللَّامِ؛ لتَضمينِ ﴿أَوْحَىٰ﴾ معْنى (قال)، وإلَّا فإنَّ حقَّ ﴿أَوْحَىٰ﴾ أنْ يَتعدَّى بحرْفِ (إلى)[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٣). =

- وقولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ بدَلٌ مِن جُملةِ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، والجَوابُ هو فِعلُ ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾، وقولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يَتعلَّقُ به، وقُدِّمَ على مُتعلَّقِه للاهتمامِ، وهذا الجوابُ هو المَقصودُ مِن الكَلامِ؛ لأنَّ الكَلامَ مَسوقٌ لإثباتِ الحَشْرِ، والتَّذكيرِ به، والتَّحذيرِ مِن أهوالِه؛ فإنَّه عندَ حُصولِه يَعلَمُ النَّاسُ أنَّ الزِّلزالَ كان إنذارًا بهذا الحشْرِ(١).

- وصُدورُ النَّاسِ: الخُروجُ مِن مَحلِّ اجتماعِهم، يُقالُ: صدَرَ عن المكانِ، إذا تَرَكه وخرَج منه، ومنه: الصَّدَرُ عن الماءِ بعْدَ الوِرْدِ، فأُطلِقَ هنا فِعلُ ﴿يَصْدُرُ﴾ على خُروجِ النَّاسِ إلى الحشْرِ جَماعاتٍ، أو انصرافِهم مِن المَحشرِ؛ تَشبيهًا بانصرافِ النَّاسِ عن الماءِ بعْدَ الوِردِ(٢).

- وبُنِيَ فِعلُ ﴿لِّيُرَوْاْ﴾ إلى النَّائبِ؛ لأنَّ المقصودَ رُؤيتُهم أعمالَهم، لا تَعيينُ مَن يُريهم إيَّاها(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ تَفريعٌ على قولِه: ﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦] تَفريعَ الفَذْلَكةِ(٤)، انتقالًا للتَّرغيبِ والتَّرهيبِ بعْدَ الفَراغِ مِن إثباتِ البَعثِ والجزاءِ، والتَّفريعُ قاضٍ بأنَّ هذا يكونُ عَقِبَ ما يَصدُرُ النَّاسُ أشتاتًا(٥).

- وقولُه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ ...﴾ تَفصيلٌ لِقولِه: ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ

= ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُها (ص: ٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٤).

أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، والأعمالُ جمْعٌ مُضافٌ يُفيدُ الشُّمولَ والاستغراقَ، و﴿يَصۡدُرُ النَّاسُ﴾ مُقيَّدٌ بقولِه: ﴿أَشۡتَاتٗا﴾، فيُفيدُ أنَّهم على طَرائقَ شتَّى للنُّزولِ في مَنازِلِهم مِن الجنَّةِ والنَّارِ، بحسَبِ أعمالِهم المُختلِفةِ، ومِن ثَمَّ كانت الجنَّةُ ذاتَ دَرَجاتٍ، والنَّارُ ذاتَ دَرَكاتٍ. وقد ورَدَت الآيةُ لبيانِ الاستِقصاءِ في عرْضِ الأعمالِ والجزاءِ عليها؛ لقولِه تعالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وهي مِن الجوامعِ الحاويةِ لفَوائدِ الدِّينِ أصولًا وفُروعًا[(١)].

- والذَّرَّةُ: النَّملةُ الصَّغيرةُ في ابتداءِ حَياتِها -على قولٍ-، و«مِثقالُ ذَرَّةٍ» مَثَلٌ في أقلِّ القِلَّةِ[(٢)].

- ولَمَّا كان الكلامُ مَسوقًا للتَّرغيبِ والتَّرهيبِ معًا، أُوثِرَ جانبُ التَّرغيبِ بالتَّقديمِ في التَّقسيمِ؛ تَنْويهًا بأهلِ الخيرِ[(٣)].

- وإنَّما أُعِيدَ قولُه: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ﴾ دونَ الاكتفاءِ بحرْفِ العطْفِ؛ لأنَّ الأوَّلَ مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾، والثاني مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿شَرّٗا يَرَهُۥ﴾، ولتَكونَ كلُّ جُملةٍ مُستقِلَّةَ الدَّلالةِ على المُرادِ؛ لتَختَصَّ كلُّ جُملةٍ بغَرَضِها مِن التَّرغيبِ أو التَّرهيبِ، فأهمِّيَّةُ ذلك تَقْتضي التَّصريحَ والإطنابَ[(٤)].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٤٤).

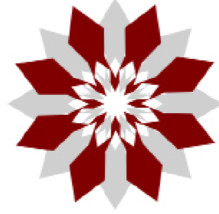
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٤).

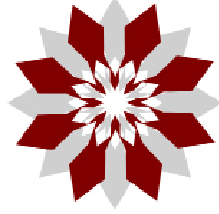
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٩٥).

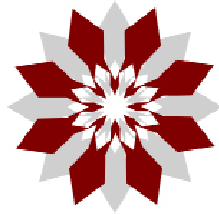
(٤) يُنظر: ((أسرار التَّكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٣٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٢، ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٥).

تَفْسِيرُ

سُورَةِ العادِياتِ







سُورةُ العادِياتِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (العادِيات)[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ العادِياتِ مكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

بَيانُ ما جُبِلَ عليه الإنسانُ، وحَثُّه على أن يَتزَوَّدَ بالعمَلِ الصَّالحِ[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- القَسَمُ بالخَيلِ، والتَّنويهُ بشَأنِ الجِهادِ والمُجاهِدينَ.

٢- ذِكْرُ كُفرانِ الإنسانِ، وبَيانُ ما جُبِلَ عليه مِن شِدَّةِ مَحبَّةِ المالِ، والحِرصِ عليه.

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ بذلك؛ لافتِتاحِها بقولِه: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٣٧).

قال ابنُ عاشورٍ: (وسُمِّيَت في بَعضِ كُتُبِ التَّفسيرِ سُورةَ «والعادياتِ» بإثباتِ الواوِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٧).

(٢) ونسَب القولَ بأنَّها مكِّيَّةٌ إلى الجمهورِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٧).

وقيل: مَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٦)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٧).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: البِقاعيُّ. يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٨١).

٣- وَعظُ النَّاسِ بأنَّ وَراءَهم حِسابًا بعدَ الموتِ؛ تَحريضًا على التَّزوُّدِ بالعملِ الصَّالحِ.



الآيات (١-١١)

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤)
فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ
لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ
(١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١)﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾: أي: الخَيلِ العادِيَةِ في سَبيلِ اللهِ عزَّ وجَلَّ تَضبَحُ، والعَدْوُ: السَّيرُ بسُرْعةٍ، والضَّبْحُ: صَوتُ أجوافِها إذا عَدَتْ، وهو النَّفَسُ، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على تجاوُزٍ في الشَّيءِ، وأصلُ (ضبح): يدُلُّ على صَوتٍ[(١)].

﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾: أي: الخَيلِ تُوري النَّارِ بحوافِرِها إذا وقَعَت على الحِجارةِ، يُقالُ: وَرَى الزَّندُ: إذا خرَجَت نارُه، والإيراءُ: إخراجُ النَّارِ، والقَدْحُ هو الضَّربُ والصَّكُّ[(٢)].

﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾: أي: الخَيلِ الَّتي تُغيرُ على العَدُوِّ عندَ الصَّباحِ، يُقالُ: أغارَ على العَدُوِّ: هَجَم عليهم دِيارَهم، وأوْقَع بهم، وأغارَ الفرَسُ: إذا أسْرَعَ في العَدْوِ، وأصلُ (غور) هنا: يدُلُّ على إقدامٍ على أخذِ مالٍ قَهرًا أو حَربًا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٨٥) و(٤/ ٢٤٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٧) و(٦/ ١٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠١)، =

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾: أي: الخَيلُ تُثيرُ الغُبارَ بحوافِرِها بمكانِ عَدْوِها، يُقالُ: ثارَ الغُبارُ والدُّخَانُ: إذا ارتفَعَ، وأصلُ (ثور): يدُلُّ على انبعاثِ الشَّيءِ، والنَّقْعُ: الغُبارُ السَّاطِعُ المُثارُ(١).

﴿لَكَنُودٌ﴾: أي: لَكَفورٌ جَحودٌ؛ مِن كَنَد النِّعمةَ: أي: كَفَرها ولم يَشكُرْها، وأصلُ (كند): يدُلُّ على القَطعِ، وسُمِّي الكَنودُ بذلك لأنَّه يَكْنُدُ الشُّكرَ، أيْ: يَقْطَعُه(٢).

﴿بُعْثِرَ﴾: أي: أُثيرَ وأُخرِجَ، والبعثرةُ: قلبُ الشَّيءِ وإثارتُه، بجَعلِ أعلاهُ أسْفَلَه، وأسْفَلِه أعلاهُ(٣).

﴿وَحُصِّلَ﴾: أي: مُيِّزَ وبُيِّنَ، وأُظهِرَ وجُمِعَ، كإظهارِ اللُّبِّ مِنَ القِشْرِ وجَمْعِه، والتَّحْصيلُ: إخراجُ اللُّبِّ مِنَ القُشورِ، كإخراجِ الذَّهَبِ مِن حَجَرِ المعدِنِ، والبُرِّ مِنَ التِّبنِ، والحاصِلُ مِن كُلِّ شيءٍ ما حَصَل وذَهَب ما سِواه، وأصلُ (حصل): جَمعُ الشَّيءِ(٤).

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٨)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٤٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٣)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٨)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٤).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا *... أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾

قَولُه: ﴿ضَبْحًا﴾: مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ المُطلَقةِ بفِعلٍ محذوفٍ جملتُه حالٌ، والتَّقديرُ: تَضبَحُ ضَبحًا. أو مَنصوبٌ على الحالِ؛ لتأويلِه بالمشتَقِّ، أي: ضابحاتٍ. ومَن قال: إنَّ الضَّبحَ نَوعٌ مِنَ السَّيرِ والعَدْوِ[1]، فهو عندَه مَصدَرٌ مؤكِّدٌ لـ«العادياتِ».

﴿قَدْحًا﴾: مَصدَرٌ مُؤكِّدٌ لـ «المورياتِ»؛ لأنَّ الإيراءَ مِنَ القَدْحِ، يُقالُ: قَدَحَ فأَوْرى: إذا أخرَجَ النَّارَ. ويجوزُ أن يكون حالًا؛ لتأويلِه بالمشتَقِّ، أي: قادحاتٍ، أو مَفعولًا مُطلَقًا لفِعلٍ محذوفٍ جُملتُه حالٌ، أي: تَقْدَحُ قَدْحًا.

﴿صُبْحًا﴾: منصوبٌ على الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ، أي: الَّتي تُغيرُ وقْتَ الصُّبحِ.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾: مَعطوفٌ على اسمِ الفاعِلِ قبْلَه، وهو العادياتُ، وما بَعْدَه؛ لكَونِه في تأويلِ الفِعلِ؛ لوُقوعِه صِلةً للمَوصولِ؛ فإنَّ الألِفَ واللَّامَ في الأسماءِ المشتَقَّةِ أسماءٌ مَوصولةٌ، فالكلامُ في قُوَّةِ: واللَّاتي عَدَوْنَ فأَوْرَينَ فأغَرْنَ فأثَرْنَ.

﴿بِهِۦ﴾ الباءُ ظرفيَّةٌ، والضَّميرُ للمَكانِ الدَّالِّ عليه السِّياقُ، وإنْ لم يَجْرِ له ذِكرٌ؛ لأنَّ الإثارةَ لا بدَّ لها من مكانٍ.

وقيل: ضَميرُ ﴿بِهِۦ﴾ للصُّبحِ، والباءُ ظَرفيَّةٌ، أي: فهيَّجْنَ في ذلك الوَقتِ نَقْعًا، أي: غُبارًا.

وجُوِّزَ كونُ ضَميرِ ﴿بِهِۦ﴾ للعَدْوِ الدَّالِّ عليه «العاديات»، والباءُ للسَّببيَّةِ أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٩).

للمُلابَسةِ. ﴿جَمْعًا﴾: مَفعولٌ به للفِعلِ «وَسَطَ».

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ قَولُه: ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾: في العامِلِ فيها أوجُهٌ؛ أحَدُها: محذوفٌ دَلَّ عليه ﴿لَخَبِيرٌ﴾، ولا يجوزُ أن يَعمَلَ فيه ﴿لَخَبِيرٌ﴾؛ لأنَّ ما في حيِّزِ «إنَّ» لا يتقدَّمُ عليها، أي: إذا بُعثِرَ جُوزوا. الثَّاني: مَفعولُ ﴿يَعْلَمُ﴾ المحذوفُ هو العامِلُ في ﴿إِذَا﴾، أي: أفلَا يَعلَمُ مآلَه إذا بُعثِرَ مَن في القُبورِ. الثَّالِثُ: أنَّ ﴿إِذَا﴾ خارِجةٌ عن الظَّرفيَّةِ مَفعولٌ به لـ ﴿يَعْلَمُ﴾، على معنى: أفلا يعلَمُ ذلك الوَقتَ ويَعرِفُ تحَقُّقَه. وقيل: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ في محَلِّ نَصبٍ سَدَّت مَسَدَّ مَفعولَيْ ﴿يَعْلَمُ﴾ المُعلَّقةِ عن العَمَلِ؛ لوُجودِ اللَّامِ في خَبَرِ «إنَّ»، ولذا كُسِرَت هَمزتُها. وهي استئنافٌ تعليليٌّ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالخَيلِ المُسرِعةِ حتَّى يُسمَعَ ترَدُّدُ أنفاسِها مِن أجوافِها، الَّتي تُوقِدُ شَرَرَ النَّارِ بحوافِرِها حينَ تصطَكُّ بالحِجارةِ أثناءَ عَدْوِها، والَّتي تُغِيرُ على العَدُوِّ وَقتَ الصَّباحِ، فتُهَيِّجُ الغُبارَ في مَوضِعِ الإغارةِ، فتَصيرُ في ذلك الموضِعِ وَسْطَ جَمْعِ الأعداءِ؛ أقسَمَ اللهُ بهذا على أنَّ الإنسانَ كَفورٌ لنِعَمِ رَبِّه عليه، وأنَّ الإنسانَ شاهِدٌ على نَفْسِه بذلك، وأنَّه شَديدُ المحبَّةِ للمالِ، حريصٌ عليه.

ثمَّ قال الله تعالى مُزَهِّدًا في الدُّنيا، ومُرَغِّبًا في الآخرةِ، ومُنَبِّهًا على ما يَستَقْبِلُه الإنسانُ مِن الأهوالِ: أفلا يَعلَمُ هذا الإنسانُ مآلَه إذا أخرَجَ اللهُ ما في القُبورِ

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٥٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٣٠٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٨١ - ٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٨٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٤٢ - ٤٤٦)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٣٩٠).

مِنَ الأمواتِ، وأظهَرَ ما في قُلوبِ العِبادِ؟! إنَّ رَبَّهم خَبيرٌ بهم يومَ القيامةِ، وسيُجازيهم بما يَستَحِقُّونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالخَيلِ المُسرِعةِ الَّتي تَعْدو بقُوَّةٍ حتَّى يُسمَعَ ترَدُّدُ أنفاسِها مِن أجوافِها[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٧٠، ٥٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٥٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٥-٧٨)، ((الفروسية)) لابن القيم (ص: ١٣٠، ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩١، ٢٩٢).

قال ابنُ الجَوزيِّ: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ﴾ فيه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّها الإبلُ في الحجِّ...

والثَّاني: أنَّها الخَيلُ في سبيلِ الله). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٠).

ممَّن اختارَ أنَّ المُرادَ بها: الخَيلُ: ابنُ جَريرٍ، والزَّجَّاجُ، والسَّمْعانيُّ، والزَّمَخْشَريُّ، والرَّازيُّ وعَزاه إلى أكثَرَ المُحَقِّقينَ، والقُرْطُبيُّ وعَزاه إلى عامَّةِ المُفَسِّرينَ وأهْلِ اللُّغةِ، والنَّسَفيُّ، والخازِنُ، وابنُ كثير، والعُلَيْميُّ، والشربينيُّ، والشوكانيُّ وعَزاه للجُمهورِ، والسعديُّ، وابنُ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٧٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٥٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٥٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٧١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٨)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩١).

ممن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وعَطاءٌ، ومجاهِدٌ، وأبو العاليةِ، وعِكْرِمةُ، والضَّحاكُ، وقَتادةُ، وعطيَّةُ، والرَّبيعُ، والكلبيُّ. يُنظر ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٠).

وممَّن قال: إنَّ المُرادَ بها الإبلُ: عليٌّ، وابنُ مَسْعودٍ، وإبراهيمُ، وعُبَيْدُ بنُ عُمَيرٍ، ومحمَّدُ بنُ =

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر عَدْوَها، أتْبَعَه ما يَنشَأُ عنه، فقال عاطفًا بأداةِ التَّعقيبِ؛ لأنَّ العَدْوَ بحيثُ يتسبَّبُ عنه، ويتعَقَّبُه الإيراءُ[1]:

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ٢﴾.

أي: الَّتي تُوقِدُ شَرَرَ النَّارِ بحَوافِرِها حينَ تصطَكُّ بالحِجارةِ أثناءَ عَدْوِها[2].

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ العَدْوَ وما يتأثَّرُ عنه؛ ذكَرَ نتيجتَه وغايتَه، فقال[3]:

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ٣﴾.

أي: الَّتي تُغيرُ على العَدُوِّ وقْتَ الصَّباحِ[4].

= كَعْبٍ القُرَظيُّ، والسُّدِّيُّ، وأبو صالِحٍ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((الفروسية)) لابن القيم (ص: ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٢).

قال السعدي: (أي: تَقدَحُ النَّارَ مِن صَلابةِ حوافِرِهنَّ وقُوَّتِهنَّ إذا عَدَوْنَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٧٨، ٥٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٢).

قال القُرْطُبيُّ: (كانوا إذا أرادوا الغارةَ سَرَوْا ليلًا، ويأتونَ العَدُوَّ صُبْحًا؛ لأنَّ ذلك وقْتُ غَفْلةِ النَّاسِ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٥٨).

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾.

أي: فتُهَيِّجُ الغُبارَ في مَوضِعِ الإغارةِ[(١)].

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾.

أي: فتَصيرُ في ذلك الموضِعِ وَسْطَ جَمْعِ الأعداءِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٥، ٤٦٦).

قَولُه: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ أي: بمَكانِ عَدْوِها، وهو وإن لم يَتقدَّمْ له ذِكْرٌ لكنْ في الكَلامِ دَليلٌ عليه. وقيلَ: الضَّميرُ يَرجِعُ للوَقْتِ، وهو الصُّبحُ، وهو وَقْتُ الإغارةِ. وقيلَ: للعَدْوِ الَّذي دَلَّ عليه ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾، وتكونُ الباءُ سببيَّةً. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٤٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠١).

وممَّن اختارَ القَولَ الأوَّلَ -أنَّ الضَّميرَ يَعودُ على اسْمِ مَكانِ العَدْوِ-: ابنُ جَريرٍ، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، ومَكِّيٌّ، والواحِديُّ، والبَغَويُّ، والخازِنُ، والعُلَيْميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٤٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٩).

وممَّن اختارَ القَولَ الثاني -أنَّ المُرادَ بقَوْلِه: ﴿بِهِۦ﴾: وقْتُ الصُّبحِ-: الزَّمَخْشَريُّ، وابنُ عَطِيَّةَ، والبَيْضاويُّ، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٧١).

وممَّن قال بالقَولِ الثَّالِثِ في الجُملة: مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ -وقال: بجَرْيِهِنَّ يَعْني بحَوافِرِهِنَّ-، والكِسائيُّ وعَزاه إليه الرَّازيُّ، والسعديُّ، وابنُ عُثَيْمينَ، وزادا معَ العَدْوِ: الإغارةَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٠٢)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين - جزء عم)) (ص: ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠١).

قال البِقاعي: (فدخلَتْ في وسَطِ ذلك الجَمعِ؛ لشَجاعتِها؛ وقوَّتِها، وطَواعيتِها، وشجاعةِ =

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر المُقسَمَ به؛ ذكَرَ المُقسَمَ عليه، وهو أمورٌ ثلاثةٌ[1]، فقال:

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦﴾.

أي: إنَّ الإنسانَ لَكَفورٌ لِنعَمِ رَبِّه عليه، بَخيلٌ بإعطاءِ المالِ الَّذي لدَيه[2].

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧﴾.

أي: وإنَّ الإنسانَ لَشاهِدٌ على نَفْسِه بحالِه وأعمالِه وأقوالِه بأنَّه كَفورٌ لِنعَمِ رَبِّه عليه[3].

= فُرْسانِها). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٢١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٢، ٥٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٣).
قال القُرْطُبيُّ: (هذا جَوابُ القَسَمِ، أي: طُبِعَ الإنسانُ على كُفْرانِ النِّعْمةِ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣).
قال ابنُ عطيَّةَ: (قَولُه تَعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ﴾ يَحتَمِلُ الضَّميرُ أن يَعودَ على اللهِ تَعالى، وقالَه قَتادةُ، أي: وربُّه شاهِدٌ عليه، ونفسُ هذا الخَبَرِ يَقْتضي الشَّهادةَ بذلك، ويَحتمِلُ أن يَعودَ على الإنسانِ، أي: أفعالُه وأقوالُه وحالُه المعلومةُ من هذه الأخلاقِ تشهَدُ عليه، فهو شاهِدٌ على نفسِه بذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٤).
وممَّن ذهَبَ إلى أنَّ الضَّميرَ يَعودُ على اللهِ تَعالى: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبةَ، وابنُ جَرير، وحَكاه الثَّعْلَبيُّ والبَغَويُّ والقُرْطُبيُّ عن أكثَرِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٧)، ((تفسير الثعلبي)) =

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن العجائِبِ أن يَكفُرَ أحَدٌ إحسانَ المنعِمِ، وهو شاهِدٌ على نَفْسِه؛ ذكَرَ الحامِلَ له على ذلك حتَّى هان عليه، فقال[1]:

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾.

أي: وإنَّ الإنسانَ لَشَديدُ المحبَّةِ للمالِ؛ فهو حريصٌ عليه، بَخيلٌ به[2].

= (١٠/ ٢٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٢).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في رِوايةٍ عنه، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، وسُفْيانُ الثَّوْريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨١، ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٦٠٤).

وممَّن اخْتارَ عَوْدَ الضَّميرِ على الإنسانِ: ابنُ جُزَي، والبِقاعيُّ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ. ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٢/ ٢٧٥) و (٥/ ٣٢٧).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في رِوايةٍ عنه، ومحمَّدُ بنُ كَعبٍ القُرَظيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٦٠٤).

قال ابنُ عثيمين: (الصَّوابُ أنَّ الآيَةَ شامِلةٌ لهذا وهذا؛ فاللهُ شَهيدٌ على ما في قَلبِ ابنِ آدَمَ، وشهيدٌ على عمَلِه، والإنسانُ أيضًا شهيدٌ على نَفْسِه، لكِنْ قد يُقِرُّ بهذه الشَّهادةِ في الدُّنيا، وقد لا يُقِرُّ بها فيَشهَدَ على نَفْسِه يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٨، ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٣). =

كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠].

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا عَدَّ على الإنسانِ قبائِحَ أفعالِه؛ خَوَّفَه[١].

وأيضًا لَمَّا كان المالُ فانيًا لا يَنبغي لعاقِلٍ أن يُعلِّقَ أمَلَه به، فضلًا عن أن يُؤْثِرَه على الباقي؛ نبَّهَه على ذلك بتهديدٍ بليغٍ، فقال[٢]:

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩)﴾.

أي: أفلا يَعلَمُ هذا الإنسانُ -الجَحودُ لِنعَمِ رَبِّه، المحِبُّ للمالِ- مآلَه إذا أخرَجَ اللهُ ما في القُبورِ مِنَ الأمواتِ[٣]؟

= قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: الإنسانَ، من غَيرِ خلافٍ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٢).

وقال ابنُ القيِّم: (الخيرُ هنا المالُ باتِّفاقِ المفَسِّرينَ، والشَّديدُ: البَخيلُ مِن أجْلِ حُبِّ المالِ؛ فحُبُّ المالِ هو الَّذي حمَلَه على البُخلِ. هذا قولُ الأكثَرينَ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٥)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٤). =

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ٤].

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾.

أي: ومَيَّز اللهُ وأظهَرَ ما في قُلوبِ العِبادِ مِنَ الإيمانِ والكُفرِ، والخَيرِ والشَّرِّ(١).

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩].

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

أي: إنَّ رَبَّ النَّاسِ خَبيرٌ بهم يومَ القيامةِ؛ فهو مُطَّلِعٌ على بواطِنِهم، ولا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أمرِهم، وسيُجازيهم بما يَستَحِقُّونَ(٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ أقسَمَ تعالى بفَرَسِ الغازي؛ لِما فيه مِن مَنافعِ الدُّنيا والدِّينِ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ الإنسانَ يجِبُ عليه أن يُمسِكَه لا للزِّينةِ والتَّفاخُرِ، بل

= قال ابنُ عطيَّة: (قَولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ توقيفٌ على المآلِ والمصيرِ، أي: أفلا يعلَمُ مآلَه فيَستَعِدَّ له؟!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٥).

وقال ابنُ عثيمين: (قال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ فيَعمَلَ لذلك، ولا يكونَ هَمُّه المالَ؟!). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٧).

لهذه المنفعةِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ فيه تفضيلُ الجِهادِ والمجاهِدينَ، على أنَّ معنَى العادياتِ خيلُهم[٢].

٣- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ في طبعِ الإنسانِ الكُنودُ لربِّه، أي: كُفرانُ نعمتِه، فالإنسانُ لا يخلو مِن أحوالٍ مآلُها إلى كُفرانِ النِّعمةِ؛ بالقولِ والقصدِ، أو بالفعلِ والغفلةِ؛ فالإشراكُ كُنودٌ، والعصيانُ كُنودٌ، وقلَّةُ مُلاحَظةِ صَرفِ النِّعمةِ فيما أُعطِيتْ مِن أجْلِه كُنودٌ، وهو مُتفاوِتٌ، فهذا خُلقٌ مُتأصِّلٌ في الإنسانِ؛ فلذلك أيقَظَ اللهُ له النَّاسَ لِيَريضوا أنفُسَهم على إماتةِ هذا الخُلقِ مِن نُفوسِهم، كما في قولِه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، وقولِه: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وقولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[٣] [العلق: ٦-٧].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ فيه مَذَمَّةُ حُبِّ المالِ، وهو جِبِلَّةٌ في الإنسانِ إلَّا مَن هَذَّبه الإسلامُ، إلَّا أنَّ الذَّمَّ ينصَبُّ على شِدَّةِ الحُبِّ الَّتي تحمِلُ صاحِبَها على إضاعةِ الحُقوقِ، أو تعَدِّي الحُدودِ[٤].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، والخَيرُ: المالُ، ففيه الحَثُّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٢، ٥٠٣).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٦٧).

على الزُّهدِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أنَّه يجِبُ على العبدِ أنْ يُصَحِّحَ ما في قَلبِه؛ لأنَّ المدارَ عليه[٢].

٧- أنَّ مَن ظَنَّ أنَّ إعدادَ القبرِ وبناءَه وتعظيمَه وتحسينَه ينفعُه، فقد تمنَّى على اللهِ الأمانيَّ الكاذبةَ، وإنَّما يكونُ في قبْرِه بحسَبِ ما في قلْبِه، وكُلَّما كان الإيمانُ في قلْبِه أعظَمَ كان في قبْرِه أَسَرَّ وأَنْعَمَ؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾، فقد جمَعَ سُبحانَه هنا بيْن ما في القُبورِ وما في الصُّدورِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى أَقْسَمَ بالخَيلِ في كتابِه، وذلك يدُلُّ على شَرَفِها وفَضْلِها عِندَه[٤]. عن عُروةَ البارقي رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ((الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامةِ: الأجرُ والمغنمُ))[٥].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ فيه سُؤالٌ: هذا يدُلُّ على أنَّ الإنسانَ شاهِدٌ على كُنودِ نَفْسِه، أي: مُبالَغتِه في الكُفرِ، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على خِلافِ ذلك، كقَولِه تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وقَولِه تبارك وتعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٤/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((الفروسية)) لابن القيم (ص: ١٣٠).

(٥) رواه البخاري (٣١١٩)، ومسلم (١٨٧٣) واللفظ له.

[الزخرف: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ شَهادةَ الإنسانِ بأنَّه كَنودٌ هي شَهادةُ حالِه بظُهورِ كُنودِه، والحالُ رُبَّما تَكفي عن المقالِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ شَهادتَه على نَفْسِه بذلك يومَ القيامةِ، كما يدُلُّ له قَولُه تعالى: ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقَولُه تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]، وقَولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ راجِعٌ إلى رَبِّ الإنسانِ المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾، وعليه فلا إشكالَ في الآيةِ، ولكِنْ رجوعُه إلى الإنسانِ أظهَرُ؛ بدليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[1] [العاديات: ٨].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، وقولُه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقَولُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] هذا شَأْنُ الإنسانِ من حيثُ ذاتُه ونفْسُه، وأمَّا خروجُه عن هذه الصِّفاتِ فهو بفَضْلِ ربِّه وتوفيقِه له ومِنَّتِه عليه، لا مِن ذاتِه؛ فليس له من ذاتِه إلَّا

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

هذه الصِّفاتُ، وما به مِن نعمةٍ فمِن اللهِ وَحْدَه[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾، فيه سُؤالٌ: لِمَ قال: ﴿بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾، ولم يقلْ: (بُعْثِرَ مَن في القُبورِ)؟ ثم إنَّه لَمَّا قال: ﴿مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾، فلِمَ قال: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ﴾، ولم يقلْ: (إنَّ رَبَّها بها يومَئذٍ لَخَبيرٌ)؟

الجوابُ: هو أنَّ ما في الأرضِ مِن غيرِ المُكلَّفينَ أكثرُ، فأُخرِجَ الكلامُ على الأَغلَبِ، أو يُقالُ: إنَّهم حالَ ما يُبعَثُون لا يَكونُون أَحياءً عُقلاءَ، بل بعدَ البَعثِ يَصيرون كذلك، فلا جَرَمَ كان الضميرُ الأوَّلُ ضميرَ غيرِ العُقلاءِ، والضَّميرُ الثَّاني ضميرَ العُقلاءِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ جمَعَ سُبحانَه بيْن القُبورِ والصُّدورِ، كما جمَعَ بيْنَهما النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قَولِه: ((مَلَأَ اللهُ أجوافَهم وقُبورَهم نارًا))[٣]؛ فإنَّ الإنسانَ يُواري صدْرُه ما فيه مِن الخَيرِ والشَّرِّ، ويواري قَبْرُه جِسْمَه؛ فيُخْرِجُ الرَّبُّ جِسْمَه مِن قبْرِه، وسِرَّه مِن صدْرِه، فيَصيرُ جسْمُه بارزًا على الأرضِ، وسِرُّه باديًا على وجْهِه، كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١]، وقال: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦][٤]. فالتَّناسُبُ بيْن الآيتَينِ ظاهِرٌ؛ فبَعْثَرةُ ما في القُبورِ إخراجٌ للأجسادِ مِن بَواطنِ الأرضِ، وتَحصِيلُ ما في الصُّدورِ إخراجٌ لِما في الصُّدورِ، ممَّا تُكِنُّه

(١) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٣).

(٣) أخرجه مسلم (٦٢٨) من حديثِ عبدِالله بنِ مَسعودٍ رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٣).

الصُّدورُ(١).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ يدُلُّ على أنَّ النِّيَّاتِ يُحاسَبُ بها، كما يُحاسَبُ على ما يَظهَرُ مِن آثارِها(٢).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ﴾ فيه سؤالٌ: الضَّميرُ في قَولِه: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ﴾ عائدٌ إلى الإنسانِ، وهو واحِدٌ؟

الجوابُ: الإنسانُ في معنى الجَمعِ، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر: ٢]، ثمَّ قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [العصر: ٣]، ولولا أنَّه للجَمعِ وإلَّا لَمَا صَحَّ ذلك(٣).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ﴾ قَيَّدَ سُبحانَه كَونَه خبيرًا بهم ذلك اليومَ، وهو خَبيرٌ بهم في كلِّ وقتٍ؛ إيذانًا بالجزاءِ، وأنَّه يُجازيهم في ذلك اليومِ بما يَعلَمُه منهم؛ فذُكِرَ العِلمُ، والمرادُ لازِمُه(٤). فالمرادُ بذلك الجزاءُ بالأعمالِ الناشئُ عن علمِ اللهِ واطِّلاعِه(٥).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ﴾ يدُلُّ على كَونِه تعالى عالِمًا بالجُزئيَّاتِ الزَّمانيَّاتِ؛ لأنَّه تعالى نَصَّ على كَونِه عالِمًا بكيفيَّةِ أحوالِهم في ذلك اليومِ(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٤).
(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾

- قولُه: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ القَدْحُ: حَكُّ جِسمٍ على آخَرَ لِيَقدَحَ نارًا، وذلك كِنايةٌ عن الإمعانِ في العَدْوِ، وشِدَّةِ السُّرعةِ في السَّيرِ[١].

- وفي قولِه: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ أَسْنَدَ الإغارةَ -الَّتي هيَ مُباغَتةُ العدُوِّ للنَّهبِ، أو للقتْلِ، أو للأسْرِ- إليَها، وهيَ حالُ أهْلِها؛ إيذانًا بأنَّها العُمدةُ في إغارتِهم، أو لأنَّ الخيلَ أو إبلَ الغزْوِ أسبابٌ للإغارةِ ووَسائلُ[٢].

- و﴿صُبْحًا﴾ ظَرفُ زَمانٍ، فإذا فُسِّرَ (المُغيرات) بخَيلِ الغُزاةِ، فتَقييدُ ذلك بوَقتِ الصُّبحِ؛ لأنَّهم كانوا إذا غَزَوا لا يُغِيرون على القومِ إلَّا بعْدَ الفَجرِ؛ ولذلك كان مُنذِرُ الحيِّ إذا أَنْذَرَ قَومَه بمَجيءِ العدُوِّ، نادى: يا صَباحاهُ[٣].

- قولُه: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ تَخصيصُ إثارةِ الغُبارِ بالصُّبحِ -وذلك على قولٍ-؛ لأنَّه لا يَثورُ أو لا يَظهَرُ ثَورانُه باللَّيلِ، وبهذا ظَهَرَ أنَّ الإيراءَ الَّذي لا يَظهَرُ في النَّهارِ المَذكورَ في قولِه: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ واقعٌ في اللَّيلِ، ولله درُّ شَأنِ التَّنزيلِ[٤]!

- ومن بَديعِ النَّظمِ وإعجازِه: إيثارُ كَلِماتِ (العادياتِ وضَبْحًا، والمُورياتِ وقَدْحًا، والمُغيراتِ وصُبْحًا، ووسَطْنَ وجَمْعًا) دونَ غيرِها؛ لأنَّها برَشاقَتِها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٤٢).

تَتحمَّلُ أنْ يكونَ المُقسَمُ به خَيلَ الغزْوِ ورَواحِلَ الحجِّ[١].

- قولُه: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۞ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۞ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ عُطِفَت هذه الأوصافُ الثَّلاثةُ الأُولى بالفاءِ؛ لأنَّ أُسلوبَ العرَبِ في عطْفِ الصِّفاتِ وعطْفِ الأمكنةِ أنْ يكونَ بالفاءِ، وهي للتَّعقيبِ، والأكثَرُ أنْ تكونَ لتَعقيبِ الحُصولِ كما في هذه الآيةِ. والفاءُ العاطفةُ لقولِه: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ عاطفةٌ على وَصْفِ المُغيراتِ، والمعطوفُ بها مِن آثارِ وَصْفِ المُغيراتِ، وليستْ عاطفةً على صِفةٍ مُستقِلَّةٍ مِثلَ الصِّفاتِ الثَّلاثِ الَّتي قبْلَها؛ لأنَّ إثارةَ النَّقْعِ وتَوسُّطَ الجمْعِ مِن آثارِ الإغارةِ صُبْحًا، ولَيْسا مُقسَمًا بهما أصالةً، وإنَّما القسَمُ بالأوصافِ الثَّلاثةِ الأُولى؛ فلذلك غُيِّرَ الأُسلوبُ في قولِه: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۞ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾؛ فجِيءَ بهما فِعلَينِ ماضيَينِ، ولم يَأتِيَا على نسَقِ الأوصافِ قبْلَهما بصِيغةِ اسمِ الفاعلِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ الكلامَ انتَقَلَ مِن القسَمِ إلى الحِكايةِ عن حُصولِ ما تَرتَّبَ على تلك الأوصافِ الثَّلاثةِ ما قُصِدَ منها مِن الظَّفَرِ بالمَطلوبِ الَّذي مِن أجْلِه كان العدْوُ والإيراءُ والإغارةُ عَقِبَه، وهي الحُلولُ بدارِ القومِ الَّذين غَزَوْهم إذا كان المُرادُ بالعادياتِ الخيلَ، أو بُلوغُ تَمامِ الحجِّ بالدَّفْعِ عن عَرَفةَ إذا كان المرادُ بالعادياتِ رَواحلَ الحَجيجِ؛ فإنَّ إثارةَ النَّقعِ يَشعُرون بها عندَ الوصولِ حينَ تَقِفُ الخيلُ والإبلُ دَفْعةً، فتُثيرُ أرْجُلُها نقْعًا شَديدًا فيما بيْنَهما، وحينَئذٍ تَتوسَّطْنَ الجمْعَ مِن النَّاسِ[٢].

- وأيضًا الفاءاتُ في قولِه: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۞ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۞ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۞ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۞ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ للدَّلالةِ على تَرتُّبِ ما بعْدَ كُلٍّ مِنها على ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٠١، ٥٠٢).

قبْلَها؛ فإنَّ تَوسُّطَ الجمْعِ مُترتِّبٌ على الإثارةِ المُترَتِّبةِ على الإيراءِ المُترتِّبِ على العَدْوِ(١).

- وفي المُخالَفةِ بيْن المَعطوفِ والمعطوفِ عليه في هذه الآياتِ سِرٌّ بَديعٌ، وهو تَصويرُ هذه الأفعالِ في النَّفْسِ، وتَجسيدُها أمامَ العينِ؛ فإنَّ التَّصويرَ يَحصُلُ بإيرادِ الفعلِ بعْدَ الاسمِ؛ لِما بيْنَهما مِن التَّخالُفِ، وهو أبلَغُ مِن التَّصويرِ والتَّجسيدِ بالأسماءِ المُتناسِقةِ، وكذلك التَّصويرُ بالمُضارعِ بعْدَ الماضي، وإنَّما وُصِفَت بالأوصافِ الثَّلاثِ؛ لِيُرتِّبَ عليها ما قُصِدَ مِن الظَّفَرِ بالفتْحِ وغَلَبةِ العدُوِّ، فأوقَعَ الفعلَينِ الماضيَينِ مُسبَّبَينِ عن أسماءِ الفاعِلينَ، فأفاد أنَّ تلك المُداوَمةَ إنَّما حقَّقَت هاتَينِ البُغْيتَينِ(٢).

- ومُناسَبةُ القَسَمِ بهذه المَوصوفاتِ دونَ غيرِها -إنْ أُريدَ بالعادياتِ وما عُطِفَ عليها خَيلُ الغُزاةِ-، هو التَّهويلُ والتَّرويعُ؛ لإشعارِ المشركين بأنَّ غارةً تَترَقَّبُهم، وهي غَزوةُ بدْرٍ، وإنْ أُريدَ رَواحلُ الحَجيجِ فالقسَمُ بها مِن أجْلِ أنْ يُصدِّقَ المشرِكون بوُقوعِ المقسَمِ عليه؛ لأنَّ القسَمَ بشَعائرِ الحجِّ لا يكونُ إلَّا بارًّا، حيث هم لا يُصدِّقون بأنَّ القرآنَ كَلامُ اللهِ، ويَزعُمونه قولَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٠، ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٧٨٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٥٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٢).

قال ابنُ عاشور: (وعلى وجهِ أنَّ المُقسَمَ به رَواحلُ الحجِّ، فالقسَمُ بها لتَعظيمِها بما تُعينُ به على مَناسِكِ الحجِّ، واختيرَ القسَمُ بها؛ لأنَّ السَّامعينَ يُوقِنونَ أنَّ ما يُقسَمُ عليه بها مُحقَّقٌ؛ فهي مُعظَّمةٌ عندَ الجَميعِ مِن المشرِكين والمسلِمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٩).

- الألِفُ واللَّامُ في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ للجِنسِ، وهو يُفيدُ الاستغراقَ غالبًا، أي: إنَّ في طَبْعِ الإنسانِ الكُنودَ لرَبِّه، أي: كُفرانَ نِعمتِه[١].

- وتَقديمُ ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ لإفادةِ الاهتمامِ بمُتعلَّقِ هذا الكُنودِ؛ لتَشنيعِ هذا الكُنودِ بأنَّه كُنودٌ للرَّبِّ الَّذي هو الأحقُّ بالشُّكرِ، وأعظَمُ ذلك شِركُ المشرِكينَ، ولذلك أُكِّدَ الكلامُ بلامِ الابتداءِ الدَّاخلةِ على خبَرِ (إنَّ)؛ للتَّعجيبِ مِن هذا الخبَرِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ * وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ﴾، شَهيدٌ، أي: مُقِرٌّ، والمعْنى: أنَّ الإنسانَ مُقِرٌّ بكُنودِه لرَبِّه مِن حيث لا يَقصِدُ الإقرارَ، والمَقصودُ مِن هذه الجُملةِ تَفظيعُ كُنودِ الإنسانِ بأنَّه مَعلومٌ لصاحبِه بأدْنى تَأمُّلٍ في أقوالِه وأفعالِه. ويَجوزُ أنْ يكونَ شَهيدٌ بمعْنى عَليمٍ، ومُتعلَّقُ (شَهيدٌ) مَحذوفًا دلَّ عليه المَقامُ، أي: عَليمٌ بأنَّ اللهَ ربُّه، أي: بدَلائلِ الرُّبوبيَّةِ، ويكونَ قولُه: ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ بمعْنى: مع ذلك، أي: مع ذلك الكُنودِ هو عَليمٌ بأنَّه ربُّه مُستحِقٌّ للشُّكرِ والطَّاعةِ لا للكُنودِ، والجارُّ والمَجرورُ في مَوضعِ الحالِ، وذلك زِيادةٌ في التَّعجيبِ مِن كُنودِ الإنسانِ[٣].

- وقيل: ضَميرُ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ عائدٌ إلى (رَبِّه)، أي: وإنَّ اللهَ على ذلك لَشَهيدٌ، والمَقصودُ أنَّ اللهَ يَعلَمُ ذلك في نفْسِ الإنسانِ، وهذا تَعريضٌ بالتَّحذيرِ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٢، ٥٠٣).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٠٤، ٥٠٥).

الحِسابِ عليه[١].

- وتَقديمُ ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ على (شَهيدٌ)؛ للاهتمامِ والتَّعجيبِ، ومُراعاةِ الفاصلةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ نظْمُ الآيةِ أنْ يُقالَ: وإنَّه لشَديدُ الحُبِّ للخَيرِ، فلمَّا تقدَّمَ الحُبُّ قال: ﴿لَشَدِيدٌ﴾، وحُذِفَ مِن آخِرِه ذِكرُ الحُبِّ؛ لأنَّه قد جَرى ذِكرُه، ولِرؤوسِ الآيِ[٣].

- وتَقديمُ ﴿لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ على مُتعلَّقِه؛ للاهتمامِ بغَرابةِ هذا المُتعلَّقِ، ولمُراعاةِ الفاصلةِ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ فُرِّعَ على الإخبارِ بكُنودِ الإنْسانِ وشُحِّه استفهامٌ إنكاريٌّ عن عدَمِ عِلمِ الإنسانِ بوَقتِ بَعثرةِ ما في القبورِ، وتَحصيلِ ما في الصُّدورِ، فإنَّه أمرٌ عَجيبٌ كيف يَغفُلُ عنه الإنسانُ[٥]؟!

- وقولُه: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ...﴾ تَهديدٌ ووَعيدٌ، والهمزةُ في ﴿أَفَلَا﴾ للإنكارِ، والفاءُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقتضيهِ المقامُ، أي: أيَفعَلُ ما يَفعَلُ مِن المَقابحِ، فلا يَعلَمُ، أو ألَا يُلاحِظُ فلا يَعلَمُ حالَهُ إذا بُعِثَ مَن في القُبورِ مِن المَوتى[٦]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٠٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٥٨).

- ومَفْعولا ﴿يَعۡلَمُ﴾ مَحذوفانِ اقتِصارًا، ولا دَليلَ في اللَّفظِ على تَعيينِ تَقديرِهما، فيُوكَلُ إلى السَّامعِ تَقديرُ ما يَقْتضيهِ المَقامُ مِن الوعيدِ والتَّهويلِ، ولِيَذهَبَ السَّامعُ في تَقديرِه كلَّ مَذهبٍ مُمكِنٍ قصْدًا للتَّهويلِ[1].

- وخُصَّ أعمالُ الصُّدورِ والقُلوبِ بالذِّكرِ؛ لأنَّها الأصلُ، وتُرِكَ ذِكرُ أعمالِ الجَوارحِ؛ لأنَّها تابعةٌ لأعمالِ القلوبِ؛ فإنَّه لولا تَحقُّقُ البَواعثِ والإراداتِ في القلوبِ لَما حَصَلَت أفعالُ الجَوارحِ؛ ولذلك جَعَلَها تعالَى الأصلَ في الذَّمِّ، فقال: ﴿ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، والأصْلَ في المدْحِ، فقال: ﴿وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾[2] [الأنفال: ٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن الإنكارِ، أي: كان شَأْنُهم أنْ يَعلَموا اطِّلاعَ اللهِ عليهم إذا بُعثِرَ ما في القُبورِ، وأنْ يَذكُروه؛ لأنَّ وَراءَهم الحِسابَ المُدقَّقَ، وتُفيدُ هذه الجُملةُ مُفادَ التَّذييلِ[3].

- وتَقديمُ ﴿بِهِمۡ﴾ على عامِلِه -وهو ﴿لَّخَبِيرُۢ﴾- للاهتمامِ به؛ لِيَعلَموا أنَّهم المقصودُ بذلك[4].

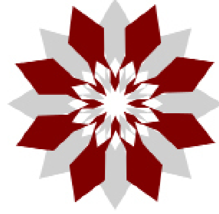
وأيضًا قولُه: ﴿بِهِمۡ﴾ و﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ مُتعلِّقانِ بـ (خَبيرٌ)؛ قُدِّمَا عليه لمُراعاةِ الفواصلِ[5].

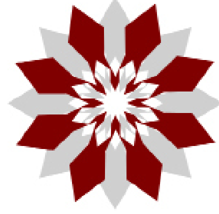
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٥٨، ٥٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٥٩).
والتذييلُ تقدَّم تعريفُه (ص: ١٢٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٢).

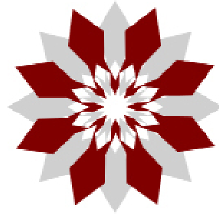
- وكَنَّى عنهم بعْدَ الإحياءِ الثَّاني بضَميرِ العُقلاءِ ﴿بِهِمْ﴾ بعْدَما عبَّرَ عنهم قبْلَ ذلك بـ ﴿مَا﴾؛ بِناءً على تَفاوُتِهم في الحالَينِ؛ إيذانًا بصَلاحيتِهم للخِطابِ بعدَ نفْخِ الرُّوحِ، وبعَدَمِها قبْلَه[(١)].



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩١، ١٩٢).

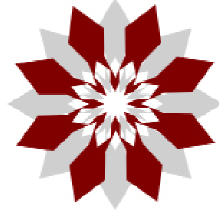


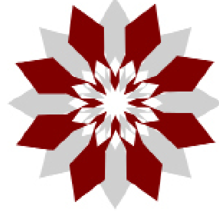


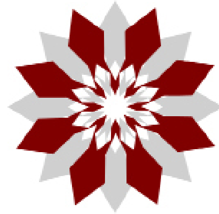


تَفْسيرُ

سُورَةِ القارِعَةِ







سُورةُ القارِعَةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (القارِعَة)(١).

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ القارِعَةِ مكِّيَّةٌ، ونقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المُفسِّرينَ(٢).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

الحديثُ عن أهْوالِ يومِ القِيامةِ، وأحوالِ النَّاسِ فيه(٣).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- ذِكرُ أهوالِ يومِ القِيامةِ.

٢- إثباتُ الجَزاءِ على الأعمالِ، وبَيانُ أحوالِ السُّعَداءِ والأشْقياءِ.



(١) سُمِّيت السُّورةُ بذلك؛ لمفتتحِها: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٣٩).

(٢) ممَّن نقَل الإجماعَ في ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٣٩)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٨٧).

الآيات (١-١١)

﴿ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾: أي: القيامةُ الَّتي تَقرَعُ قُلوبَ العِبادِ بالمَخافةِ، وسُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تَقرَعُ النَّاسَ بالأهوالِ الشَّديدةِ، وأصلُ (قرع): يدُلُّ على ضَربِ الشَّيءِ[١].

﴿ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾: أي: المنتَشِرِ المتفَرِّقِ، وأصلُ (بثث): يدُلُّ على التَّفريقِ[٢].

﴿كَٱلۡعِهۡنِ﴾: أي: الصُّوفِ المصبوغِ، وأصلُ (عهن): يدُلُّ على لِينٍ وسُهولةٍ[٣].

﴿ٱلۡمَنفُوشِ﴾: أي: المفَرَّقِ بَعضُ أجزائِه عن بَعضٍ. والنَّفْشُ: تَشعيثُ الشَّيءِ بأصابِعِك حتَّى يَنتَشِرَ، وأصلُ (نفش): يدُلُّ على انتِشارٍ[٤].

﴿هَاوِيَةٞ﴾: الهاوِيةُ: المكانُ المنخَفِضُ بيْنَ الجَبَلَينِ الَّذي إذا سَقَط فيه

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٦٤)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٧/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٢).

إنسانٌ أو دابَّةٌ هلَك، يُقالُ: سَقَط في الهاويةِ، وأُريدَ بها هنا جهنَّمُ، وقيل: هي اسمٌ لجهنَّمَ. وأصلُ (هوي): يدُلُّ على خُلُوٍّ وسُقوطٍ[(١)].

﴿حَامِيَةٌۢ﴾: أي: شديدةُ الحرارةِ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

افتتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُفَخِّمًا شأنَ القيامةِ، قائِلًا سُبحانَه: القيامةُ الَّتي تَقرَعُ النَّاسَ وتُزعِجُهم، أيُّ شَيءٍ تلك القيامةُ؟! وما الَّذي أعلَمَك -يا محمَّدُ- بتلك القارعةِ العَظيمةِ؟! يومَ يَخرُجُ النَّاسُ مِن قُبورِهم كالفَراشِ المنتَشِرِ المتفَرِّقِ، وتكونُ الجِبالُ كالصُّوفِ المندوفِ الَّذي يَتطايرُ في الجَوِّ.

ثمَّ بيَّن سُبحانَه أحوالَ السُّعداءِ والأشقياءِ في هذا اليومِ، فقال: فأمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوازينُ حَسَناتِه فهو في حياةٍ طَيِّبةٍ في الجنَّةِ، وأمَّا مَن خَفَّت موازينُ حَسَناتِه، فمَأْواه ومَسكَنُه جهنَّمُ البَعيدُ قَعْرُها، يَهْوي فيها على رأسِه، وما الَّذي أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ تلك الهاويةُ؟! هي نارٌ شَديدةُ الحَرارةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾.

أي: السَّاعةُ الَّتي تَقرَعُ النَّاسَ وتُزعِجُهم، وذلك عندَ النَّفخِ في الصُّورِ[(٣)].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين - جزء عم)) (ص: ٢٩٦).
قال السعدي: (﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ من أسماءِ يوم القيامةِ؛ سُمِّيَت بذلك لأنَّها تَقرَعُ النَّاسَ وتُزعِجُهم بأهوالِها). ((تفسير السعدي)) (ص:٩٣٣).

﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾.

أيْ: أيُّ شَيءٍ تلك القارِعةُ المَهُولةُ[(١)]؟!

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾.

أي: وما الَّذي أعلَمَك -يا محمَّدُ- بتلك القارعةِ العَظيمةِ[(٢)]؟!

كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ - ٣].

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قولُه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ مُنبِئًا عن الوعدِ الكَريمِ بإعلامِها؛ أنْجَزَ ذلكَ بقولِه تعالَى[(٣)]:

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾.

أي: يومَ يَخرُجُ النَّاسُ مِن قُبورِهم كالفَراشِ المنتَشِرِ المتفرِّقِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٦).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه لنَبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وما أشْعَرَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ القارِعةُ؟). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٣).

وقال ابنُ عاشور: (الخِطابُ في ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ لغيرِ مُعَيَّنٍ، أي: وما أدراك أيُّها السَّامِعُ؟). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٦). =

ولَمَّا كانت الجِبالُ أشَدَّ ما تكونُ؛ عظَّم الرَّهبةَ بالإخبارِ بما يُفعَلُ بها، فقال تعالى[١]:

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾.

أي: وتكونُ الجِبالُ يومَ القيامةِ كالصُّوفِ المندوفِ الَّذي تتفَرَّقُ أجزاؤه، وتتطايرُ في الجَوِّ[٢].

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف يومَ القيامةِ؛ قسَّمَ النَّاسَ فيه إلى قِسمَينِ[٣]، فقال تعالى:

= قال الشوكاني: (وانتصابُ الظَّرفِ بفعلٍ مَحْذوفٍ تَدُلُّ عليه القارِعةُ، أي: تَقرَعُهم يومَ يكونُ النَّاسُ... إلخ. ويجوزُ أنْ يكونَ منصوبًا بتقديرِ: اذكُرْ. وقال ابنُ عطيَّةَ ومَكِّيٌّ وأبو البقاءِ: هو منصوبٌ بنفْسِ القارِعةِ. وقيل: هو خبرُ مُبتدَأٍ محذوفٍ، وإنَّما نُصِب لإضافتِه إلى الفعلِ، فالفتحةُ فتحةُ بناءٍ لا فتحةُ إعرابٍ، أي: هي يومَ يكونُ... إلخ. وقيل: التَّقديرُ: سَتَأْتيكم القارِعةُ يومَ يكونُ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٩٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٤٠٩)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٨٣٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) لأبي البقاء العكبري (٢/ ١٣٠١).

وقال الواحديُّ: (الفَراشُ: ما تراه يتهافَتُ في النَّارِ، شبَّه النَّاسَ في وقتِ البَعثِ بالفَراشِ؛ لأنَّهم إذا بُعِثوا ماجَ بعضُهم في بعضٍ، والفَراشُ إذا ثار لم يتَّجِهْ لجهةٍ واحدةٍ؛ فدلَّ على أنَّهم إذا بُعِثوا فَزِعوا، فاختلَفوا في المقاصِدِ على جهاتٍ مُختلِفةٍ). ((الوسيط)) (٤/ ٥٤٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣).

قال البقاعي: (﴿كَٱلْعِهْنِ﴾ أي: الصُّوفِ المصبوغِ؛ لأنَّها مُلوَّنةٌ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ [فاطر: ٢٧]). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٢٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٧).

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ ﴾.

أي: فأمَّا مَن ثَقُلَت موازينُ حَسَناتِه فرجَحَت على سيِّئاتِه[١].

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ ﴾.

أي: فهو في حياةٍ طَيِّبةٍ في الجنَّةِ يَرضى عنها[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن يَدخُلُ الجنَّةَ يَنعَمُ لا يَبأَسُ، لا تَبلى ثيابُه، ولا يَفنى شَبابُه!))[٣].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يُنادي مُنادٍ: إنَّ لكم أنْ تَصِحُّوا فلا تَسْقَموا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَحْيَوْا فلا تَموتوا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهْرَموا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَنْعَموا فلا تَبْأَسوا أبدًا))[٤].

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ ﴾.

أي: وأمَّا مَن خَفَّت مَوازينُ حَسَناتِه فرجَحَت سَيِّئاتُه على حَسَناتِه إن كانت

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٨).

(٣) رواه مسلم (٢٨٣٦).

(٤) رواه مسلم (٢٨٣٧).

له حَسَناتٌ[١].

﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾.

أي: فمَأْواه ومَسكَنُه في مَوضِعٍ بَعيدٍ قَعْرُه، يَهْوِي فيه على رأسِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٢٣).

قال ابنُ عثيمين: (إمَّا أنَّه الكافِرُ الَّذي ليس له أيُّ حَسَنةٍ؛ لأنَّ حَسَناتِ الكافِرِ يُجازى بها في الدُّنيا، ولا تنفَعُه في الآخرةِ، أو أنَّه مُسلِمٌ، ولكِنَّه مُسرِفٌ على نَفْسِه، وسيِّئاتُه أكثَرُ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٨).

ويُنظر ما يأتي في الفوائد (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٤، ٥١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٨).

قال ابنُ جُزَي: (﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحَدُهما: أنَّ الهاويةَ جهنَّمُ؛ سُمِّيت بذلك لأنَّ النَّاسَ يَهْوُون فيها، أي: يَسْقُطون، و«أُمُّه» معناه: مَأْواه، كقَولِك: المدينةُ أمُّ فُلانٍ، أي: مَسْكَنُه، على التَّشْبيهِ بالأمِّ الوالِدةِ؛ لأنَّها مأوى الوَلَدِ ومَرجِعُه.

الثَّاني: أنَّ الأمَّ هي الوالِدةُ، و«هاويةٌ»: ساقِطةٌ، وذلك عبارةٌ عن هلاكِه، كقَولِك: أُمُّه ثَكْلى: إذا هلَك.

الثَّالِثُ: أنَّ المعنى: أمُّ رأسِه هاويةٌ في جهنَّمَ، أي: ساقِطةٌ فيها؛ لأنَّه يُطرَحُ فيها منكوسًا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٧).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ -أنَّ أُمَّه بمعنى: مَأْواه ومَسْكَنُه-: الفَرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، والواحِديُّ، والبَغَويُّ، والرَّسْعَنيُّ، والنَّسَفيُّ، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧١٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣).

وممَّن قال به مِنَ السَّلَفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٤).

وممَّن اختار في الجُملةِ القَولَ الثَّانيَ -أي: أنَّ ذلك عبارةٌ عن هلاكِه-: الأخفَشُ، والمبَرِّدُ، =

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ ﴾.

أي: قال اللهُ مُفَخِّمًا شَأنَها، ومُعَظِّمًا أمْرَها: وما الَّذي أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ تلك الهاويةُ(١)؟!

﴿ نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١ ﴾.

أي: هي نارٌ قد بلغت الغايةَ في شِدَّةِ الحَرارةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العَبدَ لَيتكَلَّمُ بالكَلِمةِ ما يَتبيَّنُ ما فيها، يَهوي بها في النَّارِ أبْعَدَ ما بيْنَ المَشرِقِ

= وأبو عليٍّ الجُرْجانيُّ ونَسَبه إليهم الواحِديُّ، واختاره الزَّمخشريُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٦٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٠).

وقال ابنُ عُثَيمين: (﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ﴾... يعني: أنَّه مآلُه إلى نارِ جَهنَّمَ -والعياذُ باللهِ-. وقيل: إنَّ المرادَ بالأُمِّ هنا: أمُّ الدِّماغِ، والمعنى: أنَّه يُلْقى في النَّارِ على أمِّ رأسِه -نسألُ اللهَ السَّلامةَ-. وإذا كانت الآيةُ تحتَمِلُ مَعنَيَينِ لا يترجَّحُ أحَدُهما على الآخَرِ ولا يتنافيانِ، فإنَّه يُؤخَذُ بالمعنيَينِ جميعًا، فيُقالُ: يُرمَى في النَّارِ على أمِّ رأسِه، وأيضًا ليس له مأوًى ولا مَقصدٌ إلَّا النَّارُ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٨).

وقال ابنُ جريرٍ: (فمَأْواه ومَسْكَنُه الهاويةُ، الَّتي يَهوِي فيها على رأسِه في جهنَّمَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٥).

والمَغرِبِ!))[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((نارُكم هذه الَّتي يُوقِدُ ابنُ آدَمَ: جُزءٌ مِن سَبعينَ جُزءًا مِن حَرِّ جهنَّمَ. قالوا: واللهِ إنْ كانت لَكافيةً يا رَسولَ اللهِ! قال: فإنَّها فُضِّلَت عليها بتِسْعةٍ وستِّينَ جُزءًا، كُلُّها مِثلُ حَرِّها))[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ * وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾، قُرِنَ بيْنَ النَّاسِ والجِبالِ؛ تَنبيهًا على تَأثيرِ تلك القارِعةِ في الجِبالِ حتَّى صارتْ كالعِهنِ المَنفوشِ! فكيف يكونُ حالُ الإنسانِ عندَ سَماعِها؟! فالوَيلُ ثمَّ الوَيلُ لابنِ آدَمَ إنْ لم تتدارَكْه رحمةُ رَبِّه[٣]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ فيه سُؤالٌ: إذا أخبَرْتَ عن شَيءٍ بشَيءٍ فلا بُدَّ أن تَستفيدَ منه عِلمًا زائِدًا، وقَولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ يفيدُ كَونَه جاهِلًا به، فكيف يُعقَلُ أن يكونَ هذا خَبَرًا؟

الجوابُ: قد حصَلَ لنا بهذا الخبَرِ عِلمٌ زائِدٌ؛ لأنَّا كُنَّا نظُنُّ أنَّها قارِعةٌ كسائرِ القوارِعِ، فبهذا التَّجهيلِ عَلِمْنا أنَّها قارِعةٌ فاقت القوارِعَ في الهَولِ والشِّدَّةِ[٤].

٢- كلُّ موضعٍ في القُرآنِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد عُقِّب ببيانِه؛ نحوُ قولِه تعالى:

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨) واللَّفظُ له.

(٢) رواه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٦).

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۞ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴾، وقوله: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۞ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴾، وكلُّ موضع ذُكِر بلَفظ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ لم يُعقَبْ ببَيانِه، نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾[(١)] [الشورى: ١٧].

٣- في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ دليلٌ على أنَّ يومَ القيامةِ فيه موازينُ[(٢)].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۞ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ﴾، فيه سؤال: كيف قال فيمَن خفَّتْ موازينُه: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ﴾، أي: فمَسْكنُه النَّارُ، مع أنَّ كثيرًا مِن المؤمنينَ سيِّئاتُهم راجحةٌ على حَسَناتِهم؟

---

(١) يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٩٧).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٧١-٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٩).

قال الشنقيطي: (وظاهِرُ القُرآنِ تعَدُّدُ هذه الموازينِ؛ لأنَّه قال في سورةِ «الأنبياءِ»: ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ...﴾ [الأنبياء: ٤٧]...، وقال في «القارعة»:... ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۞ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۞ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۞ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ﴾، وقال في سورة «المؤمنون»: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۞ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۞ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ... ﴾ [المؤمنون: ١٠١ - ١٠٣]؛ فهذه الآياتُ تعَبِّرُ بالجَمعِ في الميزانِ، وظاهِرُها التَّعَدُّدُ. وذهبت جماعةٌ مِن العُلَماءِ إلى أنَّ الميزانَ واحِدٌ). ((العذب النمير)) (٣/ ٧٦).

وقال ابن عثيمين: (اختلَف العُلَماءُ في الميزانِ: هل هو واحِدٌ أو متعَدِّدٌ؛ على قولَين؛ وذلك لأنَّ النُّصوصَ جاءت بالنِّسبةِ للميزانِ مَرَّةً بالإفرادِ، ومرَّةً بالجَمعِ... والَّذي يظهَرُ -واللهُ أعلَمُ- أنَّ الميزانَ واحدٌ، لكِنَّه مُتعَدِّدٌ باعتبارِ المَوزونِ). ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢/ ٤٣).

وقال ابنُ حجر: (والَّذي يترجَّحُ: أنَّه ميزانٌ واحدٌ، ولا يُشكِلُ بكَثرةِ مَن يُوزَنُ عمَلُه؛ لأنَّ أحوالَ القيامةِ لا تُكيَّفُ بأحوالِ الدُّنيا). ((فتح الباري)) (١٣/ ٥٣٨).

الجوابُ مِن وجهَين:

الوجهُ الأوَّلُ: قولُه ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ لا يدُلُّ على خُلودِه فيها، فيَسكُنُ المؤمنُ فيها بقدْرِ ما تَقتضيهِ ذُنوبُه، ثمَّ يَخرُجُ منها إلى الجنَّةِ.

الوجهُ الثَّاني: المُرادُ بخِفَّةِ الموازينِ خُلوُّها مِن الحَسَناتِ بالكُلِّيَّةِ، وتلك مَوازينُ الكفَّارِ[1].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾، فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ الهاوِيةَ وَصْفٌ لا علَمٌ للنَّارِ؛ إذ تَنوينُها يُنافي كونَها اسمًا مِن أسماءِ النَّارِ؛ لأنَّها على تَقديرِ كَونِها مِن أسماءِ النَّارِ يَلزَمُ فيها المَنعُ مِن الصَّرفِ للعَلَميَّةِ والتَّأنيثِ. وقولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ * نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴾، يدُلُّ على أنَّ الهاوِيةَ مِن أسماءِ النَّارِ؟

الجوابُ: أنَّ في معنى قولِه تعالى: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ ثلاثةَ أَوْجُهٍ للعُلماءِ، اثنانِ منها لا إشكالَ في الآيةِ عليهما، والثَّالثُ: هو الَّذي فيه الإشكالُ المَذكورُ.

أمَّا اللَّذانِ لا إشكالَ في الآيةِ عليهما:

فالأوَّلُ: أنَّ المعنى: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾، أي: أُمُّ رَأسِه هاويةٌ في قَعرِ جهنَّمَ؛ لأنَّه يُطرَحُ فيها مَنكوسًا؛ رأسُه أسفَلَ ورِجلاهُ أعلى، ورُوِيَ هذا القولُ عن قَتادةَ وأبي صالحٍ وعِكْرِمةَ والكَلْبيِّ وغيرِهم، وعلى هذا القَولِ فالضَّميرُ في قولِه: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴾، عائدٌ إلى مَحذوفٍ، دَلَّ عليه المَقامُ، أي: أُمُّ رأسِه هاويةٌ في نارٍ، ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ * نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴾.

الوجهُ الثَّاني: أنَّه مِن قَولِ العَربِ إذا دَعَوْا على الرَّجُلِ بالهَلَكةِ، قالوا: (هَوَتْ أُمُّه)؛ لأنَّه إذا هوَى -أي: سقطَ وهلَكَ- فقد هوَتْ أُمُّه ثكلًا وحُزنًا، وعلى هذا

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٤).

القَولِ فالضَّميرُ في قولِه: ﴿هِيَهۡ﴾، للدَّاهِيةِ الَّتي دَلَّ عليها الكلامُ.

الوجهُ الثَّالِثُ: الَّذي فيه الإشكالُ: أنَّ المعنى: فأُمُّه هاوِيةٌ، أي مَأْواهُ الَّذي يُحيطُ به ويَضُمُّهُ هاويةٌ، وهي النَّارُ؛ لأنَّ الأُمَّ تُؤوِي وَلَدَها وتَضُمُّه، والنَّارُ تَضُمُّ هذا العاصِيَ، وتكونُ مَأواهُ. والجوابُ على هذا القَولِ: أنَّه نكَّرَ الهاوِيةَ في مَحلِّ التَّعريفِ مِن أجْلِ الإشعارِ بخُروجِهم عن المَعهودِ للتَّفخيمِ والتَّهويلِ، ثمَّ بعْدَ إبهامِها لهذهِ النُّكتةِ، قَرَّرها بوَصفِها الهائلِ بقَولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ * نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾. وهذا الجوابُ الَّذي يَدخُلُ في حَدِّ نَوعٍ مِن أنواعِ البَديعِ المعنويِّ، يُسمِّيهِ عُلماءُ البَلاغةِ: (التَّجريدَ)[1]، فالنَّارُ سُمِّيَت الهاوِيةَ لغايةِ عُمْقِها، وبُعْدِ مَهْواها، وخَصَّها البعضُ بالبابِ الأسفلِ مِن النَّارِ، فانتَزعَ منها هاوِيةً أُخرى مِثلَها في شِدَّةِ العُمقِ وبُعْدِ المَهوَى مُبالغةً في عُمْقِها، وبُعْدِ مَهْواها[2].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾ هاءُ السَّكْتِ إشارةٌ إلى أنَّ ذِكْرَها ممَّا يَكرُبُ القَلبَ حتَّى لا يَقدِرَ على الاسترسالِ في الكلامِ، أو إلى أنَّها مما يَنبغي للسَّامِعِ أن يَقرَعَ بهذا الاستِفهامِ عنها سَمْعَه فيَسكُتَ لسَماعِ الجَوابِ وفَهْمِه غايةَ السُّكوتِ، ويُصغِيَ غايةَ الإصغاءِ[3].

---

(١) التَّجريد: هو اعتقادُ أنَّ في الشَّيءِ مِن نفْسِه معنًى آخَرَ كأنَّه مباينٌ له، فيخرجُ ذلك إلى ألفاظِه بما اعتقَد ذلك؛ كقولِهم: لئن لَقيتَ زَيدًا لَتلقيَنَّ معه الأسدَ؛ فظاهرُ هذا أنَّ فيه من نفْسِه أسدًا، وهو عَيْنُه هو الأسدُ، لا أنَّ هناك شيئًا منفصلًا. ويُطلقُ عندَ البعضِ على عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ كأنَّ الخاصَّ جُرِّد مِن العامِّ، وأُفرِد بالذِّكرِ؛ تفضيلًا. وله إطلاقاتٌ أخرى في البديعِ والمعاني. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ١٦٠ - ١٦٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٦٥، ١٦٦)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٢٤٣، ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص:٢٨٤-٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٢٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾

- الافتِتاحُ بلَفظِ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ افتِتاحٌ مُهوِّلٌ، وفيه تَشويقٌ إلى مَعرفةِ ما سيُخبَرُ به(١).

- قولُه: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ مَرفوعٌ إمَّا على الابتداءِ، و﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ خبَرُه، ويكونُ هناك مُنتهى الآيةِ؛ فالمعْنى: القارعةُ شَيءٌ عَظيمٌ هي، وهذا يَجْري على أنَّ الآيةَ الأُولى تَنْتهي بقولِه: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾، وإمَّا أنْ تكونَ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ الأوَّلُ مُستقِلًّا بنفْسِه، وعُدَّ آيةً عندَ أهلِ الكوفةِ، فيُقدَّرَ خبَرٌ عنه مَحذوفٌ، نحْوُ: القارعةُ قريبةٌ، أو يُقدَّرَ فِعلٌ مَحذوفٌ، نحْوُ: أتَتِ القارعةُ، ويكونَ قولُه: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ استئنافًا للتَّهويلِ(٢).

- قولُه: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ (ما) الاستفهاميَّةُ خبَرٌ، و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ مُبتدأٌ، لا بالعكسِ؛ لأنَّ مَحطَّ الفائدةِ هو الخبَرُ لا المُبتدأُ، ولا رَيبَ في أنَّ مَدارَ إفادةِ الهَولِ والفَخامةِ هاهنا هو كَلمةُ ﴿مَا﴾ لا ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، أيْ: أيُّ شَيءٍ عَجيبٍ هيَ في الفَخامةِ والفَظاعةِ(٣)؟!

- وإعادةُ لَفظِ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ عُدِلَ عن أنْ يُقالَ: القارعةُ ما هِيَهْ؛ لِما في لَفظِ القارعةِ مِن التَّهويلِ والتَّرويعِ(٤).

- وقولُه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ تأكيدٌ لهَولِها وفَظاعتِها ببَيانِ خُروجِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٠٩، ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٠).

عن دائرةِ عُلوم الخلْقِ، على معْنى: أنَّ عِظَمَ شَأنِها بحيث لا تَكادُ تَنالُه دِرايةُ أحدٍ حتَّى يُدْرِيَك بها(١).

- وفي قولِه: ﴿ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّكريرِ، والمرادُ به: تَهويلٌ لشَأنِها، وتَفخيمٌ لفَظاعتِها(٢).

٢- قولُه تبارك وتعالَى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ﴾ مَفعولٌ فيه مَنصوبٌ بفِعلٍ مُضمَرٍ دلَّ عليه وَصْفُ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾؛ لأنَّه في تَقديرِ: تَقرَعُ، أو دلَّ عليه الكلامُ كلُّه، فيُقدَّرُ: تكونُ، أو تَحصُلُ يومَ يكونُ النَّاسُ كالفَراشِ، وجُملةُ ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾ مع مُتعلَّقِها المَحذوفِ بَيانٌ للإبهامَينِ اللَّذَينِ في قولِه: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ٢] وقولِه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ٣]، أو مَنصوبٌ بإضمارِ (اذكُرْ)، كأنَّه قِيل بعْدَ تَفخيمِ أمرِ القارعةِ وتَشويقِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى مَعرفتِها: اذكُرْ يومَ يكونُ النَّاسُ... إلخ؛ فإنَّه يُدْرِيكَ ما هيَ(٣).

- والمَقصودُ بهذا التَّوقيتِ زيادةُ التَّهويلِ بما أُضيفَ إليه (يومَ) من الجُملتينِ المُفيدتَينِ أحوالًا هائلةً، إلَّا أنَّ شَأنَ التَّوقيتِ أنْ يكونَ بزَمانٍ مَعلومٍ، وإذ قدْ كان هذا الحالُ المُوقَّتُ بزَمانِه غيرَ مَعلومٍ مَداهُ، كان التَّوقيتُ له إطماعًا في

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١١).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٨٥).

تَعيينِ وَقتِ حُصولِه؛ إذ كانوا يَسألون: متَى هذا الوعدُ؟ ثمَّ تَوقيتُه بما هو مَجهولٌ لهم إبهامًا آخَرَ للتَّهويلِ، والتَّحذيرِ مِن مُفاجأتِه، وأُبرِزَ في صُورةِ التَّوقيتِ؛ للتَّشويقِ إلى البَحثِ عن تَقديرِه، فإذا باءَ الباحثُ بالعجْزِ أخَذَ بحِيطةِ الاستعدادِ لحُلولِه بما يُنجيه مِن مَصائبِه الَّتي قُرِعَت به الأسماعُ في آيٍ كَثيرةٍ، فحصَلَ في هذه الآيةِ تَهويلٌ شَديدٌ بثَمانيةِ طُرقٍ؛ وهي: الابتداءُ باسمِ القارعةِ المُؤذِنِ بأمرٍ عَظيمٍ، والاستفهامُ المُستعمَلُ في التَّهويلِ، والإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ أوَّلَ مرَّةٍ، والاستفهامُ عمَّا يُنبِئُ بكُنْهِ القارعةِ، وتَوجيهُ الخِطابِ إلى غيرِ مُعيَّنٍ -وذلك على قولٍ-، والإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ ثانيَ مرَّةٍ، والتَّوقيتُ بزَمانٍ مَجهولٍ حُصولُه، وتَعريفُ ذلك الوقتِ بأحوالٍ مَهولةٍ[1].

- وجُملةُ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ وجُملةِ ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [القارعة: ٦] إلخ، وهو إدماجٌ لِزيادةِ التَّهويلِ[2].

- وفي قولِه: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ تَشبيهانِ رائعانِ، وهو تَشبيهٌ مُرسَلٌ مُجمَلٌ[3]؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١١، ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥١٢).

وتقدَّم تعريفُ الإدماج (ص: ١٦١).

(٣) التَّشبيهُ: هو إلحاقُ شَيءٍ بذي وصفٍ في وصْفِه. وقيل: أن تُثبِتَ للمُشَبَّه حُكمًا من أحكام المُشَبَّه به. وقد اتَّفق الأدباءُ على شرَفِه في أنواعِ البلاغةِ، وأنَّه إذا جاء في أعقابِ المعاني أفادها كمالًا، وكساها حلَّةً وجمالًا، وهو جارٍ في كلامِ العربِ، بل هو أكثرُ كلامِهم. ويَنقسِمُ التَّشبيهُ عدَّةَ تقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّةٍ؛ فمنه: التَّشبيهُ المُفرَدُ. ومنه: التَّشبيهُ المُركَّبُ: وهو الَّذي يكونُ وجْهُ الشَّبَهِ فيه مُنتزَعًا مِن مُتعدِّدٍ، أو مِن أمورٍ مجموعٍ بعضُها إلى بعضٍ، كقولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ =

وَجْهَ الشَّبهِ حُذِفَ، ففي الأوَّلِ وُجوهُ الشَّبَهِ كَثيرةٌ؛ منها:

- الطَّيشُ الَّذي لَحِقَهم.

- وانتشارُهم في الأرضِ.

- ورُكوبُ بَعضِهم بَعضًا.

- والكثرةُ الَّتي لا غَناءَ فيها.

- والضَّعفُ والتَّذلُّلُ وإجابةُ الدَّاعي مِن كلِّ جِهةٍ.

- والتَّطايُرُ إلى النَّارِ للاحتراقِ مِن حيث لا تُريدُ الاحتراقَ، وفي أمثالِهم: أضعَفُ مِن فَراشةٍ وأذلُّ وأجهَلُ.

وأوجُهُ الشَّبَهِ في تَشبيهِ الجِبالِ بالعِهنِ المَنفوشِ كَثيرةٌ أيضًا؛ منها:

- تَفتُّتُها وانهيارُها.

- وصَيْرُورتُها كالعِهنِ لتَفرُّقِ أجزائِها.

- ثمَّ صَيرورتُها كالهَباءِ.

- وكثرةُ الألوانِ؛ لأنَّ الجِبالَ مُختلِفةُ الألوانِ بحِجارتِها ونَبْتِها(١).

= ﴿ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالتَّشبيهُ مُركَّبٌ مِن أحوالِ الحِمارِ. وخصَّ البَيانيُّون لفظَ «التَّمثيلِ» بالتَّشبيهِ المُركَّبِ. ويَنقسِمُ باعتبارٍ آخَرَ إلى: مؤكَّدٍ: وهو الَّذي حُذِفت فيه أداةُ التَّشبيهِ، نحو: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، أي: مِثلَ مَرِّ السَّحابِ. ومُرْسَلٍ: وهو الَّذي لم تُحذَفْ فيه الأداةُ. ومُفَصَّلٍ: وهو الَّذي ذُكِرَ فيه وجْهُ الشَّبَهِ. ومُجمَلٍ: وهو الَّذي لم يُذْكَرْ فيه وَجْهُ الشَّبَهِ. وبَليغٍ: وهو الَّذي لم تُذْكَرْ فيه أداةُ التَّشبيهِ ولا وَجْهُ الشَّبَهِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٩، ٧٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٣)، ((تفسير =

- وإعادةُ كَلمةِ ﴿وَتَكُونُ﴾ مع حرْفِ العطْفِ في قولِه: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾؛ للإشارةِ إلى اختِلافِ الكَونَين؛ فإنَّ أوَّلَهما كَونُ إيجادٍ، والثَّانيَ كَونُ اضمحلالٍ، وكِلاهما عَلامةٌ على زَوالِ عالَمٍ وظُهورِ عالَمٍ آخَرَ[(١)]، ولأنَّ التَّكريرَ في مِثلِ هذا المقامِ أبلَغُ في التَّحذيرِ[(٢)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ تَفصيلٌ لِما في قولِه: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤] مِن إجمالِ حالِ النَّاسِ حِينَئذٍ، فذلك هو المَقصودُ بذِكرِ اسمِ النَّاسِ الشَّاملِ لأهلِ السَّعادةِ وأهلِ الشَّقاءِ؛ فلذلك كان تفَصيلُه بحالَين: حالٍ حسَنٍ، وحالٍ فَظيعٍ؛ فهو بَيانٌ إجماليٌّ لتَحزُّبِ النَّاسِ إلى حِزبينِ، وتَنبيهٌ على كَيفيَّةِ الأحوالِ الخاصَّةِ بكلٍّ منهما إثْرَ بَيانِ الأحوالِ الشَّامِلةِ للكُلِّ[(٣)].

- قولُه: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جمَع فيهما الميزانَ مع أنَّه واحدٌ -على أحدِ القولَين-، باعتبارِ تَعدُّدِ المَوزوناتِ والمَوزونِ لهم. وقيل: هي جمْعُ مَوزونٍ[(٤)]. وقيل: إنَّ العَربَ قد تُوقِعُ لفظَ الجَمعِ على الواحِدِ تفخيمًا له. وقيل: إنَّه يُنصَبُ لكُلِّ عبدٍ ميزانٌ[(٥)].

= أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٢، ٥١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٣).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٣٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٧٦)، ((مجموع =

- قولُه: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ قيل: أي: مَرْضِيَّةٍ لا مكروهة، فهي ممَّا جاء فيه فاعِلٌ بمعنى مَفْعول؛ لأنَّ ذلك مَدْحٌ للعِيشةِ، والعَرَبُ تَفعَلُ ذلك في المدْحِ والذَّمِّ، فتقولُ: هذا لَيلٌ نائِمٌ، وسِرٌّ كاتِمٌ، وماءٌ دافِقٌ، فيُوَجِّهون الفِعلَ إليه، وهو في الأصلِ مَفعولٌ لِما يُرادُ مِنَ المدْحِ أو الذَّمِّ. وقيل: ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ أي: ذاتِ رِضًا، على النِّسبةِ بالصِّيغةِ[1]. وقيل: وُصِفَت العِيشةُ بـ ﴿رَّاضِيَةٍ﴾؛ لأنَّها سَببُ الرِّضا، أو زَمانُ الرِّضا[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾

- جُملةُ ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ إخبارٌ عنه بالشَّقاءِ وسُوءِ الحالِ، والكلامُ قيل: إنَّه تَمثيلٌ لحالِ مَن خفَّت مَوازينُه يَومَئذٍ بحالِ الهالكِ في الدُّنيا؛ لأنَّ العرَبَ يُكَنُّون عن حالِ المَرْءِ بحالِ أُمِّه في الخَيرِ والشَّرِّ؛ لشِدَّةِ مَحبَّتِها ابْنَها، فهي أشدُّ سُرورًا بسُروره، وأشدُّ حُزنًا بما يَحزُنُه، فكأنَّه قيل: وأمَّا مَن خفَّت مَوازينُه فقدْ هَلَكَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ (أُمُّه) مُعبَّرًا به عن مَقرِّه ومآله؛ لأنَّه يَأوي إليه كما يَأْوي الطِّفلُ إلى أُمِّه، فقدْ قِيل للمَأوى: أُمٌّ، على التَّشبيهِ؛ لأنَّ الأُمَّ مَأوى الولَدِ ومَفزَعُه. ويَجوزُ أنْ يكونَ (أُمُّه) على حذْفِ مُضافٍ، أي: أمُّ رَأسِه، وهي أعْلى الدِّماغِ، وهاويةٌ: ساقطةٌ، مِن قَولِهم: سَقَطَ على أمِّ رَأسِه، أي: هَلَكَ[3].

= فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٤٩٩).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٤، ٥١٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٦٤).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ * نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ تَقريرٌ للهاويةِ بعْدَ إبْهامِها، وإشعارٌ بخُروجِها عنِ الحُدودِ المَعهودةِ؛ للتَّفخيمِ والتَّهويلِ[(١)].

- وجُملةُ ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾، والمعنى: هي نارٌ حاميةٌ، وهذا مِن حذْفِ المُسنَدِ إليه[(٢)] الَّذي اتُّبِعَ في حذْفِه استِعمالُ أهلِ اللُّغةِ[(٣)].

- ووَصْفُ ﴿نَارٌ﴾ بـ﴿حَامِيَةُۢ﴾ مِن قَبيلِ التَّوكيدِ اللَّفظيِّ؛ لأنَّ النَّارَ لا تَخْلو عن الحَمْيِ، فوَصْفُها به وَصْفٌ بما هو مِن معْنى لَفظِ ﴿نَارٌ﴾، فكان كذِكرِ المُرادِفِ، كقولِه تعالَى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾[(٤)] [الهمزة: ٦].

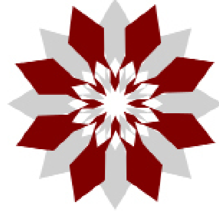


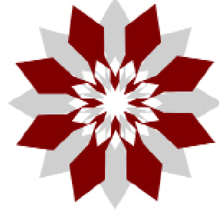
(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٤).

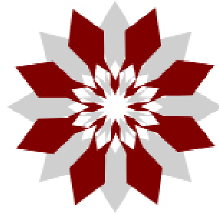
(٢) وهو ما يُسمَّى بمُتابَعةِ الاستعمالِ؛ وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٥).

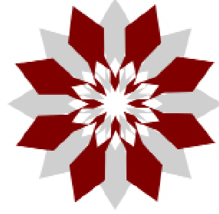
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

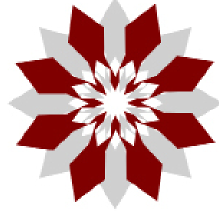


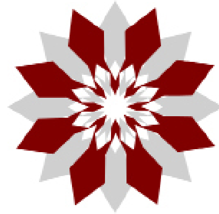




تَفْسِيرُ
سُورَةِ التَّكَاثُرِ







سُورةُ التَّكاثُرِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ التَّكاثُرِ[(١)].

وسُمِّيت أيضًا بسُورةِ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[(٢)]، فعن عبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أتَيْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يَقرأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ...))[(٣)].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ التَّكاثُرِ مكِّيَّةٌ، نقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المُفسِّرينَ[(٤)].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

النَّهيُ عمَّا يَجُرُّ إلى العذابِ، والتَّذكيرُ بالسُّؤالِ يومَ القِيامةِ[(٥)].

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لذِكْرِ لَفْظِ التَّكاثُرِ فيها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٠).
قال ابنُ عاشورٍ: (سُمِّيَت في مُعْظَمِ المصاحِفِ ومُعْظَمِ التَّفاسيرِ «سُورةَ التَّكاثُرِ»، وكذلك عَنْوَنَها التِّرْمذيُّ في «جامِعِه»... وسُمِّيَت في بَعضِ المَصاحِفِ «سُورةَ ألْهاكم»، وكذلك تَرْجَمَها البُخاريُّ في كتابِ التَّفْسيرِ من «صَحيحِه»). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٧).
وسُمِّيَت أيضًا بسُورةِ المَقْبَرةِ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ٤٥٦)، ((سنن الترمذي)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٣٤٣).

(٣) رواه مسلمٌ (٢٩٥٨).

(٤) ممَّن نقَلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرْطبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨٦)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٤١).
ونسَبَ ابنُ عاشورٍ القولَ بأنَّها مكِّيَّةٌ للجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٧). ويُنظر أيضًا: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٥٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٣٢، ٢٣٣).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- النَّهيُّ عن التَّفاخُرِ والتَّكاثُرِ.

٢- الحَضُّ على التَّزَوُّدِ مِن العمَلِ الصَّالحِ، وعلى ما يُنجِّي مِن العَذابِ.

٣- التَّأكيدُ على أنَّ يومَ القِيامةِ حَقٌّ، وعلى أنَّ الحِسابَ حَقٌّ، وعلى أنَّ الجَزاءَ حَقٌّ.



الآيات (١-٨)

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَلْهَاكُمُ﴾: أي: شَغَلكم، وأصلُ (لهو) هنا: يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ بشَيءٍ[1].

﴿التَّكَاثُرُ﴾: أي: التَّباهي والتَّفاخرُ بكَثرةِ المالِ والعَدَدِ وغيرِ ذلك، والتَّكاثُرُ أن يَطلُبَ الرَّجُلُ أن يكونَ أكثَرَ مِن غيرِه، وأصلُ (كثر): يدُلُّ على خِلافِ القِلَّةِ[2].

﴿الْجَحِيمَ﴾: أي: النَّارَ، والجُحْمَةُ: شدَّةُ تأجُّجِ النَّارِ، ومنه: الجحيمُ، وأصْلُ (جحم): الحرارةُ وشِدَّتُها[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾

قَولُه تعالى: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ العِلمُ هنا بمعنى المعرفةِ المتعدِّيةِ لمفعولٍ واحدٍ، وهو محذوفٌ، تقديرُه: تعلمونَ سوءَ عاقِبةِ التَّفاخُرِ. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٦)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٣٠، ٣١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧).

توكيدٌ لَفظيٌّ للجُملةِ الأُولى والعَطفُ هنا بـ «ثُمَّ» صُوريٌّ؛ لأنَّ بيْن الجملتَين تمامَ الاتِّصالِ، فلا تُعطَفُ الثَّانيةُ على الأُولى عَطفًا حقيقيًّا، فالتَّكريرُ للتَّأكيدِ، و«ثُمَّ» للدَّلالةِ على الأبلَغيَّةِ؛ أنَّ الثَّانيَ أبلَغُ مِن الأوَّلِ. والمؤكَّدُ والمؤكِّدُ إنْ كانا جملتَينِ وأُمِنَ توهُّمُ كَونِ الثَّانيةِ غيرَ مُؤكِّدةٍ، فالأجودُ الفَصلُ بيْنَهما بعاطِفٍ كما هنا.

وقَولُه تعالى: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ جوابُ ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ؛ لدَلالةِ ما قَبْلَه عليه، وهو ﴿أَلْهَاكُمُ﴾، أي: لو تَعلَمونَ عِلمَ اليقينِ لَشغَلَكم ما تَعلَمونَ عن التَّكاثُرِ وغَيرِه، أو نحوُ ذلك. ﴿عِلْمَ﴾: مَفعولٌ مُطلَقٌ، وإضافتُه لليقينِ مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى صِفتِه، أي: العِلمَ اليَقينَ.

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ﴿لَتَرَوُنَّ﴾: اللَّامُ واقِعةٌ في جوابِ قَسَمٍ محذوفٍ، أي: واللهِ لَتَرَوُنَّ. تَرَوُنَّ: فِعلٌ مُضارِعٌ مرفوعٌ، وعلامةُ رَفعِه النُّونُ المحذوفةُ لتوالي الأمثالِ، والواوُ: في محلِّ رَفعِ فاعِلٌ. والنُّونُ للتَّوكيدِ حَرفٌ لا محَلَّ له مِنَ الإعرابِ، والجُملةُ لا محَلَّ لها مِن الإعرابِ جَوابُ القَسَمِ المقدَّرِ، وجُملةُ القَسَمِ المقَدَّرِ وجَوابِه استئنافيَّةٌ لا محَلَّ لها مِن الإعرابِ؛ فالوَقفُ على ﴿الْيَقِينِ﴾ واجِبٌ.

وقَولُه تعالى: ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾: مَفعولٌ مُطلَقٌ نائِبٌ عن المصدَرِ؛ لأنَّه صِفةُ مَصدَرٍ مُقدَّرٍ، أي: لَتَرَوُنَّها الرُّؤيةَ الَّتي هي نفْسُ اليقينِ وخالِصَتُه، أو لأنَّه مُلاقيه في المعنى؛ فالرُّؤيةُ والمُعايَنةُ شَيءٌ واحِدٌ، كأنَّه قيل: لَتُعايِنُنَّها عِيانًا[1].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٧)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ١٧٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٣٠٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٩٨، ٩٩)، ((تمهيد القواعد)) لناظر الجيش (٧/ ٣٣٠٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٥٣)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٣٩٨).

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ موبِّخًا مَن انشَغل عن طاعتِه قائِلًا: شَغَلكم عن طاعةِ اللهِ -أيُّها النَّاسُ- التَّكاثُرُ بالأموالِ والأولادِ حتَّى مُتُّمْ ودُفِنتُم في المقابِرِ.

ثُمَّ قال الله تعالى متوَعِّدًا مَن يفعلُ ذلك: فانزَجِروا عن الالتِهاءِ بالتَّكاثُرِ، فسوف تَعلَمونَ بعْدَ مَوتِكم خطأَ ذلك وسُوءَ عاقبته.

ثمَّ قال سُبحانَه مؤكِّدًا: ثُمَّ سوف تَعلَمونَ بعْدَ مَوتِكم خطأَ ذلك وسُوءَ عاقبتِه، كلَّا لو تَعلَمونَ عِلمًا يقينيًّا أنَّ اللهَ سيَبعَثُكم يومَ القيامةِ، ويُحاسِبُكم على أعمالِكم، لَمَا ألهاكم التَّكاثُرُ عن طاعةِ اللهِ.

ثمَّ قال تعالى: أُقسِمُ إنَّكم ستَرَونَ الجَحيمَ في الآخِرةِ، ثُمَّ أُقسِمُ إنَّكم ستَرَونَ الجحيمَ في الآخِرةِ رُؤيةً حقيقيَّةً مُؤكَّدةً، ثُمَّ أُقسِمُ إنَّكم ستُسأَلونَ يومَ القيامةِ عمَّا تنعَّمتُم به في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١﴾.

أي: شَغَلكم عن طاعةِ اللهِ -أيُّها النَّاسُ- التَّكاثُرُ بالأموالِ والأولادِ، وغيرِ ذلك مِن مَتاعِ الدُّنيا[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٧٢).

قال ابنُ القيِّم: (كُلُّ ما يُكاثِرُ به العَبدُ غَيرَه سوى طاعةِ اللهِ ورَسولِه، وما يَعودُ عليه بنَفعِ مَعادِه؛ فهو داخِلٌ في هذا التَّكاثُرِ، فالتَّكاثُرُ في كُلِّ شَيءٍ؛ من مالٍ، أو جاهٍ، أو رياسةٍ، أو نِسوةٍ، أو حديثٍ، أو عِلمٍ، ولا سِيَّما إذا لم يحتَجْ إليه، والتَّكاثُرُ في الكُتُبِ والتَّصانيفِ، وكثرةِ المسائِلِ وتفريعِها وتوليدِها، والتَّكاثُرُ أن يَطلُبَ الرَّجُلُ أن يكونَ أكثَرَ مِن غيرِه، وهذا مذمومٌ إلَّا فيما يقَرِّبُ إلى اللهِ؛ فالتَّكاثُرُ فيه مُنافَسةٌ في الخَيراتِ، ومُسابَقةٌ إليها). ((الفوائد)) (ص: ٣٠، ٣١).=

كما قال تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ ﴾.

أي: دُمتُم على تلك الحالِ إلى أن مُتُّمْ ودُفِنتُم في المقابِرِ[(١)]!

عن عبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أتَيْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يَقرأُ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ قال: يقولُ ابنُ آدَمَ: مالي، مالي، وهل لك -يا ابنَ آدَمَ- مِن مالِك إلَّا ما أكَلْتَ فأفنَيْتَ، أو لَبِسْتَ فأبلَيتَ، أو تصدَّقْتَ فأمضَيتَ؟!))[(٢)].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يقولُ العَبدُ: مالي، مالي، إنَّما له مِن مالِه ثلاثٌ: ما أكَلَ فأفنَى، أو لَبِسَ فأبْلَى، أو أعطَى فاقتَنى[(٣)]، ....

= ويُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣).
وقال ابن القيِّم أيضًا: (ليس في اللَّفظِ ولا في السُّنَّةِ الصَّحيحةِ ولا في أدِلَّةِ العَقلِ ما يَقتضي اختِصاصَ الخِطابِ بالكُفَّارِ، بل ظاهِرُ اللَّفظِ وصَريحُ السُّنَّةِ والاعتبارُ يدُلُّ على عُمومِ الخِطابِ لكُلِّ مَن اتَّصَف بإلْهاءِ التَّكاثُرِ له؛ فلا وَجْهَ لتَخصيصِ الخِطابِ ببَعضِ المتَّصِفينَ بذلك). ((عدة الصابرين)) (ص: ١٩٠، ١٩١). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠١).
واستظَهر ابنُ عاشورٍ أنَّ المُخاطَبَ بها فريقٌ مِن المُشركينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٨)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٣).

(٢) رواه مسلم (٢٩٥٨).

(٣) اقتنى: أي: ادَّخَره لنَفْسِه في الآخرةِ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٣/ ٥٨٥).

وما سِوى ذلك فهو ذاهِبٌ وتارِكُه للنَّاسِ))[١].

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾.

أي: ما هكذا ينبغي أن تفعَلوا؛ فانزَجِروا عن الالتِهاءِ بالتَّكاثُرِ، فسوف تَعلَمونَ بعْدَ مَوتِكم خطأَ ذلك، وسُوءَ عاقِبَتِه[٢].

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾.

أي: قال اللهُ تعالى مؤكِّدًا هذا التَّهديدَ والوَعيدَ: ثمَّ انزَجِروا عن الانشِغالِ بالتَّكاثُرِ عن طاعةِ اللهِ؛ فسوف تَعلَمونَ إذا نزَل بكم الموتُ خطَأَ ذلك، وسُوءَ عاقبتِه[٣].

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أُعيدَ الزَّجرُ ثالِثَ مرَّةٍ؛ زيادةً في إبطالِ ما هم عليه مِن اللَّهوِ عن التَّدَبُّرِ في أقوالِ القُرآنِ، لعَلَّهم يُقلِعونَ عن انكبابِهم على التَّكاثُرِ ممَّا هم يَتكاثَرونَ فيه[٤].

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥﴾.

أي: انزَجِروا عن الانشِغالِ بالتَّكاثُرِ؛ فلو تَعلَمونَ الآنَ قبْلَ مَوتِكم عِلمًا يقينيًّا

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢١).

أنَّ اللهَ سيَبعَثُكم يومَ القيامةِ ويُحاسِبُكم ويُجازيكم على أعمالِكم، لَمَا ألْهاكم التَّكاثُرُ عن طاعةِ اللهِ، ولحَرَصتُم عليها[١].

عن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خَطَب رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خُطبةً ما سَمِعتُ مِثْلَها قَطُّ، قال: لو تَعلَمونَ ما أعلَمُ لَضَحِكتُم قليلًا، ولَبَكَيتُم كثيرًا!))[٢].

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾.

أي: أُقسِمُ إنَّكم ستَرَونَ الجَحيمَ في الآخِرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠١)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٧٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥١٧)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢١، ٥٢٢).

قال الشوكاني: (وجَوابُ «لو» محذوفٌ، أيْ: لَشغَلَكم ذلك عن التَّكاثُرِ والتَّفاخُرِ، أوْ لَفعَلْتُم ما يَنفعُكم مِن الخَيرِ، وترَكْتُم ما لا يَنفَعُكم مِمَّا أنتم فيه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٩٧).

(٢) رواه البخاري (٤٦٢١) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٥).

قال القُرطبي: (الخِطابُ للكُفَّارِ الَّذين وجَبَت لهم النَّارُ. وقيل: هو عامٌّ كما قال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فهي للكُفَّارِ دارٌ، وللمُؤمِنينَ ممَرٌّ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٧٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الخِطابَ للمُشركينَ: ابنُ جرير، وابنُ عادل. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٤٨٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٢).

وممَّن قال بأنَّ الخِطابَ عامٌّ لجَميعِ النَّاسِ: ابنُ جُزَي، والبقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٣٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٧).

قال ابنُ كثير: (هذا تفسيرُ الوعيدِ المتقدِّمِ، وهو قولُه: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، توعَّدَهم بهذا الحالِ، وهي رؤيةُ النَّارِ الَّتي إذا زفَرَت زَفرةً خَرَّ كُلُّ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ ونبيٍّ مُرسَلٍ على =

كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦].

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ٧﴾.

أي: ثُمَّ أُقسِمُ إنَّكم ستَرَونَ الجحيمَ في الآخِرةِ رُؤيةً حقيقيَّةً مُؤكَّدةً بأبصارِكم، لا تَشُكُّونَ في مُشاهَدتِها[١].

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾.

أي: ثُمَّ أُقسِمُ إنَّكم ستُسأَلونَ يومَ القيامةِ عن جميعِ ما تنعَّمتُم به في الدُّنيا[٢].

= رُكبتَيه؛ مِن المَهابةِ والعَظَمةِ ومُعايَنةِ الأهوالِ، على ما جاء به الأثَرُ المرويُّ في ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥١٨، ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤).

قال ابن عثيمين: (﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ تأكيدٌ لرُؤْيَتِها، فهي تُرَى يومَ القِيامةِ، يُؤتَى بها تُجَرُّ بسَبعينَ ألْفَ زِمامٍ، كلُّ زِمامٍ يَجُرُّه سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ، والملائكةُ عِظامٌ شِدادٌ، فما ظَنُّكَ بهذه النَّارِ -والعِياذُ باللهِ- إنَّها نارٌ كبيرةٌ عَظيمةٌ، أعاذَنا اللهُ منها). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٥) بتصرفٍ.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠٢، ٦١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٤) و (١٧/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤).

قال ابنُ الجوزيِّ: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ اختَلَفوا: هل هذا السُّؤالُ عامٌّ أم لا؟ على قَولَينِ؛ أحَدُهما: أنَّه خاصٌّ للكُفَّارِ، قاله الحَسَنُ. والثَّاني: عامٌّ، قاله قَتادةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٦).

ممَّن اختار أنَّه عامٌّ: ابنُ عَطيَّةَ، والرَّسْعَنيُّ، والخازِنُ، وأبو حيَّانَ، وابنُ القَيِّمِ، والعُلَيميُّ، والشَّوكانيُّ، وابنُ عُثَيمينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٢١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٧)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٨٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ أوَّلَ ما يُسألُ عنه يومَ القيامةِ -يعني: العَبدَ من النَّعيمِ- أن يُقالَ له: ألَمْ نُصِحَّ لك جِسْمَك، ونُرْوِيَك[1] مِن الماءِ البارِدِ؟))[2].

وعن أبي هُرَيرةَ رضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في حديثِ الرُّؤيةِ

= عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ به الكُفَّارُ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والرَّازيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٢٠)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٧٤).

وقال ابنُ عثيمين: (الصَّوابُ: أنَّ المرادَ المؤمِنُ والكافِرُ، كُلٌّ يُسأَلُ عن النَّعيم، لكنَّ الكافِرَ يُسأَلُ سُؤالَ توبيخٍ وتقريعٍ، والمؤمِنَ يُسأَلُ سُؤالَ تذكيرٍ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٥).

وقال النَّحَّاس: (ظاهِرُ الكلامِ يدُلُّ على أنَّه عامٌّ، وأنَّ الإنسانَ مَسؤولٌ عن كلِّ نعيمٍ تنعَّمَ به في الدُّنيا، من أين اكتَسَبه؟ وما قَصَد به؟ وهل فَعَل ما غَيرُه أَولى منه؟). ((إعراب القرآن)) (٥/ ١٧٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أي: عن شُكرِه؛ فإنَّه لا يُبيحُ شَيئًا ويُعاقِبُ مَن فَعَله، ولكِنْ يَسألُه عن الواجِبِ الَّذي أوجبه معه، وعمَّا حَرَّمه عليه: هل فرَّط بتركِ مأمورٍ، أو فِعلِ محظورٍ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ١٨٠).

وقال السعدي: (﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ الَّذي تنعَّمتُم به في دارِ الدُّنيا: هل قُمتُم بشُكره، وأدَّيتُم حَقَّ اللهِ فيه، ولم تَستعينوا به على معاصيه، فيُنعِّمَكم نعيمًا أعلى منه وأفضلَ، أم اغترَرْتُم به ولم تَقوموا بشُكْرِه، بل رُبَّما استعنْتُم به على معاصي اللهِ، فيُعاقِبَكم على ذلك؟). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤).

(١) هو بإثباتِ الياءِ، فيحتمِلُ أنَّه معطوفٌ على المجزوم، وفيه إثباتُ حرفِ العلَّةِ معَ الجازم، وهو لغةٌ، ويحتمِلُ أنَّه منصوبٌ بعدَ واوِ المعيةِ. يُنظر: ((السراج المنير شرح الجامع الصغير)) للعزيزي (٢/ ٨٩).

(٢) أخرجه الترمذيُّ (٣٣٥٨) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (٧٣٦٤)، والحاكمُ (٧٢٠٣).

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وكذا ابنُ العرَبيِّ في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ٤٠٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٥٨)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٧٣٦٤)، وصَحَّح إسنادَه الحاكِمُ.

الطَّويلِ، وفيه قال: ((... فيَلْقى العَبدَ فيَقولُ: أيْ فُلُ[١]، ألَمْ أُكرِمْكَ، وأُسَوِّدْكَ[٢]، وأُزَوِّجْكَ، وأُسَخِّرْ لك الخَيْلَ والإبِلَ، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ[٣]؟))[٤].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خرَج رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذاتَ يومٍ -أو لَيلةٍ- فإذا هو بأبي بَكرٍ وعُمَرَ، فقال: ما أخرَجَكما مِن بُيوتِكما هذه السَّاعةَ؟ قالا: الجُوعُ، يا رَسولَ اللهِ... فلمَّا أنْ شَبِعوا ورَوُوا قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأبي بكرٍ وعُمَرَ: والَّذي نَفْسي بيَدِه، لَتُسأَلُنَّ عن هذا النَّعيمِ يومَ القيامةِ؛ أخرَجَكم مِن بُيوتِكم الجُوعُ، ثمَّ لم تَرجِعوا حتَّى أصابكم هذا النَّعيمُ!))[٥].

وعن الزُّبَيرِ بنِ العَوَّامِ رَضِيَ الله عنه، قال: ((لَمَّا نزَلَت: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قال الزُّبَيرُ: يا رَسولَ اللهِ، فأيُّ النَّعيمِ نُسأَلُ عنه، وإنَّما هما الأَسْوَدانِ: التَّمرُ والماءُ؟! قال: أمَا إنَّه سيَكونُ!))[٦].

---

(١) أيْ فُلُ: معناه: يا فُلانُ. وقيل: إنَّها ترخيمُها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٩٢٣)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٣).

(٢) أُسَوِّدْك: أي: أجعَلْك سَيِّدًا. والسَّيِّدُ: الَّذي يَفوقُ قومَه فيَنقادونَ له. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٣/ ٥٦٢).

(٣) ترأَسُ: أي: تكونُ رئيسًا على قَومِك. وتَربَعُ أي: تأخُذُ المرباعَ، وهو رُبُعُ الغَنيمةِ، وقيل: معناه ترَكْتُك مُستريحًا، لا تحتاجُ إلى مَشقَّةٍ وتَعَبٍ؛ من قَولِهم: ارْبَعْ على نَفْسِك؛ أي: ارْفُقْ بها. والمعنى: ألَمْ أجعَلْك رئيسًا مُطاعًا؛ لأنَّ المَلِكَ كان يأخُذُ الرُّبُعَ مِنَ الغَنيمةِ في الجاهِليَّةِ دونَ أصحابِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٨٦)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٤).

(٤) رواه مسلم (٢٩٦٨).

(٥) رواه مسلم (٢٠٣٨).

(٦) أخرجه الترمذيُّ (٣٣٥٦) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (٤١٥٨)، وأحمدُ (١٤٠٥).

حسَّنه الترمذيُّ، وكذا الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤١٥٨)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٣/ ٣)، وحَسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣/ ٢٥).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قَولُه تعالى: ﴿كَلَّا﴾ رَدعٌ وتنبيهٌ على أنَّه لا يَنبغي للنَّاظِرِ لنَفْسِه أن تكونَ الدُّنيا جميعَ هَمِّه، ولا يَهتَمَّ بدِينِه، وقَولُه تعالى: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إنذارٌ لِيَخافوا فيَنتَبِهوا عن غَفلتِهم، وقَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ، و﴿ثُمَّ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ الثَّانيَ أبلَغُ مِن الأوَّلِ وأشدُّ، كما يُقالُ للمَنصوحِ: أقولُ لك، ثمَّ أقولُ لك: لا تفعَلْ، والمعنى: سوف تَعلَمونَ الخطَأَ فيما أنتم عليه إذا عايَنْتُم ما قُدَّامَكم مِن هَولِ لقاءِ اللهِ تعالى، وأنَّ هذا التَّنبيهَ نصيحةٌ لكم، ورحمةٌ عليكم[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في الآيةِ تهديدٌ عظيمٌ للعُلَماءِ؛ فإنَّها دَلَّت على أنَّه لو حصل اليقينُ بما في التكاثُرِ والتفاخُرِ مِنَ الآفةِ، لتركوا التكاثُرَ والتفاخُرَ، وهذا يقتضي أنَّ من لم يترُكِ التكاثُرَ والتفاخُرَ لا يكونُ اليقينُ حاصِلًا له، فالوَيلُ للعالِمِ الذي لا يكونُ عامِلًا، ثمَّ الويلُ له[2]!

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ لم يأتِ في التَّنزيلِ ذِكرُ المقابِرِ إلَّا في هذه السُّورةِ، والدخولُ إليها ومشاهدتُها مِن أعظَمِ الدَّواءِ للقَلْبِ القاسي؛ لأنَّها تُذكِّرُ الموتَ والآخِرةَ، وذلك يحمِلُ على قِصَرِ الأمَلِ، والزُّهدِ في الدُّنيا، وتَركِ الرَّغبةِ فيها[3]. قال العُلَماءُ: ينبغي لمن أراد عِلاجَ قَلْبِه، وانقيادَه بسلاسِلِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٧٠).

القَهْرِ إلى طاعةِ رَبِّه أن يُكثِرَ مِن ذِكرِ هاذِمِ[1] اللَّذَّاتِ، ومُفَرِّقِ الجماعاتِ، ومُوتِمِ البَنينَ والبناتِ، ويواظِبَ على مُشاهَدةِ المحتَضَرينَ، وزيارةِ قُبورِ أمواتِ المُسلِمينَ؛ فهذه ثلاثةُ أمورٍ يَنبغي لِمَن قسا قلبُه ولَزِمَه ذَنْبُه أن يستعينَ بها على دواءِ دائِه، ويَستصرِخَ بها على فِتَنِ الشَّيطانِ وأعوانِه، فإنِ انتفَعَ بالإكثارِ مِن ذِكرِ الموتِ، وانجَلَت به قساوةُ قَلْبِه، فذاك، وإنْ عَظُمَ عليه رانُ قَلْبِه، واستحكَمَت فيه دواعي الذَّنبِ، فإنَّ مُشاهَدةَ المحتَضَرينَ وزيارةَ قُبورِ أمواتِ المُسلِمينَ تَبلُغُ في دَفعِ ذلك ما لا يَبلُغُه الأوَّلُ؛ لأنَّ ذِكرَ الموتِ إخبارٌ للقَلبِ بما إليه المصيرُ، وقائِمٌ له مقامَ التَّخويفِ والتَّحذيرِ[2].

٤- مَن أكلَ مِن الطَّيِّباتِ ولم يَشْكُرْ فهو مذمومٌ؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي: عن الشُّكرِ عليه[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ التَّكاثُرُ مُطلقًا ليس بمذموم؛ لأنَّ التَّكاثُرَ في العِلمِ والطَّاعةِ والأخلاقِ الحميدةِ ليس بمذموم إذا كان المرادُ أن يَقتديَ به غيرُه. وإنَّما المذمومُ ما يكونُ الباعِثُ عليه الاستكبارَ وحُبَّ الجاهِ والغَلَبةِ، والفَخرَ بما لا سعادةَ حقيقيَّةً فيه، وليست السعادةُ الحقيقيَّةُ إلَّا فيما يرجِعُ إلى العِلمِ والعَمَلِ، أو إلى ما يُعِينُ عليهما مِن الأمورِ الخارجيَّةِ[4]. فالألِفُ واللَّامُ في ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ليسا للاستغراقِ، بل للمَعهودِ السَّابِقِ، وهو التَّكاثُرُ في الدُّنيا ولَذَّاتها

---

(١) هاذِم: بذالٍ مُعجَمةٍ، أي: قاطِع، أمَّا بمُهمَلةٍ فمعناه: مُزيلُ الشَّيءِ مِن أصلِه. يُنظر: ((فيض القدير)) للمُناوي (٢/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٥٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٥٥٥).

وعلائِقِها؛ فإنَّه هو الَّذي يمنَعُ عن طاعةِ اللهِ تعالى وعُبوديَّته[(١)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾ أبلَغُ في الذَّمِّ مِن «شَغَلَكم»؛ فإنَّ العامِلَ قد يَستعمِلُ جوارحَه بما يَعملُ وقلْبُه غيرُ لاهٍ به؛ فاللَّهوُ هو ذُهولٌ وإعراضٌ[(٢)].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ * كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ في هذا دَليلٌ على صِحَّةِ القَولِ بعذابِ القَبرِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أخبَرَ عن هؤلاء القَومِ الَّذين ألْهاهم التَّكاثُرُ أنَّهم سيَعلَمونَ ما يَلقَونَ إذا هم زاروا القُبورَ؛ وَعيدًا منه لهم وتهَدُّدًا[(٣)].

٤- قال تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ فجعَلَ الغايةَ زيارةَ المقابِرِ دونَ الموتِ؛ إيذانًا بأنَّهم غيرُ مُستَوطِنينَ ولا مُستقِرِّينَ في القُبورِ، وأنَّهم فيها بمنزلةِ الزَّائرينَ يَحضُرونَها مدَّةً ثُمَّ يَظْعَنونُ عنها، كما كانوا في الدُّنيا زائرينَ لها، غيرَ مُستقِرِّينَ فيها، ودارُ القَرارِ هي الجنَّةُ أو النَّارُ[(٤)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ تنبيهٌ على أنَّ الزائرَ لا بُدَّ أنْ يَنتَقِلَ عن مَزارِه؛ فهو تنبيهٌ على البَعثِ[(٥)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ استدَلَّ به عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠٠).

وذكَر ابنُ القيِّمِ أنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضِي الله عنه وغيرَه مِن السَّلفِ فهِموا من الآيةِ عذابَ القبرِ. يُنظر: ((عدة الصابرين)) (ص: ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥١٧).

-رحمه اللهُ- على أنَّ الزَّائِرَ لا بُدَّ أن يرجِعَ إلى وطَنِه، وأنَّ القُبورَ ليست بدارِ إقامةٍ، وكذلك يُذكَرُ عن بعضِ الأعرابِ أنَّه سَمِعَ قارِئًا يقرأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۞ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، فقال: (واللهِ ما الزَّائِرُ بمقيمٍ، واللهِ لَنُبعَثَنَّ)؛ لأنَّ الزَّائِرَ -كما هو معروفٌ- يَزورُ ويَرجِعُ، فقال: (واللهِ لَنُبعَثَنَّ)، وهذا هو الحَقُّ، وبهذا نَعرِفُ أنَّ ما يَذْكُرُه بعضُ النَّاسِ الآنَ في الجرائدِ وغيرِها؛ يقولُ عن الرَّجُلِ إذا مات: إنَّه انتقلَ إلى مَثْواه الأخيرِ؛ أنَّ هذا كلامٌ باطلٌ وكَذِبٌ؛ لأنَّ القُبورَ ليست هي المثوى الأخيرَ، بل لو أنَّ الإنسانَ اعتقدَ مدلولَ هذا اللَّفظِ لَصار كافرًا بالبَعثِ، والكفرُ بالبعثِ رِدَّةٌ عن الإسلام، لكنَّ كثيرًا من النَّاسِ يَأخُذون الكَلِماتِ ولا يَدرُونَ ما معناها، ولعَلَّ هذه موروثةٌ عن المُلْحِدين الَّذين لا يُقِرُّون بالبَعثِ بعدَ الموتِ؛ لهذا يجِبُ تجنُّبُ هذه العبارةِ، فلا يُقالُ عن القَبرِ: إنَّه المثوى الأخيرُ؛ لأنَّ المثوى الأخيرَ إمَّا الجنَّةُ وإمَّا النَّارُ في يوم القيامةِ[1].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فيه سُؤالٌ: شأنُ الزَّائِرِ أن ينصَرِفَ قريبًا، والأمواتُ مُلازِمونَ القُبورَ، فكيف يُقالُ: إنَّه زار القَبرَ؟

الجوابُ: أنَّ سُكَّانَ القُبورِ لا بُدَّ أن يَنصَرِفوا منها[2].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ يدُلُّ على أنَّ البرزخَ دارٌ مَقصودٌ منها النُّفوذُ إلى الدَّارِ الباقيةِ؛ لأنَّ اللهَ سَمَّاهم زائرينَ، ولم يُسَمِّهم مُقيمينَ؛ فدَلَّ ذلك على البَعثِ والجزاءِ بالأعمالِ في دارٍ باقيةٍ غيرِ فانيةٍ[3].

٩- قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۞ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۞ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٤٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣).

عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ﴾ ذكرَ اللهُ سُبحانَه في كِتابِه مَراتِبَ اليَقينِ، وهي ثلاثةٌ: حَقُّ اليَقينِ، وعِلمُ اليَقينِ، وعَيْنُ اليَقينِ:

أوَّلُها: عِلمُه، وهو التَّصديقُ التَّامُّ به؛ بحيثُ لا يَعرِضُ له شَكٌّ ولا شُبهةٌ تَقدَحُ في تَصديقِه، كعِلمِ اليَقينِ بالجنَّةِ مثلًا، وتَيَقُّنِهم أنَّها دارُ المُتَّقينَ ومَقَرُّ المُؤمنينَ، فهذه مَرتَبةُ العِلمِ؛ لِتَيَقُّنِهم أنَّ الرُّسلَ أَخبَروا بها عن اللهِ، وتَيَقُّنِهم صِدْقَ المُخبِرِ.

المَرتَبةُ الثَّانيةُ: عَيْنُ اليَقينِ؛ وهي مَرتَبةُ الرُّؤيةِ والمُشاهَدةِ، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ﴾، وبيْنَ هذه المَرتَبةِ والَّتي قبلَها فَرْقُ ما بيْنَ العِلمِ والمُشاهَدةِ؛ فاليَقينُ للسَّمعِ، وعَيْنُ اليَقينِ للبَصرِ.

المَرتَبةُ الثَّالثةُ: مَرتَبةُ حَقِّ اليَقينِ؛ وهي مُباشَرةُ الشَّيءِ بالإحساسِ به، كما إذا أُدخِلُوا الجنَّةَ وتَمتَّعُوا بما فيها، فهُم في الدُّنيا في مَرتَبةِ عِلمِ اليَقينِ، وفي المَوقِفِ حينَ تُزْلَفُ وتُقرَّبُ منهم حتَّى يُعاينُوها في مَرتَبةِ عَيْنِ اليَقينِ، وإذا دَخلُوها وباشَرُوا نَعيمَها في مَرتَبةِ حَقِّ اليَقينِ[1].

فعِلْمُ اليَقينِ: ما عَلِمَه بالسَّماعِ والخبرِ والقياسِ والنَّظَرِ، وعَينُ اليقينِ: ما شاهَده وعايَنَه بالبصَرِ، وحَقُّ اليقينِ: ما باشَرَه ووَجَدَه وذاقَه وعَرَفَه بالاعتبارِ؛ فالأوَّلُ: مِثلُ مَن أُخْبِرَ أنَّ هناك عَسَلًا، وصَدَّقَ المُخْبِرَ، أو رأى آثارَ العسَلِ فاستدلَّ على وُجودِه. والثَّاني: مِثلُ مَن رأى العَسَلَ وشاهَدَه وعايَنَه، وهذا أعلى، كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ليس الخبرُ كالمُعايَنةِ))[2]. والثَّالثُ: مِثلُ

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩١، ١٩٢).

(٢) أخرجه أحمدُ (١٨٤٢)، وابنُ حِبَّانَ (٦٢١٣)، والطَّبَرانيُّ في ((المعجم الأوسط)) (٢٥) من حديث ابن عبَّاس رضيَ الله عنهما.

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، والحاكمُ في ((المستدرك)) (٣٢٥٠)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٥٣٧٤)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣/ ٣٤١)، وحسَّنه ابنُ حجر في =

مَن ذاق العَسَلَ ووَجَدَ طَعْمَه وحَلاوتَه، ومَعلومٌ أنَّ هذا أعلى مِمَّا قبْلَه[١].

١٠- قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ هذه الجُملةُ مُستقِلَّةٌ مُستأنَفةٌ لا صِلةَ لها بما قَبْلَها، وهي جُملةٌ قَسَميَّةٌ، فيها قَسَمٌ مُقَدَّرٌ، والتَّقديرُ: واللهِ لتَرَوُنَّ الجحيمَ، وليست جوابَ «لو»؛ ولهذا يجِبُ على القارئِ أن يقِفَ عندَ قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾. ونحن نَسمَعُ كثيرًا مِن الأئمَّةِ يُصَلُّونَ فيقولونَ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾، وهذا الوَصلُ إمَّا غَفلةٌ منهم ونِسيانٌ، وإمَّا أنَّهم لم يتأمَّلوا الآيةَ حَقَّ التَّأمُّلِ، وإلَّا لو تأمَّلوها حَقَّ التَّأمُّلِ لَوجدوا أنَّ الوَصلَ يُفسِدُ المعنى؛ لأنَّه إذا قال: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ صارت رؤيةُ الجَحيمِ مَشروطةً بعِلْمِهم، وهذا ليس بصَحيحٍ؛ لذلك يجِبُ التَّنبُّهُ والتَّنبيهُ لهذا. وأيضًا فالمشروعُ أن يقِفَ الإنسانُ عندَ رأسِ كلِّ آيةٍ[٢].

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ الْتَحَم آخِرُها بأوَّلِها على وَجهٍ هو مِن ألطَفِ الخِطابِ، وأدَقِّ المسالِكِ في النَّهيِ عمَّا يجُرُّ إلى العذابِ؛ لأنَّ العاقِلَ إذا عَلِمَ أنَّ بيْنَ يَدَيه سُؤالًا عن كُلِّ ما يَتلذَّذُ به، عَلِمَ أنَّه يَعوقُه ذلك في زمَنِ السُّؤالِ عن لَذاذاتِ الجنَّةِ العَوالِ الغَوالِ؛ فكان خَوفُه من مُطلَقِ السُّؤالِ مانِعًا له عن التَّنَعُّمِ بالمُباحِ، فكيف بالمكروهِ، فكيف ثَمَّ كيف بالمحَرَّمِ؟! فكيف إذا كان السُّؤالُ من مَلِكٍ تَذوبُ لهيبتِه الجِبالُ؟ فكيف إذا كان السُّؤالُ على وَجهِ العِتابِ؟ فكيف إذا جَرَّ إلى العَذابِ[٣]؟!

= ((موافقة الخُبْر الخَبَر)) (٢/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٤، ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٣٢، ٢٣٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾

- في قَولِه: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ أعرَضَ عن ذِكْرِ المتكاثَرِ به؛ إرادةً لإطلاقِه وعُمومِه، وأنَّ كلَّ ما يُكاثِرُ به العبدُ غيرَه سِوى طاعةِ اللهِ ورَسولِه، وما يَعودُ عليه بنفعِ معادِه: فهو داخِلٌ في هذا التَّكاثرِ[١]. وأيضًا لم يُعيِّن -سُبحانه- المتكاثَرَ به، بل ترَكَ ذِكْرَه؛ لأنَّ المَذمُومَ هو نفْسُ التَّكاثُرِ بالشَّيءِ، لا المتكاثَرِ به، كما يقال: (شَغَلَكَ اللَّعِبُ واللَّهوُ)، ولم يذكرْ ما يَلعبُ ويَلهُو به[٢].

- وحُذِفَ المُلْهى عنه، فلم يقلْ: ألهاكم عن كذا؛ للتَّعظيمِ المأخوذِ من الإبهامِ بالحذفِ، والمُبالَغةِ في الذمِّ حيثُ أشار إلى أنَّ ما يُلهي مذمومٌ، فضلًا عن الملهي عن أمرِ الدِّين[٣].

وعلى القولِ بأنَّ الخِطابَ للمُشركينَ: فلم يَذكُرِ المُلْهَى عنه لظُهورِ أنَّه القرآنُ والتَّدَبُّرُ فيه، والإنصافُ بتصديقِه، وهذا الإلهاءُ حَصَل منهم وتَحَقَّق كما دَلَّ عليه حِكايَتُه بالفعلِ الماضي[٤].

- والتَّعبيرُ بالفعلِ الماضي في ﴿زُرْتُمُ﴾ لتَنزيلِ المُستقبَلِ مَنزِلةَ الماضي؛ لأنَّه مُحقَّقٌ وُقوعُه[٥]. وقيل غيرُ ذلك[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أُتبِعَ الخبَرُ

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٣٠).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٨٣). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٢٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٤٧٧).

المُستعمَلُ في التَّوبيخِ بالوعيدِ والإنذارِ على ذلك بعْدَ الموتِ، وبحرْفِ الزَّجرِ والإبطالِ بقولِه: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فأفاد ﴿كَلَّا﴾ زَجْرًا وإبطالًا لإلْهاءِ التَّكاثُرِ، وتَنبيهًا على أنَّ العاقلَ يَنْبغي له ألَّا يكونَ جَميعُ هَمِّه ومُعظَمُ سَعيِه للدُّنيا؛ فإنَّ عاقبةَ ذلك وَبالٌ وحَسرةٌ[(١)].

- وقولُه: ﴿سَوْفَ﴾ لتَحقيقِ حُصولِ العِلمِ، وحُذِفَ مَفعولُ ﴿تَعْلَمُونَ﴾؛ لظُهورِ أنَّ المرادَ: تَعلَمون سُوءَ مَغبَّةِ ما أنتُم عليه إذا عاينتُم عاقبتَه[(٢)].

- وأُكِّدَ الزَّجرُ والوَعيدُ بقولِه: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فعُطِفَ عطْفًا لَفظيًّا بحَرْفِ التَّراخي أيضًا؛ للإشارةِ إلى تَراخي رُتبةِ هذا الزَّجرِ والوَعيدِ عن رُتبةِ الزَّجرِ والوَعيدِ الَّذي قبْلَه، فهذا زَجرٌ ووَعيدٌ مُماثِلٌ للأوَّلِ، لكنَّ عَطْفَه بحَرْفِ (ثمَّ) اقْتَضى كَونَه أقْوى مِن الأوَّلِ؛ لأنَّه أفادَ تَحقيقَ الأوَّلِ وتَهويلَه، فجُملةُ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تَوكيدٌ لَفظيٌّ لجُملةِ ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وقيل: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما يَنزِلُ بكم مِن عَذابٍ في القبرِ، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عندَ البَعثِ أنَّ ما وُعِدتُم به صِدقٌ، أي: تُجعَلُ كلُّ جُملةٍ مُرادًا بها تَهديدٌ بشَيءٍ خاصٍّ، وهذا مِن مُستتْبَعاتِ التَّراكيبِ والتَّعويلِ على مَعونةِ القرائنِ بتَقديرِ مَفعولٍ خاصٍّ لكلٍّ مِن فِعلَيْ ﴿تَعْلَمُونَ﴾، وليس تَكريرُ الجُملةِ بمُقتضٍ ذلك في أصلِ الكلامِ، ومُفادُ التَّكريرِ حاصلٌ على كلِّ حالٍ[(٣)]. وقيل: كرَّر اللفظَينِ؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٦٩، ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٥)، =

أحدَهما توعُّدٌ غيرُ ما تُوعِّدَ به الآخَرُ؛ فالأوَّلُ توعُّدٌ بما يَنالُهم في الدُّنيا، والثَّاني توعُّدٌ بما أُعِدَّ لهم في الأُخرى. وقيل: الأوَّلُ ما يَلقَوْنه عندَ الفِراقِ إذا بُشِّروا بالمصيرِ إلى النَّارِ، والثاني ما يَرَوْنه مِن عذابِ القبرِ؛ فكِلاهُما عذابٌ في الدُّنيا، إلَّا أنَّ أحدَهما غيرُ الآخَرِ، وهو مِثلُه في الشِّدَّةِ؛ فلذلك أُعيدَ بتلك اللَّفظةِ. وإذا حُمِل على عذابِ الدُّنيا وعذابِ الآخرةِ، لم يكُنْ تَكرارًا[1].

وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّه تهديدٌ ووعيدٌ، فناسَبَه التَّكريرُ تَحقيقًا وتثبيتًا؛ كقولِه: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ * مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١، ٢]، و﴿ٱلۡقَارِعَةُ * مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١، ٢]، وما أتى مِن مِثلِ هذا[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾

- جُملةُ ﴿لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ تَهويلٌ وإزعاجٌ؛ لأنَّ حذْفَ جَوابِ ﴿لَوۡ﴾ يَجعَلُ النُّفوسَ تَذهَبُ في تَقديرِه كلَّ مَذهبٍ مُمكِنٍ؛ لِما في حَذْفِه مِن مُبالَغةِ التَّهويلِ، يعني: لو تَعلَمون عِلمَ اليقينِ لَتبيَّنَ لكم حالٌ مُفظِعٌ عَظيمٌ، أو لَفَعلْتُم ما لا يُوصَفُ ولا يُكتَنَهُ، وهي بَيانٌ لِما في ﴿كَلَّا﴾ مِن الزَّجرِ[3].

- قَولُه: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ أي: لو تَعْلَمونَ ما بَيْنَ أيديكم عِلْمَ الأمرِ

= ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٦٩، ٥٧٠).

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٦٨)، ((أسرار التَّكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢١، ٥٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٧٠).

المتيَقَّنِ، أي: كعِلْمِكم ما تَسْتَيقِنونَه مِنَ الأُمورِ، فالعِلْمُ مُضافٌ للمَفعولِ، واليَقينُ بمعنى المتيَقَّنِ، صِفةٌ لمُقَدَّرٍ، وجُوِّز كونُ الإضافةِ مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى صِفَتِه، أي: العِلمَ اليَقينَ، وفائِدةُ الوَصْفِ ظاهِرةٌ بِناءً على أنَّ العِلْمَ يُطلَقُ على غَيرِ اليَقينِ[(١)].

- قولُه: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ما سَبَقَه مِن الزَّجرِ والرَّدعِ المُكرَّرِ، ومِن الوعيدِ المُؤكَّدِ على إجمالِه؛ يُثيرُ في نفْسِ السَّامعِ سُؤالًا عمَّا يُترقَّبُ مِن هذا الزَّجرِ والوَعيدِ، فكان قولُه: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ جَوابًا عمَّا يَجيشُ في نفْسِ السَّامعِ، وهو جَوابُ قَسَمٍ مَحذوفٍ أُكِّدَ به الوعيدُ، وأُوضِحَ به ما أنْذَرَهم منه بعْدَ إبهامِه تَفخيمًا[(٢)].

- وعلى القولِ بأنَّ الخِطابَ للمُشركينَ فالإخبارُ عن رُؤيتِهم الجَحيمَ كِنايةٌ عن الوُقوعِ فيها؛ فإنَّ الوُقوعَ في الشَّيءِ يَستلزِمُ رُؤيتَه، فيُكنَّى بالرُّؤيةِ عن الحُضورِ، وأُكِّدَ ذلك بقولِه: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾؛ قصْدًا لتَحقيقِ الوعيدِ بمَعناهُ الكِنائيِّ[(٣)].

- وكُرِّرَ القسَمُ مَعطوفًا بحرْفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾؛ تَغليظًا في التَّهديدِ، وزِيادةً في الوَعيدِ والتَّهويلِ، وتَأكيدًا له. وقيل: الأُولى إذا رَأَتْهم مِن مَكانٍ بعيدٍ، والثَّانيةُ إذا وَرَدوها. أو الأوَّلُ قبْلَ دُخولِهم الجَحيمَ، والثَّاني بعْدَه؛ ولهذا قال عَقِبَه: ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾. أو المرادُ بالأُولى المَعرفةُ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٢، ٥٢٣).

وبالثَّانيةِ الإبصارُ[١].

- وعَينُ اليَقينِ: اليقينُ الَّذي لا يَشوبُه تَردُّدٌ، فلَفظُ (عَينٍ) مُعبَّرٌ به عن حَقيقةِ الشَّيءِ الخالصةِ، غيرِ النَّاقصةِ ولا المُشابهةِ، وإضافةُ ﴿عَيْنَ﴾ إلى ﴿ٱلْيَقِينِ﴾ بَيانيَّةٌ[٢].

- وفي قولِه: ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ تأكيدٌ للرُّؤيةِ بأنَّها يَقينٌ، وأنَّ اليقينَ حَقيقةٌ[٣].

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ على القولِ بأنَّ الخِطابَ للمشركينَ: فقد أُعقِبَ التَّوبيخُ والوعيدُ على لَهْوِهم بالتَّكاثُرِ عن النَّظرِ في دَعوةِ الإسلامِ، مِن حيثُ إنَّ التَّكاثُرَ صَدَّهم عن قَبولِ ما يُنجِّيهم؛ بتَهديدٍ وتَخويفٍ مِن مُؤاخَذتِهم على ما في التَّكاثُرِ مِن نَعيمٍ تَمتَّعوا به في الدُّنيا ولم يَشكُروا اللهَ عليه بقولِه: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي: عن النَّعيمِ الَّذي خُوِّلْتُموه في الدُّنيا، فلمْ تَشكُروا اللهَ عليه وكان به بَطَرُكم[٤].

- وعُطِفَ هذا الكلامُ بحرْفِ ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالِّ على التَّراخي الرُّتبيِّ في عطْفِه الجُمَلَ مِن أجْلِ أنَّ الحِسابَ على النَّعيمِ الَّذي هو نِعمةٌ مِن اللهِ أشدُّ عليهم؛ لأنَّهم ما كانوا يَترقَّبونه؛ لأنَّ تَلبُّسَهم بالإشراكِ وهُمْ في نَعيمٍ أشدُّ كُفرانًا للَّذي أنْعَمَ عليهم[٥]. وذلك على القولِ بأنَّ الخِطابَ للمشرِكين.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٢٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والجُملةُ المضافُ إليها (إِذْ) مِن قولِه: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ مَحذوفةٌ دلَّ عليها قولُه: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦]، أي: يومَ إذ تَرَونَّ الجَحيمَ فيُغلَّظُ عليكم العَذابُ[1]. وذلك على القولِ بأنَّ الخِطابَ للمشرِكين.

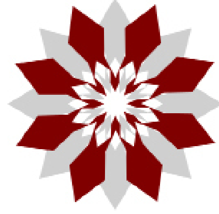
- قولُه: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ السُّؤالُ عن النَّعيمِ المُوجَّهُ إلى المشركين هو غيرُ السُّؤالِ الَّذي يُسألُه كلُّ مُنعَمٍ عليه فيما صَرَفَ فيه النِّعمةَ؛ فإنَّ النِّعمةَ لَمَّا لم تكُنْ خاصَّةً بالمُشرِكين -خِلافًا للتَّكاثُرِ- كان السُّؤالُ عنها حَقيقًا بكلِّ مُنعَمٍ عليه وإنِ اختَلَفَت أحوالُ الجَزاءِ المُترتِّبِ على هذا السُّؤالِ. فالكلُّ سيُسْأَلُ، ولكنْ سُؤالُ الكافرِ سُؤالُ تَوبيخٍ؛ لأنَّه قد تَرَكَ الشُّكرَ، وسُؤالُ المؤمنينَ سُؤالٌ لتَرتيبِ الثَّوابِ على الشُّكرِ، أو مِن أجْلِ المُؤاخَذةِ بالنَّعيمِ الحرامِ[2].

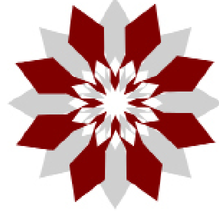


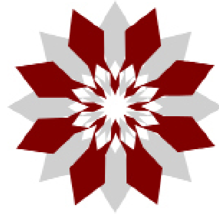
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٤، ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

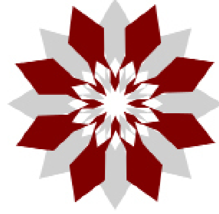
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢١٢).

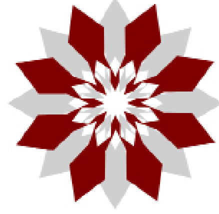


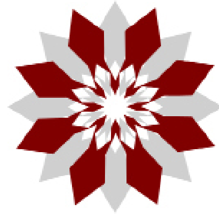




تَفْسِيرُ
سُورَةِ العَصْرِ







سُورةُ العَصْرِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (العَصْرِ)[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ العَصْرِ مكِّيَّةٌ، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

بَيانُ مَن هُم أهْلُ الخُسرانِ، ومَن هُم أهلُ السَّعادةِ[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- القَسَمُ بالعَصرِ على ثُبوتِ الخُسرانِ للإنسانِ.

---

(١) سمِّيت هذه السُّورةُ بذلك؛ لافتِتاحِها بالقَسَمِ الإلهيِّ في قولِه: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٢).

قال ابن عاشور: (وسُمِّيتْ في بعضِ كتبِ التَّفسيرِ وفي «صحيحِ البخاريِّ» سورةَ «والعصرِ» بإثباتِ الواوِ على حكايةِ أوَّلِ كلمةٍ فيها، أيْ: سورةُ هذه الكلمةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٧).

(٢) نقَل الإجماعَ على ذلك: البِقاعيُّ. يُنظر: ((مصاعد النظر)) (٣/ ٢٤٥).

ونسَب ابنُ الجَوزيِّ، وأبو حيَّانَ، والشَّوكانيُّ القولَ بأنَّها مكِّيَّةٌ إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠٠).

وقيل: السُّورةُ مدَنيَّةٌ. يُنظر: المصادر السَّابقة.

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٩٩). ويُنظر أيضًا: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٢).

٢- إثباتُ نَجاةِ وفَوْزِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ، والمُوصِي بَعضُهم بَعضًا بالحَقِّ والصَّبرِ.



الآيات (١-٣)

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾.

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالعَصرِ على أنَّ كُلَّ إنسانٍ في خَسارةٍ وهَلاكٍ، إلَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ، وأوصى بعضُهم بَعضًا باتِّباعِ دِينِ الإسلامِ، وبالصَّبرِ على طاعةِ اللهِ، وعن معصيةِ اللهِ، وعلى أقدارِ اللهِ المؤلِمةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالعَصرِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٧).

قال ابنُ الجوزي: (﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّه الدَّهرُ. قاله ابنُ عبَّاس، وزَيدُ بنُ أسلَمَ، والفرَّاءُ، وابنُ قُتَيبةَ. وإنَّما أقسَمَ بالدَّهرِ؛ لأنَّ فيه عِبرةً للنَّاظِرِ من مُرورِ اللَّيلِ والنَّهارِ على تقديرٍ لا يَنخَرِمُ.

والثَّاني: أنَّه العَشِيُّ، وهو ما بيْن زَوالِ الشَّمسِ وغُروبِها. قاله الحسَنُ، وقَتادةُ.

والثَّالثُ: صلاةُ العَصرِ. قاله مقاتلٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٧).

وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ بالعَصرِ: الدَّهرُ وعُمومُ الزَّمَنِ: الفرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبةَ، وابنُ جرير، وابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٧). =

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢﴾

أي: إنَّ كُلَّ إنسانٍ لَفي خَسارةٍ وهَلاكٍ[(١)].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: إلَّا الَّذين آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي حَديثِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضيَ اللهُ عنه في قِصَّةِ سُؤالِ جِبريلَ عليه السَّلامُ، قال للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أخبِرْني عن الإيمانِ، فقال: ((أن تؤمِنَ باللهِ

= قال السعدي: (أقسَمَ تعالى بالعَصرِ الَّذي هو اللَّيلُ والنَّهارُ؛ محَلُّ أفعالِ العِبادِ وأعمالِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: صلاةُ العَصرِ: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦١٥).

وقال مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ: (أقسَمَ اللهُ عزَّ وجَلَّ بعَصرِ النَّهارِ، وهو آخِرُ ساعةٍ مِنَ النَّهارِ، وأيضًا «العَصرُ» سُمِّيَت العَصرَ حينَ تَصَوَّبَت الشَّمسُ للغُروبِ، وهو عَصرُ النَّهارِ؛ فأقسَمَ اللهُ عزَّ وجَلَّ بصلاةِ العَصرِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٧، ٣٠٨).

قال الواحدي: (قال أهلُ المعاني: الخُسْرُ: هلاكُ رأسِ المالِ، والإنسانُ في هلاكِ نَفْسِه وعُمُرِه -وهما أكثَرُ رأسِ مالِه- إلَّا المؤمِنَ العامِلَ بطاعةِ اللهِ). ((الوسيط)) (٤/ ٥٥١).

وقال السعدي: (الخاسِرُ ضِدُّ الرَّابِحِ، والخَسارُ مَراتِبُ متعَدِّدةٌ مُتفاوِتةٌ؛ قد يكونُ خَسارًا مُطلَقًا، كحالِ مَن خَسِرَ الدُّنيا والآخِرةَ، وفاته النَّعيمُ، واستحَقَّ الجحيمَ، وقد يكونُ خَسارًا مِن بَعضِ الوُجوهِ دونَ بَعضٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٨).

وملائِكَتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليومِ الآخِرِ، وتُؤمِنَ بالقَدَرِ؛ خَيرِه وشَرِّه))(١).

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

أي: وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ الظَّاهِرةَ والباطِنةَ بإخلاصٍ للهِ، ومُتابَعةٍ لِرَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٢).

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: وأوصى بعضُهم بَعضًا بلُزومِ القُرآنِ، واتِّباعِ دِينِ الإسلامِ(٣).

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

أي: وأوصى بَعضُهم بَعضًا بالصَّبرِ على طاعةِ اللهِ، وعن معصيةِ اللهِ، وعلى أقدارِ اللهِ المؤلِمةِ(٤).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- عن بعضِ السَّلَفِ قال: (تعلَّمْتُ معنَى سورةِ العَصرِ من بائعِ الثَّلجِ، كان يَصيحُ ويقولُ: «ارحَموا مَن يَذوبُ رأسُ مالِه، ارحَموا مَن يَذوبُ رأسُ مالِه»،

---

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٣)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١١).
قال السعدي: (التَّواصي بالصَّبرِ على طاعةِ اللهِ، وعن معصيةِ اللهِ، وعلى أقدارِ اللهِ المؤلِمةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤).

فقلتُ: هذا معنى ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾، يمُرُّ به العصرُ فيَمضي عُمُرُه ولا يَكتسِبُ، فإذا هو خاسِرٌ)[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ في هذا الاستثناءِ تنبيهٌ على أنَّ كُلَّ ما دعاك إلى طاعةِ اللهِ فهو الصَّلاحُ، وكُلَّ ما شغَلَك عن اللهِ بغَيرِه فهو الفَسادُ[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ فيه وعيدٌ شديدٌ؛ وذلك لأنَّه تعالى حكَمَ بالخَسارِ على جميعِ النَّاسِ، إلَّا مَن كان آتيًا بهذه الأشياءِ الأربعةِ؛ وهي: الإيمانُ، والعمَلُ الصَّالحُ، والتَّواصي بالحَقِّ، والتَّواصي بالصَّبرِ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ النَّجاةَ مُعَلَّقةٌ بمَجموعِ هذه الأمورِ، وأنَّه كما يَلزَمُ المكَلَّفَ تحصيلُ ما يخُصُّ نفْسَه، فكذلك يَلزَمُه في غيرِه أُمورٌ؛ منها: الدُّعاءُ إلى الدِّينِ، والنَّصيحةُ، والأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عن المنكَرِ، وأن يُحِبَّ له ما يحِبُّ لنَفْسِه[٣].

٤- قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ * إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دلَّ استِثناءُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ من أنْ يَكونوا في خُسرٍ على أنَّ سَببَ كَونِ بَقيَّةِ الإنسانِ في خُسرٍ هو عدَمُ الإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ؛ بدَلالةِ مَفهومِ الصِّفةِ[٤]، وعُلِمَ مِن المَوصولِ أنَّ الإيمانَ والعمَلَ الصَّالحَ هما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٧٨). ويُنظر أيضًا: ((المدهش)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٢/ ٢٨٢).

(٤) مَفهومُ الصِّفةِ: هو تَعليقُ الحُكمِ على الذَّاتِ بأحدِ الأوصافِ، نحو: في الغنمِ السَّائمةِ زكاةٌ، فتخصيصُ الغنمِ بالسَّومِ لو لم يكُنْ للفرقِ بينَ السَّائمةِ وغيرِها في الحكمِ لكان تطويلًا بلا فائدةٍ. يُنظر: ((نهاية السول شرح منهاج الوصول)) للإسنوي (ص: ١٥٠)، ((البحر المحيط =

سَببُ انتفاءِ إحاطةِ الخُسرِ بالإنسانِ[١].

ولم يَكْتَفِ منهم بمعرفةِ الحقِّ والصَّبرِ عليه، حتَّى يُوصِيَ بعضُهم بعضًا به، ويُرْشِدَه إليه، ويَحُضَّه عليه[٢].

٥- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ يدُلُّ على أنَّ الحَقَّ ثقيلٌ، وأنَّ المِحَنَ تُلازِمُه؛ فلذلك قُرِنَ به التَّواصي[٣].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ يدُلُّ على إقامةِ المصالحِ الدِّينيَّةِ كُلِّها؛ فالعقائدُ الإسلاميَّةُ والأخلاقُ الدِّينيَّةُ مُندَرِجةٌ في الحَقِّ، والأعمالُ الصَّالحةُ وتجنُّبُ السَّيِّئاتِ مُندَرِجةٌ في الصَّبرِ، والتَّخلُّقُ بالصَّبرِ مِلاكُ فَضائلِ الأخلاقِ كلِّها؛ فإنَّ الارتياضَ بالأخلاقِ الحَميدةِ لا يَخْلو مِن حمْلِ المرْءِ نفْسَه على مُخالَفةِ شَهواتٍ كَثيرةٍ، ففي مُخالَفتِها تَعَبٌ يَقْتضي الصَّبرَ عليه حتَّى تَصيرَ مَكارِمُ الأخلاقِ مَلَكةً لِمَن راضَ نفْسَه عليها، كما قال عَمْرُو بنُ العاصِ:

إذا المَرْءُ لم يَترُكْ طَعامًا يُحِبُّهُ ... ولم يَنْهَ قلْبًا غاويًا حيثُ يَمَّمَا
فيُوشِكُ أنْ تَلْقَى له الدَّهرَ سُبَّةً ... إذا ذُكِرَتْ أمْثالُها تَملَأُ الفَمَا

وكذلك الأعمالُ الصَّالحةُ كلُّها لا تَخْلو مِن إكراهِ النَّفْسِ على تَرْكِ ما تَميلُ إليه، وفي الحديثِ: ((حُفَّتِ الجنَّةُ بالمَكارِه، وحُفَّت النَّارُ بالشَّهَواتِ))[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ جمَعَ سُبحانَه بيْن «تواصَوا

= في أصول الفقه)) للزركشي (٥/ ١٥٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٥).
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٢).
(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٣).
والحديث أخرجه مسلم (٢٨٢٢) من حديث أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنه.

بالحَقِّ» الَّذي يَدفَعُ الشُّبُهاتِ، وبيْن الصَّبرِ الَّذي يَكُفُّ عن الشَّهَواتِ، وقد جَعَل سُبحانَه إمامةَ الدِّينِ مَنوطةً بهذَين الأمْرَين، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[1] [السجدة: ٢٤].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ لا بُدَّ مِن التَّواصي بالحَقِّ والصَّبرِ؛ إذ إنَّ أهلَ الفَسادِ والباطِلِ لا يقومُ باطِلُهم إلَّا بصبرٍ عليه أيضًا، لكِنِ المؤمنونَ يَتواصَونَ بالحَقِّ والصَّبرِ، وأولئك يتواصَونَ بالصَّبرِ على باطِلِهم، كما قال قائِلُهم: ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، فالتَّواصي بالحَقِّ بدونِ الصَّبرِ -كما يفعَلُه الَّذين يقولونَ: آمَنَّا باللهِ، فإذا أُوذِيَ أحَدُهم في اللهِ جَعَل فِتنةَ النَّاسِ كعذابِ اللهِ، والَّذين يَعبُدونَ اللهَ على حَرْفٍ، فإنْ أصاب أحَدَهم خيرٌ اطمأَنَّ به، وإنْ أصابَتْه فتنةٌ انقَلَب على وجْهِه خَسِرَ الدُّنيا والآخِرةَ- والتَّواصي بالصَّبرِ بدونِ الحَقِّ: كِلاهما مُوجِبٌ للخُسرانِ، وإنَّما نجا مِن الخُسرانِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ، وتواصَوا بالحَقِّ وتواصَوا بالصَّبرِ، وهذا موجودٌ في كلِّ مَن خرَج عن هؤلاء مِن أهلِ الشَّهَواتِ الفاسِدةِ، وأهلِ الشُّبُهاتِ الفاسِدةِ؛ أهلِ الفُجورِ، وأهلِ البِدَعِ[2].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ فيه فضيلةُ الصَّبرِ على تزكيةِ النَّفْسِ، ودَعوةِ الحَقِّ[3].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أفادتْ صِيغةُ التَّواصي بالحقِّ وبالصَّبرِ أنْ يكونَ شَأنُ حَياةِ المؤمنينَ قائمًا على شُيوعِ التَّواصي بهما دَيدنًا لهم، وذلك يَقْتضي اتِّصافَ المؤمنينَ بإقامةِ الحقِّ، وصَبْرِهم على المَكارهِ

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٨).

في مَصالِحِ الإسلامِ وأُمَّتِه؛ لِما يَقتضيهِ عُرفُ النَّاسِ مِن أنَّ أحدًا لا يُوصي غيرَه بمُلازَمةِ أمرٍ إلَّا وهو يَرى ذلك الأمرَ خَليقًا بالمُلازَمةِ؛ إذ قَلَّ أنْ يُقدِمَ أحدٌ على أمرٍ بحَقٍّ هو لا يَفعَلُه، أو أمرٍ بصَبرٍ وهو ذو جَزَعٍ، وقد قال اللهُ تعالَى تَوبيخًا لبني إسرائيلَ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1] [البقرة: ٤٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ أَقْسَمَ سُبحانَه وتعالى بالدَّهرِ -الَّذي هو زمنُ الأعمالِ الرَّابحةِ والخاسرةِ- على أنَّ كلَّ واحدٍ في خُسْرٍ إلَّا مَن كَمَّلَ قوَّتَه العِلميَّةَ، وقوَّتَه العَمَليَّةَ[2]، والمراتِبُ أربعةٌ، وباستِكمالِها يحصُلُ للشَّخصِ غايةُ كمالِه: إحداها: مَعرِفةُ الحَقِّ. الثَّانيةُ: عَمَلُه به. الثَّالثةُ: تعليمُه مَن لا يحسِنُه. الرَّابعةُ: صَبرُه على تعَلُّمِه والعَمَلِ به وتعليمِه؛ فذكَرَ تعالى المراتِبَ الأربعةَ في هذه السُّورةِ، وأقسَمَ سُبحانَه في هذه السُّورةِ بالعَصْرِ إنَّ كُلَّ أحدٍ في خُسْرٍ إلَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، وهم الَّذين عَرَفوا الحَقَّ وصَدَّقوا به. فهذه مرتبةٌ. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وهم الَّذين عَمِلوا بما عَلِموه من الحَقِّ، فهذه مرتبةٌ أُخرى. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ وصَّى به بعضُهم بعضًا؛ تعليمًا وإرشادًا، فهذه مرتبةٌ ثالثةٌ. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ صَبَروا على الحَقِّ، ووصَّى بعضُهم بعضًا بالصَّبرِ عليه والثَّباتِ، فهذه مرتبةٌ رابعةٌ. وهذا نهايةُ الكمالِ؛ فإنَّ الكمالَ أن يكونَ الشَّخصُ كامِلًا في نَفْسِه، مُكَمِّلًا لغيرِه، وكَمالُه بإصلاحِ قوَّتَيه العِلميَّةِ والعَمَليَّةِ؛ فصلاحُ القُوَّةِ العِلميَّةِ بالإيمانِ، وصلاحُ القُوَّةِ العَمليَّةِ بعمَلِ الصَّالحاتِ، وتكميلِه غيرَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٥).

بتعليمِه إيَّاه، وصَبرِه عليه، وتوصيتِه بالصَّبرِ على العِلمِ والعَملِ؛ فهذه السُّورةُ على اختِصارِها هي مِن أجمَعِ سُوَرِ القُرآنِ الكريمِ للخَيرِ بحذافيرِه، والحَمدُ للهِ الَّذي جَعَل كِتابَه كافيًا عن كُلِّ ما سِواه، شافيًا مِن كُلِّ داءٍ، هاديًا إلى كُلِّ خَيرٍ؛ لذا قال الشَّافعيُّ رَضِيَ اللهُ عنه: (لو فكَّر النَّاسُ كُلُّهم في هذه السُّورةِ لَكَفَتْهم)[1]، فهذه السُّورةُ ميزانٌ للأعمالِ يَزِنُ المؤمنُ بها نفْسَه، فيَبِينُ له بها رِبحُه من خُسرانِه[2]. لذا كان حقيقًا بالإنسانِ أن يُنفِقَ ساعاتِ عُمرِه -بل أنفاسَه- فيما يَنالُ به المطالبَ العاليةَ، ويخلصُ به مِن الخُسرانِ المُبينِ، وليس ذلك إلَّا بالإقبالِ على القرآنِ وتفَهُّمِه وتدَبُّرِه، واستِخراجِ كُنوزِه، وإثارةِ دفائنِه، وصَرفِ العنايةِ إليه، والعُكوفِ بالهِمَّةِ عليه؛ فإنَّه الكفيلُ بمصالحِ العبادِ في المَعاشِ والمَعادِ، والموصلِ لهم إلى سبيلِ الرَّشادِ[3].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ * إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ أنَّ الَّذين اتَّصفوا بهذه الصِّفاتِ الأربَعِ هم الرَّابِحونَ، ومَن سِواهم فهو خاسِرٌ عصْرَه، وهذه الحِكمةُ من أنَّ اللهَ أَقْسَمَ بالعَصرِ دونَ غيرِه؛ لأنَّ العصرَ هو خزائنُ الأعمالِ، فإذا لم يَقُمِ الإنسانُ بهذه الصِّفاتِ الأربَعِ خَسِرَ عصْرَه، وكان عُمُرُه خَسارةً[4].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ فيه سُؤالٌ: الآيةُ يدُلُّ ظاهِرُها على أنَّ هذا المخبَرَ عنه أنَّه في خُسرِ إنسانٌ واحِدٌ، بدليلِ إفرادِ لَفظةِ الإنسانِ، واستثناؤُه مِن ذلك الإنسانِ الواحِدِ لَفظًا قولَه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٦، ٥٧).

(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٨١).

يَقتضي أنَّه ليس إنسانًا واحِدًا؟

الجوابُ: أنَّ لَفظَ (الإنسانِ) وإنْ كان واحِدًا فالألِفُ واللَّامُ للاستِغراقِ، يَصيرُ المفرَدُ بسَبَبِهما صيغةَ عُمومٍ، وعليه فمعنى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أي: إنَّ كُلَّ إنسانٍ؛ لدَلالةِ (أل) الاستغراقيَّةِ على ذلك[1].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، فيه سُؤالٌ: قال تعالى في سُورةِ التِّينِ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤، ٥]، فهناك يدُلُّ على أنَّ الابتِداءَ مِن الكَمالِ، والانتِهاءَ إلى النُّقصانِ، وهاهنا يدُلُّ على أنَّ الابتِداءَ مِن النُّقصانِ، والانتِهاءَ إلى الكَمالِ، فكيفَ وَجهُ الجَمْعِ؟

الجوابُ: أنَّ المَذكُورَ في سُورةِ التِّينِ أَحوالُ البَدَنِ -وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ-، وهاهنا أَحوالُ النَّفْسِ، فلا تَناقُضَ بيْن القَولَينِ[2].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ لم يبيِّنْ نوعَ الخُسرانِ في أيِّ شَيءٍ، بل أطلَقَ؛ ليَعُمَّ[3].

٦- تأمَّلْ حِكمةَ القرآنِ؛ لَمَّا قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ فإنَّه ضَيَّقَ الاستثناءَ وخَصَّصه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾، ولَمَّا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] وَسَّعَ الاستثناءَ وعَمَّمَه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [التين: ٦] ولم يَقُلْ: «وتَواصَوا»؛ فإنَّ التَّواصيَ هو أمْرُ الغَيرِ بالإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ -وهو قَدْرٌ زائدٌ على مجرَّدِ فِعْلِه- فمَن لم يكُنْ كذلك فقد خَسِرَ هذا الرِّبحَ، فصار في خُسْرٍ، ولا يَلْزَمُ أنْ يكونَ في أسفَلِ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٨٩).

سافِلينَ؛ فإنَّ الإنسانَ قد يقومُ بما يجبُ عليه ولا يأمُرُ غيرَه؛ فإنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المنكَرِ مرتبةٌ زائدةٌ، وقد تكونُ فرضًا على الأعيانِ، وقد تكون فرضًا على الكفايةِ، وقد تكون مُستحَبَّةً.

والتَّواصِي بالحَقِّ يَدخُلُ فيه الحَقُّ الَّذي يجِبُ، والحَقُّ الَّذي يُستحَبُّ، والصَّبرُ يَدخُلُ فيه الصَّبرُ الَّذي يجِبُ، والصَّبرُ الَّذي يُستحَبُّ، فهؤلاء إذا تَواصَوا بالحَقِّ وتَواصَوا بالصَّبرِ حصلَ لهم مِن الرِّبحِ ما خَسِرَه أولئك الَّذين قامُوا بما يجبُ عليهم في أَنفُسِهم ولم يَأمُروا غيرَهم به، وإنْ كان أولئك لم يَكونوا مِن الَّذين خَسِروا أنفُسَهم وأَهْلِيهم؛ فمُطلَقُ الخَسارِ شَيءٌ، والخَسارُ المُطلَقُ شَيءٌ، وهو سُبحانَه إنَّما قال: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾، ومَن رَبِحَ في سِلعةٍ وخَسِرَ في غيرِها قد يُطلَقُ عليه أنَّه في خُسرٍ وأنَّه ذو خُسرٍ؛ كما قال عبدُ الله بنُ عُمرَ رَضِيَ الله عنهما: (لقد فَرَّطْنا في قَراريطَ كثيرةٍ)[1]، فهذا نَوعُ تَفريطٍ، وهو نَوعُ خُسرٍ بالنِّسبةِ إلى مَن حَصَّلَ رِبْحَ ذلك.

ولَمَّا قال في سُورةِ (والتِّين): ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فقَسَّمَ النَّاسَ إلى هَذينِ القِسمَينِ فقط، ولَمَّا كان الإنسانُ له قُوَّتانِ: قُوَّةُ العِلمِ وقُوَّةُ العَمَلِ، وله حالَتانِ: حالةٌ يَأتَمِرُ فيها بأَمْرِ غيرِه، وحالةٌ يأمُرُ فيها غيرَه؛ استَثنَى سُبحانَه مَن كمَّلَ قُوَّتَه العِلميَّةَ بالإيمانِ، وقُوَّتَه العَمَليَّةَ بالعمَلِ الصَّالِحِ، وانقادَ لأمْرِ غيرِه له بذلك، وأمَرَ غيرَه به- مِن الإنسانِ الَّذي هو في خُسرٍ، فإنَّ العبدَ له حالتانِ: حالةُ كَمالٍ في نَفْسِه، وحالةُ تَكميلٍ لغيرِه؛ وكَمالُه وتَكميلُه مَوقوفٌ على أمْرَينِ: عِلمٌ بالحَقِّ وصَبرٌ عليه، فتَضمَّنَتِ الآيةُ جَميعَ مَراتِبِ الكَمالِ الإنسانيِّ؛ مِن العِلمِ النَّافعِ، والعَمَلِ الصَّالِحِ، والإحسانِ إلى

(١) أخرجه البخاري (١٣٢٤)، ومسلم (٩٤٥).

نَفْسِه بذلك وإلى أَخيِه به، وانقِيادِه وقَبولِه لِمَن يَأْمُرُه بذلك(١).

٧- قولُه تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾ [العاديات: ٦]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، وقولُه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقولُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢] هذا شَأْنُ الإنسانِ مِن حيثُ ذاتُه ونفْسُه، وأمَّا خروجُه عن هذه الصِّفاتِ فهو بفَضلِ ربِّه وتوفيقِه له ومِنَّتِه عليه، لا مِن ذاتِه؛ فليس له مِن ذاتِه إلَّا هذه الصِّفاتُ، وما به مِن نِعمةٍ فمِن اللهِ وَحْدَه(٢).

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ﴾، ولم يقلْ: (ويَتواصَونَ)؛ لأنَّ الغَرضَ مَدحُهم بما صدَر عنهم في الماضي، وذلك يُفيدُ رَغبتَهم في الثَّباتِ عليه في المُستقبَلِ(٣).

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ اختيرَ التَّعبيرُ بالوصيَّةِ؛ إشارةً إلى الرِّفقِ في الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ، واستعمالِ اللِّينِ بغايةِ الجُهدِ(٤).

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ فيه إثباتُ نجاةِ وفَوزِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، والدَّاعينَ منهم إلى الحَقِّ(٥).

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٥).
(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٢).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٤٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٨).

بلاغةُ الآياتِ:

﴿وَٱلۡعَصۡرِ * إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾

- أقسَمَ اللهُ تعالَى بالعَصْرِ قَسَمًا يُرادُ به تَأكيدُ الخبَرِ، كما هو شَأنُ أقسامِ القرآنِ الكريمِ، والمُقسَمُ به مِن مَظاهرِ بَديعِ التَّكوينِ الرَّبَّانيِّ الدَّالِّ على عَظيمِ قُدرتِه وسَعةِ عِلمِه، وأيًّا ما كان المرادُ منه هنا؛ فإنَّ القسَمَ به باعتبارِ أنَّه زمَنٌ يُذكِّرُ بعَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالَى في خلْقِ العالَمِ وأحوالِه، وبأُمورٍ عَظيمةٍ مُبارَكةٍ، مِثلِ الصَّلاةِ المَخصوصةِ، أو عصْرٍ مُعيَّنٍ مُبارَكٍ؛ فقيل: أقسَمَ بصَلاةِ العصْرِ؛ لفَضْلِها، ولأنَّ التَّكليفَ في أدائِها أشقُّ؛ لتَهافُتِ النَّاسِ في تِجاراتِهم ومَكاسِبِهم آخِرَ النَّهارِ، واشتِغالِهم بمَعايِشِهم. أو أقسَمَ بالعَشيِّ كما أقسَمَ بالضُّحى؛ لِما فيهما جَميعًا مِن دَلائلِ القُدرةِ. أو أقسَمَ بالزَّمانِ؛ لِيُذَكِّرَ بما فيه مِن النِّعَمِ وأضْدادِها لتَنبيهِ الإنسانِ على أنَّه مُستعِدٌّ للخُسرانِ والسَّعادةِ، والتَّعريضِ بنَفْيِ ما يُضافُ إلى الزَّمانِ مِن الخُسرانِ؛ لأنَّ النَّاسَ تُضيفُ كلَّ شَيءٍ له، ووجهُ نفيِه عنه أنَّ اللهَ لَمَّا أقسَمَ به وعظَّمَه، عُلِم أنَّه لا خُسرانَ له، ولا دخْلَ له فيه، وإضافتُه للإنسانِ تُشعِرُ بأنَّه صِفةٌ له لا للزَّمانِ[(١)].

- التَّعريفُ في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ للجِنسِ؛ ولذلك استثنى منه الَّذين آمَنوا، فهو استثناءٌ متَّصِلٌ[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٣، ٧٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٧)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٣٩٤، ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٨، ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٧)، ((تفسير ابن =

- والظَّرفيَّةُ في قولِه: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ أفادتْ تَشبيهَ مُلازَمةِ الخُسرِ بإحاطةِ الظَّرفِ بالمَظروفِ، فكانت أبلَغَ مِن أنْ يُقالَ: إنَّ الإنسانَ لَخاسرٌ[(١)].

- وتَنكيرُ ﴿خُسْرٍ﴾ قيل: للتَّعظيمِ، أي: في خُسرٍ عظيمٍ، ويجوزُ أنْ يكونَ للتَّنويعِ، أيْ: نوعٍ مِن الخُسرِ غيرِ ما يَعرِفُه الإنسانُ[(٢)].

- ومَجيءُ هذا الخبَرِ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ على العُمومِ، مع تأكيدِه بالقَسَمِ، وحرْفِ التَّوكيدِ في جَوابِه؛ يُفيدُ التَّهويلَ والإنذارَ بالحالةِ المُحيطةِ بمُعظَمِ النَّاسِ[(٣)].

فقَرَنَ اللهُ تعالى بهذه الآيةِ قرائِنَ تدُلُّ على مُبالَغتِه تعالى في بيانِ كَونِ الإنسانِ في خُسرٍ:

أحَدُها: قَولُه: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ يفيدُ أنَّه كالمغمورِ في الخُسرانِ، وأنَّه أحاط به مِن كُلِّ جانبٍ.

وثانيها: كَلِمةُ (إنَّ)؛ فإنَّها للتَّأكيدِ.

وثالثُها: حرفُ اللَّامِ في ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾[(٤)].

- وأعقَبَ بالاستثناءِ بقولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآيةَ، فيَتقرَّرُ الحُكْمُ تامًّا في نفْسِ السَّامعِ مُبيِّنًا أنَّ النَّاسَ فَريقانِ: فريقٌ يَلحَقُه الخُسرانُ، وفَريقٌ

= عاشور)) (٣٠/ ٥٣٠، ٥٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٠).

لا يَلحَقُه شَيءٌ منه(١).

- وقدْ أفاد استثناءُ المُتَّصِفينَ بمَضمونِ الصِّلةِ ومَعطوفِها إيماءً إلى عِلَّةِ حُكمِ الاستثناءِ، وهو نَقيضُ الحُكمِ الثَّابتِ للمُسْتثنى منه؛ فإنَّهم لَيسوا في خُسرٍ مِن أجْلِ أنَّهم آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ(٢).

- والتَّعريفُ في قولِه: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تَعريفُ الجِنسِ مُرادٌ به الاستِغراقُ، أي: عَمِلوا جَميعَ الأعمالِ الصَّالحةِ الَّتي أُمِروا بعَمَلِها بأمْرِ الدِّينِ، وعَمَلُ الصَّالحاتِ يَشملُ تَرْكَ السَّيِّئاتِ(٣).

- وعُطِفَ على عمَلِ الصَّالحاتِ التَّواصي بالحقِّ والتَّواصي بالصَّبرِ وإنْ كان ذلك مِن عمَلِ الصَّالحاتِ، عَطْفَ الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتِمامِ به؛ لأنَّه قد يُغفَلُ عنه، يُظَنُّ أنَّ العمَلَ الصَّالحَ هو ما أثَرُه عمَلُ المَرءِ في خاصَّتِه، فوَقَعَ التَّنبيهُ على أنَّ مِن العمَلِ المأمورِ به إرشادَ المسلمِ غَيرَه ودَعوتَه إلى الحقِّ، فالتَّواصي بالحقِّ يَشملُ تَعليمَ حَقائقِ الهدْيِ وعَقائدِ الصَّوابِ، وإراضةَ النَّفْسِ على فَهْمِها بفِعلِ المعروفِ وتَرْكِ المُنكَرِ، والتَّواصي بالصَّبرِ عطْفٌ على التَّواصي بالحقِّ عطْفَ الخاصِّ على العامِّ أيضًا، وإنْ كان خُصوصُه خُصوصًا مِن وَجْهٍ؛ لأنَّ الصَّبرَ تَحمُّلُ مَشقَّةِ إقامةِ الحقِّ، وما يَعترِضُ المُسلمَ مِن أذًى في نفْسِه في إقامةِ بَعضِ الحقِّ(٤).

فتَخصيصُ هَذا التَّواصي بالذِّكرِ مع انْدراجِه تحتَ التَّواصي بالحقِّ؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتناءِ بِه، وللمُبالَغةِ؛ لأنَّه يدُلُّ على أنَّ الخاصَّ -لكَمالِه- بَلَغَ إلى مَرتبةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٣٢، ٥٣٣).

خَرَجَ بها عن الاندراجِ تحتَ العامِّ على ما عُرِفَ في أمثالِه. أو لأنَّ الأوَّلَ عبارةٌ عن رُتبةِ العِبادةِ الَّتي هيَ فِعلُ ما يَرضَى به اللهُ تعالَى، والثَّانيَ عبارةٌ عن رُتبةِ العُبوديَّةِ الَّتي هي الرِّضا بما فَعَلَ اللهُ تعالَى؛ فإنَّ المُرادَ بالصَّبرِ ليسَ مُجرَّدَ حَبْسِ النَّفْسِ عمَّا تَتشوَّقُ إليهِ مِن فِعلٍ وتَرْكٍ، بلْ هو تَلقِّي ما ورَدَ منه تعالَى بالجَميلِ والرِّضا به ظاهرًا وباطنًا[١].

- وفي قولِه: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ كُرِّرَ فِعلُ التَّواصِي؛ لاختِلافِ المفعولَينِ، وهما ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ و﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾[٢].

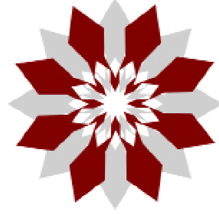
- ولعلَّه سُبحانه وتعالَى إنَّما ذَكَرَ سَببَ الرِّبحِ دونَ الخُسرانِ؛ اكتِفاءً ببَيانِ المَقصودِ، وإشعارًا بأنَّ ما عدَا ما عُدَّ يُؤدِّي إلى خُسرٍ ونقْصِ حظٍّ، أو تَكرُّمًا؛ فإنَّ الإبهامَ في جانبِ الخُسرِ كَرَمٌ[٣].

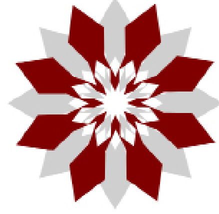


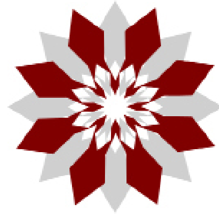
(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٧)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٤، ٢٥٥)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٦).

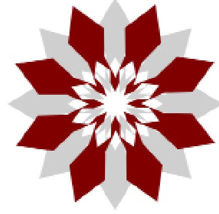


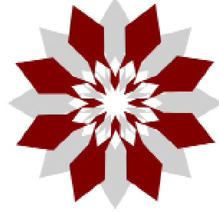


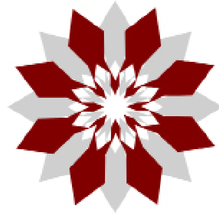


تَفْسِيرُ

سُورَةِ الهُمَزَةِ







سُورةُ الهُمَزَةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ الهُمَزَةِ(١).

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الهُمَزَةِ مكِّيَّةٌ، نقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المُفسِّرينَ(٢).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

ذِكرُ أوصافِ الهالِكين(٣).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

التَّهديدُ الشَّديدُ لِمَن يَعيبُ النَّاسَ، ويَتهَكَّمُ بهم، ويَتطاوَلُ عليهم، بسَببِ كَثرةِ مالِه، وجُحودِه للحَقِّ، وبَيانُ عُقوبتِه.



(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ بذلك؛ لافتِتاحِها بقَولِه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.
وسُمِّيَت أيضًا سُورةَ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾، وسورةَ (الحُطَمة)؛ لوُقوعِ هذه الكَلِمةِ فيها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٥).

(٢) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨١)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٤٣).

الآيات (١-٩)

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ
٣ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ٦ الَّتِي
تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ٩﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَيْلٌ﴾: أي: عَذابٌ وهَلاكٌ. وقيلَ: وَيلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ[١].

﴿هُمَزَةٍ﴾: أي: عيَّابٍ مُغتابٍ للنَّاسِ، وهَمْزُ الإنسانِ: اغتيابُه والطَّعنُ في عِرْضِه، وأصلُ (همز): يدُلُّ على ضَغطٍ وعَصرٍ[٢].

﴿لُّمَزَةٍ﴾: أي: عَيَّابٍ، واللَّمْزُ: الاغتيابُ وتَتبُّعُ المَعايبِ، وأصلُه الإشارةُ بالعَينِ ونَحوِها. وقيل: الهُمَزةُ: الَّذي يَعيبُك في الغَيْبِ، واللُّمَزةُ: الَّذي يَعيبُك في الوَجْهِ. وقيل العَكسُ. وأصلُه اللَّمزُ، وهو العَيبُ[٣].

﴿لَيُنبَذَنَّ﴾: أي: لَيُطرَحَنَّ ويُقذَفَنَّ، وأصلُ (نبذ): يدُلُّ على طَرحٍ وإلقاءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨).
قال الرَّاغبُ: (ومَن قال: ﴿وَيْلٌ﴾: وادٍ في جهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ «ويلًا» في اللُّغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد: مَن قال اللهُ تعالى ذلك فيه فقد استحقَّ مقرًّا مِن النَّارِ، وثبَت ذلك له). ((المفردات)) (ص: ٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٨)، ((الكليات)) =

﴿ٱلۡحُطَمَةِ﴾: أي: النَّارِ؛ سُمِّيَت بذلك لأنَّها تَحطِمُ كُلَّ شَيءٍ وتَكسِرُه، وأصلُ (حطم): يدُلُّ على كَسرِ الشَّيءِ[1].

﴿ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾: جمْعُ فؤادٍ، وهو القلبُ؛ سمِّيَ بذلك لحرارَتِه، أو لتَوقُّدِه، وأصلُ (فأد): يدُلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ[2].

﴿مُّؤۡصَدَةٞ﴾: أي: مُطبَقةٌ مُغلَقةٌ، وأصلُ (وصد): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شَيءٍ[3].

﴿مُّمَدَّدَةِۭ﴾: أي: مَمدودةٍ مُطوَّلةٍ، وأصلُ (مدد): يدُلُّ على اتِّصالِ شَيءٍ بشَيءٍ في استِطالةٍ[4].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بوعيدِ طائفةٍ مِنَ النَّاسِ، فقال تعالى: عَذابٌ وهلاكٌ يومَ القيامةِ لكُلِّ طعَّانٍ عيَّابٍ للنَّاسِ، الَّذي جمَعَ مالًا كثيرًا وأحصى عدَدَه، يَظُنُّ أنَّ ذلك سيُخَلِّدُه في الدُّنيا!

ثمَّ زجر اللهُ سُبحانَه هذا المَغرورَ، وبَيَّن سُوءَ عاقِبَتِه، فقال: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ هذا الإنسانُ! أُقسِمُ لَيُطرَحَنَّ يومَ القيامةِ في النَّارِ الَّتي تَحطِمُ وتَكسِرُ ما يُلقَى فيها!

= للكفوي (ص: ٩٩١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

ثمَّ قال تعالى مُهَوِّلًا أمْرَها، ومُبَيِّنًا بعضَ صِفاتِها: وما الَّذي أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ تلك الحُطَمةُ؟! هي نارُ اللهِ الشَّديدةُ التَّوَقُّدِ بالنَّاسِ والحِجارةِ، الَّتي تَبلُغُ مِن شِدَّتِها قلوبَ الكافِرينَ، وتَنفُذُ إليها، إنَّ تلك النَّارَ مُطبَقةٌ عليهم ومَسدودةٌ بأعمِدةٍ ممدودةٍ في النَّارِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ١﴾.

أي: عَذابٌ شديدٌ وهلاكٌ يومَ القيامةِ لكُلِّ طعَّانٍ عيَّابٍ للنَّاسِ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٦، ٦٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢١)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٢١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٢٥٩).

قال ابنُ جُزَي: (﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ هو -على الجُملةِ- الَّذي يَعيبُ النَّاسَ ويأكُلُ أعراضَهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١٢). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٤).

واختلَف المفسِّرون في الفَرْقِ بيْن الهُمَزةِ واللُّمَزةِ على أقوالٍ:

فقيل: الهُمَزَةُ: الَّذي يَعيبُ النَّاسَ مِن خَلْفِهم، واللُّمَزةُ: مَن يَعيبُهم مُواجَهةً. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والكِرْمانيُّ، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٣٧)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٨٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٧٨).

وممَّن قال بنَحْوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: سَعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٨٥).

وقيل بعَكسِ ذلك؛ فالهُمَزةُ: الَّذي يَطعُنُ في وَجهِ الرَّجُلِ، واللُّمَزةُ: الَّذي يَغتابُه مِن خَلْفِه إذا غاب. يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨١، ١٨٢).

وممَّن قال بنَحْوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: أبو العاليةِ، والحَسَنُ، وعطاءُ بنُ أبي رَباحٍ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٧)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٨).

وقيل: الهَمَّازُ: بالقَولِ، واللَّمَّازُ: بالفِعلِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨١).

=

= وقيل بعَكسِ ذلك؛ فالهَمَّازُ: الَّذي يَعيبُ النَّاسَ ويَطعُنُ عليهم بالإشارةِ والفِعلِ. واللَّمَّازُ: الَّذي يَعيبُهم بقَولِه. وممَّن قال بهذا: أبو القاسِمِ النَّيْسابوريُّ، والسعديُّ، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((إيجاز البيان)) لأبي القاسم النيسابوري (٢/ ٨٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٥).

وممَّن قال بنَحْوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: مجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٠٣).

قال ابنُ عاشور: (هُمَزَةٌ: وَصفٌ مُشتَقٌّ مِنَ الهَمزِ، وهو: أن يَعيبَ أحدٌ أحدًا بالإشارةِ بالعَينِ أو بالشِّدقِ أو بالرَّأسِ، بحَضْرتِه أو عندَ تَوَلِّيه... ولُمَزةٌ: وَصفٌ مُشتَقٌّ مِنَ اللَّمزِ، وهو المواجَهةُ بالعَيبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٧).

وذكر الزَّمَخْشريُّ أنَّ المرادَ: الكَسْرُ من أعراضِ النَّاسِ، والغَضُّ منهم، واغتيابُهم، والطَّعنُ فيهم، وتَبِعَه: البَيضاويُّ، وأبو السُّعودِ، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٦٠).

وقال الفَرَّاءُ وأبو عُبَيدةَ والزَّجَّاجُ والشَّوكانيُّ: الهُمَزَةُ اللُّمَزَةُ: الَّذي يغتابُ النَّاسَ ويَغُضُّهم، والظَّاهِرُ عَدَمُ تَفريقِهم بيْنَهما. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٩)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٣١١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠٢). ويُنظر أيضًا: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٢).

وقيل: الهُمَزةُ اللُّمَزةُ: العيَّابُ الطعَّانُ، وكِلاهما بمعنًى واحِدٍ. وممَّن اختاره: ابنُ السِّكِّيت، والبِقاعيُّ، والعُليميُّ. يُنظر: ((إصلاح المنطق)) لابن السِّكِّيت (ص: ٣٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٣٠).

وقال ابنُ أبي زَمَنِينَ: (هو الَّذي يَطعُنُ على النَّاسِ). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٦٢).

وقال النَّحَّاسُ: (يُقالُ: لَمَزه يَلمِزُه: إذا عابه، ومنه: فُلانٌ هُمَزةٌ لُمَزةٌ، أي: عَيَّابٌ للنَّاسِ، ويقالُ: اللُّمَزةُ هو الَّذي يَعيبُ في سِرٍّ، وإنَّ الهُمَزةَ هو الَّذي يُشيرُ بعَيْنَيه، وهذا كُلُّه يَرجِعُ إلى أنَّه يَعيبُ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٢٠).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٨).

قال الرَّازيُّ بعْدَ أن ذكَرَ الخِلافَ: (واعلَمْ أنَّ جميعَ هذه الوُجوهِ مُتَقاربةٌ راجِعةٌ إلى أصلٍ واحدٍ، وهو الطَّعْنُ وإظهارُ العَيبِ). ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٤). ويُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٦٨).

قيل: نزَلَت هذه السُّورةُ في الأخنَسِ بنِ شَرِيقٍ؛ لأنَّه كان كثيرَ الوَقيعةِ في النَّاسِ، وقيل: في =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ﴾ [التوبة: ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ [القلم: ١١].

﴿ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾.

أي: الَّذي جمَعَ مالًا كثيرًا وأحصى عدَدَه، فهو حريصٌ على حِفْظِه وعَدَمِ نَقْصِه، وألَّا يُنفِقَ منه في سَبيلِ اللهِ[1].

كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا * ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [النساء: ٣٦، ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٨].

﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ۝٣﴾.

أي: يَظُنُّ هذا الحَريصُ على مالِه البَخيلُ به أنَّ ذلك سيُخَلِّدُه في الدُّنيا[2]!

= أُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ، وقيل: في الوَليدِ بنِ المُغيرةِ. قال ابنُ جُزَي: (ولَفْظُها مع ذلك على العُمومِ في كُلِّ مَنِ اتَّصَف بهذه الصِّفاتِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١٢).

وقال الرَّسْعَنيُّ: (ولا مُنافاةَ بيْنَ الأقوالِ، وأن يكونَ نَزَلت بسَبَبِ المذكورينَ، ولَفْظُها عامٌّ يَشملُ مَن نزَلَت فيه وغَيرَه). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤).

قال الزَّمخشريُّ: (أي: طوَّلَ المالُ أمَلَه، ومَنَّاه الأمانيَّ البعيدةَ، حتَّى أصبح لفَرطِ غَفلته وطُولِ أمَلِه يحسَبُ أنَّ المالَ تَرَكه خالِدًا في الدُّنيا لا يموتُ! أو يَعمَلُ من تَشييدِ البُنيانِ المُوثَقِ =

﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ هذا الإنسانُ؛ فلْيَرتَدِعْ عن ذلك! وأُقسِمُ لَيُطرَحَنَّ يومَ القيامةِ في النَّارِ الَّتي تَحطِمُ وتَكسِرُ ما يُلقَى فيها[(١)]!

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥﴾.

أي: وما الَّذي أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ تلك الحُطَمةُ العظيمةُ الشَّأنِ[(٢)]؟!

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦﴾.

أي: هي نارُ اللهِ المُسَعَّرةُ الَّتي تتوقَّدُ بالنَّاسِ والحِجارةِ[(٣)].

= بالصَّخرِ والآجُرِّ وغَرْسِ الأشجارِ وعِمارةِ الأرضِ عَمَلَ مَن يَظُنُّ أنَّ مالَه أبقاه حيًّا، أو هو تعريضٌ بالعَمَلِ الصَّالحِ، وأنَّه هو الَّذي أخلَدَ صاحِبَه في النَّعيمِ، فأمَّا المالُ فما أخلَدَ أحدًا فيه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٥).

وقال البِقاعيُّ: (يجوزُ أن يكونَ ذلك كنايةً عن أنَّه عَمِلَ بانهماكِه في المعاصي، والإعراضِ عن اللهِ عزَّ وجَلَّ، والإقبالِ على التَّوسُّعِ في الشَّهواتِ والأعراضِ الزَّائلاتِ؛ عَمَلَ مَن يظُنُّ أنَّه لا يموتُ!). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٢٤٥).

وقال السعدي: (﴿يَحۡسَبُ﴾ بجَهْلِه ﴿أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾ في الدُّنيا؛ فلذلك كان كَدُّه وسَعْيُه كُلُّه في تنميةِ مالِه الَّذي يظُنُّ أنَّه ينَمِّي عُمُرَه، ولم يَدْرِ أنَّ البُخلَ يَقصِفُ الأعمارَ، ويُخرِبُ الدِّيارَ، وأنَّ البِرَّ يَزيدُ في العُمُرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤).

وقال ابنُ عُثَيمين: (يعني: يظُنُّ هذا الرَّجُلُ أنَّ مالَه سيُخَلِّدُه ويُبْقيه؛ إمَّا بجِسْمِه، وإمَّا بذِكْرِه... أي: أخلَدَ ذِكْرَه، أو أطالَ عُمُرَه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٩، ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٧).

كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤].

﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧)﴾.

أي: الَّتي تبلُغُ مِن شِدَّتِها قُلوبَ الكافِرينَ وتَنفُذُ إليها[١]!

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الاطِّلاعُ على الفُؤادِ مَظِنَّةَ الموتِ، وفي الموتِ راحةٌ مِنَ العذابِ؛ أشار إلى خُلودِهم فيها، وأنَّهم لا يموتونَ ولا ينقَطِعُ عنهم العذابُ؛ فقال[٢]:

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (٨)﴾.

أي: إنَّ تلك النَّارَ مُطبَقةٌ على أولئك الَّذين تقدَّمَ ذِكرُ صِفاتِهم، ومُغلَقةٌ أبوابُها عليهم[٣].

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (٩)﴾.

أي: مُطبَقةٌ ومَسدودةٌ بأعمِدةٍ ممدودةٍ في النَّارِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٢)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٧).

قال ابنُ عطيَّةَ: (يحتَمِلُ أن يكونَ المعنى: أنَّها لا يَتجاوَزُها أحدٌ حتَّى تأخُذَه بواجِبِ عقيدةِ قَلْبِه ونيَّتِه، فكأنَّها مُطَّلِعةٌ على القُلوبِ بإطْلاعِ اللهِ تعالى إيَّاها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٢)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٦)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٥٣)، ((تفسير =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ: حكى اللهُ سُبحانَه وتعالى ذلك علينا، وبيَّنَه لنا في هذه السُّورةِ لا لمجرَّدِ أنْ نتلوَه بألسِنَتِنا، أو نَعرِفَ معناه بأفهامِنا، لكنَّ المرادَ أنْ نَحذَرَ مِن هذه الأوصافِ الذَّميمةِ: عَيبِ النَّاسِ بالقَولِ، وعَيبِ النَّاسِ بالفِعلِ، والحِرْصِ على المالِ، حتَّى كأنَّ الإنسانَ إنَّما

= السعدي)) (ص: ٩٣٤).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ معنى ذلك: أنَّ الأبوابَ مُوصَدةٌ بعَمَدٍ: الزمخشريُّ، وابنُ القيِّمِ، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السَّابقة.

قال الزمخشري: (والمعنى: أنَّه يُؤكِّدُ يَأسَهُم مِن الخُروجِ وتَيَقُّنَهم بحَبسِ الأبَدِ، فتُؤصَدُ عليهم الأبوابُ، وتُمدَّدُ على الأبوابِ العُمُدُ؛ استيثاقًا في استِيثاقٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٦).

ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٣٧).

وقال السمعاني: (أَولى الأقاويلِ هو أنَّها مُطبَقةٌ بعَمَدٍ، يعني: مسدودةً). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٨١).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿مُّمَدَّدَةِۭ﴾ أي: ممدودةٍ على جميعِ النَّواحي والزَّوايا؛ حتَّى لا يتمكَّنَ أحدٌ مِن فَتْحِها أو الخروجِ منها). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٨).

وقال الواحديُّ في المُرادِ بالعَمَدِ: (الَّذي عليه الأكثرُ: أنَّها أوتادُ الأَطباقِ الَّتي تُطبَقُ على أهلِ النَّارِ). ((البسيط)) (٢٤/ ٣١٥).

وقال ابنُ عاشور: (قوله: ﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ حالٌ: إمَّا مِن ضَميرِ «عليهم» أي: في حالِ كَونِهم في عَمَدٍ، أي: مَوثُوقِينَ في عَمَدٍ... وإمَّا حالٌ مِن ضَميرِ «إنَّها»، أي: أنَّ النَّارَ المُوقَدةَ في عَمَدٍ، أي: مُتوسِّطةٌ عَمدًا كما تكونُ نارُ الشِّواءِ إذ تُوضَعُ عَمَدٌ وتُجعَلُ النَّارُ تَحتَها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤١، ٥٤٢).

وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ أنَّهم مُوثَقونَ في عَمَدٍ: البيضاويُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٤٨).

وقيل: المعنى: أنَّهم يُعذَّبونَ بعَمَدٍ في النَّارِ، واللهُ أعلَمُ بصفةِ تعذيبِهم بها. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٦).

خُلِقَ للمالِ لِيَخلُدَ له، أو يَخلُدَ المالُ له[١]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ هذانِ الوَصفانِ مِن مُعاملةِ أهلِ الشِّركِ للمُؤمِنينَ يومَئذٍ، ومَن عامَلَ مِنَ المسلمينَ أحدًا مِن أهلِ دينِه بمِثلِ ذلك، كان له نصيبٌ مِن هذا الوَعيدِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ ذكَرَه بلَفظِ (النَّبذِ) الدَّالِّ على الإهانةِ؛ لأنَّ الكافِرَ كان يَعتقِدُ أنَّه مِن أهلِ الكَرامةِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ الفائِدةُ في ذِكْرِ جَهنَّمَ بهذا الاسمِ هاهنا مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: الاتِّحادُ في الصُّورةِ، كأنَّه تعالى يقولُ: إنْ كُنتَ هُمَزةً لُمَزةً، فوراءَك الحُطَمةُ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ الهامِزَ بكَسْرِ عَينٍ لِيَضعَ قَدْرَه فيُلقيَه في الحضيضِ، فيقولُ تعالى: وراءَك الحُطَمةُ، وفي الحَطْمِ كَسرٌ، فالحُطَمةُ تَكسِرُك وتُلْقيك في حَضيضِ جَهنَّمَ، لكِنَّ الهُمَزةَ ليس إلَّا الكَسرَ بالحاجِبِ، أمَّا الحُطَمةُ فإنَّها تكسِرُ كَسرًا لا تُبْقي ولا تَذَرُ!

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ الهمَّازَ اللَّمَّازَ يأكُلُ لحمَ النَّاسِ، والحُطَمةَ أيضًا اسمٌ للنَّارِ؛ مِن حيثُ إنَّها تأكُلُ الجِلدَ واللَّحمَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- تأمَّلْ قولَه تعالى: ﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾ مع فِعْلِ هذا الفاعلِ ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، فـ «حُطَمَةٌ» «هُمَزَةٌ لُمَزَةٌ» على وزنٍ واحدٍ؛ لِيكونَ الجزاءُ مُطابقًا للعَمَلِ حتَّى في اللَّفظ[(١)]!

٤- قال تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾، ووَصْفُ نارٍ بـ (مُوقَدة) يُفيدُ أنَّها لا تَزالُ تَلتهِبُ ولا يَزولُ لَهيبُها؛ فليس الوصْفُ بالمُوقَدةِ هنا تأكيدًا[(٢)].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ يُفيدُ المبالغةَ في العَذابِ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ قَولَه: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ يَقتضي أنَّه موضِعٌ له قَعرٌ عَميقٌ جِدًّا كالبئرِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه لو شاء يجعَلُ ذلك الموضِعَ بحيثُ لا يكونُ له بابٌ، لكِنَّه بالبابِ يُذَكِّرُهم الخروجَ؛ فيَزيدُ في حَسْرتِهم.

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّه قال: ﴿عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾، ولم يقُلْ: (مُؤصَدةٌ عليهم)؛ لأنَّ قَولَه: ﴿عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ يُفيدُ أنَّ المقصودَ أوَّلًا كونُهم بهذه الحالةِ، وقَولَه: (مُؤصَدةٌ عليهم) لا يفيدُ هذا المعنى بالقَصْدِ الأوَّلِ[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾

- يَجوزُ أنْ يكونَ السَّببُ في نُزولِها خاصًّا والوعيدُ عامًّا؛ لِيَتناوَلَ كلَّ مَن باشَرَ ذلك القَبيحَ، ولِيَكونَ جاريًا مَجرى التَّعريضِ بالواردِ فيه؛ فإنَّ ذلك أزجَرُ له وأنْكى فيه، فإذا كان الواردُ فيه الأخنَسَ أو أُميَّةَ أو الوليدَ، ويُجاءُ باللَّفظِ على العُمومِ تَعريضًا، كان أزجَرَ له وأنْكى فيه؛ إذ لم يُصرَّحْ باسْمِهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٦).

حتَّى يَلبَسَ لِمَن كافَحَه به جِلدَ النَّمِر، بل يَبعَثُه على الفِكرِ في أحوالِ نفْسِه، وأنَّه هل دَخَلَ في هذا العامِّ أوَّلَ النَّاسِ بما اغتابَ به خَيرَ البَريَّةِ ونقَصَ مِن حقِّه[١]؟

- كَلمةُ (وَيْلٌ له) دُعاءٌ على المَجرورِ اسمُه باللَّامِ بأنْ يَنالَه الوَيلُ، وهو سُوءُ الحالِ، والدُّعاءُ هنا مُستعمَلٌ في الوعيدِ بالعِقابِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ ...﴾، وقال في سُورةِ (الأنبياءِ): ﴿وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ﴾ [الأنبياء: ١٨]؛ لأنَّ ثَمَّةَ قالوا: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٤]، فقال: ﴿وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ﴾، وهاهنا نكَّرَ؛ لأنَّه لا يَعلَمُ كُنْهَه إلَّا اللهُ[٣].

- وكَلمةُ (كلّ) تُشعِرُ بأنَّ المُهدَّدينَ بهذا الوعيدِ جَماعةٌ، وهم الَّذين اتَّخَذوا هَمْزَ المسلِمينَ ولَمْزَهم دَيدنًا لهم، فعَمَّ حُكمُها الَّذين نَزَلَتْ فيهم السُّورةُ ومَن كان على شاكِلتِهم مِن المشركينَ ولم تُذكَرْ أسْماؤهمْ[٤].

- قولُه: ﴿هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ بِناءُ (فُعَلَة) مِن أبْنيةِ المُبالَغةِ، يدُلُّ على كَثرةِ صُدورِ الفِعلِ المُصاغِ منه، وعلى تَمكُّنِ الوصْفِ مِن الموصوفِ، وأنَّ ذلك صار عادةً لِصاحِبِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٥)، ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٥، ٥٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٦، ٥٣٧).

- وقَعَ قولُه: ﴿هُمَزَةٍ﴾ وَصْفًا لمَحذوفٍ تَقديرُه: وَيلٌ لكلِّ شَخصٍ هُمَزةٍ، فلمَّا حُذِفَ مَوصوفُه صار الوصْفُ قائمًا مَقامَه، فأُضيفَ إليه (كلّ)(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ أُتبِعَ قولُه: ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ بقولِه: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾؛ لزيادةِ تَشنيعِ صِفتَيْه الذَّميمتَينِ بصِفةِ الحِرصِ على المالِ، وإنَّما يَنشأُ ذلك عن بُخلِ النَّفْسِ، والتَّخوُّفِ مِن الفقْرِ، والمَقصودُ مِن ذلك دُخولُ أولئك الَّذين عُرِفوا بهَمْزِ المسلمينَ ولَمْزِهم الَّذين قِيل: إنَّهم سَببُ نُزولِ السُّورةِ؛ لتَعيينِهم في هذا الوعيدِ(٢).

- وتَنكيرُ ﴿مَالًا﴾؛ للتَّفخيمِ والتَّكثيرِ المُوافقِ لقَولِه تعالَى: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾(٣).

- قولُه: ﴿جَمَعَ مَالًا﴾ قُرِئَ ﴿جَمَّعَ﴾ بالتَّشديدِ(٤)؛ مُزاوِجًا لقولِه: (عَدَّدَهُ)، وهو مُبالَغةٌ في (جَمَعَ)، وعلى قِراءةِ التَّخفيفِ دلَّ تَضعيفُ (عَدَّدَهُ) على معْنى تَكلُّفِ جَمْعِه بطَريقِ الكِنايةِ؛ لأنَّه لا يُكرِّرُ عدَّه إلَّا لِيَزيدَ جَمْعَه(٥).

- ومعْنى (عَدَّدَهُ): أكثَرَ مِن عَدِّه، أي: حِسابِه؛ لِشدَّةِ وَلَعِه بجَمْعِه؛ فالتَّضعيفُ للمُبالَغةِ في (عدَّ) ومُعاوَدتِه(٦).

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ حالًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨).

(٤) قرأ أبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ وحَمزةُ والكِسائيُّ وخلَفٌ ورَوحٌ بتَشديدِ الميمِ، وقرأ الباقونَ بتَخفيفِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٤٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٧٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٨).

مِن ﴿هُمَزَةٍ﴾؛ فيكونَ مُستعمَلًا في التَّهكُّمِ عليه في حِرصِه على جمْعِ المالِ وتَعديدِه؛ لأنَّه لا يُوجَدُ مَن يَحسَبُ أنَّ مالَه يُخلِدُه، فيكونَ الكلامُ مِن قَبيلِ التَّمثيلِ، أو تكونَ الحالُ مُرادًا بها التَّشبيهُ، وهو تَشبيهٌ بَليغٌ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ مُستأنَفةً، والخبَرُ مُستعمَلًا في الإنكارِ، أو على تَقديرِ هَمزةِ استفهامٍ مَحذوفةٍ مُستعمَلًا في التَّهكُّمِ أو التَّعجيبِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ مُستأنَفةً استئنافًا بَيانيًّا واقعًا في سُؤالٍ، كأنَّه قِيل: ما بالُه يَجمَعُ المالَ ويَهتَمُّ به[1]؟

- وإظهارُ قولِه: ﴿مَالَهُۥ﴾ في مَوقعِ الإضمارِ؛ لِزيادةِ التَّقريرِ[2].

- وجِيءَ بصِيغةِ المُضيِّ في ﴿أَخْلَدَهُۥ﴾ لتَنزيلِ المُستقبَلِ مَنزلةَ الماضي؛ لتَحقُّقِه عندَه، وذلك زِيادةٌ في التَّهكُّمِ به بأنَّه مُوقِنٌ بأنَّ مالَه يُخلِدُه حتَّى كأنَّه حَصَل إخلادُه وثَبَت[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ * نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾

- ﴿كَلَّآ﴾ إبطالٌ لأنْ يكونَ المالُ مُخْلِدًا لهم، وزجْرٌ عن التَّلبُّسِ بالحالةِ الشَّنيعةِ الَّتي جَعَلَتْهم في حالِ مَن يَحسَبُ أنَّ المالَ يُخلِدُ صاحِبَه، أو إبطالٌ للحِرصِ في جمْعِ المالِ جمْعًا يَمنَعُ به حُقوقَ اللهِ في المالِ مِن نَفَقاتٍ وزَكاةٍ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٧٩).

- قولُه تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عمَّا تَضمَّنَتْه جُملةُ ﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾ مِن التَّهكُّمِ والإنكارِ، وما أفادَه حرْفُ الزَّجرِ مِن معْنى التَّوعُّدِ، واللَّامُ جَوابُ قَسَمٍ مَحذوفٍ. وهذا الاستئنافُ مُبيِّنٌ لِعلَّةِ الرَّدعِ، أيْ: واللهِ لَيُطرَحَنَّ -بسَببِ تَعاطيهِ للأفعالِ المَذكورةِ- في الحُطَمةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ بعْدَ ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ مُقابَلةٌ لَفظيَّةٌ رائعةُ البلاغةِ؛ فإنَّه لَمَّا وَسَمَه بهذه السِّمةِ بصِيغةٍ دلَّت على أنَّها راسخةٌ فيه ومُتمكِّنةٌ منه، أتْبَعَ المُبالَغةَ المُتكرِّرةَ في الهُمَزةِ واللُّمَزةِ بوَعيدِه بالنَّارِ الَّتي سمَّاها الحُطَمةَ؛ لِما يُكابِدُ فيها مِن هَولٍ، ويَلقى فيها مِن عَذابٍ، واختارَ في تَعيينِها صِيغةَ مُبالَغةٍ على وَزْنِ الصِّيغةِ الَّتي ضمَّنَها الذَّنْبَ المُقترَفَ حتَّى يَحصُلَ التَّعادُلُ بيْن الذَّنْبِ والجزاءِ، فهذا الَّذي ضَرِيَ بالذَّنْبِ[٢] جَزاؤه هذه الحُطَمةُ الَّتي هي ضاريةٌ أيضًا تَحطِمُ كلَّ ما يُلْقى فيها[٣].

- والظَّاهرُ أنَّ اللَّامَ في ﴿ٱلۡحُطَمَةِ﴾ لتَعريفِ العهْدِ؛ لأنَّه اعتُبِرَ الوصْفُ عَلَمًا بالغَلَبةِ على شَيءٍ يَحطِمُ، وأُرِيدَ بذلك جهنَّمُ، وأنَّ إطلاقَ هذا الوصْفِ على جهنَّمَ مِن مُصطلَحاتِ القرآنِ، وليس في كَلامِ العرَبِ إطلاقُ هذا الوصْفِ على النَّارِ[٤].

- وجُملةُ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ في موضعِ الحالِ مِن قولِه: ﴿ٱلۡحُطَمَةُ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٩).

(٢) ضَرِيَ بالشَّيءِ: أي: اعتادَه ولَهِجَ به. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٨٦)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٧٩٥)، ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٦٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٨٠، ٥٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٠).

والرَّابطُ إعادةُ لَفظِ الحُطَمةِ، وذلك إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ للتَّهويلِ. وأيضًا ما فيها مِن الاستفهامِ، وفِعلِ الدِّرايةِ يُفيدُ تَهويلَ الحُطَمةِ، ببَيانِ أنَّها ليستْ مِن الأُمورِ الَّتي تَنالُها عُقولُ الخلْقِ(١).

- وجُملةُ ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ﴾ جَوابٌ عن جُملةِ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴾، مُفيدٌ مَجموعُهما بَيانَ الحُطَمةِ ما هيَ، ومَوقعُ الجُملةِ مَوقعُ الاستئنافِ البَيانيِّ، والتَّقديرُ هي -أي: الحُطَمةُ- نارُ اللهِ، فحُذِفَ المُبتدَأُ مِن الجُملةِ جَرْيًا على طَريقةِ استعمالِ أمثالِه مِن كلِّ إخبارٍ عن شَيءٍ بعْدَ تَقدُّمِ حَديثٍ عنه وأوصافٍ له(٢).

- وإضافةُ ﴿ نَارُ ﴾ إلى اسمِ الجَلالةِ ﴿ٱللَّهِ ﴾ للتَّرويعِ بها بأنَّها نارٌ خَلَقَها القادرُ على خلْقِ الأُمورِ العَظيمةِ؛ ففي إضافتِها إليهِ سُبحانَه، ووَصْفِها بالإيقادِ مِن تَهويلِ أمْرِها ما لا مَزيدَ عليهِ(٣).

- وكذلك وُصِفَت ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ﴾ وَصْفًا ثانيًا بـ ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ﴾، والاطِّلاعُ يَجوزُ أنْ يكونَ بمعْنى الإتيانِ مُبالَغةً في (طَلَعَ)، أي: الإتيانُ السَّريعُ بقوَّةٍ واستيلاءٍ؛ فالمعْنى: الَّتي تَنفُذُ إلى الأفئدةِ فتُحرِقُها في وَقتِ حَرْقِ ظاهرِ الجسَدِ(٤).

- وتَخصيصُ الأفئدةِ بالذِّكرِ؛ لأنَّ الفُؤادَ ألْطَفُ ما في البدَنِ وأشدُّه تَألُّمًا بأدْنى أذًى يَمَسُّه، فكيف إذا اطَّلَعَت عليه نارُ جهنَّمَ واستَولَتْ عليه؟! أو لأنَّها مَواطنُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

وتقدَّم تعريفُ متابعةِ الاستعمالِ (ص: ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤١).

الكفْرِ، والعَقائدِ الفاسِدةِ، والنِّيَّاتِ الخبيثةِ، ومَنشأُ الأعمالِ القَبيحةِ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ * فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ هذه الجُملةُ يَجوزُ أنْ تكونَ صِفةً ثالثةً لـ ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ [الهمزة: ٦] بدونِ عاطفٍ. ويَجوزُ أنْ تكونَ مُستأنَفةً استئنافًا ابتدائيًّا، وتأكيدُها بـ(إنَّ)؛ لتَهويلِ الوعيدِ[٢] والتَّأكيدُ أيضًا لأنَّهم يُكذِّبونَ بها[٣].

- قولُه: ﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ المُمدَّدةُ: المَجعولةُ طَويلةً جدًّا، وهو اسمُ مَفعولٍ مِن (مدَّده)، إذا بالَغَ في مَدِّه، أي: الزِّيادةِ فيه[٤].

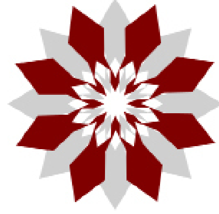


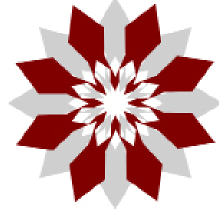
(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤١، ٥٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٩).

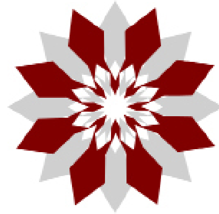
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤١).

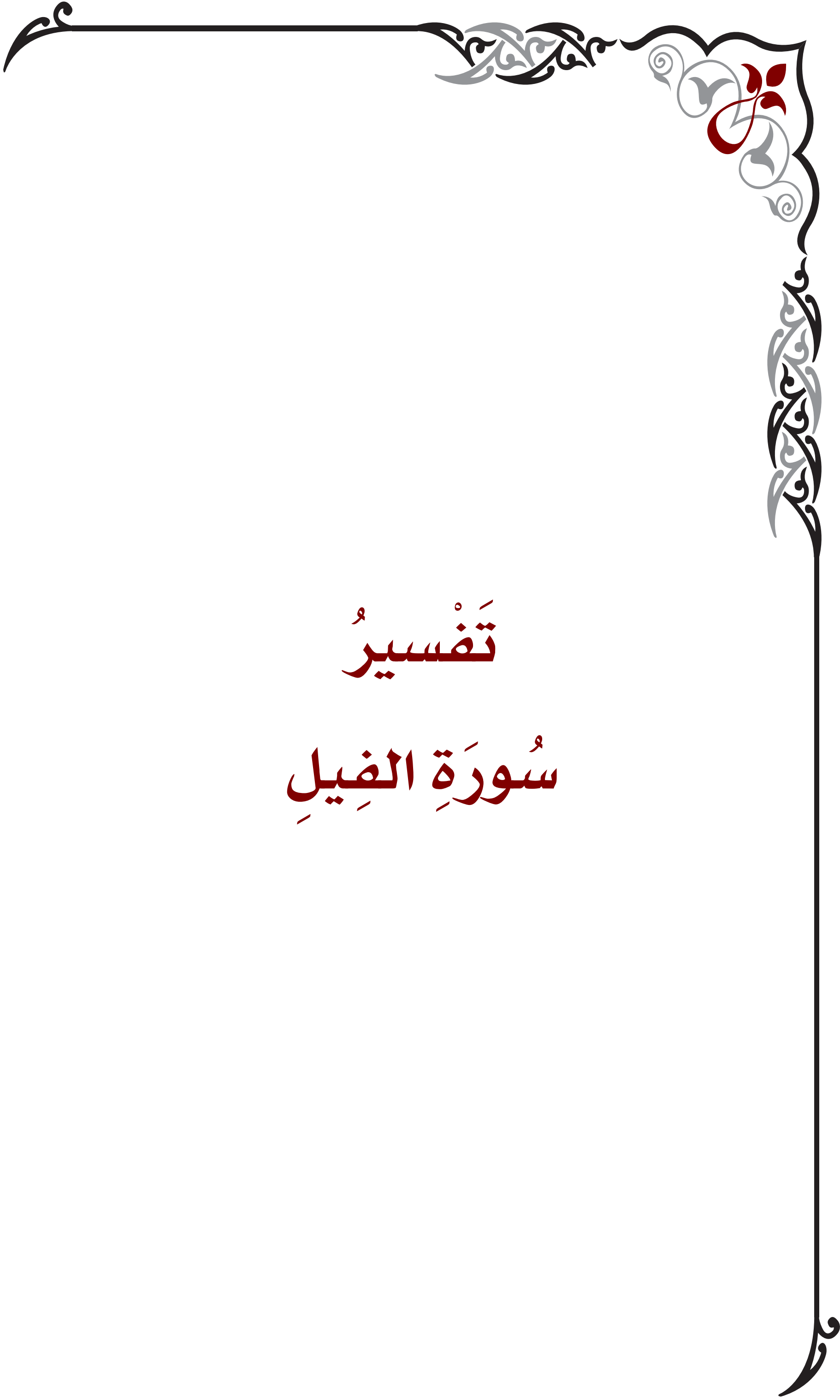
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٢).



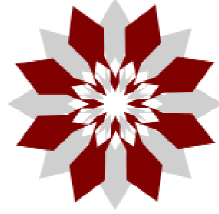


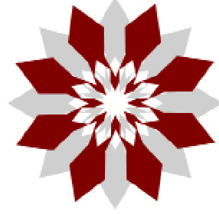


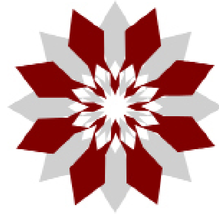


تَفْسِيرُ

سُورَةِ الفِيلِ







سُورةُ الفِيلِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الفِيلِ)[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الفِيلِ مكِّيَّةٌ، نقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المُفسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

١- بَيانُ ما فُعِلَ بأصحابِ الفيلِ[٣].

٢- تَثبيتُ المؤمنينَ على الحَقِّ[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

بَيانُ جَزاءِ أصحابِ الفِيلِ، ومَكْرِهم، ورَدِّ كَيدِهم في نَحرِهم، وما نَزلَ بهم مِن العُقوبةِ، وما آلَ إليه أمْرُهم مِن سُوءِ العاقِبةِ.

---

(١) سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بذلك؛ لذِكرِ حادِثةِ الفيلِ فيها في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.
يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٤).
وسُمِّيتْ أيضًا: سورةَ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٣).

(٢) ممَّن نقَلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨٧)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٥٠٩).

الآيات (١-٥)

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿كَيْدَهُمْ﴾: أي: مَكْرَهم، وسَعْيَهم في تخريبِ الكعبةِ، واستِباحةِ أهلِها، وأصلُ (كيد): يدُلُّ على مُعالَجةٍ لشَيءٍ بشِدَّةٍ، وكلُّ شُيءٍ تُعالِجُه فأنتَ تَكيدُه[١].

﴿تَضْلِيلٍ﴾: أي: تَضييعٍ وبُطلانٍ وذَهابٍ، وأصلُ (ضلل): يدُلُّ على ضَياعِ الشَّيءِ وذَهابِه في غيرِ حقِّه[٢].

﴿أَبَابِيلَ﴾: أي: كثيرةً مُتفَرِّقةً يَتبَعُ بَعضُها بَعضًا، كقَطيعِ الإبِلِ، قيل: واحِدُها إبَّالةٌ وإبُّولٌ وإبِّيلٌ. وقيل: هو جَمْعٌ لا واحِدَ له[٣].

﴿سِجِّيلٍ﴾: أي: طينٍ مُتحَجِّرٍ، وقيل: أصلُها فارسيٌّ (سَنك وكِل) أي: الحَجَر والطِّين[٤].

﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾: أي: كزَرعٍ وتِبْنٍ أكلَتْه الدَّوابُّ فراثَتْه، فيَبِسَ وتفَرَّقَت أجزاؤُه، أو كوَرَقِ زَرْعٍ قد أكَلَتْ منه الدَّوابُّ وبَقِيَ منه بَقايا، أو أكَلَتْ حَبَّه فبَقِيَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٥٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين (٢/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٥٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٧).

بِدونِ حَبِّه، وقيل: المرادُ بالعَصفِ قِشرُ البُرِّ، يعني: الغِلافَ الَّذي تكونُ فيه حَبَّةُ القَمحِ. وأصلُ (عصف): يدُلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُخاطِبًا نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قائلًا له: ألَمْ تَرَ -يا محمَّدُ- كيف فَعَل رَبُّك بجَيشِ أَبرَهةَ الَّذين صَحِبوا الفِيلَ لِهَدْمِ الكَعبةِ؟ ألم يَجعَلِ اللهُ سَعْيَهم في هَدْمِ الكَعبةِ في ضلالٍ وضَياعٍ؟ وأرسَلَ عليهم جَماعاتٍ كثيرةً مِنَ الطَّيرِ يَتبَعُ بَعضُها بعضًا، ترميهم بحِجارةٍ مِن طينٍ صُلبٍ يابسٍ؛ فجعَلَهم اللهُ مِثلَ زَرعٍ أكلَتْه الدَّوابُّ فراثَته، فيَبِسَ وتفَرَّقَت أجزاؤُه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾.

أي: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- كيف فَعَل رَبُّك بجَيشِ أَبرَهةَ الحَبَشيِّ مَلِكِ اليَمَنِ، الَّذين صَحِبوا الفِيلَ، واتَّجَهوا إلى مكَّةَ لِهَدْمِ الكَعبةِ[2]؟

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

قال البيضاوي: (الخِطابُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو وإنْ لم يَشهَدْ تلك الوقعةَ لكنْ شاهَدَ آثارَها، وسَمِعَ بالتَّواتُرِ أخبارَها، فكأنَّه رَآها). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٩). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٥).

وقال أبو السعود: (والرُّؤيةُ عِلميَّةٌ. أي: ألم تَعلَمْ عِلمًا رَصينًا متاخمًا للمُشاهَدةِ والعَيانِ، باستِماعِ الأخبارِ المُتواتِرةِ، ومُعايَنةِ الآثارِ الظَّاهِرةِ). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٠).

وقال ابن جرير: (ألم تَنظُرْ يا محمَّدُ بعَيْنِ قلبِك، فتَرى بها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٧).=

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا فَتَح اللهُ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَكَّةَ، قام في النَّاسِ فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ثمَّ قال: إنَّ اللهَ حَبَس عن مَكَّةَ الفِيلَ، وسَلَّط عليها رَسولَه والمؤمِنينَ، فإنَّها لا تَحِلُّ لأحدٍ كان قَبْلي، وإنَّها أُحِلَّت لي ساعةً مِن نهارٍ، وإنَّها لا تَحِلُّ لأحدٍ بَعْدي))(١).

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾.

أي: ألم يَجعَلِ اللهُ سَعْيَهم في هَدْمِ الكَعبةِ، وصَرْفِ النَّاسِ عنها: في ضلالٍ وضَياعٍ؛ فلم يَتِمَّ لهم مَكْرُهم الَّذي اجتَهَدوا في حُصولِه(٢)؟

= وقال ابن عاشور: (ويجوزُ أن تكونَ الرُّؤيةُ بَصريَّةً بالنِّسبةِ لِمَن تَجاوَزَ سِنُّه نَيِّفًا وخمسينَ سَنةً عندَ نُزولِ الآيةِ، ممَّن شَهِدَ حادثَ الفيلِ غُلامًا أو فتًى). يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٥).
وقال القرطبي: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولكِنَّه عامٌّ، أي: ألَمْ تَرَوا ما فعَلْتُ بأصحابِ الفيلِ؟ أي: قد رأيتُم ذلك، وعرَفْتُم مَوضِعَ مِنَّتي عليكم، فما لَكم لا تؤمِنونَ؟!). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨٧). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠٥).
وقال ابنُ تيميَّةَ: (قد تواتَرَت قِصَّةُ أصحابِ الفيلِ، وأنَّ أهلَ الحَبَشةِ النَّصارى سارُوا بجَيشٍ عظيمٍ، معهم فيلٌ؛ لِيَهدِموا الكَعبةَ لَمَّا أهان بعضُ العَرَبِ كنيستَهم الَّتي باليَمَنِ، فقَصَدوا إهانةَ الكعبةِ، وتعظيمَ كنايسِهم؛ فأرسلَ اللهُ عليهم طيرًا أهلَكَهم، وكان ذلك عامَ مَولِدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((الجواب الصحيح)) (٦/ ٥٥). ويُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٩٤).
وقال الرسعني: (كان مِن حديثِ أصحابِ الفيلِ فيما ذكَر بعضُ أهلِ العلمِ عن سعيدِ بنِ جبيرٍ وعكرمةَ عن ابنِ عباسٍ وعمَّن لقي مِن علماءِ أهلِ اليمنِ وغيرِهم: أنَّ أبرهةَ بنَ الصباحِ الأشرمِ -مَلِكَ اليمنِ- بنَى كنيسةً بصنعاءَ، وسمَّاها «القُلَّيس»، وأراد أنْ يصرِفَ إليها حجَّ العربِ، فخرَج رجلٌ مِن كنانةَ فقعَد فيها [أي: أحدَث] ليلًا، فبلَغ أبرهةَ ذلك، فقال: مَن اجترأَ على ذلك؟ فقيل: رجلٌ مِن العربِ مِن أهلِ ذلك البيتِ، سمِع بالذي قلتَ، فصنَع هذا، فحلَف ليسيرَنَّ إلى الكعبةِ حتَّى يهدمَها). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٣٢).
وقال ابنُ عطيَّةَ: (الجُمهورُ على أنَّه فيلٌ واحدٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٣).

(١) رواه البخاريُّ (٢٤٣٤)، ومسلمٌ (١٣٥٥) مطوَّلًا.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾.

أي: وأرسَلَ اللهُ عليهم جماعاتٍ كثيرةً مُتفرِّقةً مِنَ الطُّيورِ يَتبَعُ بَعضُها بعضًا، فَوجًا بعْدَ فَوجٍ[1].

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾.

أي: تَرمي تلك الطُّيورُ أصحابَ الفِيلِ بحِجارةٍ مِن طينٍ صُلبٍ يابِسٍ[2].

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾.

أي: فجعَلَهم اللهُ مِثلَ زَرعٍ أكلَتْه الدَّوابُّ فراثَتْه، فيَبِسَ وتفَرَّقَت أجزاؤُه[3]!

= (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٢٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٣٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٤).

وممَّن ذهب إلى المعنى المذكور: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، وابنُ عطيَّةَ، والرَّسْعَنيُّ، والخازنُ، والعُلَيميُّ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٤)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٣٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٧٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠٦).

وقيل: جعَلَهم كوَرَقِ الزَّرْعِ الَّذي جَفَّ وأُكِلَ: أي: وقَعَ فيه الأُكَالُ، وهو أن يأكلَه الدُّودُ ويجوفَه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٥٨).

وقيل: المعنى: كزَرعٍ أكلَتْه الدَّوابُّ وداسَتْه بأقدامِها حتى تفتَّتَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥١)، ((تفسير =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في مُجْمَلِ هذه السُّورةِ العظيمةِ بيانُ ما فُعِلَ بأصحابِ الفيلِ، وأنَّ كيدَهم صار في نُحورِهم، وهكذا كلُّ مَن أراد الحقَّ بسوءٍ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يَجعَلُ كَيدَه في نَحْرِه[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ فيه تذكيرٌ بأنَّ اللهَ تعالى غالِبٌ على أمْرِه[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ تضَمَّن التَّذكيرَ بأنَّ الكعبةَ حَرَمُ اللهِ، وأنَّ اللهَ حماه ممَّن أرادوا به سُوءًا[(٣)].

٢- في تسليطِه سُبحانَه لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على هذا البلدِ، وتمليكِه إيَّاه ولأُمَّتِه مِن بعْدِه: ما دلَّ على صِحَّةِ نُبُوَّته؛ فإنَّ اللهَ حَبَسَ عنه مَن يريدُه بالأذى، وأهلَكَه؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ

= ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٠).

وقيل: المأكولُ يعني البالي. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقَنْديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٥٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٢٢).

قال ابنُ جُزَي: (وفي تَشْبيهِهم به ثلاثةُ أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّه شَبَّهَهم بالتِّبنِ إذا أكلَتْه الدَّوابُّ ثمَّ راثَتْه، فجَمَع التَّلَفَ والخِسَّةَ، ولكِنَّ اللهَ كَنَّى عن هذا على حَسَبِ أَدَبِ القُرآنِ.

الثَّاني: أنَّه أراد وَرَقَ الزَّرعِ إذا أكلَتْه الدُّودُ.

الثَّالِثُ: أنَّه أراد كعَصْفٍ مأكولٍ زَرْعُه وبَقِيَ هو لا شَيءَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٤٣، ٥٤٤).

* ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ * تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ * فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾، ثُمَّ سَلَّطَ عليه رَسولَه وأُمَّتَه، كما قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ حَبَسَ عن مكَّةَ الفيلَ، وسَلَّطَ عليها رسولَه والمؤمنينَ))[١]؛ فإنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأُمَّتَه إنَّما كان قَصْدُهم تعظيمَ البَيتِ وتكريمَه واحترامَه؛ ولهذا أنكَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ الفتحِ على مَن قال: اليومَ تُستَحَلُّ الكعبةُ! وقال: ((هذا يومٌ يُعَظِّمُ الله فيه الكعبةَ))[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ قال: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾، مع أنَّ هذه الواقِعةَ وقَعَت قبْلَ المبعَثِ بزمانٍ طويلٍ؟!

الجوابُ: المرادُ مِن الرُّؤيةِ العِلمُ والتَّذكيرُ، وهو إشارةٌ إلى أنَّ الخبَرَ به متواتِرٌ، فكان العِلمُ الحاصِلُ به ضروريًّا مُساويًا في القوَّةِ والجَلاءِ للرُّؤيةِ؛ ولهذا السَّبَبِ قال لغَيرِه على سَبيلِ الذَّمِّ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ [يس: ٣١]، لا يُقالُ: فلِمَ قال: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]؛ لأنَّ الفَرقَ أنَّ ما لا يُتصَوَّرُ إدراكُه لا يُستَعمَلُ فيه إلَّا العِلمُ؛ ككَونِه قادرًا، وأمَّا الَّذي يُتصَوَّرُ إدراكُه كفِرارِ الفِيلِ فإنَّه يجوزُ أن يُستعمَلَ فيه الرُّؤيةُ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ لم يتكَرَّرْ في القُرآنِ ذِكرُ إهلاكِ أصحابِ الفيلِ خِلافًا لقَصَصِ غَيرِهم مِن الأُمَمِ؛ لوَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ إهلاكَ أصحابِ الفيلِ لم يكُنْ مِن أجْلِ تكذيبِ رَسولٍ مِنَ اللهِ.

الوَجهُ الثَّاني: ألَّا يتَّخِذَ منه المشرِكونَ غُرورًا بمكانةٍ لهم عندَ اللهِ، كغُرورِهم

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٩٤).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٤٢٨٠) مِن حديثِ عُروةَ بنِ الزُّبَيرِ.

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٩).

بقَولِهم المحكيِّ في قَولِه تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩] الآيةَ، وقَولِه: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١) [الأنفال: ٣٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾، فيه سؤالٌ: أنَّ أصحابَ هذا الجَيشِ نَصارى، وهُم أهْلُ دِينٍ وكِتابٍ، وأهلُ مكَّةَ وَثَنِيُّونَ لا دِينَ لهم، والكَعبةُ مُمتَلِئةٌ بالأصنامِ، فكيف أهلَكَ اللهُ النَّصارَى أصحابَ الدِّينِ، ولم يُسَلِّطْهم على الوَثَنِيِّينَ؟

الجَوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّل: أنَّ الجَيشَ ظالِمٌ باغٍ، والبَغيُ مَرتَعُه وَخِيمٌ، ولو كان المَظلومُ أقلَّ مِن الظَّالمِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ الوَثَنِيَّةَ اعتِداءٌ على حَقِّ اللهِ في العِبادةِ، وغَزوَ هذا الجَيشِ اعتِداءٌ على حُقوقِ العِبادِ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّه إرهاصٌ لمَولدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، إذ وُلِدَ في هذا العامِ نَفْسِه.

الوجهُ الرَّابعُ: أنَّ الأصلَ في نَشأةِ البَيتِ وإقامتِه، إنَّما هو اللهُ الَّذي أمَر برفعِ قَواعِدِه، وإقامةِ... في رِحابِه، وكان طاهِرًا مُطَهَّرًا للعاكِفينَ فيه والرُّكَّعِ السُّجودِ، وإنَّما الوَثَنِيَّةُ طارِئةٌ عليه، وإلى أمدٍ قَصيرٍ مَداهُ، ودَنا مُنتهاهُ لدِينٍ جَديدٍ. والمَسيحِيَّةُ بنَفْسِها تَعلمُ ذلك، وتَنُصُّ عليه، وتُبَشِّرُ به، فكانت مُعتَدِيةً

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٤).

على الحَقَّيْنِ معًا: حَقِّ اللهِ في بَيتِه، والَّذي تَعلَمُ حُرْمتَه وما لَه، وحَقِّ العِبادِ الَّذين حَولَه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الهَمْزةُ للاستفهامِ التَّقريريِّ، وهو يُفيدُ نفْيَ المُقرَّرِ بإثباتِه؛ للثِّقةِ بأنَّ المُقرَّرَ لا يَسَعُه إلَّا إثباتُ المَنفيِّ، والتَّقريرُ مُستعمَلٌ في التَّكريمِ؛ إشارةً إلى أنَّ ذلك كان إرهاصًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفيه مع ذلك تَعريضٌ بكُفرانِ قُرَيشٍ نِعمةً عَظيمةً مِن نِعَمِ اللهِ عليهم؛ إذْ لم يَزالوا يَعبُدون غيرَه[٢]!

- وتَعليقُ الرُّؤيةِ بكَيفيَّةِ فِعلِه عزَّ وجَلَّ لا بنفْسِه، وإيثارُ ﴿كَيْفَ﴾ دونَ غيرِه مِن أسماءِ الاستِفهامِ، أو المَوصولِ، فلم يقلْ: (ألم تَرَ ما فعَل ربُّك)، أو (الَّذي فعَلَ ربُّكَ)؛ للدَّلالةِ على حالةٍ عَجيبةٍ يَستحضِرُها مَن يَعلمُ تَفصيلَ القِصَّةِ، ولتَهويلِ الحادثةِ، والإيذانِ بوُقوعِها على كَيفيَّةٍ هائلةٍ، وهَيئةٍ عَجيبةٍ دالَّةٍ على عِظَمِ قُدرةِ اللهِ تعالَى، وكَمالِ عِلمِه وحِكمتِه، وعِزَّةِ بَيتِه، وشَرَفِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ ذلك مِن الإرهاصاتِ؛ إذ رُوِيَ أنَّها وَقَعَت في السَّنةِ الَّتي وُلِدَ فيها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

- وأيضًا أُوثِرَ لَفظُ ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ دونَ غيرِه؛ لأنَّ مَدلولَ هذا الفِعلِ يعُمُّ أعمالًا كَثيرةً لا يدُلُّ عليها غيرُه[٤].

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٠٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٤، ٥٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٥).

- وجِيءَ في تَعريفِ اللهِ سُبحانَه بوَصْفِ (ربّ) مُضافًا إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إيماءً إلى أنَّ المَقصودَ من التَّذكيرِ بهذه القصَّةِ تَكريمُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتَشريفُه وإشادةٌ مِن ذِكْرِه، إرْهاصًا لنُبوَّتِه؛ إذ كان ذلك عامَ مَولِدِه، كأنَّه قال: ربُّك مَعبودُك هو الَّذي فعَلَ ذلك، لا أصنامُ قُرَيشٍ؛ إسافٌ، ونائلةُ، وغيرُهما[1].

٢- قولُه: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ بَيانٌ إجْماليٌّ لِمَا فعَلَه اللهُ تعالَى بهِمْ، والهَمْزةُ للتَّقريرِ؛ ولذلكَ عُطِفَ على الجملةِ الاستفهاميَّةِ ما بَعْدَها[2].

- وسمَّى حَرْبَهم كَيدًا؛ لأنَّه عمَلٌ ظاهرُه الغضَبُ مِن فِعلِ الكِنانيِّ الَّذي قَعَدَ في القُلَّيسِ[3]، وإنَّما هو تَعِلَّةٌ تَعلَّلوا بها لإيجادِ سَببٍ لحرْبِ أهلِ مكَّةَ وهدْمِ الكَعبةِ؛ ليَنصرِفَ العرَبُ إلى حَجِّ القُلَّيسِ في صَنعاءَ فيَتنصَّروا. أو أُريدَ بكَيدِهم بناؤُهم القُلَّيسَ مُظهِرينَ أنَّهم بَنَوْا كَنيسةً وهم يريدون أنْ يُبطِلوا الحجَّ إلى الكَعبةِ، ويَصرِفوا العربَ إلى صَنعاءَ[4].

- والتَّضليلُ: جَعْلُ الغيرِ ضالًّا، أي: لا يَهتدي لمُرادِه، وهو هنا تَعبيرٌ عن الإبطالِ، وعدَمِ نَوالِ المَقصودِ؛ لأنَّ ضَلالَ الطَّريقِ عدَمُ وُصولِ السَّائرِ[5].

- وعُبِّرَ بحَرْفِ الظَّرفيَّةِ عن معْنى المُصاحَبةِ الشَّديدةِ، أي: أبطَلَ كَيدَهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٥، ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٨٦).

(٣) القُلَّيس: بِيعةٌ كانت بصنعاءَ اليَمنِ للحبشةِ، بناها أبرهةُ وهدمَتْها حِمْيَرُ. يُنظر: ((الصَّحاح)) للجوهري (٣/ ٩٦٦)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٦/ ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٨).

بتَضليلٍ، أي: مُصاحِبًا للتَّضليلِ لا يُفارِقُه(١).

٣- قولُه: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ يَجوزُ أنْ يُجعَلَ مَعطوفًا على جُملةِ ﴿فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، أي: وكيف أرسَلَ عليهم طَيرًا مِن صِفتِها كَيْتَ وكَيتَ؛ فبَعْدَ أنْ وَقَعَ التَّقريرُ على ما فَعَلَ اللهُ بهم مِن تَضليلِ كَيدِهم، عُطِفَ عليه تَقريرٌ بعِلمِ ما سُلِّطَ عليهم مِن العِقابِ على كَيدِهم؛ تَذكيرًا بما حلَّ بهم مِن نِقمةِ اللهِ تعالَى لقَصْدِهم تَخريبَ الكَعبةِ، فذلك مِن عِنايةِ اللهِ ببَيتِه؛ لإظْهارِ تَوطئتِه لبَعثةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بدِينِه في ذلك البَلَدِ، إجابةً لدَعوةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فكما كان إرسالُ الطَّيرِ عليهم مِن أسبابِ تَضليلِ كَيدِهم، كان فيه جَزاءٌ لهم؛ ليَعلَموا أنَّ اللهَ مانعٌ بَيتَه، وتكونَ جُملةُ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ مُعترِضةً بيْنَ الجُملتَينِ المُتعاطِفتَينِ. ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ عطْفًا على جُملةِ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾، فيكونَ داخلًا في حيِّزِ التَّقريرِ الثَّاني بأنَّ اللهَ جَعَل كَيدَهم في تَضليلٍ، وخُصَّ ذلك بالذِّكرِ؛ لجمْعِه بيْنَ كونِه مُبطِلًا لكَيدِهم، وكَونِه عُقوبةً لهم. ومَجيءُ ﴿وَأَرْسَلَ﴾ بلَفظِ الماضي باعتِبارِ أنَّ المضارِعَ في قولِه: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ قُلِبَ زَمانُه إلى المُضيِّ؛ لدُخولِ حرْفِ (لمْ)، فكأنَّه قيل: أليسَ جَعَل كَيدَهم في تَضليلٍ(٢)؟

- وقال: ﴿طَيْرًا﴾ على التَّنكيرِ: إمَّا للتَّحقيرِ؛ فإنَّه مهما كان أحقَرَ كان صُنعُ اللهِ أعجَبَ وأكبَرَ، أو للتَّفخيمِ، كأنَّه يقولُ: طَيرًا وأيُّ طيرٍ؟ تَرمي بحجارةٍ صغيرةٍ فلا تُخطِئُ المَقتَلَ(٣)!

- و﴿أَبَابِيلَ﴾، أيْ: طوائفَ وجَماعاتٍ، جمْعُ إبَّالةٍ -على قولٍ-، وهيَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٨، ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٩١).

الحُزمةُ الكبيرةُ مِن الحطَبِ، شُبِّهَتْ بها الجَماعةُ مِن الطَّيرِ في تَضامِّها، فوَصْفُ الطَّيرِ بـ﴿أَبَابِيلَ﴾ على وَجْهِ التَّشبيهِ البَليغِ[1].

٤- قولُه: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ حالٌ مِن ﴿طَيْرًا﴾، وجِيءَ بصِيغةِ المُضارِعِ؛ لاستحضارِ الحالةِ، بحيث تُخيَّلُ للسَّامعِ كالحادثةِ في زمَنِ الحالِ[2].

٥- قولُه: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ العصْفُ: ورَقُ الزَّرعِ، وهو جمْعُ عَصْفةٍ. والعصْفُ إذا دَخَلَتْه البهائمُ فأكَلَتْه داسَتْه بأرجُلِها وأكَلَت أطرافَه، وطَرَحَتْه على الأرضِ بعدَ أنْ كان أخضَرَ يانعًا، أو شُبِّهوا بتِبْنٍ أكَلَتْه الدَّوابُّ ورَاثَتْه، ولكنَّه جاء على ما عليه آدابُ القرآنِ، كقولِه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، أو شُبِّهوا بورَقِ الزَّرعِ إذا أُكِل، أي: وقَعَ فيه الأُكالُ، وهو أنْ يَأكُلَه الدُّودُ، أو أُريدَ: الَّذي أُكِلَ حَبُّه، فبَقِيَ فارغًا. وهذا تَمثيلٌ لحالِ أصحابِ الفيلِ بعْدَ تلك النَّضْرةِ والقُوَّةِ، كيف صاروا مُتساقِطينَ على الأرضِ هالِكينَ[3]!



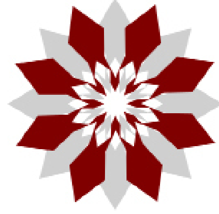
(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٩، ٥٥٠).

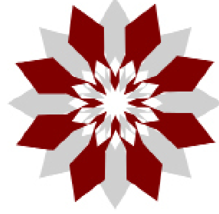
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٠).

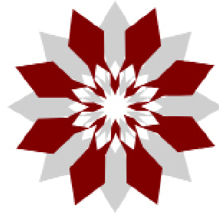
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥١).

تَفْسِيرُ

سُورَةِ قُرَيْشٍ







سُورةُ قُرَيْش

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (قُرَيْش) و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾[1].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ قُرَيشٍ مكِّيَّةٌ، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[2].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

تَذكيرُ أهْلِ مكَّةَ بجانبٍ مِن نِعَمِ اللهِ تعالى عليهم[3].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- ذِكرُ المِنَّةِ على قُرَيشٍ، بأنَّ اللهَ مكَّنَ لهم السَّيْرَ في الأرضِ للتِّجارةِ برِحْلَتَيِ الشِّتاءِ والصَّيفِ.

---

(١) سُمِّيَتِ السُّورةُ بالجملةِ الأولى منها، ولذِكرِ لَفظِ قُرَيشٍ في مَطلَعِها -ولم يَقَعْ في غيرِها- في قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٣).

(٢) ممَّن نقلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٥)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٥٠).

ونسَب القولَ بأنَّها مكِّيَّةٌ إلى الأكثَرينَ: الماوَرْديُّ، ونسَبه إلى الجمهورِ: ابنُ الجَوزيِّ، والقُرطُبيُّ، وأبو حيَّانَ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٧).

ونُسِب القولُ بأنَّها مَدَنيَّةٌ إلى الضَّحَّاكِ، والكَلْبيِّ. يُنظر المصادر السَّابقة.

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٥١٣).

٢- تَحضِيضُهم على العِبادةِ، وشُكرِ الإحسانِ.

٣- ذِكرُ المِنَّةِ عليهم بإطعامِهم مِن جُوعٍ، وتَأمِينِهم مِن المَخاوِفِ.



الآيات (١-٤)

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ٤﴾

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِإِيلَٰفِ﴾: أي: لأُلْفَتِهم واعتيادِهم، والإيلافُ: مَصدَرُ آلَفْتُ الشَّيءَ: إذا لَزِمْتَه وتعوَّدْتَ عليه، وأصلُ (ألف): يدُلُّ على انضمامِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ * إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ اللَّامُ في «إيلافِ» مُتعَلِّقةٌ بقَولِه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾، ودخَلَت الفاءُ لِما في الكلامِ مِن معنى الشَّرطِ، أي: فإنْ لم يَعبُدوه لسائِرِ نِعَمِه فلْيَعبُدوه لإيلافِهم. أو هي مُتعَلِّقةٌ بفِعلٍ مُقَدَّرٍ، تقديرُه: اعجَبوا لإيلافِ قُرَيشٍ. أو مُتعَلِّقةٌ بقَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل: ٥].

﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ﴾: مجرورٌ على البَدلِ مِن «إيلافِ» الأُولى، أو توكيدٌ لَفظيٌّ له، وهو مَصدَرٌ مضافٌ لفاعِلِه. رِحْلَةَ: مَفعولٌ به للمَصدَرِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بذِكْرِ مِنَّةٍ أخرى على قُرَيشٍ إثْرَ ذِكْرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٦٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ١١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٧٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٤٠٩).

نِعمَتِه عليهم بإهلاكِ عَدُوِّهم، وهي مِنَّةُ اجتِماعِهم واعتيادِهم كُلَّ عامٍ القيامَ برِحلةٍ في الشِّتاءِ إلى اليَمَنِ، ورِحلةٍ في الصَّيفِ إلى الشَّامِ للتِّجارةِ.

ثُمَّ أرشَدَهم إلى شُكرِ هذه النِّعمةِ العظيمةِ، فقال: فلْيَعبُدوا رَبَّ البَيتِ الحرامِ، الَّذي أطعَمَهم مِنَ الجُوعِ، وآمَنَهم مِنَ الخَوفِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢﴾.

أي: لاجتِماعِ قَبيلةِ قُرَيشٍ[1] واعتيادِهم كُلَّ عامٍ القيامَ برِحلةٍ في الشِّتاءِ إلى

(١) قال الزَّجَّاجُ: (هذه اللَّامُ قال النَّحْويُّون فيها ثلاثة أوجُهٍ:
قيل: هي مَوصولةٌ بما قَبْلَها، المعنى: فجعَلَهم كعَصفٍ مأكولٍ لإيلافِ قُرَيشٍ، أي: أهلَكَ اللهُ أصحابَ الفيلِ؛ لِتَبْقى قُرَيشٌ وما قد ألِفُوا من رحلةِ الشِّتاءِ والصَّيفِ.
وقال قومٌ: هذه لامُ التَّعَجُّبِ، فكان المعنى: اعجَبوا لإيلافِ قُرَيشٍ.
وقال النَّحْويُّونَ الَّذين تُرتضى عربيَّتُهم: هذه اللَّامُ معناها متَّصِلٌ بما بَعْدُ: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ﴾، والمعنى: فلْيَعبُدْ هؤلاء ربَّ هذا البيتِ لإيلافِهم رحلةَ الشِّتاءِ والصَّيفِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٣٦٥).
وممَّن ذهب إلى المعنى الأول: السمرقنديُّ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٥).
قال السعدي: (قال كثيرٌ مِن المفَسِّرينَ: إنَّ الجارَّ والمجرورَ مُتعَلِّقٌ بالسُّورةِ الَّتي قَبْلَها، أي: فعَلْنا ما فعَلْنا بأصحابِ الفيلِ؛ لأجْلِ قُرَيشٍ وأمْنِهم، واستِقامةِ مَصالِحِهم، وانتِظامِ رِحلتِهم في الشِّتاءِ للِيَمَنِ، والصَّيفِ للشَّامِ؛ لأجْلِ التِّجارةِ والمكاسِبِ؛ فأهلك اللهُ مَن أرادهم بسُوءٍ، وعَظَّم أمْرَ الحَرَمِ وأهلِه في قُلوبِ العَرَبِ، حتَّى احتَرَموهم، ولم يَعترِضوا لهم في أيِّ سَفرٍ أرادوا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥). ويُنظر: ((تأويل مُشْكِل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٥).
وقال ابنُ كثير: (هذه السُّورةُ مفصولةٌ عن الَّتي قَبْلَها في المصحَفِ الإمامِ، كَتَبوا بيْنَهما سَطرَ بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، وإن كانت متعَلِّقةً بما قبْلَها، كما صَرَّح بذلك محمَّدُ بنُ إسحاقَ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ؛ لأنَّ المعنى عِندَهما: حَبَسْنا عن مكَّةَ الفيلَ، وأهلَكْنا أهْلَه لِإيلافِ قُرَيشٍ، أي: لائتِلافِهم واجتماعِهم في بَلَدِهم آمنينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩١).
وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني: ابنُ جرير، فقال: (معنى الكلامِ: اعجَبُوا لإيلافِ قُرَيشٍ =

اليَمَنِ، ورِحلةٍ في الصَّيفِ إلى الشَّامِ للتِّجارةِ الَّتي كان بها قِوامُ عَيشِهم[(١)].

﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقَرَّر أنَّ الإنعامَ لا بُدَّ أن يُقابَلَ بالشُّكرِ والعُبوديَّةِ؛ لا جَرَمَ أُتبِعَ ذِكرُ النِّعمةِ

= رِحلةَ الشِّتاءِ والصَّيفِ، وتَرْكِهم عبادةَ ربِّ هذا البَيتِ، الَّذي أطعَمَهم مِن جوعٍ وآمَنَهم مِن خَوفٍ؛ فلْيَعبُدوا ربَّ هذا البَيتِ، الَّذي أطعَمَهم مِن جوعٍ وآمَنَهم مِن خَوفٍ، والعَرَبُ إذا جاءت بهذه اللَّامِ فأدخَلوها في الكلامِ للتَّعجُّبِ اكتَفَوا بها دليلًا على التَّعجُّبِ مِن إظهارِ الفِعلِ الَّذي يَجلِبُها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤٩).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّالثِ: الزمخشريُّ، وأبو السعود، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٤).

قال الزمخشري: (﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ متعلِّقٌ بقولِه: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ﴾، أمَرَهم أن يَعبُدوه لأجْلِ إيلافِهم الرِّحلَتينِ... على معنى: أنَّ نِعَمَ اللهِ عليهم لا تُحصى، فإنْ لم يَعبُدوه لسائرِ نِعَمِه فلْيَعبُدوه لهذه الواحِدةِ الَّتي هي نِعمةٌ ظاهِرةٌ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٠، ٨٠١).

وقال الشوكاني: (قُرَيشٌ هم: بنو النَّضرِ بنِ كِنانةَ بنِ خُزَيمةَ بنِ مُدرِكةَ بنِ إلياسَ بنِ مُضَرَ، فكُلُّ مَن كان مِن ولَدِ النَّضرِ فهو قُرَشيٌّ، ومَن لم يَلِدْه النَّضرُ فليس بقُرَشيٍّ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠٩). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤٩، ٦٥١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

قال القرطبي: (كانت إحدى الرِّحلتَينِ إلى اليَمَنِ في الشِّتاءِ؛ لأنَّها بلادٌ حاميةٌ، والرِّحلةُ الأخرى في الصَّيفِ إلى الشَّامِ؛ لأنَّها بلادٌ باردةٌ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٠٦).

وقال ابن عاشور: (صارتْ مكَّةُ وسطًا تُجلبُ إليها السِّلعُ مِن جميعِ البلادِ العربيَّةِ، فتوزَّعُ إلى طالبيها في بقيةِ البلادِ، فاستغنى أهلُ مكَّةَ بالتِّجارةِ؛ إذ لم يَكونوا أهلَ زَرعٍ ولا ضَرعٍ؛ إذ كانوا بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ، وكانوا يَجلبونَ أقواتَهم...، زيادةً على ما جُعِل لهم معَ مُعظَمِ العربِ مِن الأشهُرِ الحُرُمِ، وما أُقيمَ لهم مِن مَواسِمِ الحجِّ وأسواقِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٠).

بطَلَبِ العُبوديَّةِ(١).

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾.

أي: فلْيَعبُدوا اللهَ رَبَّ البَيتِ الحرامِ الَّذي جعَل لهم بسَبَبِه خيرًا كثيرًا، فيَشكُروه بإخلاصِ العبادةِ له دونَ ما سِواه(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾.

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾.

أي: الَّذي أطعَمَ قُرَيشًا مِنَ الجُوعِ، فكفاهم ذلك(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.

أي: وآمَنَهم مِنَ الخَوفِ، فلا يَعتَدي عليهم أحدٌ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٤-٦٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦١).

قال الواحدي: (كانوا يُسافِرونَ آمِنينَ، لا يتعَرَّضُ لهم أحدٌ، وكان غيرُهم لا يأمَنُ في سَفَرِه ولا في حَضَرِه). ((الوسيط)) (٤/ ٥٥٧).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ * فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ * إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ في هذا إشارةٌ إلى تمامِ قُدرتِه سُبحانَه وتعالى، وأنَّه إذا أراد شيئًا يسَّر سبَبَه؛ لأنَّ التَّدبيرَ كُلَّه له، يَخفِضُ مَن يَشاءُ وإن عَزَّ، ويَرفَعُ مَن يَشاءُ وإن ذَلَّ؛ لِيُثمِرَ اعتِقادُ ذلك حُبَّه، والانقِطاعَ لعبادتِه، والاعتمادَ عليه في كُلِّ نَفعٍ ودَفعٍ[1].

٢- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ * إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ * ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ رَغَدُ الرِّزقِ والأمْنُ مِنَ المخاوِفِ مِن أكبَرِ النِّعَمِ الدُّنيويَّةِ الموجِبةِ لشُكرِ اللهِ تعالى[2].

فالآيةُ فيها أنَّ على المسلمينَ أفرادًا وجماعاتٍ أن يُقابِلوا نِعَمَ اللهِ بالشُّكرِ، وأن يَشكُروها بالطَّاعةِ والعبادةِ للهِ، وأن يَحذَروا كُفرانَ النِّعَمِ[3].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١١٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ إنَّ اللهَ سُبحانَه تارةً يُضيفُ نَفْسَه إلى البيتِ، ويخَصِّصُه بالرُّبوبيَّةِ كما في قولِه هنا: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾، وتارةً يُضيفُ البَيتَ إلى نفْسِه، كما في قولِه: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾[1] [البقرة: ١٢٥]، وذلك على سَبيلِ التَّشريفِ والتَّعظيمِ، وقال سُبحانَه في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١]، ثمَّ قال بَعْدَها: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾؛ احترازًا من أنْ يَتوَهَّمَ واهِمٌ بأنَّه ربُّ البلدةِ وحْدَها، فقال: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾، لبيانِ عُمومِ مُلْكِه؛ لئلَّا يَدَّعِيَ المشرِكونَ أنَّه ربٌّ للبلدةِ فقط، أمَّا هنا فالمقامُ مقامُ تعظيمٍ للبَيتِ؛ فناسَبَ ذِكْرُه وَحْدَه[2].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ قَولُه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ مَن استجابَ لهذا الأمرِ جَمَعَ اللهُ له بيْن أمْنِ الدُّنيا وأمْنِ الآخِرةِ، ومَن عصاه سَلَبَهما منه، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾[3] [النحل: ١١٢، ١١٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ فيه سؤالٌ: ما الفائِدةُ في قَولِه: ﴿مِنْ جُوعٍ﴾؟

الجوابُ: فيه فوائِدُ:

الفائدةُ الأُولى: التَّنبيهُ على أنَّ أمرَ الجُوعِ شَديدٌ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٢).

يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ [الشورى: ٢٨].

الفائدةُ الثَّانيةُ: تذكيرُهم الحالةَ الأُولى الرَّديئةَ المؤلِمةَ، وهي الجوعُ؛ حتى يَعرِفوا قَدْرَ النِّعمةِ الحاضِرةِ.

الفائدةُ الثَّالثةُ: التَّنبيهُ على أنَّ خيرَ الطَّعامِ ما سَدَّ الجَوعةَ؛ لأنَّه لم يَقُلْ: (وأشبَعَهم)؛ لأنَّ الطَّعامَ يُزيلُ الجُوعَ، أمَّا الإشباعُ فإنَّه يُورِثُ البِطْنةَ[1].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾، فيه دليلٌ على أنَّ دَعوةَ الأنبياءِ مُستجابةٌ؛ لأنَّ الخليلَ -عليه وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ- دعا لأهلِ الحَرَمِ بقَولِه: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقال: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ [إبراهيم:٣٥]، وقال: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ﴾ [البقرة: ١٢٩]؛ فأطعَمَهم اللهُ مِن جُوعٍ، وآمَنَهم مِن خَوفٍ، وبَعَث فيهم رسولًا منهم يَتلو عليهم آياتِه[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ * إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴾ افتِتاحٌ مُبدِعٌ؛ إذ كان بمَجرورٍ بلامِ التَّعليلِ، وليس بإثْرِه بالقُربِ ما يَصلُحُ للتَّعليقِ به؛ ففيه تَشويقٌ إلى مُتعلَّقِ هذا المجرورِ، وزادَه الطُّولُ تَشويقًا؛ إذ فُصِلَ بيْنَه وبيْنَ مُتعلَّقِه بخمْسِ كَلماتٍ، فيَتعلَّقُ ﴿لِإِيلَٰفِ ﴾ بقولِه: ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ ﴾، وذلك على قولٍ. وتَقديمُ هذا المَجرورِ للاهتمامِ به؛ إذ هو مِن أسبابِ أمْرِهم بعِبادةِ اللهِ الَّتي أعْرَضوا عنها بعِبادةِ الأصنامِ، وأصْلُ نظْمِ الكلامِ: لِتَعبُدْ قُريشٌ رَبَّ هذا البَيتِ الَّذي أطْعَمَهم مِن جُوعٍ، وآمَنَهم مِن خَوفٍ؛ لإيلافِهم رِحلةَ الشِّتاءِ والصَّيفِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١١٢، ١١٣).

فلمَّا اقْتَضى قصْدُ الاهتمام بالمَعمولِ تَقديمَه على عامِله، تَولَّدَ مِن تَقديمِه معْنى جَعْلِه شَرطًا لعامِلِه، فاقترَنَ عامِلُه بالفاءِ الَّتي هي مِن شَأنِ جَوابِ الشَّرطِ، فالفاءُ الدَّاخلةُ في قَولِه: (لِيَعْبُدُوا) مُؤْذِنةٌ بأنَّ ما قبْلَها في قوَّةِ الشَّرطِ، أي: مُؤذِنةٌ بأنَّ تَقديمَ المَعمولِ مَقصودٌ به اهتمامٌ خاصٌّ وعِنايةٌ قَويَّةٌ هي عِنايةُ المُشترِطِ بشَرْطِه، وتَعليقُ بَقيَّةِ كَلامِه عليه لِما يَنتظِرُه مِن جَوابِه، وهذا أُسلوبٌ مِن الإيجازِ بَديعٌ.

ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ اللَّامُ مُتعلِّقةً بفِعلِ (اعْجَبوا) مَحذوفًا يُنبِئُ عنه اللَّامُ؛ لكَثرةِ وُقوعِ مَجرورٍ بها بعْدَ مادَّةِ التَّعجُّبِ، أي: اعْجَبوا لإيلافِ قُريشٍ رِحلةَ الشِّتاءِ والصَّيفِ، وتَرْكِهم عِبادةَ ربِّ هذا البيتِ! وعلى ذلك تكونُ الفاءُ في قَولِه: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ﴾ تَفريعًا على التَّعجيبِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ مُتعلِّقًا بما في سُورةِ (الفيلِ) مِن قولِه: ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾ [الفيل: ٥]، وهذا بمَنزلةِ التَّضمينِ في الشِّعرِ، وهو أنْ يَتعلَّقَ معْنى البيتِ بالَّذي قبْلَه تَعلُّقًا لا يصِحُّ إلَّا به، فالمَعْنى: أنَّه أهلَكَ مَنْ قَصَدَهم مِنَ الحبَشةِ؛ ليَتسامَعَ النَّاسُ فيَتهيَّبُوا لهمْ زيادةَ تَهيُّبٍ، ويُحترَمُوا فضْلَ احترامٍ؛ حتَّى يَنتظِمَ لهُم الأمنُ في رِحلتَيْهِم، فَلا يَجترئَ عليهم أحدٌ. وقيلَ: يَتعلَّقُ بمُضمَرٍ تَقديرُه: فَعَلْنا مَا فَعَلْنا مِنْ إهلاكِ أصحابِ الفيلِ لإيلافِ، فذُكِرَ ذلك للامتنانِ عليهم؛ إذ لو سُلِّطَ عليهم أصحابُ الفيلِ لَتشتَّتوا في البلادِ والأقاليمِ، ولم تَجتمِعْ لهم كَلمةٌ[1].

- والإيلافُ: صِيغةُ الإفعالِ فيه للمُبالَغةِ؛ لأنَّ أصْلَها أنْ تدُلَّ على حُصولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٠، ٨٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٤، ٥٥٥).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٨٦).

الفعلِ مِن الجانبَينِ، فصارت تُستعمَلُ في إفادةِ قوَّةِ الفعلِ[١].

- وإضافةُ (إيلاف) إلى (قُريشٍ) على معْنى إضافةِ المصدَرِ إلى فاعِلِه، وحُذِفَ مَفعولُه؛ لأنَّه هنا أُطلِقَ بالمعْنى الاسميِّ لتلك العادةِ، فهي إضافةٌ مَعنويَّةٌ بتَقديرِ اللَّامِ[٢].

- وأُطلِقَ الإيلافُ في قَولِه: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾، ثمَّ أُبدِلَ عنه المُقيَّدُ بالرِّحلتين ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾؛ تَفخيمًا لأمْرِ الإيلافِ، وتَذكيرًا بعَظيمِ النِّعمةِ فيه[٣].

وأيضًا أفاد هذا التَّكرارُ بيانَ المفعولِ، وهو ﴿رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾. وقيل: إيلافُهم الثَّاني تأكيدٌ للأوَّلِ[٤].

وقيل: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ﴾ عطْفُ بَيانٍ مِن (إيلَافِ قُرَيْشٍ)، وهو مِن أُسلوبِ الإجمالِ فالتَّفصيلِ للعِنايةِ بالخبَرِ؛ ليتمكَّنَ في ذِهنِ السَّامعِ[٥].

- وإضافةُ ﴿رِحۡلَةَ﴾ إلى ﴿ٱلشِّتَآءِ﴾ مِن إضافةِ الفعلِ إلى زَمانِه الَّذي يقَعُ فيه؛ فقدْ يكونُ الفِعلُ مُستغرِقًا لزَمانِه، مِثلُ قولِك: سَهَرُ اللَّيلِ وقدْ يكونُ وَقتًا لابتدائِه، مِثلُ صَلاةِ الظُّهرِ[٦]. وظاهرُ الإضافةِ أنَّ رِحلةَ الشِّتاءِ والصَّيفِ مَعروفةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٩١).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٦، ٥٥٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٥٧).

مَعهودةٌ، وهما رِحلتانِ، فعطْفُ ﴿وَٱلصَّيۡفِ﴾ على تَقديرِ مُضافٍ، أي: ورِحلةَ الصَّيفِ؛ لظُهورِ أنَّه لا تكونُ رِحلةٌ واحدةٌ تبتدأُ في زَمانَينِ، فتَعيَّن أنَّهما رِحلتانِ في زَمنَينِ[١].

- وإفرادُ ﴿رِحۡلَةَ﴾، معَ أنَّ المُرادَ رِحلَتا الشِّتاءِ والصَّيفِ؛ لِأمْنِ الإلْباسِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ * ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ وَجْهُ تَعليلِ الأمْرِ بتَوحيدِهم اللهَ بخُصوصِ نِعمةِ هذا الإيلافِ مع أنَّ للهِ عليهم نِعَمًا كَثيرةً؛ لأنَّ هذا الإيلافَ كان سَببًا جامعًا لأهمِّ النِّعَمِ الَّتي بها قِوامُ بَقائِهم[٣].

- وتَعريفُ (ربّ) بالإضافةِ إلى ﴿هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: فلْيَعبُدوا اللهَ؛ لِما يُومِئُ إليه لَفظُه مِن استحقاقِه الإفرادَ بالعِبادةِ دونَ شَريكٍ، وأُوثِرَ إضافةُ (ربّ) إلى ﴿هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (ربَّهم)؛ للإيماءِ إلى أنَّ البيتَ هو أصلُ نِعمةِ الإيلافِ بأنْ أمَرَ إبراهيمَ ببناءِ البيتِ الحرامِ، فكان سَببًا لرِفعةِ شَأنِهم بيْنَ العرَبِ، وذلك إدماجٌ[٤] للتَّنويهِ بشَأنِ البيتِ الحرامِ وفضْلِه[٥].

- والبَيتُ مَعهودٌ عندَ المُخاطَبينَ، والإشارةُ إليه (هذا)؛ لأنَّه بذلك العهْدِ كان كالحاضرِ في مَقامِ الكلامِ، على أنَّ (البَيت) بهذا التَّعريفِ باللَّامِ صار عَلَمًا بالغَلَبةِ على الكَعبةِ، و(ربِّ البيتِ) هو اللهُ، والعرَبُ يَعترِفون بذلك[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٠).

(٤) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٦٠، ٥٦١).

- وتَمكَّنَ هنا هذا اللَّفظُ (البَيت)؛ لتَقدُّمِ حِمايتِه في السُّورةِ الَّتي قبْلَها[١].

- وأُجرِيَ وَصْفُ الرَّبِّ بطَريقةِ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾؛ لِما يُؤذِنُ به مِن التَّعليلِ للأمرِ بعِبادةِ ربِّ البيتِ الحرامِ بعِلَّةٍ أُخرى زِيادةً على نِعمةِ تَيسيرِ التِّجارةِ لهم، وذلك ممَّا جَعَلَهم أهلَ ثَراءٍ، وهما نِعمةُ إطعامِهم وأمْنِهم[٢].

- والتَّنكيرُ في ﴿جُوعٖ﴾ و﴿خَوۡفِۭ﴾ للتَّعظيمِ، يعني: أطْعَمَهم بالرِّحلتَينِ مِن جُوعٍ شَديدٍ كانوا فيه قبْلَهما، وآمَنَهم مِن خَوفٍ عَظيمٍ، وهو خَوفُ أصحابِ الفِيلِ، أو خَوفُ التَّخطُّفِ في بَلدِهم ومَسايِرِهم[٣]. أو التَّنكيرُ في ﴿جُوعٖ﴾ و﴿خَوۡفِۭ﴾ للنَّوعيَّةِ لا للتَّعظيمِ؛ إذ لم يَحُلَّ بهم جُوعٌ وخَوفٌ مِن قبْلُ[٤].

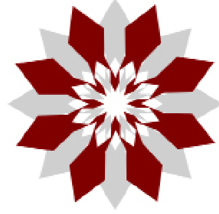


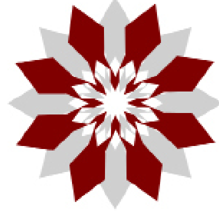
(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٩).

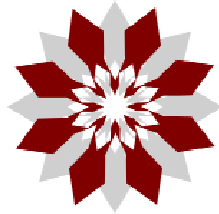
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦١).

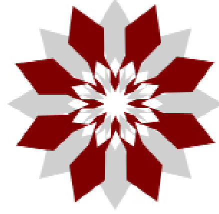


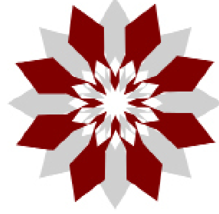


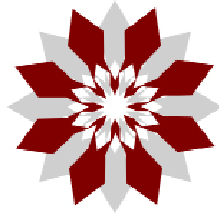


تَفْسِيرُ

سُورَةِ الماعُونِ







سُورةُ الماعُونِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الماعُون)[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الماعُونِ مكِّيَّةٌ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

التَعجِيبُ مِن حالِ المُكذِّبينَ بالبَعثِ، وتَفظِيعُ أعمالِهم[٣].

---

(١) سمِّيَت بذلك؛ لِذكرِ لَفظِ الماعُونِ فيها دُونَ غيرِها، في قولِه: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٣).
وتُسَمَّى أيضًا سورةَ (الدِّينِ)، و(أرَأَيْتَ)، و(التَّكذيبِ)، و(اليتيم). يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٧٧)، ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لعلم الدين السخاوي (ص: ٩٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٨)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٣).

(٢) ونَسَبَه للجُمهورِ: ابنُ الجَوزيِّ، وأبو حيَّانَ. وقيلَ: مَدَنيَّةٌ، ونُسِبَ إلى ابنِ عبَّاسٍ وقَتادةَ، واختاره القاسِميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٥٢).
وقيل: مكِّيَّةٌ، ثلاثُ آياتٍ الأُوَلُ، مدَنيَّةُ البَقيَّةِ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، وابنُ جُزَي، والفيروزابادي، والسيوطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ١٠٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٤).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- التَّعجِيبُ مِن حالِ مَن كذَّبُوا بالبَعثِ.

٢- الشِّكايةُ مِن الجافِينَ على الأيتامِ والمَساكِينِ.

٣- ذَمُّ السَّاهِينَ عن الصَّلاةِ والمُرائينَ فيها، والمانِعينَ النَّفْعَ والمَعُونةَ عن النَّاسِ.



الآيات (١-٧)

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلدِّينِ﴾: أي: بالجزاءِ والحسابِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازَيْتُه، وأصلُ (دين): جِنْسٌ مِن الانْقِيادِ، والذُّلِّ[(١)].

﴿يَدُعُّ﴾: أي: يَدفَعُ بشِدَّةٍ، والدَّعُّ في اللُّغةِ: الدَّفعُ في قَسوةٍ وعُنفٍ، وأصلُ (دعع): يدُلُّ على دَفعٍ[(٢)].

﴿يَحُضُّ﴾: أي: يَحُثُّ ويأمُرُ، والحَضُّ: الحَثُّ، وهو أن تَطلُبَ مِن غَيرِك فِعلًا بتأكيدٍ، وتُلِحَّ في ذلك الطَّلبِ، وأصلُ (حضض): يدُلُّ على البَعْثِ على الشَّيءِ[(٣)].

﴿فَوَيْلٌ﴾: أي: عَذابٌ وهَلاكٌ. وقيلَ: وَيلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٩) و(٣٠/ ٥٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨). ويُنظر ما تقدَّم في سورةِ الهُمَزةِ (ص: ٣٠٦).

﴿سَاهُونَ﴾: أي: لاهُون مُتشاغِلونَ، وأصلُ (سهو): يدُلُّ على الغَفْلةِ والسُّكونِ[(١)].

﴿يُرَآءُونَ﴾: أي: لا يُريدونَ اللهَ بأعمالِهم، يُقالُ: راءى فُلانٌ يُرائي، وفَعَل ذلك رِئاءَ النَّاسِ: وهو أن يَفعَلَ شَيئًا لِيَراه النَّاسُ[(٢)].

﴿ٱلۡمَاعُونَ﴾: أي: كُلَّ ما يُستعانُ به ويُنتَفَعُ به، كالفأسِ والدَّلْوِ ونَحوِهما من مَتاعِ البَيتِ اليَسيرِ، والماعونُ: فاعُولٌ مِنَ المَعْنِ: وهو الشَّيءُ القَليلُ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مخاطِبًا نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بقَولِه سُبحانَه: أرأَيْتَ -يا محمَّدُ- الَّذي يُكذِّبُ بوُقوعِ الجَزاءِ يومَ القيامةِ؟ فذلك من صِفَتِه أنَّه يَدفَعُ اليتيمَ بشِدَّةٍ وعُنفٍ، ولا يُكرِمُه، ولا يَحُثُّ الآخَرينَ على إطعامِ المِسكينِ!

ثمَّ قال الله تعالَى متوَعِّدًا: فعَذابٌ وهَلاكٌ للمُصَلِّينَ الَّذين هم عن صَلاتِهم لاهُون مُتشاغِلونَ، فيُؤَخِّرونَها حتَّى يَخرُجَ وقتُها، ويُخِلُّونَ بشُروطِها وأركانِها وواجِباتِها، الَّذين هم يُراؤُونَ النَّاسَ بصَلاتِهم؛ طَلَبًا لثَناءٍ، أو رجاءً لنَفعٍ، ويَمنَعونَ النَّاسَ مِنَ الانتفاعِ بما لديهم، ممَّا لا يَتضَرَّرونَ ببَذْلِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٨).

أي: أرأيتَ -يا محمَّدُ- الَّذي يُكذِّبُ بوُقوعِ الجَزاءِ ثوابًا وعِقابًا يومَ القيامةِ، فهو لا يُطيعُ اللهَ بفِعلِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه[١]؟

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢﴾.

أي: فذلك مِن صِفَتِه أنَّه يدفَعُ اليتيمَ بشِدَّةٍ وعُنفٍ، ولا يُكرِمُه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

ممَّن ذهَبَ في الجُملةِ إلى المعنى المَذكورِ للدِّينِ: ابنُ جَريرٍ، والواحِديُّ، وابنُ كَثيرٍ، والسعديُّ، ونسَبَه الرَّازيُّ إلى أكثَرِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: المصادِرُ السَّابقةُ.

وممَّن قال مِن السَّلفِ بأنَّ المُرادَ بالدِّينِ هنا: الحِسابُ والجَزاءُ: ابنُ عبَّاسٍ في رِوايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ، ومُجاهِدٌ، وابنُ جُرَيْجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٧)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٥).

وقد جَوَّزَ البَيْضاويُّ والقاسِميُّ أن يكونَ المُرادُ بالدِّينِ: الإسْلامَ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٥٢).

قال الشوكاني: (قِيل: الرُّؤْيةُ: هي البَصَريَّةُ، فيَتَعَدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وهو الموصولُ، أي: أأبصرْتَ المُكَذِّبَ. وقيلَ: إنَّها بمعنَى أخبِرْني فيتَعَدَّى إلى اثنيْنِ. الثَّاني محذوفٌ، أيْ: مَنْ هو). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١١).

وقال أيضًا: (الخِطابُ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو لكُلِّ مَن يَصلُحُ له). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١١). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

قال ابنُ عطيَّةَ: (أي: ارقُبْ فيه هذه الخِلالَ السَّيِّئةَ تَجِدْها، ودَعُّ اليَتيمِ: دَفْعُه بعُنفٍ، وذلك إمَّا أن يكونَ المعنى: عن إطعامِه والإحسانِ إليه، وإمَّا أن يكونَ: عن حَقِّه ومالِه، فهذا أشَدُّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٧).

وممَّن ذهَبَ إلى المعنى الأوَّلِ: السعديُّ، وابنُ عاشورٍ، وابنُ عُثَيمينَ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٦).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِن السَّلفِ: مُجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٨). =

كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٧].

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ٣﴾.

أي: ولا يَحُثُّ الآخَرينَ على إطعامِ المِسكينِ المحتاجِ للطَّعامِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الفجر: ١٨].

﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ أوَّلًا عَمودَ الكفْرِ -وهو التَّكذيبُ بالدِّينِ-؛ ذَكَرَ ما يَترتَّبُ عليه ممَّا يَتعلَّقُ بالخالِقِ، وهو عِبادتُه بالصَّلاةِ[٢].

﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾.

أي: فعَذابٌ وهَلاكٌ للمُصَلِّينَ الَّذين هم عن صَلاتِهم لاهُون مُتشاغِلونَ؛ فلا يُحافِظونَ على أدائِها في أوقاتِها، إنَّما يُؤخِّرونَها حتَّى يَخرُجَ الوقتُ، ويُخِلُّونَ

= وممَّن ذهَبَ إلى المعنى الثَّاني: ابنُ جَريرٍ، والزَّجَّاجُ، والسَّمَرْقَنْديُّ، والواحِديُّ، وابنُ كَثيرٍ، والشَّوْكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٦٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١١).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٨)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٧).

قال الشوكاني: (﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ أي: لا يَحُضُّ نَفْسَه ولا أهْلَه ولا غيرَهم على ذلك؛ بُخلًا بالمالِ، أو تكذيبًا بالجَزاءِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٢).

بشُروطِها وأركانِها وواجِباتِها[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٩، ٦٦٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٤٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٨١).

قال الواحِديُّ: (قال أكثَرُ المُفَسِّرينَ: معنى «عنها ساهونَ»، أي: يَغفُلوا عنها حتَّى يَذهَبَ وَقْتُها. وهو قَولُ سَعدِ بنِ أبي وَقَّاص، ومُقاتِلٍ، والحسَنِ؛ قالوا: السَّهْوُ عنها تَضْييعُ وَقْتِها حتَّى يَفوتَ). ((البسيط)) (٢٤/ ٣٥٨). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٧١).

وقال ابنُ القَيِّم: (قد فَسَّرَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ السَّهْوَ عنها بأنَّه: تأخيرُها عن وَقْتِها، كما ثبَتَ ذلك عن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ). ((الصلاة وأحكام تاركها)) (ص: ٧٢).

وذكَرَ في مَوضعٍ آخَرَ أنَّ السَّهوَ إمَّا عن الوَقتِ، وإمَّا عن الحُضورِ الواجِبِ والخُشوعِ، وصَوَّبَ أنَّه يَعُمُّ النَّوعَينِ. يُنظر: ((مدارج السالكين)) (١/ ٥٢٤).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، فأثبَتَ لهم صَلاةً، وجعَلَهم ساهينَ عنها، فعُلِمَ أنَّهم كانوا يُصَلُّونَ مع السَّهوِ عنها، وقد قال طائفةٌ مِن السَّلفِ: بل هو السَّهْوُ عمَّا يجِبُ فيها، مِثلُ تَركِ الطُّمَأْنينة، وكِلا المَعْنَيَينِ حَقٌّ، والآيةُ تَتناوَلُ هذا وهذا). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٣٤). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) (٢٢/ ٢٤).

وقال ابنُ جَرير: (أَوْلى الأقوالِ في ذلك عِندي بالصَّوابِ بقَولِه: ﴿سَاهُونَ﴾: لاهُونَ، يَتغافَلونَ عنها؛ وفي اللَّهوِ عنها والتَّشاغُلِ بغَيْرِها، تَضْييعُها أحيانًا، وتَضْييعُ وَقْتِها أخرى. وإذا كان ذلك كذلك صَحَّ بذلك قَولُ مَن قال: عُنِيَ بذلك تَرْكُ وَقْتِها، وقَولُ مَن قال: عُنِيَ به تَرْكُها؛ لِما ذَكَرْتُ قبلُ مِن أنَّ في السَّهوِ عنها المَعانيَ الَّتي ذَكَرْتُ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٦٣).

وقال ابنُ كَثير: (﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه: يَعني: المُنافِقينَ، الَّذين يُصَلُّونَ في العَلانيَةِ ولا يُصَلُّونَ في السِّرِّ؛ ولهذا قال: ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ أي: الَّذين هُم مِن أهْلِ الصَّلاةِ وقد الْتَزَموا بها، ثمَّ هم عنها ساهونَ؛ إمَّا عن فِعْلِها بالكُلِّيَّةِ، كما قالَه ابنُ عبَّاسٍ، وإمَّا عن فِعْلِها في الوقتِ المُقَدَّرِ لها شَرْعًا، فيُخرِجُها عن وَقْتِها بالكُلِّيَّةِ، كما قالَه مَسْروقٌ، وأبو الضُّحى...، وإمَّا عن وَقْتِها الأوَّلِ فيُؤَخِّرُونَها إلى آخِرِه دائِمًا أو غالبًا. وإمَّا عن أدائِها بأرْكانِها وشُروطِها على الوَجْهِ المَأْمورِ به. وإمَّا عن الخُشوعِ فيها، والتَّدَبُّرِ لِمَعانيها؛ فاللَّفظُ يَشملُ هذا كلَّه، ولكلِّ مَن اتَّصَفَ بشَيءٍ مِن ذلك قِسْطٌ مِن هذه الآيةِ. ومَن اتَّصَفَ بجَميعِ ذلك فقدْ تَمَّ نَصيبُه مِنها، وكَمَلَ له النِّفاقُ العَمَليُّ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٣).

قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾.

أي: الَّذين هم يُراؤُونَ النَّاسَ بصَلاتِهم إذا صَلَّوا أمامَهم، فلا يُصَلُّونَ إخلاصًا للهِ تعالى، ورغبةً في ثَوابِه، ورهبةً مِن عِقابِه، وإنَّما يُصَلُّونَها لِيَراهم المؤمِنونَ؛ طَلَبًا لثَناءٍ، أو رجاءً لنَفعٍ[(١)].

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا شَرَح أمْرَ الصَّلاةِ؛ أعقَبَه بذِكرِ الصِّلاتِ[(٢)]. فلمَّا بيَّن حالَهم معَ الخالقِ؛ بيَّن حالَهم معَ المخلوقينَ، وأنَّهم لا أحْسَنوا عِبادةَ ربِّهم، ولا أحْسَنوا إلى خَلْقِه.

وأيضًا فإنَّه بيَّن أنَّ مَن هو بتلك الصِّفةِ يَغلِبُ عليه الشُّحُّ[(٣)].

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾.

أي: ويَمنَعونَ النَّاسَ مِنَ الانْتِفاعِ بما لَدَيهم، ممَّا لا يَتَضَرَّرونَ ببَذْلِه، فلا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٨١، ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٩٥).

يُعينونَهم بإعارتِه[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ يجبُ على المرءِ أنْ يَنظُرَ في نفْسِه: هل هو ممن اتَّصَفَ بهذه الصِّفاتِ أو لا؟ إنْ كان ممَّن اتَّصَفَ بهذه الصِّفاتِ -قد أضاع الصَّلاةَ، وسَهَا عنها، ومَنَعَ الخيرَ عن الغيرِ- فلْيَتُبْ ولْيَرجِعْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٦٥، ٦٧٨)، ((أحكام القرآن)) للجصاص (٣/ ٦٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٨)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٦٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٩).

قال الواحديُّ: (أكثَرُ المُفَسِّرينَ على أنَّ الماعونَ: اسْمٌ لِما يَتعاوَرُه النَّاسُ بَيْنَهم مِن الدَّلْوِ، والفَأسِ، والقِدْرِ، وما لا يُمنَعُ، كالماءِ والمِلْحِ). ((الوسيط)) (٤/ ٥٥٨).

وقال ابنُ القَيِّمِ: (الماعونُ: اسْمٌ جامِعٌ لجَميعِ ما يُنتفَعُ به، فذكَرَ بعضُ السَّلفِ هذا للسَّائلِ تَمثيلًا وتَنبيهًا بالأَدْنى على الأعلى، فإذا كان الوَيْلُ لِمَن منَعَ هذا، فكيف بمَن منَعَ ما الحاجةُ إليه أَعظَمُ؟! وإذا كان العبدُ يُسألُ عن شُكرِ الماءِ البارِدِ، فكيف بما هو أعظَمُ نَعيمًا منه؟!). ((الصواعق المرسلة)) (٢/ ٦٩٩).

وقال السعديُّ: (﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ أي: يَمنَعونَ إعْطاءَ الشَّيءِ الَّذي لا يَضُرُّ إعْطاؤُه على وَجْهِ العاريَّةِ، أو الهِبةِ، كالإناءِ، والدَّلْوِ، والفَأسِ، ونَحوِ ذلك ممَّا جَرَتِ العادةُ ببَذْلِه والسَّماحةِ به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

وعن عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه قال: (﴿ٱلْمَاعُونَ﴾: مَنْعُ الزَّكاةِ والفَأسِ والدَّلْوِ والقِدْرِ). أخرَجه ابنُ جَريرٍ في ((تفسيره)) (٢٤/ ٦٧٧).

وقال ابنُ كَثيرٍ بعْدَ أن ذكَرَ أقوالَ السَّلفِ في الماعونِ: (وقال عِكْرِمةُ: رأسُ الماعونِ زكاةُ المالِ، وأدْناه: المُنْخُلُ والدَّلْوُ والإبْرةُ. رواه ابنُ أبي حاتِمٍ. وهذا الَّذي قالَه عِكْرِمةُ حسَنٌ؛ فإنَّه يَشملُ الأقوالَ كلَّها، وتَرجِعُ كلُّها إلى شيءٍ واحِدٍ، وهو تَرْكُ المُعاوَنةِ بمالٍ أو مَنْفَعةٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٧).

إلى اللهِ، وإلَّا فلْيَبشُرْ بالوَيلِ -والعياذُ باللهِ-، وإنْ كان قد تَنَزَّهَ عن ذلك فلْيَبشُرْ بالخيرِ، والقرآنُ الكريمُ ليس المقصودُ منه أنْ يَتلوَه الإنسانُ لِيَتعَبَّدَ للهِ تعالى بتلاوتِه فقط، المقصودُ أنْ يَتَأَدَّبَ به؛ ولهذا قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها: ((فإنَّ خُلُقَ نَبيِّ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان القرآنَ))[١]، خُلُقُه يعني أخلاقَه الَّتي يَتخَلَّقُ بها يأخُذُها مِن القُرآنِ الكريم[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فيه الحَثُّ على إكرامِ اليتيمِ والمساكينِ، والتَّحضيضِ على ذلك[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ فيه مُراعاةُ الصَّلاةِ، والمحافظةُ عليها وعلى الإخلاصِ فيها وفي جميعِ الأعمالِ[٤].

٤- إخْلاصُ الدِّينِ هو أصْلُ دينِ الإسْلامِ؛ ولِذلك ذَمَّ اللهُ الرِّياءَ في مِثلِ قَولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ [النساء: ١٤٢] إلى غيرِ ذلك[٥].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ فيه الحَثُّ على فِعلِ المعروفِ، وبَذْلِ الأموالِ الخفيفةِ، كعاريَّةِ الإناءِ والدَّلوِ والكتابِ، ونحوِ ذلك؛ لأنَّ اللهَ ذَمَّ

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢٥٧). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٩٩).

مَن لم يفعَلْ ذلك[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ الحَثُّ على العاريَّةِ[٢]، فإذا احتاج قَومٌ مِن إنسانٍ إلى أنْ يُعيرَهم دَلوًا يَستقُونَ به، أو قِدْرًا يَطبُخون فيها، أو فأسًا يَحفِرون به؛ فإنَّه يجبُ بدَلالةِ الآيةِ بَذْلُه مجَّانًا، إذا كان صاحبُها مُستغنيًا عن تلك المنفعةِ وعِوَضِها[٣].

٧- المُؤمنُ له الإخلاصُ والإحسانُ، والفاجِرُ له الكُفرُ والبُخلُ، وقد ذَمَّ اللهُ سُبحانَه هَذينِ الخُلُقينِ المُهلِكَينِ في غيرِ مَوضعٍ مِن كِتابِه، كقولِه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ * وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾، والرِّياءُ ضِدُّ الإخلاصِ، ومَنْعُ الماعونِ ضِدُّ الإحسانِ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ خَصَّ المكَذِّبين بيَومِ الدِّينِ بمَنْ يَرتكِبُ هذين الأمْرَين: دَعَّ اليَتيمِ، وعدَمَ الحَضِّ على إطعامِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٩٨).

قال ابن عثيمين: (ومَنْعُ الماعونِ يَنقسِمُ إلى قِسمَينِ:

القِسمُ الأوَّلُ: قِسمٌ يأثَمُ به الإنسانُ.

القِسمُ الثَّاني: قِسمٌ لا يأثمُ به، لكن يَفوتُه الخيرُ.

فما وجَب بَذْلُه فإنَّ الإنسانَ يأثمُ بمَنعِه، وما لم يجِبْ بَذْلُه فإنَّ الإنسانَ لا يأثمُ بمَنعِه، لكن يَفوتُه الخيرُ. مِثالُ ذلك: إنسانٌ جاءه رجلٌ مضطرٌّ يقولُ: أعطني ماءً أشربُه، فإن لم أشرَبْ متُّ، فبَذْلُ الإناءِ له واجبٌ، يأثمُ بتَركِه الإنسانُ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٢).

المِسكين؟

الجوابُ: أنَّهما نَموذَجانِ ومِثالانَ فقط[١]، واقتَصَر عليهما [لا] على معنى: أنَّ الصَّادِرَ عَمَّن يُكَذِّبُ بالدِّينِ ليس إلَّا ذلك؛ لأنَّا نَعلَمُ أنَّ المكَذِّبَ بالدِّينِ لا يقتَصِرُ على هذينِ، بل على سَبيلِ التَّمثيلِ، كأنَّه تعالى ذكَرَ في كُلٍّ واحدٍ مِن القِسمَينِ مِثالًا واحِدًا؛ تنبيهًا بذِكْرِه على سائِرِ القبائِحِ، أو مِن أجْلِ أنَّ هاتَينِ الخَصلتينِ كما أنَّهما قبيحانِ مُنكَرانِ بحَسَبِ الشَّرعِ، فهما أيضًا مُستنكَرانِ بحسَبِ المروءةِ والإنسانيَّةِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ ذَكَر اللهُ تعالى في تعريفِ مَن يُكَذِّبُ بالدِّينِ وَصفَينِ: أحَدُهما مِن بابِ الأفعالِ، وهو قَولُه: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾، والثَّاني مِن بابِ التُّروكِ، وهو قَولُه: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، والفاءُ في قَولِه ﴿فَذَٰلِكَ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: لَمَّا كان كافِرًا مُكَذِّبًا كان كُفرُه سَبَبًا لدَعِّ اليتيمِ[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فيه سُؤالٌ: أليس قد لا يحُضُّ المرءُ في كثيرٍ مِن الأحوالِ، ولا يكونُ آثِمًا؟

الجوابُ: لأنَّ غيرَه يَنوبُ مَنابَه، أو لأنَّه لا يُقبَلُ قَولُه، أو لمفسَدةٍ أُخرى يتوقَّعُها، أمَّا هاهنا فذَكَر أنَّه لا يَفعَلُ ذلك إلَّا لأنَّه مُكَذِّبٌ بالدِّينِ[٤].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ لَمْ يقلْ:

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٢/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٢/ ٣٠٣).

(ولا يُطعِمُ المِسكينَ)؟

الجوابُ: إذا مَنَع اليَتيمَ حَقَّه، فكيف يُطعِمُ المِسكينَ مِن مالِ نَفْسِه؟! بل هو بخيلٌ مِن مالِ غَيرِه، وهذا هو النِّهايةُ في الخِسَّة، فلَأنْ يكونَ بخيلًا بمالِ نَفْسِه أَولى، وضِدُّه في مَدحِ المؤمنينَ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾[١] [العصر: ٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ في إضافةِ (طعام) إلى (المسكينِ) دليلٌ على أنَّه يَستَحِقُّه[٢].

٦- قَولُه تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، وقولُه: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] هذه الآياتُ تَقتضي ذَمَّ مَن تَرَكَ شيئًا مِن واجباتِ الصَّلاةِ وإنْ كان في الظَّاهِرِ مُصَلِّيًا، مِثلُ أنْ يَترُكَ الوقتَ الواجِبَ، أو يَترُكَ تكميلَ الشَّرائطِ والأركانِ مِن الأعمالِ الظَّاهِرةِ والباطنة[٣].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف توعَّدَ اللهُ السَّاهيَ عن الصَّلاةِ، مع أنَّه غيرُ مُؤاخَذٍ بالسَّهوِ؟

الجوابُ: المرادُ بالسَّهوِ هنا: التَّغافُلُ والتَّكاسُلُ عن أدائِها، وقِلَّةُ الالتِفاتِ إليها، وذلك فِعلُ المنافِقينَ أو الفَسَقةِ مِنَ المُسلِمينَ، لا ما يَتَّفِقُ فيها مِن السَّهْوِ بالوَسوَسةِ أو حديثِ النَّفْسِ ممَّا لا صُنعَ للعَبدِ فيه[٤]. وقد فَرَّق العُلَماءُ بيْن السَّهْوِ في الشَّيءِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٩).

والسَّهْوِ عن الشَّيءِ؛ فالسَّهْو في الشَّيءِ ليس بمذمومٍ، بخلافِ السَّهْوِ عن الشَّيءِ؛ فإنَّه مذمومٌ؛ ولذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ ذامًّا السَّاهِينَ عن الصَّلاةِ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ السَّهْوَ في الشَّيءِ تَرْكٌ له مِن غيرِ قصْدٍ، والسَّهْوُ عن الشَّيءِ تَرْكٌ له مع القصدِ[١]. وقد ورد عن عَطاءِ بنِ دينارٍ، أنَّه قالَ: (الحمدُ للَّهِ الَّذي قالَ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، ولم يقُلْ: في صَلاتِهم)[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أنَّه ليس السَّهْوُ عنها تَرْكَها، وإلَّا لم يَكونوا مُصَلِّينَ، وإنَّما هو السَّهْوُ عن واجِبِها؛ إمَّا عن الوَقتِ، وإمَّا عن الحُضورِ والخُشوعِ، والصَّوابُ أنَّه يَعُمُّ النَّوعَينِ؛ فإنَّه سُبحانَه أثبَتَ لهم صلاةً، ووَصَفَهم بالسَّهْوِ عنها؛ فهو السَّهْوُ عن وقْتِها الواجِبِ، أو عن إخلاصِها وحُضورِها الواجِبِ؛ ولذلك وَصَفَهم بالرِّياءِ، ولو كان السَّهْوُ سَهْوَ تَرْكٍ لَمَا كان هناك رِياءٌ[٣]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تبارك وتعالَى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾

- قولُه: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في تَشويقِ السَّامعِ إلى مَعرفةِ مَن سِيقَ لهُ الكلامُ، والتَّعجيبِ مِن حالِ المُكذِّبين بالجَزاءِ، وما أورَثَهم التَّكذيبُ مِن سُوءِ الصَّنيعِ؛ فالتَّعجيبُ مِن تَكذيبِهم بالدِّينِ وما تَفرَّعَ عليه مِن دَعِّ اليَتيمِ، وعدَمِ الحَضِّ على طَعامِ المسكينِ، وقد صِيغَ هذا التَّعجيبُ في نظْمٍ مُشوِّقٍ؛

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٤/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٦٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٢٤).

لأنَّ الاستِفهامَ عن رُؤيةِ مَن ثَبَتَت له صِلةُ المَوصولِ يذهبُ بذِهنِ السَّامعِ مَذاهبَ شتَّى مِن تَعرُّفِ المَقصدِ بهذا الاستِفهامِ؛ فإنَّ التَّكذيبَ بالدِّينِ شائعٌ فيهم؛ فلا يكونُ مَثارًا للتَّعجُّبِ، فيَترقَّبُ السَّامعُ ماذا يَرِدُ بعْدَه؟ وهو قولُه: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾[(١)].

- يجوزُ أنْ تكونَ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ هي الَّتي بمعْنى أخْبِرْني، فتَتعدَّى لاثنَينِ؛ أحدُهما ﴿ٱلَّذِى﴾، والآخَرُ مَحذوفٌ، تَقديرُه: أليس مُستحِقًّا عَذابَ اللهِ؟ أو: مَن هو؟ ويَجوزُ أنْ تكونَ مِن رُؤيةِ البصَرِ، فلا يكونُ في الكلامِ حذْفٌ؛ فالرُّؤيةُ البَصريَّةُ يَتعدَّى فِعلُها إلى مَفعولٍ واحدٍ؛ فإنَّ المُكذِّبينَ بالدِّينِ مَعروفونَ، وأعمالُهم مَشهورةٌ، فنُزِّلَت شُهرتُهم بذلك مَنزلةَ الأمْرِ المُبصَرِ المُشاهَدِ. وهَمزةُ الاستفهامِ تدُلُّ على التَّقريرِ والتَّفهيمِ؛ ليَتذكَّرَ السَّامعُ مَن يَعرِفُه بهذه الصِّفةِ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ الفاءُ لعطْفِ الصِّفةِ الثَّانيةِ على الأُولى ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾؛ لإفادةِ تَسبُّبِ مَجموعِ الصِّفتينِ في الحُكْمِ المَقصودِ مِن الكلامِ، وذلك شَأنُها في عطْفِ الصِّفاتِ إذا كان مَوصوفُها واحدًا؛ فمَعْنى الآيةِ: عطْفُ صِفتَيْ دَعِّ اليَتيمِ وعَدَمِ إطعامِ المِسكينِ على جُرْمِ التَّكذيبِ بالدِّينِ، وهذا يُفيدُ تَشويهَ إنكارِ البَعثِ بما يَنشَأُ عن إنكارِه مِن المَذامِّ ومِن مُخالَفةٍ للحقِّ، ومُنافاةٍ لِما تَقتضيه الحِكمةُ مِن التَّكليفِ، وفي ذلك كِنايةٌ عن تَحذيرِ المسلمينَ مِن الاقترابِ مِن إحْدى هاتَينِ الصِّفتينِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٥).

بأنَّهما مِن صِفاتِ الَّذين لا يُؤمِنون بالجَزاءِ[١].

وقيل: الفاءُ هي الفَصيحةُ؛ لأنَّها جَوابُ شرْطٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: هَلْ عرَفْتَ الَّذي يُكذِّبُ بالجزاءِ أو بالإسلامِ؟ فإنْ لم تَعرِفْه، أو إنْ أردتَ أنْ تَعرِفَه؛ فهو الَّذي يَدفَعُ اليَتيمَ دفْعًا عَنيفًا، ويَزجُرُه زَجْرًا قَبيحًا، ولا يَحُضُّ على طَعامِ المِسكينِ؛ لعدَمِ اعتقادِه بالجزاءِ؛ ولذلك رتَّبَ الجُملةَ على ﴿يُكَذِّبُ﴾ بالفاءِ[٢].

- وفي إقحامِ اسمِ الإشارةِ واسمِ المَوصولِ بعْدَ الفاءِ -في قَولِه: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى﴾-: زِيادةُ تَشويقٍ؛ حتَّى تَقرَعَ الصِّلةُ سَمْعَ السَّامعِ، فتَتمكَّنَ منه كَمالَ تَمكُّنٍ[٣].

أو وُضِع اسمُ الإشارةِ المُتعرِّضُ لوَصْفِ المُشارِ إليهِ مَوضعَ الضَّميرِ؛ للإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ، والتَّنبيهِ بما فيه مِن معْنى البُعدِ على بُعدِ مَنزلتِه في الشَّرِّ والفسادِ[٤].

- وأيضًا الإشارةُ إلى الَّذي يُكذِّبُ بالدِّينِ باسمِ الإشارةِ (ذلك)؛ لتَمييزِه أكمَلَ تَمييزٍ حتَّى يَتبصَّرَ السَّامعُ فيه وفي صِفَتِه، أو لتَنزيلِه مَنزِلَةَ الظَّاهِرِ الواضحِ بحيث يُشارُ إليه[٥].

- وجِيءَ في ﴿يُكَذِّبُ﴾، و﴿يَدُعُّ﴾، و﴿يَحُضُّ﴾ بصِيغةِ المُضارعِ؛ لإفادةِ تَكرُّرِ ذلك منه ودَوامِه، وهذا إيذانٌ بأنَّ الإيمانَ بالبَعثِ والجزاءِ هو الوازِعُ الحقُّ الَّذي يَغرِسُ في النَّفْسِ جُذورَ الإقبالِ على الأعمالِ الصَّالحةِ حتَّى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٤، ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٤).

يَصيرَ ذلك لها خُلقًا إذا شَبَّتْ عليه، فزَكَتْ وانساقَتْ إلى الخيرِ بدُونِ كُلفةٍ، ولا احتياجٍ إلى آمِرٍ، ولا إلى مَخافةٍ ممَّن يُقيمُ عليه العُقوباتِ، حتَّى إذا اخْتَلى بنَفْسِه وأَمِنَ الرُّقباءَ جاء بالفَحشاءِ والأعمالِ النَّكراءِ[١].

- وكُنِّيَ بنَفْيِ الحضِّ عن نفْيِ الإطعامِ؛ لأنَّ الَّذي يَشُحُّ بالحضِّ على الإطعامِ هو بالإطعامِ أشَحُّ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ الفاءُ إمَّا لرَبْطِ ما بعْدَها بشَرْطٍ مَحذوفٍ، كأنَّه قيلَ: إذا كان ما ذُكِرَ مِن عدَمِ المبالاةِ باليتيمِ والمسكينِ مِن دَلائلِ التَّكذيبِ بالدِّينِ، ومُوجِباتِ الذَّمِّ والتَّوبيخِ؛ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾. وإمَّا لترتيبِ الدُّعاءِ عليهم بالوَيلِ على ما ذُكِرَ مِن قَبائحِهم؛ فمَوقعُ الفاءِ صَريحٌ في اتِّصالِ ما بعْدَها بما قبْلَها مِن الكلامِ على معْنى التَّفريعِ والتَّرتُّبِ والتَّسبُّبِ[٣].

- قولُه: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ صِفةٌ للمُصَلِّينَ مُقيِّدةٌ لحُكمِ المَوصوفِ؛ فإنَّ الويلَ للمُصلِّي السَّاهي عن صَلاتِه لا للمُصلِّي على الإطلاقِ، فيكونُ قولُه: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ تَرشيحًا للتَّهكُّمِ الواقعِ في إطلاقِ وَصْفِ المُصلِّينَ عليهم[٤]. وذلك على أنَّ وَصْفَهم بـ(الْمُصَلِّينَ) المرادُ عَدَمُه، أي: الَّذِينَ لا يُصَلُّونَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٤، ٨٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٦، ٥٦٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٧).

- وعُدِّيَ ﴿سَاهُونَ﴾ بحرْفِ ﴿عَن﴾؛ لإفادةِ أنَّهم تَجاوَزوا إقامةَ صَلاتِهم وتَرَكوها[(١)]. فمعنى (عن): أنَّهم ساهونَ عنها سَهْوَ تَركٍ لها، وقِلَّةِ التِفاتٍ إليها، وذلك فِعلُ المنافِقينَ أو الفَسَقةِ مِن المسلِمينَ[(٢)]. وذلك على قولٍ.

- ومَفعولُ (يَمنَعون) الأوَّلُ مَحذوفٌ، أي: النَّاسَ أو الطَّالبينَ، و﴿ٱلۡمَاعُونَ﴾ مَفعولُه الثَّاني[(٣)].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على الخبَرِ الفِعليِّ في قَولِه: ﴿هُمۡ يُرَآءُونَ﴾ لتَقويةِ الحكْمِ، أي: تَأكيدِه[(٤)].

- قولُه: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ هذا ذمٌّ لهم بمُنْتهى البُخلِ[(٥)].

- وفي قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ * وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ كُرِّرَ ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ﴾ ولم يُقتصَرْ على مرَّةٍ واحدةٍ؛ لامتناعِ عطْفِ الفِعلِ على الاسمِ، ولم يُقَلْ: (الَّذين همْ يَمنَعون)؛ لأنَّه فِعلٌ، فحَسُنَ عطْفُ الفِعلِ على الفعلِ[(٦)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٥)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٩٤).

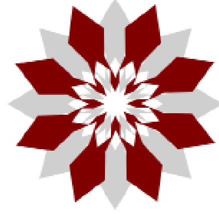
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٩٤).

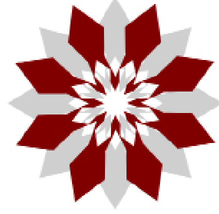
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٨).

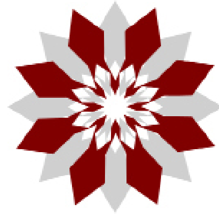
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٨).

(٦) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٦).

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الكَوْثَرِ







سُورةُ الكَوْثَرِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الكَوْثَرِ)(١).

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الكَوْثَرِ مَدنيَّةٌ، وقِيلَ: مكِّيَّةٌ(٢).

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ بذلك؛ لافتِتاحِها بذِكْرِ الكَوثرِ في قولِه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٧).

وسُمِّيَتْ أيضًا: سورةَ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾، وسورةَ (النَّحْرِ). يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧١).

(٢) ممَّن اختار القولَ بأنَّها مَدَنيَّةٌ: ابنُ كثير، وابنُ حَجَر، والسيوطيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٤١)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٢).

والقولُ بأنَّها مكِّيَّةٌ نَسبَهُ للجُمهورِ: ابنُ الجَوزيِّ، وأبو حيَّانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧١).

قال ابنُ عاشور: (وهل هي مكِّيَّةٌ أو مَدَنيَّةٌ؟ تَعارضَت الأقوالُ والآثارُ في أنَّها مكِّيَّةٌ أو مدَنيَّةٌ تَعارُضًا شَديدًا، فهي مكِّيَّةٌ عندَ الجُمهورِ، واقتَصرَ عليه أكثرُ المُفسِّرينَ، ... وعن الحسَنِ وقَتادة ومُجاهِدٍ وعِكْرِمةَ: هي مدَنيَّةٌ، ويَشهَدُ لهم ما في «صحيح مسلم» عن أنسِ بنِ مالكٍ: «بَيْنا رَسولُ اللهِ ذاتَ يَومٍ بيْنَ أَظهُرِنا إذ أَغفَى إغفاءَةً ثمَّ رَفعَ رأسَه وقال: أُنزِلَت علَيَّ آنِفًا سُورةٌ، فقرأ: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١-٣] ...» الحديثَ. وأنَسٌ أسْلَمَ في صَدرِ الهجرة، فإذا كان لفظُ «آنِفًا» في كلامِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مُستعمَلًا في ظاهرِ مَعناهُ -وهو الزَّمنُ القريبُ- فالسُّورةُ نزلَت منذ وَقتٍ قَريبٍ مِن حُصولِ تلك الرُّؤيا. ومُقتضَى ما يُروَى في تَفسيرِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أن تكونَ السُّورةُ مكِّيَّةً، ومُقتضَى ظاهرِ تَفسيرِ قولِه تعالى: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ مِن أنَّ النَّحرَ في الحجِّ أو يومَ الأضحَى تكونُ السُّورةُ مدَنيَّةً، ويَبعَثُ على أنَّ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ ليس ردًّا على كلامِ العاصي بنِ وائلٍ ...). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧١، ٥٧٢).=

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

بِشارَةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالخَيرِ الجَزيلِ مِن الله(١).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- بَيانُ المِنَّةِ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّه أُعطِيَ الخيرَ الكثيرَ.

٢- أَمْرُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنْ يَشكُرَ اللهَ على ذلك بالإقبالِ على العِبادَةِ.

٣- إخبارُه صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّ مُبْغِضَه مُنقَطِعٌ عن كلِّ خَيرٍ.



= وقال البِقاعي: (حديثُ... أنسٍ رضيَ الله عنه يدُلُّ على أنَّها مدَنيَّةٌ؛ لقولِه: «بيْنَ أَظهُرِنا في المَسجِدِ» [مسلم (٤٠٠)]). ((مصاعد النظر)) (٣/ ٢٥٥).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٥٢١). ويُنظر أيضًا: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٥٥).

الآيات (١-٣)

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾: أي: الخَيرَ الكَثيرَ، والنَّهرَ الَّذي تَرِدُه أُمَّتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في القيامةِ، والكَوثَرُ: فَوعَلٌ، مِنَ الكَثرةِ، وأصلُ (كثر): يدُلُّ على خِلافِ القِلَّةِ[١].

﴿وَٱنْحَرْ﴾: أي: اذبَحْ، والنَّحرُ: مَوضِعُ القِلادةِ مِن الصَّدرِ، ونَحَرْتُه: أصَبْتُ نَحْرَه، ومنه: نحرُ البعيرِ، ويُقالُ لذَبْحِ البَعيرِ: النَّحْرُ؛ لأنَّ مَنحَرَه في صَدْرِه[٢].

﴿شَانِئَكَ﴾: أي: مُبغِضَك وعَدُوَّك، وأصلُ (شنأ): يدُلُّ على البُغضِ والتَّجنُّبِ للشَّيءِ[٣].

﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾: المُنقَطِعُ عن الخَيرِ، وأصلُ (بتر): يدُلُّ على القَطْعِ[٤].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٤)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٩).

المعنى الإجماليّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مخاطِبًا نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، ومُبشِّرًا له بقَولِه: إنَّا أعطَيْناك -يا محمَّدُ- نَهرًا في الجنَّةِ اسمُه الكوثَرُ.

ثُمَّ أمَرَه اللهُ تَعالى بالشُّكْرِ على هذه المِنَّةِ، فقال: فاشكُرِ اللهَ تعالى بأن تُصَلِّيَ مُخلِصًا له، وأن تَنحَرَ له وَحْدَه.

ثُمَّ بَشَّرَ اللهُ سُبْحانَه نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بِبِشارةٍ أُخْرى، فقال: إنَّ مُبغِضَك -يا محمَّدُ- هو المنقَطِعُ عن كلِّ خيرٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾.

أي: إنَّا أعطيناك -يا محمَّدُ- نَهرًا في الجنَّةِ اسمُه الكَوثَرُ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٢٩-٥٣١).

قال ابنُ الجَوْزيِّ: (وفي الكَوثَرِ سِتَّةُ أقْوالٍ؛ أحَدُها: أنَّه نَهْرٌ في الجَنَّةِ...، والثَّاني: أنَّ الكَوثَرَ: الخَيْرُ الكَثيرُ الَّذي أُعطِيَ نَبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم، قالَه ابنُ عبَّاسٍ. والثَّالِثُ: العِلمُ والقُرآنُ، قالَه الحَسَنُ. والرَّابِعُ: النُّبوَّةُ، قالَه عِكرِمةُ. والخامِسُ: أنَّه حَوْضُ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم الَّذي يَكثُرُ النَّاسُ عليه، قالَه عَطاءٌ. والسَّادِسُ: أنَّه كَثْرةُ أَتْباعِه وأمَّتِه، قالَه أبو بَكرِ بنُ عيَّاشٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٧).

ممَّن اخْتارَ القَولَ المَذْكورَ؛ أنَّ المُرادَ بالكَوثَرِ نَهْرٌ في الجَنَّةِ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، وابنُ جَريرٍ، والبَغَويُّ، وابنُ الجَوْزيِّ، والرَّسْعَنيُّ، والخازِنُ، وأبو حَيَّانَ، وابنُ حَجَرٍ، والعُلَيْميُّ، والشِّرْبينيُّ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣١٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٧٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٩٥). =

عن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا عُرِجَ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى السَّماءِ قال: أُتِيتُ على نهرٍ حافَتاه قِبابُ اللُّؤلؤِ مُجَوَّفًا، فقُلتُ: ما هذا يا جِبريلُ؟!

= قال ابنُ كَثيرٍ: (وقد صَحَّ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّه فَسَّرَه بالنَّهْرِ...، وهكذا رُوِيَ عن أنَسٍ، وأبي العاليةِ، ومُجاهِدٍ، وغَيرِ واحِدٍ مِن السَّلفِ: أنَّ الكَوثَرَ: نَهْرٌ في الجَنَّةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٢).

وقال ابنُ عطِيَّةَ: (قال أنَسٌ، وابنُ عُمَرَ، وابنُ عبَّاسٍ، وجَماعةٌ مِن الصَّحابةِ والتَّابِعينَ: الكَوثَرُ: نَهْرٌ في الجَنَّةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٩).

قال الرَّازيُّ: (المَشْهورُ والمُسْتَفيضُ عندَ السَّلَفِ والخَلَفِ أنَّه نَهْرٌ في الجَنَّةِ). ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣١٣).

وقال الواحِديُّ: (أكثَرُ المُفَسِّرينَ على أنَّ الكَوثَرَ نَهْرٌ في الجَنَّةِ). ((الوسيط)) (٤/ ٥٦٠).

وقال الرَّسْعَنيُّ: (الَّذي عليه جُمهورُ المفَسِّرينَ وتدُلُّ عليه الأخبارُ والآثارُ: أنَّه نهرٌ في الجنَّةِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٤٨).

وقال ابنُ حَجَرٍ: (والكَوثرُ فَوعَلٌ مِن الكَثرةِ، سُمِّيَ بها النَّهرُ؛ لكثرةِ مائِه وآنِيَتِه، وعِظَمِ قَدْرِه وخَيرِه). ((فتح الباري)) (٨/ ٧٣١).

وقال ابنُ جَريرٍ: (وصَفَه اللهُ بالكَثرةِ؛ لعِظَمِ قَدْرِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٨٥).

وممَّن اخْتارَ القَولَ الثَّانيَ، وأنَّ المُرادَ العُمومُ، أي: أنَّ الكَوثَرَ هو الخَيرُ الكَثيرُ، ومنه النَّهرُ الَّذي يُقالُ له: الكَوثَرُ، والحَوْضُ: السَّمَرْقَنديُّ، والقُشَيْريُّ، والبَيْضاويُّ، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ تيميَّةَ، واختارَه البِقاعيُّ، والسعديُّ، وابنُ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٢٧)، ((تفسير القشيري)) (٣/ ٧٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٣١، ٥٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٢).

وأخرج البخاريُّ في ((صحيحه)) (٦٥٧٨) بسنده عن سعيدِ بنِ جُبيرٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: (الكَوثرُ: الخَيرُ الكثيرُ الَّذي أعطاهُ اللهُ إيَّاه. قال أبو بِشْرٍ: قلتُ لسعيدٍ: إنَّ أُناسًا يَزْعُمونَ أنَّه نَهرٌ في الجنَّةِ؟ فقال سعيدٌ: النَّهَرُ الَّذي في الجَنَّةِ من الخَيرِ الَّذي أعطاهُ اللهُ إيَّاه).

قال ابن حجر: (حاصلُ ما قاله سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: أنَّ قولَ ابنِ عبَّاسٍ: إنَّه الخيرُ الكثيرُ، لا يُخالِفُ قولَ غيرِه: أنَّ المرادَ به نهرٌ في الجنةِ؛ لأنَّ النَّهرَ فردٌ من أفرادِ الخَيرِ الكثيرِ، ولعلَّ سعيدًا أَوْمأَ إلى أنَّ تأويلَ ابنِ عبَّاسٍ أَولى؛ لِعُمومِه، لكنْ ثبَت تخصيصُه بالنَّهرِ من لَفظِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فلا مَعْدِلَ عنه). ((فتح الباري)) (٨/ ٧٣٢).

قال: هذا الكَوثَرُ))[١].

وعن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((بَيْنا رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ذاتَ يومٍ بيْنَ أظهُرِنا إذ أغفى إغفاءةً[٢]، ثمَّ رَفَع رأسَه مُتبَسِّمًا! فقُلْنا: ما أضحَكَك يا رَسولَ اللهِ؟! قال: أُنزِلَت علَيَّ آنفًا سُورةٌ، فقرأ: بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، ثمَّ قال: أتَدْرُونَ ما الكَوثَرُ؟ فقُلْنا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ. قال: فإنَّه نَهرٌ وعَدَنِيه ربِّي عزَّ وجَلَّ، عليه خَيرٌ كثيرٌ، هو حَوضٌ تَرِدُ عليه أُمَّتي يومَ القيامةِ[٣]، آنيَتُه عدَدُ النُّجومِ، فيُختَلَجُ[٤] العَبدُ منهم، فأقولُ: ربِّ إنَّه مِن أُمَّتي! فيَقولُ: ما تدري ما أحدَثَت بَعْدَك!))[٥].

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر مِنَّتَه عليه؛ أمَرَه بشُكْرِها[٦].

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ٢﴾.

أي: فاشكُرِ اللهَ تعالى -يا محمَّدُ- على الكَوثَرِ الَّذي أعطاك، بأن تُصَلِّيَ مُخلِصًا

---

(١) رواه البخاري (٤٩٦٤).

(٢) أَغْفى إغْفاءةً: نامَ نَوْمًا خَفيفًا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٦٣).

(٣) قال ابن كثير: (ومعنَى ذلك: أنَّه يَشْخبُ [أي يسيلُ ويجري] مِن الكوثَرِ -وهو في الجنَّة- ميزابانِ إلى الحوضِ، والحوضُ في موقفِ القيامةِ قبلَ الصِّراطِ؛ لأنَّه يُخْتَلَجُ عنه، ويُمْنَعُ منه أقوامٌ قد ارْتَدُّوا على أعقابِهم...، وجاء مُصَرَّحًا به أنَّه في العَرَصاتِ...، وأمَّا الكوثَرُ فإنَّه نهرٌ في الجنَّة). ((البداية والنهاية)) (١٩/ ٤٢٦).

(٤) يُختلَجُ: أي: يُنتزَعُ ويُقتطَعُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٤/ ١١٣).

(٥) رواه مسلم (٤٠٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

له، وأن تَنحَرَ له وَحْدَه دونَ ما سِواه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٩٦، ٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٢-٥٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٣).

قال ابنُ الجَوْزيِّ: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ وفي هذه الصَّلاةِ ثلاثةُ أقْوالٍ؛ أحدُها: أنَّها صَلاةُ العيدِ. وقال قَتادةُ: صلاةُ الأَضْحى. والثَّاني: أنَّها صلاةُ الصُّبْحِ بالمُزْدَلِفةِ، قالَه مُجاهِدٌ. والثَّالِثُ: الصَّلَواتُ الخَمْسُ، قاله مُقاتِلٌ.

وفي قَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ خمسةُ أقوالٍ؛ أحدُها: اذبَحْ يَومَ النَّحْرِ، رواه عليُّ بنُ أبي طَلْحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال عَطاءٌ ومُجاهِدٌ والجُمهورُ. والثَّاني: وَضْعُ اليُمْنى على اليُسْرى عندَ النَّحْرِ في الصَّلاةِ، رواه أبو الجَوْزاءِ عن ابنِ عبَّاسٍ، وهو قَولُ عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه، قال ابنُ جَريرٍ: فيَكونُ المعنى: ضَعِ اليُمْنى على اليُسْرى عندَ النَّحْرِ في الصَّلاةِ. والثَّالِثُ: أنَّه رَفْعُ اليَدَينِ بالتَّكْبيرِ إلى النَّحْرِ، قالَه أبو جَعفرٍ محمَّدُ بنُ عليٍّ. والرَّابِعُ أنَّ المعنى: صَلِّ للهِ، وانْحَرْ للهِ؛ فإنَّ ناسًا يُصَلُّونَ لغَيْرِه، ويَنحَرونَ لغَيْرِه، قاله القُرَظيُّ. والخامِسُ: أنَّه اسْتِقبالُ القِبْلةِ بالنَّحْرِ، حَكاه الفَرَّاءُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٨). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٨٠)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٩٦).

قال ابنُ عثيمين: (﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ المرادُ بالصَّلاةِ هنا: جميعُ الصَّلواتِ، وأوَّلُ ما يَدخُلُ فيها الصَّلاةُ المقرونةُ بالنَّحْرِ، وهي صلاةُ عيدِ الأضحى، لكِنَّ الآيةَ شامِلةٌ عامَّةٌ ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ الصَّلَواتِ المفروضةَ والنَّوافِلَ، صَلواتِ العيدِ والجُمُعةِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٩).

وقال الرَّسْعَنيُّ: (أمَّا قَولُه: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ فقال عامَّةُ المُفَسِّرينَ: اذبَحْ يومَ النَّحرِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٥٠).

وقال ابنُ كَثيرٍ بعْدَ أن ذكَرَ ما قيلَ في معنى النَّحرِ: (كلُّ هذه الأقوالِ غَريبةٌ جدًّا، والصَّحيحُ القَولُ الأوَّلُ؛ أنَّ المُرادَ بالنَّحرِ ذَبْحُ المَناسِكِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٣).

وقال ابنُ جَريرٍ: (أَوْلى هذه الأقوالِ عندي بالصَّوابِ: قَولُ مَن قال: معنى ذلك: فاجْعَلْ صَلاتَك كلَّها لرَبِّك خالِصًا دونَ ما سِواه مِن الأنْدادِ والآلِهةِ، وكذلك نَحْرُك اجْعَلْه له دونَ الأوْثانِ؛ شُكرًا له على ما أعْطاك مِن الكَرامةِ والخَيرِ الَّذي لا كُفْءَ له، وخَصَّك به، مِن إعْطائه إيَّاك الكَوثَرَ. وإنَّما قُلْتُ: ذلك أَوْلى الأقوالِ بالصَّوابِ في ذلك؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ ثَناؤُه أَخبَرَ نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله -تعالى- لَمَّا بَشَّرَه بالنِّعَمِ العظيمةِ، وعَلِمَ -تعالى- أنَّ النِّعمةَ لا تَهنَأُ إلَّا إذا صارَ العدوُّ مَقهورًا؛ لا جَرَمَ وَعَدَه بقَهرِ العَدوِّ[(١)].

وأيضًا لَمَّا أمَرَه باستِغراقِ الزَّمانِ في عِبادةِ الخالقِ، والإحسانِ إلى الخَلائقِ بأعلَى الخَلائقِ؛ عَلَّلَه بما حاصِلُه أنَّه لا شاغِلَ له ولا حاجةَ أصلًا تُلِمُّ به، فقال[(٢)]:

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)﴾.

أي: إنَّ مُبغِضَك -يا محمَّدُ- هو المنقَطِعُ عن كلِّ خَيرٍ، ومِن ذلك حُسنُ الذِّكْرِ[(٣)].

= بما أكرَمَه به مِن عَطيَّتِه وكَرامتِه، وإنْعامِه عليه بالكَوثَرِ، ثُمَّ أَتْبَعَ ذلك قولَه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، فكان مَعْلومًا بذلك أنَّه خَصَّه بالصَّلاةِ له والنَّحرِ على الشُّكْرِ له على ما أعْلَمَه مِن النِّعْمةِ الَّتي أنْعَمَها عليه، بإعْطائه إيَّاه الكَوثَرَ، فلم يكنْ لِخُصوصِ بعضِ الصَّلاةِ بذلك دونَ بعضٍ، وبعضِ النَّحْرِ دونَ بعضٍ وَجْهٌ؛ إذ كان حَثًّا على الشُّكْرِ على النِّعَمِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٩٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (وقد امتثَلَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أمْرَ ربِّه، فكان كَثيرَ الصَّلاةِ لربِّه، كَثيرَ النَّحْرِ، حتَّى نَحَرَ بيَدِه في حَجَّةِ الوَداعِ ثلاثًا وسِتِّينَ بَدَنةً، وكان يَنحَرُ في الأعْيادِ وغَيرِها). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٥٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٣، ٣٣٤). =

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ لم يَقُلْ: (أعطَينا الرَّسولَ) أو (النَّبيَّ) أو (العالِمَ) أو (المُطيعَ)؛ لأنَّه لو قال ذلك لَأشعَرَ أنَّ تلك العَطيَّةَ وقَعَت مُعَلَّلةً بذلك الوَصفِ، فلمَّا قال: ﴿أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ عُلِمَ أنَّ تلك العَطيَّةَ غيرُ مُعَلَّلةٍ بعِلَّةٍ أصلًا، بل هي مَحْضُ الاختيارِ والمشيئةِ، كما قال: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا﴾[الزخرف: ٣٢]، ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1] [الحج: ٧٥].

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ في إسنادِ الإعطاءِ إليه دونَ الإيتاءِ إشارةٌ إلى أنَّ ذلك إيتاءٌ على جهةِ التَّمليكِ؛ فإنَّ الإعطاءَ دونَه كثيرًا ما يُستعمَلُ في ذلك، ومنه قولُه تعالى لِسُلَيمانَ عليه السَّلامُ: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ [ص: ٣٩] بعْدَ قولِه: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا﴾ [ص: ٣٥]. وقيلَ: فيه إشارةٌ إلى أنَّ المُعطَى وإن كان كثيرًا في نَفْسِه قَليلٌ بالنِّسبةِ إلى شأنِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بِناءً على أن الإيتاءَ لا يُستعمَلُ إلَّا في الشَّيءِ العظيمِ، كقولِه تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗا﴾ [سبأ: ١٠] و﴿ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، والإعطاءُ يُستعمَلُ في القليلِ والكثيرِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٤]، ففيه مِن تَعظيمِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما فيه. وقيلَ: التَّعبيرُ بذلك؛ لأنَّه بالتَّفضُّلِ أَشْبَهُ، بخِلافِ الإيتاءِ، فإنَّه قد يكونُ واجِبًا، ففيه إشارةٌ إلى الدَّوامِ والتَّزايُدِ أبدًا؛ لأنَّ التَّفضُّلَ

= قال الرَّاغب: (زَعَموا أنَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم يَنقَطِعُ ذِكْرُه إذا انقطَعَ عُمُرُه؛ لفِقْدانِ نَسْلِه، فنَبَّه تعالى أنَّ الَّذي ينقطِعُ ذِكرُه هو الَّذي يَشْنَؤُه، فأمَّا هو فكما وصَفَه اللهُ تعالى بقَولِه: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح: ٤]؛ وذلك لجَعْلِه أبًا للمُؤمنينَ، وتقييضِ مَن يُراعيه ويُراعي دِينَه الحَقَّ). ((المفردات)) (ص: ١٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣١١، ٣١٢).

نَتيجةُ كَرمِ اللهِ تعالى، غيرِ المُتناهِي[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أبلَغُ مِن: (فَصلِّ لله)؛ لأنَّ لَفظَ الرَّبِّ يُفيدُ التَّربيةَ المتقدِّمةَ المشارَ إليها بقولِه: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، ويُفيدُ الوَعدَ الجَميلَ في المستقبَلِ أنَّه يُربِّيه ولا يَترُكُه[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾، فيه سُؤالٌ: المَذكورُ عَقِبَ الصَّلاةِ هو الزَّكاةُ، فلِمَ كان المَذكورُ هاهنا هو النَّحرَ؟

الجوابُ: أمَّا على قَولِ مَن قال: المُرادُ مِن الصَّلاةِ: صلاةُ العيدِ، فالأمرُ ظاهرٌ فيه. وأمَّا على قَولِ مَن حَمَلَه على مُطلقِ الصَّلاةِ؛ فلِوُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ المُشرِكينَ كانت صَلَواتُهم وقَرابِينُهم للأَوثانِ، فقِيلَ له: اجعَلْهما للهِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ مِن النَّاسِ مَن قال: إنَّه -عليه السَّلامُ- ما كان يَدخُلُ في مِلكِه شَيءٌ مِن الدُّنيا، بل كان يَملِكُ بقَدرِ الحاجةِ، فلا جَرَمَ لم تجِبِ الزَّكاةُ عليه، أمَّا النَّحرُ فقد كان واجبًا عليه.

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّ أعزَّ الأموالِ عندَ العَربِ هو الإبِلُ، فأمَرَه بنَحْرِها، وصَرفِها إلى طاعةِ اللهِ تعالى؛ تَنبيهًا على قَطعِ العَلائقِ النَّفْسانيَّةِ عن لَذَّاتِ الدُّنيا وطَيِّباتِها[٣].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ الذَّبحُ في مَوضِعِه أفضَلُ مِن الصَّدَقةِ بثَمَنِه ولو زاد، كالهدايا والأضاحيِّ؛ فإنَّ نَفْسَ الذَّبحِ وإراقةِ الدَّمِ مقصودٌ؛ فإنَّه عِبادةٌ مَقرونةٌ بالصَّلاةِ، كما قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾، وقال: ﴿قُلۡ

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣١٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٢/ ٣١٩).

﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، ففي كلِّ مِلَّةٍ صلاةٌ ونَسيكةٌ لا يقومُ غيرُهما مقامَهما؛ ولهذا لو تَصَدَّقَ عن دمِ المُتعةِ والقِرانِ بأضعافِ أضعافِ القيمةِ لَمْ يَقُمْ مَقامَه، وكذلك الأضحيَّةُ[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ أَمَرَه اللهُ أنْ يَجْمَعَ بيْن هاتَينِ العِبادتَينِ العَظيمتَينِ، وهُما الصَّلاةُ والنُّسُكُ الدَّالَّتانِ على القُربِ، والتَّواضُعِ والافتقارِ، وحُسْنِ الظَّنِّ، وقوَّةِ اليقينِ، وطُمَأنينةِ القَلبِ إلى اللهِ وإلى عِدَتِه وأَمْرِه، وفَضْلِه وخَلَفِه، عَكْسُ حالِ أهلِ الكِبْرِ والنَّفرةِ، وأهلِ الغِنى عن اللهِ، الَّذين لا حاجةَ في صَلاتِهم إلى رَبِّهم يَسألونَه إيَّاها، والَّذين لا يَنحَرونَ له؛ خَوفًا مِن الفَقرِ، وترْكًا لإعانةِ الفُقَراءِ وإعطائِهم، وسوءَ ظَنٍّ منهم بربِّهم؛ ولهذا جَمَعَ اللهُ بيْنَهما في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، والنُّسُكُ هي الذَّبيحةُ ابتغاءَ وَجْهِه[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ أنَّ الصَّلاةَ والنُّسُكَ هما أجَلُّ ما يُتَقَرَّبُ به إلى اللهِ؛ فإنَّه أتى فيهما بالفاءِ الدَّالَّةِ على السَّبَبِ؛ لأنَّ فِعْلَ ذلك -وهو الصَّلاةُ والنَّحرُ- سَبَبٌ للقيامِ بشُكرِ ما أعطاه اللهُ إيَّاه مِن الكَوثرِ والخَيرِ الكثيرِ، فشُكْرُ المنعِمِ عليه وعِبادتُه أعْظَمُها هاتان العبادتانِ، بلِ الصَّلاةُ نهايةُ العباداتِ وغايةُ الغاياتِ، كأنَّه يقولُ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ الخيرَ الكثيرَ -على قولٍ-، وأنعَمْنا عليك بذلك؛ مِن أَجْلِ قيامِك لنا بهاتَينِ العِبادتين شُكرًا لإنعامِنا عليك، وهما السَّبَبُ لإنعامِنا عليك بذلك، فقُمْ لنا بهما؛ فإنَّ الصَّلاةَ والنَّحرَ محفوفانِ بإنعامٍ قَبْلَهما وإنعامٍ بَعْدَهما، وأَجَلُّ العباداتِ الماليَّةِ النَّحرُ، وأَجَلُّ العباداتِ البَدَنيَّةِ الصَّلاةُ، وما يَجتَمِعُ للعبدِ في الصَّلاةِ لا يَجتمِعُ له في غيرِها مِن سائرِ

(١) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٦٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٣١).

العباداتِ، كما عَرَفَه أربابُ القُلوبِ الحَيَّةِ وأصحابُ الهِمَمِ العاليةِ، وما يَجتمِعُ له في نَحْرِه مِن إيثارِ اللهِ، وحُسْنِ الظَّنِّ به، وقُوَّةِ اليقينِ، والوُثوقِ بما في يَدِ اللهِ: أمرٌ عَجيبٌ إذا قارَنَ ذلك الإيمانُ والإخلاصُ[1].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ عن عَطاءٍ قال: (فَصَلِّ صلاةَ العِيدِ)؛ ففي الآيةِ مَشروعيَّةُ صلاةِ العيدِ، والأضحيَّةِ، وتأخيرِها عن الصَّلاةِ[2]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ. والأُضحيَّةُ مِن أعظمِ شعائرِ الإسلامِ، وهي النُّسُكُ العامُّ في جميعِ الأمصارِ، والنُّسُكُ مَقْرونٌ بالصَّلاةِ في قَولِه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وقد قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، فأمَرَ بالنَّحْرِ كما أَمَرَ بالصَّلاةِ[3].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ استدَلَّ به مَن قال بأنَّ الأُضحيَّةَ كانت واجبةً على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[4].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ استدَلَّ به مَن قال بأنَّ وَقتَ الأضحيَّةِ بَعْدَ مُضِيِّ قَدْرِ الصَّلاةِ خاصَّةً، ولم يعتَبِرِ الخُطبتَينِ[5].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ في ظاهِرِ الآيةِ أنَّ الإبلَ أفضَلُ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مذهَبُ الحَنَفيَّةِ، والحَنابلةِ أنَّ وقتَ الأضْحيَّةِ يَبدأُ بعْدَ صلاةِ العيدِ، واختارَه الطَّحاويُّ، والشَّوكانيُّ، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي و((حاشية الشِّلْبي)) (٦/ ٤)، ((الفروع)) لابن مفلح (٦/ ٩٢)، ((شرح معاني الآثار)) للطحاوي (٤/ ١٧٤)، ((الدراري المضية)) للشوكاني (٢/ ٣٤٣)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٧/ ٤٥٩).

مِن البَقَرِ والغَنَمِ في الضَّحايا، لأنَّه تعالى أمَرَ بالنَّحرِ، والنَّحرُ إنَّما يكونُ فيها. وقال مالِكٌ رحمه اللهُ تعالى: الغَنَمُ أفضَلُ، وقد ضَحَّى رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بكَبشَين[١]، ويُحمَلُ الأمرُ بالنَّحرِ في الآيةِ إنْ جعَلْناها في الضَّحِيَّةِ خارجًا على ما كان الأكثَرُ عِندَهم في ذلك الوَقتِ، وهو الإبلُ؛ فلذلك خَصَّ النَّحْرَ، وبيَّن النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقَولِه وفِعْله أنَّ الغَنَمَ أفضَلُ، وأيضًا فإنَّما فُدِيَ ابنُ إبراهيمَ عليهما السَّلامُ مِن الذَّبحِ بكَبْشٍ[٢].

١٢- الذَّبحُ لغَيرِ اللهِ شِركٌ أكبَرُ؛ لأنَّ الذَّبحَ عبادةٌ، كما أمر به في قَولِه تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، وقَولِه سُبحانَه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٣] [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

١٣- قَولُه تَعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّك لا تَتأسَّفُ على شيءٍ مِن الدُّنْيا، كما ذَكَرَ ذلك في آخِرِ (طه) و(الحِجْر) وغَيْرِهما، وفيها الإشارةُ إلى تَرْكِ الالْتِفاتِ إلى النَّاسِ وما يَنالُك مِنهم، بلْ صَلِّ لرَبِّك وانْحَرْ[٤].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ لَمْ يقلْ: (ضَحِّ)؛ حتَّى يَشمَلَ جميعَ أنواعِ الضَّحايا؟

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٥٥٨)، ومسلمٌ (١٩٦٦) مِن حديثِ أنَسٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٦٢٩).

مَذهَبُ الجُمهورِ مِن الحَنَفيَّةِ والشَّافِعيَّةِ والحَنابِلة: أنَّ أفضَلَ الأضاحي البَدَنةُ، ثُمَّ البَقَرةُ، ثمَّ الشَّاةُ. يُنظر: ((شرح مختصر الطحاوي)) للجَصَّاص (٧/ ٣٢٦)، ((المجموع)) للنَّووي (٨/ ٣٩٦)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٢/ ٥٣٠).

ومَذهَبُ المالِكيَّةِ أن أفضَلَها الغَنَمُ، ثمَّ البَقَرُ، ثمَّ الإبلُ. يُنظر: ((بداية المجتهد)) لابن رشد (١/ ٤٣٠)، ((الذخيرة)) للقرافي (٤/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((فتاوى أركان الإسلام)) لابن عثيمين (ص: ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٣٢، ٥٣٣).

الجوابُ: أنَّ الصَّلاةَ أعظَمُ العباداتِ البَدَنيَّةِ؛ فقُرِنَ بها أعظَمُ أنواعِ الضَّحايا، وأيضًا فيه إشارةٌ إلى أنَّك بعْدَ فَقرِك تصيرُ بحيثُ تَنحَرُ المِئةَ مِنَ الإبِلِ(١)!

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ أنَّ مَن شَنَأَ شيئًا ممَّا جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فله مِن ذلك نَصيبٌ، قال أبو بكرِ بنُ عَيَّاشٍ: «إنَّ أهلَ السُّنَّةِ يَبقَونَ ويَبقى ذِكْرُهم، وأهلَ البدعةِ يموتون ويموتُ ذِكْرُهم»؛ وذلك أنَّ أهلَ البدعةِ شَنَؤُوا بعضَ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأَبْتَرَهم بقَدْرِ ذلك، والَّذين أَعلَنوا ما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صار لهم نصيبٌ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح: ٤]؛ فإنَّ ما أكرَمَ اللهُ به نبيَّه مِن سعادةِ الدُّنيا والآخِرةِ فللمؤمِنينَ المتابِعينَ نَصيبٌ بقَدْرِ إيمانِهم، فما كان مِن خصائصِ النُّبُوَّةِ والرِّسالةِ فلَمْ يُشارِكْ فيه أحدٌ مِن أُمَّتِه، وما كان مِن ثوابِ الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ فلكلِّ مُؤمنٍ نَصيبٌ بقَدْرِ ذلك(٢).

١٦- قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ فكلُّ مَن شنَأه أو أبغَضه وعاداه فإنَّ اللهَ يَقطَعُ دابِرَه، ويَمحَقُ عَينَه وأَثَرَه(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾

- افتِتاحُ الكلامِ بحرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ بالخبَرِ، والإشعارِ بأنَّه شَيءٌ عَظيمٌ يَستتبِعُ الإشعارَ بتَنويهِ شَأنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والكلامُ مَسوقٌ مَساقَ البِشارةِ، وإنشاءِ العَطاءِ، لا مَساقَ الإخبارِ بعَطاءٍ سابقٍ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٢٠).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٨).
(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول على شاتم الرسول)) لابن تيمية (ص: ١٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٢).

- وأُرِيدَ مِن هذا الخبَرِ بِشارةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وإزالةُ ما عسى أنْ يكونَ في خاطِرِه مِن قولِ مَن قال فيه: هو أبتَرُ، فقُوبِلَ معْنى ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ بمعْنى الكَوثرِ؛ إبطالًا لِقولِهم[١].

- وضَميرُ العَظَمةِ (نا) مُشعِرٌ بالامتنانِ بعَطاءٍ عَظيمٍ[٢].

- والكَوثرُ: اسمٌ في اللُّغةِ للخَيرِ الكثيرِ، صِيغَ على زِنةِ فَوعَلٍ، ولَمَّا وَقَعَ هنا فيها مادَّةُ الكُثْرِ، كانتْ صِيغتُه مُفيدةً شِدَّةَ ما اشتُقَّت منه، بِناءً على أنَّ زِيادةَ المَبْنى تُؤذِنُ بزِيادةِ المعْنى، أي: المُفرِطُ في الكثرةِ[٣].

- وقولُه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ اعتراضٌ، والفاءُ للتَّفريعِ على البِشارةِ بإعطاءِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الكَوثرَ بأنْ يَشكُرَ ربَّه عليها؛ فإنَّ الصَّلاةَ أفعالٌ وأقوالٌ دالَّةٌ على تَعظيمِ اللهِ، والثَّناءِ عليه، وذلك شُكرٌ لِنعمتِه. وناسَبَ أنْ يكونَ الشُّكرُ بالازديادِ ممَّا عاداهُ عليه المشرِكون وغيرُهم ممَّن قالوا مَقالتَهم الشَّنعاءَ: إنَّه أبتَرُ؛ فإنَّ الصَّلاةَ للهِ شُكرٌ له، وإغاظةٌ للَّذين يَنْهَونه عن الصَّلاةِ؛ كما قال تعالَى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩، ١٠]؛ لأنَّهم إنَّما نَهَوه عن الصَّلاةِ الَّتي هي لِوجْهِ اللهِ دونَ العِبادةِ لأصنامِهم، وكذلك النَّحرُ للهِ[٤].

- وكان المُقتضى أنْ يقولَ: (فصَلِّ لنا)، ولكنَّه انتَقَلَ مِن المُضمَرِ إلى المُظهَرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٦، ٨٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٢، ٥٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٣).

على سَبيلِ الالْتفاتِ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ؛ اهتمامًا بذِكرِ (ربِّكَ)، وتَعظيمًا له، ولِما في لَفظِ الرَّبِّ مِن الإيماءِ إلى استِحقاقِه العِبادةَ مِن أجْلِ رُبوبيَّتِه؛ لأنَّ مَن يُرَبِّيك يَستحِقُّ العِبادةَ، فضْلًا عن فَرْطِ إنعامِه[١]. فمِن فَوائِدِ الآيةِ اللَّطيفةِ الالْتِفاتُ في قَوْلِه: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾، الدَّالَّةِ على أنَّ رَبَّك مُسْتحِقٌّ لِذلك، وأنت جَديرٌ بأن تَعبُدَه وتَنحَرَ له[٢].

- وإضافةُ (ربّ) إلى ضَميرِ المُخاطَبِ؛ لقَصْدِ تَشريفِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وتَقريبِه، وفيه تَعريضٌ بأنَّه يَرُبُّه ويَرأَفُ به[٣].

- قولُه: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ في تَفريعِ الأمرِ بالنَّحرِ مع الأمْرِ بالصَّلاةِ على أنْ أعطاهُ الكوثرَ: خُصوصيةٌ تُناسِبُ الغرَضَ الَّذي نزَلَت السُّورةُ له؛ ألَا ترى أنَّه لم يَذكُرِ الأمرَ بالنَّحرِ مع الصَّلاةِ في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨]؟ ويَظهَرُ أنَّ هذه تَسليةٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم عن صَدِّ المشركينَ إيَّاهُ عن البيتِ في الحُدَيْبِيَةِ، فأعْلَمَه اللهُ تعالَى بأنَّه أعطاهُ خيرًا كثيرًا، أي: قدَّرَه له في المستقبَلِ، وعبَّرَ عنه بالماضي؛ لتَحقيقِ وُقوعِه[٤].

- وأفادتِ اللَّامُ من قولِه: ﴿لِرَبِّكَ ﴾ أنَّه يَخُصُّ اللهَ بصَلاتِه، فلا يُصلِّي لغيرِه، ففيه تَعريضٌ بالمشرِكينَ بأنَّهم يُصَلُّون للأصنامِ بالسُّجودِ لها والطَّوافِ حَوْلَها، وفيه تَنذيرٌ بالكفَّارِ حيث كانت صَلاتُهم مُكاءً وتَصديةً، ونحْرُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٩٧ - ٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٦/ ٥٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للأصنامِ[١]. وقيلَ: فيها التَّعْريضُ بحالِ الأبتَرِ الشَّانِئِ، الَّذي صَلاتُه ونُسُكُه لغَيْرِ اللهِ[٢].

- وعطْفُ ﴿وَٱنْحَرْ﴾ على ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ يَقْتضي تَقديرَ مُتعلَّقِه مُماثِلًا لمُتعلَّقِ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾؛ لدَلالةِ ما قبْلَه عليه، فالتَّقديرُ: وانحَرْ له، وهو إيماءٌ إلى إبطالِ نحرِ المُشرِكين قُربانًا للأصنامِ[٣].

- والأمْرُ بالنَّحرِ دونَ الذَّبحِ تَغليبٌ للَفظِ النَّحرِ، وهو الَّذي رُوعِيَ في تَسميةِ يومِ الأضحى يومَ النَّحرِ، ولِيَشملَ الضَّحايا في البُدنِ والهَدايا في الحجِّ، أو لِيَشملَ الهَدايا الَّتي عُطِّلَ إرسالُها في يومِ الحُدَيبيَةِ، ويُرشِّحُ إيثارَ النَّحرِ رَعْيُ فاصلةِ الرَّاءِ في السُّورةِ[٤].

- وخَصَّ هاتَينِ العِبادتينِ بالذِّكرِ؛ لأنَّهما مِن أفضَلِ العِباداتِ، وأجَلِّ القُرُباتِ، ولأنَّ الصَّلاةَ تتضَمَّنُ الخُضوعَ في القَلْبِ والجوارحِ للهِ، وتنقُّلَها في أنواعِ العُبوديَّةِ، وفي النَّحرِ تقرُّبٌ إلى اللهِ بأفضَلِ ما عندَ العَبدِ مِنَ النَّحائِرِ، وإخراجٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٤). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٤، ٥٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٧٥).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿وَٱنْحَرْ﴾ أي: تقرَّبْ إليه بالنَّحرِ، والنَّحْرُ يختَصُّ بالإبلِ، والذَّبحُ للبَقَرِ والغَنَمِ، لكِنَّه ذكَرَ النَّحرَ؛ لأنَّ الإبلَ أنفعُ مِن غيرِها بالنِّسبةِ للمَساكينِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٣).

وسبَقَ وجْهٌ آخَرُ، وهو أنَّه ذكَرَ النَّحرَ؛ حمْلًا على ما كان الأكثَرَ عِندَهم في ذلك الوَقتِ، وهو الإبلُ. ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٣٠-٣٣١).

للمالِ الَّذي جُبِلَت النُّفوسُ على محبَّتِه والشُّحِّ به[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ استِئنافٌ يَجوزُ أنْ يكونَ استِئنافًا ابتدائيًّا، ويَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ تَعليلًا[٢].

- وفي قَوْلِه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أنْواعٌ مِن التَّأكيدِ؛ أحَدُها: تَصْديرُ الجُمْلةِ بإنَّ. الثَّاني: الإتْيانُ بضَميرِ الفَصْلِ الدَّالِ على قُوَّةِ الإسْنادِ والاخْتِصاصِ. الثَّالثُ: مَجيءُ الخَبَرِ على أَفعَلِ التَّفْضيلِ دونَ اسْمِ المَفْعولِ. الرَّابعُ: تَعْريفُه بـ «اللَّامِ» الدَّالَّةِ على حُصولِ هذا المَوْصوفِ له بتَمامِه، وأنَّه أَحَقُّ به مِن غَيْرِه، ونَظيرُ هذا في التَّأكيدِ قَولُه تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٣] [طه: ٦٨].

- واشتمالُ الكلامِ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ على صِيغةِ قَصْرٍ، وعلى ضَميرِ غائبٍ، وعلى لَفظِ ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾: مُؤذِنٌ بأنَّ المقصودَ به ردُّ كَلامٍ صادرٍ مِن مُعيَّنٍ، وحِكايةُ لَفظٍ مُرَادٍ بالرَّدِّ، وكانوا يَصِفون مَن ليس له ابنٌ بـ (أبتَر)، فأنْزَلَ اللهُ هذه السُّورةَ، فحصَلَ القصْرُ في قَولِه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾؛ لأنَّ ضَميرَ الفصلِ يُفيدُ قَصْرَ صِفةِ الأبتَرِ على الموصوفِ -وهو شانئُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم- قَصْرَ المُسنَدِ على المسنَدِ إليه، وهو قَصْرُ قلْبٍ[٤]، أي: إنَّ مَن أبْغَضَك مِن قَومِك لمُخالَفتِك لهم هُو الأبتَرُ لا أنت[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٦/ ٥٣٣).

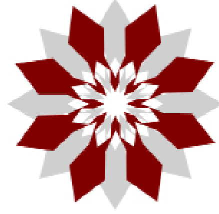
(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٤).

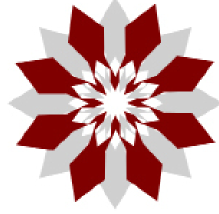
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٧، ٨٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٥، ٥٧٦).

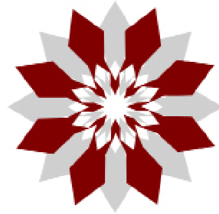
- ولَمَّا كان وَصْفُ الأبتَرِ في الآيةِ جِيءَ به لمُحاكاةِ قولِ القائلِ: (محمَّدٌ أبتَرُ) إبطالًا لقولِه ذلك، وكان عُرْفُهم في وَصْفِ الأبتَرِ أنَّه الَّذي لا عَقِبَ له؛ تعيَّنَ أنْ يكونَ هذا الإبطالُ ضَرْبًا مِن الأُسلوبِ الحَكيمِ، وهو تَلقِّي السَّامعِ بغَيرِ ما يَترقَّبُ، بحَمْلِ كَلامِه على خِلافِ مُرادِه؛ تَنبيهًا على أنَّ الأحقَّ غيرُ ما عَناهُ مِن كَلامِه، وذلك بصَرْفِ مُرادِ القائلِ عن الأبتَرِ الَّذي هو عَديمُ الابنِ الذَّكَرِ إلى ما هو أجدَرُ بالاعتبارِ، وهو النَّاقِصُ حظِّ الخَيرِ(١).



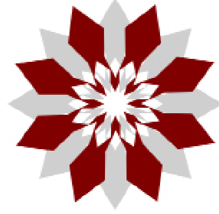
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٧).

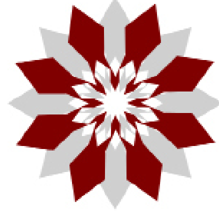


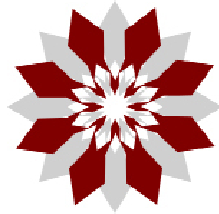




تَفْسِيرُ
سُورَةِ الكافِرُونَ







سُورةُ الكافِرُونَ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ الكافِرونَ(١).

وسُمِّيَت أيضًا بسُورةِ ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾(٢)؛ فعن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُوتِرُ بثَلاثٍ، يَقرأُ في الأولى بـ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، وفي الثَّانيةِ بـ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، وفي الثَّالثةِ بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾))(٣).

فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها:

١- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقرأُ بها في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِن الرَّكعتَينِ قبْلَ الوِترِ:

كما في حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، المتقدِّمِ.

٢- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقرأُ بها وبـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في رَكعتَيِ الفَجرِ:

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ بذلك؛ لوُقوعِ لَفظِ ﴿الْكَافِرُونَ﴾ في فاتِحَتِها في قَولِه: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٩).

(٢) وسُمِّيت أيضًا: سورةَ الكافِرين -على أنَّ المرادَ: سورةُ ذِكْرِ الكافِرين، أو نداءِ الكافِرين-، وسورةَ الإخلاصِ، وسورةَ العبادةِ، وسورةَ الدِّينِ؛ لقولِه: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾. يُنظر: ((جمال القراء)) لعلم الدين السخاوي (ص: ٩٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٩).

(٣) أخرجه الترمذيُّ (٤٦٢)، والنَّسائيُّ (١٧٠٢) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (١١٧٢)، وأحمدُ (٢٧٢٠). صحَّح إسنادَه النَّوويُّ في ((الخلاصة)) (١/ ٥٥٦)، وابنُ الملقِّنِ في ((البدر المنير)) (٤/ ٣٣٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٧٠٢).

عن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه: ((أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قَرأَ في رَكعتَيِ الفَجرِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾))[1].

وعن عائشةَ رضيَ الله عنها، قالت: كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يُصلِّي... ركعتَينِ قبْلَ الفَجرِ، وكان يقولُ: ((نِعْمَ السُّورَتانِ هُما، تَقرَؤُونَهما في الرَّكعَتَينِ قبْلَ الفَجرِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾))[2].

٣- سَمِعَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم رجُلًا يَقرأُ بها في الرَّكعةِ الأُولى مِن رَكعتَيِ الفَجرِ فامْتَدَحَهُ:

عن جابرٍ رضيَ الله عنه: ((أنَّ رجُلًا قامَ فركَعَ رَكعتَيِ الفَجرِ فَقرأَ في الرَّكعةِ الأُولى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ حتَّى انْقَضَت السُّورةُ، فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: هذا عَبدٌ عَرَفَ رَبَّه. وقرأَ في الآخرةِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتَّى انقَضَت السُّورةُ، فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: هذا عَبدٌ آمَنَ بربِّه))[3].

٤- يُستَحَبُّ قِراءتُها عندَ النَّومِ، وهي بَراءَةٌ مِن الشِّرْك:

عن نَوْفَلٍ الأَشْجَعيِّ رضيَ الله عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال له: اقرَأْ عندَ مَنامِك ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، قال: ثُمَّ نَمْ على خاتِمَتِها؛ فإنَّها

---

(١) أخرجه مسلم (٧٢٦).

(٢) أخرجه ابنُ ماجه (١١٥٠)، وأحمدُ (٢٦٠٢٢) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٢٤٦١).
صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، والألبانيُّ في ((صحيح ابن ماجه)) (٩٥٠)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٣/ ١٤٩).

(٣) أخرجه الطَّحاويُّ في ((شرح معاني الآثار)) (١٧٧٤)، وابنُ حِبَّانَ (٢٤٦٠)، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٢٥٢٤).
صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وحسَّنه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٨٩)، وجوَّد إسنادَه الألبانيُّ في ((أصل صفة الصلاة)) (٢/ ٤٥٦)، وقوَّى إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٢٤٦٠).

بَراءَةٌ مِن الشِّرْكِ))[١].

بَيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الكافِرونَ مكِّيَّةٌ، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

البَراءةُ المُطلَقةُ بيْنَ الموحِّدينَ والمُشرِكين[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

أمْرُ اللهِ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُعلِنَ بَراءَتَه مِن الكافِرين، وأن يَنفِيَ عِبادتَه لمَعبُوداتِهم الباطِلةِ، ويَنفِيَ أن يَكونوا عابِدينَ للإلهِ الحقِّ الَّذي يَعبُدُه، وأن يُعلِنَ بَراءتَه مِن دِينِهم، فلَهُم دِينُهم وله دِينُه.

---

(١) أخرجه أبو داودَ (٥٠٥٥)، والترمذيُّ (٣٤٠٣)، والنَّسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٠٦٣٧)، وأحمدُ (٢٣٨٠٧) واللَّفظُ له.
صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٥٥٢٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٠٥٥)، وحسَّنه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٣/ ٦١)، وقال شُعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (٥٠٥٥): (حسنٌ على اضطرابٍ في إسنادِه).وقال شُعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (٥٠٥٥): (حسنٌ على اضطرابٍ في إسنادِه). وصحَّحَ إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢٠٧٧).

(٢) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٧).
ونسَب القولَ بأنَّها مكِّيَّةٌ إلى الجمهورِ: ابنُ الجَوزيِّ، وأبو حَيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٨).
ورُويَ عن قَتادةَ أنَّها مَدَنيَّةٌ. يُنظر: المصدران السَّابقان.

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٨).

الآيات (١-٦)

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾.

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُخاطِبًا نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، بقَولِه تعالى:

قُلْ -يا محمَّدُ- لجَميعِ الكافِرينَ مُعْلِنًا البَراءةَ مِن دينِهم وعِبادتِهم: يا أيُّها الكافِرونَ باللهِ، لا أعبُدُ ما تَعبُدونَه الآنَ، ولا أنتم -أيُّها الكافِرونَ ما دُمْتُم مُستَمِرِّينَ على ضَلالِكم- عابِدونَ اللهَ الَّذي أعبُدُه، ولا أنا عابِدٌ ما عَبَدْتُموه -أيُّها الكافِرونَ- مِن مَعبوداتٍ باطِلةٍ، ولا أنتم -أيُّها الكافِرونَ ما دُمتُم مُستَمِرِّينَ على كُفْرِكم- عابِدونَ اللهَ الَّذي أعبُدُه، لكم دِينُكم الَّذي تبَرَّأتُ منه، ولِيَ دِينُ الإسلامِ والتَّوحيدِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لجَميعِ الكافِرينَ باللهِ، ما داموا متَّصِفينَ بالكُفرِ وثابِتينَ عليه: يا أيُّها الكافِرونَ باللهِ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٤٠، ٥٤٥، ٥٦١، ٥٦٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٥).

قال ابن كثير: (قيل: إنَّهم مِن جَهْلِهم دعَوْا رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلى عبادةِ أوثانِهم سَنةً، ويَعبُدونَ مَعبودَه سَنةً! فأنزَلَ اللهُ هذه السُّورةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣١). =

﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ ﴾.

أي: لا أعبُدُ ما تَعبُدونَه الآنَ مِن مَعبوداتٍ باطِلةٍ، صِفاتُها ناقِصةٌ؛ فليست أهلًا لعبادتِها[1].

= وقال ابنُ تيميَّةَ: (الخِطابُ للمُشرِكينَ كُلِّهم؛ مَن مضى، ومَن يأتي إلى يومِ القيامةِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٥٤٥).

وقال ابنُ كثيرٍ: (هذه السُّورةُ سُورةُ البَراءةِ مِنَ العمَلِ الَّذي يَعمَلُه المُشرِكونَ، وهي آمِرةٌ بالإخلاصِ فيه؛ فقَولُه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ شَمِلَ كُلَّ كافرٍ على وجهِ الأرضِ، ولكِنَّ المواجَهينَ بهذا الخِطابِ هم كُفَّارُ قُرَيشٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥١، ٥٥٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٦).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى هذه الآيةِ والَّتي تَليها: لا أعبُدُ ما تَعبُدونَ في الحالِ، ولا أنتم عابِدونَ ما أعبُدُ في الحالِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والثعلبيُّ، ومكِّيٌّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والنسفي، ونسَبه القرطبيُّ للأخفَشِ والمُبَرِّدِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٧١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٤٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣١٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٢٨).

وقيل: المعنى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ في المُستقبَلِ مِن الزَّمانِ ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ اليومَ، ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ﴾ في المُستقبَلِ ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والرَّسْعَني، والغَرْناطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٨، ٨٠٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٥٤)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٥١١).

واختار ابنُ تيميَّةَ أنَّ قولَه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ يتناوَلُ نفْيَ عبادتِه لِمَعبودِهم في الزَّمانِ الحاضرِ والزَّمانِ المُستقبَلِ، وقولَه: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ يتناوَلُ ما يَعبُدونَه في الحاضرِ والمُستقبَلِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥٢).

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بدأَ بما هو الأحَقُّ بالبُداءَةِ، وهو البَراءةُ مِن الشِّركِ؛ لأنَّه مِن دَرءِ المَفاسِدِ، فأبلَغَ في ذلك بما هو الحَقيقُ بحالِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وكانوا هُم يَعبُدون اللهَ على وَجهِ الإشراكِ، وكانت العِبادةُ مع الشِّركِ غيرَ مُعتَدٍّ بها بوَجهٍ- نفَى عِبادَتَهم له في الجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ، فقال[1]:

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣﴾.

أي: ولا أنتم -أيُّها الكافِرونَ ما دُمْتُم مُستَمِرِّينَ على ضَلالِكم- عابِدونَ اللهَ الَّذي أعبُدُه، المتَّصِفَ بصِفاتِ الكَمالِ سُبحانَه وتعالى[2].

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤﴾.

أي: ولا أنا عابِدٌ ما عَبَدتُموه -أيُّها الكافِرونَ- مِن مَعبوداتٍ باطلة؛ فأنا مُتبَرِّئٌ مِن آلهتِكم وعبادتِكم الباطِلةِ، ولا أقْبَلُها أبدًا[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥٠-٥٥٣، ٥٥٥-٥٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥٣، ٥٥٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٧، ٥٠٨).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ هذه الآيةَ والَّتي تَليها لا تَكرارَ فيهما -وأنَّ المعنى: ولا أنا عابِدٌ ما عَبَدْتُم في الاستقبالِ، ولا أنتم عابِدونَ ما أعبُدُ في الاستقبالِ، وهذا في قَومٍ أعْلَمَه اللهُ أنَّهم لا يؤمِنونَ-: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والنحاس، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، =

= والسمعاني، والبغوي، وابن عطية، والنسفي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٧١)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ١٩٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٤٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٨٧).

وقيل: المعنى -بناءً على أنَّه لا تَكرارَ أيضًا-: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ﴾ أي: ولا كنتُ قَطُّ عابدًا فيما سلَف ﴿مَّا عَبَدتُّمۡ﴾: أي: ما فعَلْتُ ذلك في الجاهليَّةِ، فكيف تَتَوقَّعونَه مِنِّي في الإسلام؟! ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ﴾ أي: ما عبَدْتُم في زمانٍ مِن الأزمانِ ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والرَّسْعَنيُّ، والغَرْناطيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٨، ٨٠٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٥٤)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٥١١).

وقيل: (ما) في قولِه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمۡ * وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ مَصدريَّةٌ، وهي مع الفعلِ في تأويلِ المَصدرِ، أي: ولا أعبُدُ عِبادتَكم، ولا تَعبُدونَ عبادتي. وأمَّا (ما) في الآيتَينِ الأُولَيَينِ فمَوصولةٌ بمعنى (الَّذي). وممَّن اختاره في الجملةِ: ابنُ كثير، والعُلَيميُّ، ونسَبه الرَّازيُّ إلى أبي مسلم الخُراسانيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٣٠).

وقال ابن تيميَّةَ في قولِه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وقولِه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾: (فالأوَّلُ نفْيُ الفعلِ في الماضي والمُستقبَلِ، والثَّاني نفْيُ قَبولِه في الماضي مع الحاضِرِ والمُستقبَلِ، فقولُه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ أي: نَفْسي لا تَقْبَلُ ولا يَصلُحُ لها أن تَعبُدَ ما عَبَدْتُموه قَطُّ، ولو كنتم عَبَدْتُموه في الماضي فقط، فأيُّ معبودٍ عبَدْتُموه في وقتٍ فأنا لا أَقْبَلُ أن أعبُدَه في وقتٍ مِن الأوقاتِ. ففي هذا مِن عُمومِ عبادتِهم في الماضي والمُستقبَلِ، ومِن قوَّةِ بَراءَتِه وامتِناعِه وعدَمِ قَبولِه لهذه العبادةِ في جميعِ الأزمانِ: ما ليس في الجملةِ الأُولى. تلك تضمَّنَتْ نفْيَ الفعلِ في الزَّمانِ غيرِ الماضي، وهذه تضمَّنَتْ نفْيَ إمكانِه وقَبولِه لما كان معبودًا لهم ولو في بعضِ الزَّمانِ الماضي فقط، والتَّقديرُ: ما عبَدْتُموه ولو في بعضِ الأزمانِ الماضيةِ فأنا لا يُمكِنُني ولا يَسوغُ لي أن أعبُدَه أبدًا). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٥٥٤). واستحسَنه ابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٧).

وقيل: الآياتُ فيها تَكرارٌ، وهو للتَّأكيدِ. وممَّن اختاره: الفرَّاءُ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٢٠). ويُنظر أيضًا: ((تأويل مشكل القرآن)) =

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥﴾.

أي: ولا أنتم -أيُّها الكافِرونَ ما دُمْتُم مُستَمِرِّينَ على كُفْرِكم- عابِدونَ اللهَ الَّذي أعبُدُه دائِمًا[1].

﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾.

أي: لكم -أيُّها الكافِرونَ- دِينُكم الَّذي تبَرَّأتُ منه، وهو الكُفرُ باللهِ، ولِيَ دِينُ الإسلامِ والتَّوحيدِ الَّذي أؤمِنُ به[2].

قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

= لابن قتيبة (ص: ١٥١).

قال القرطبيُّ: (أمَّا وجْهُ التَّكرارِ فقد قيل: إنَّه للتَّأكيدِ في قَطعِ أطماعِهم، كما تقولُ: واللهِ لا أفعَلُ كذا، ثمَّ واللهِ لا أفعَلُه. قال أكثَرُ أهلِ المعاني: نزَلَ القرآنُ بلِسانِ العرَبِ، ومِن مَذاهِبِهم التَّكرارُ إرادةَ التَّأكيدِ والإفهامِ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٢٦). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥٠-٥٥٣، ٥٥٥-٥٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٧، ٥٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قولُه: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ يدُلُّ على أنَّكم مختصُّونَ بدينِكم لا أشرَكُكم فيه، وأنا مختَصٌّ بدِيني لا تَشْرَكوني فيه... وليس في هذه الآيةِ أنَّه رَضيَ بدينِ المُشرِكينَ ولا أهلِ الكتابِ، كما يَظُنُّه بعضُ المُلْحِدينَ، ولا أنَّه نهى عن جهادِهم كما ظَنَّه بعضُ الغالِطينَ، وجعَلوها منسوخةً! بل فيها بَراءتُه مِن دينِهم، وبَراءتُهم من دينِه، وأنَّه لا تضُرُّه أعمالُهم، ولا يُجزَونَ بعَمَلِه، ولا يَنفَعُهم، وهذا أمْرٌ مُحكَمٌ لا يَقبَلُ النَّسْخَ، ولم يَرْضَ الرَّسولُ بدينِ المُشرِكينَ ولا أهلِ الكِتابِ طَرْفةَ عَينٍ قَطُّ). ((الجواب الصحيح)) (٣/ ٥٨، ٥٩). ويُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٤٠، ١٤١).

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ في هذه السُّورةِ مَنهَجٌ إصلاحيٌّ، وهو عدَمُ قَبولِ أنصافِ الحُلولِ؛ لأنَّ ما عرَضَه المُشرِكونَ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِنَ المشارَكةِ في العبادةِ -على ما قيل في سبب نُزولِها- يُعتبَرُ في مقياسِ المَنطِقِ حَلًّا وسَطًا؛ لاحتمالِ إصابةِ الحَقِّ في أحدِ الجانِبَينِ، فجاء الرَّدُّ حاسِمًا وزاجِرًا وبشِدَّةٍ؛ لأنَّ فيما عَرَضوه مُساواةً للباطِلِ بالحَقِّ، وفيه تعليقُ المُشكلةِ، وفيه تقريرُ الباطِلِ إنْ هو وافَقَهم ولو لحظةً[١].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هذا يَشملُ كُلَّ كافرٍ، سواءٌ كان مِن المُشرِكينَ، أو مِنَ اليَهودِ، أو مِنَ النَّصارى، أو من الشُّيوعيِّينَ، أو من غَيرِهم، كُلُّ كافرٍ يجبُ أنْ تُناديَه بقَلْبِك أو بلِسانِك -إنْ كان حاضِرًا-؛ لِتَتبَرَّأَ منه ومِن عِبادتِه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- السُّوَرُ المُفتَتَحةُ بالأمرِ بالقَولِ خَمسُ سُوَرٍ: ﴿قُلْ أُوحِىَ﴾ [الجن: ١]،

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٥).

وسورةُ الكافِرونَ، وسورةُ الإخلاصِ، والمُعَوِّذتانِ؛ فالثَّلاثُ الأُوَلُ لقَولٍ يُبَلِّغُه، والمُعَوِّذتانِ لقَولٍ يَقولُه لِتَعويذِ نَفْسِه[(١)].

٢- إنَّ سورتَيْ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ هُما سُورَتَا الإخلاصِ؛ فـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فيها إخلاصُ القَصْدِ، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها إخلاصُ العقيدةِ، فالتَّوحيدُ في ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ توحيدٌ عِلْميٌّ عَقَدِيٌّ، وفي ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عَمَليٌّ إراديٌّ[(٢)].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ليس في الدُّنيا لفظٌ أشنَعُ ولا أبشَعُ مِن لَفظِ الكافرِ؛ وذلك لأنَّه صِفةُ ذَمٍّ عندَ جميعِ الخَلْقِ، سواءٌ كان مُطلَقًا أو مُقيَّدًا[(٣)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لَمْ يَقُلْ سُبحانَه: «يا أيُّها المُشرِكونَ»، فتناولَتِ السُّورةُ كلَّ كافرٍ، سواءٌ كان ممَّن يُظهِرُ الشِّركَ، أو كان فيه تعطيلٌ لِمَا يَستَحِقُّه اللهُ، واستِكبارٌ عن عِبادتِه، والتَّعطيلُ شَرٌّ مِن الشِّركِ، وكلُّ مُعَطِّلٍ فلا بُدَّ أنْ يكونَ مُشرِكًا، والنَّصارى مع شِرْكِهم لهم عباداتٌ كثيرةٌ، واليهودُ من أقلِّ الأممِ عِبادةً وأبْعَدِهم عن العبادةِ للهِ وحْدَه، لكنْ قد يَعْرِفونَ ما لا تَعْرِفُه النَّصارى، لكنْ بلا عبادةٍ وعَمَلٍ بالعِلمِ؛ فهم مَغضوبٌ عليهم، وأولئك ضالُّون، وكِلاهما قد بَرَّأَ اللهُ منهم رسولَه والمؤمنينَ[(٤)].

٥- قال تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ نَفْيُ العِبادةِ مُطلقًا ليس نفيًا لِمَا قد يُسمَّى عِبادةً مع التَّقييدِ. والمُشرِكُ إذا كان يَعبُدُ اللهَ ويَعبُدُ غيرَه فيُقالُ: إنَّه يَعبُدُ اللهَ وغيرَه، أو يَعبُدُه مُشرِكًا به، لا يُقالُ: إنَّه يَعبُدُ مُطلقًا. والمُعَطِّلُ الَّذي لا يَعبُدُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٧/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٦٦).

شيئًا شَرٌّ منه، والعِبادةُ المُطلقَةُ المُعتدِلةُ هي المَقبولةُ، وعِبادةُ المُشركِ ليست مَقبولةً[(١)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ: اشتِمالُ هذه السُّورةِ على النَّفيِ المَحْضِ، فهذا هو خاصَّةُ هذه السُّورةِ العظيمةِ؛ فإنَّها سورةُ براءةٍ مِن الشِّركِ، كما جاء في وَصْفِها أنَّها (بَراءةٌ مِن الشِّركِ)[(٢)]، فمَقصودُها الأعظمُ هو البراءةُ المُطلَقةُ بيْنَ الموحِّدينَ والمُشركين؛ ولهذا أتَى بالنَّفيِ في الجانبَينِ تحقيقًا للبَراءةِ المطلوبةِ، هذا معَ أنَّها متضَمِّنةٌ للإثباتِ صريحًا، فقولُه: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ براءةٌ مَحْضةٌ، ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ إثباتُ أنَّ له مَعبودًا يَعبُدُه، وأنتم بَريئونَ مِن عبادتِه، فتضمَّنتِ النَّفيَ والإثباتَ، وطابقَتْ قولَ إمامِ الحُنَفاءِ: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وطابقَتْ قولَ الفِتْيةِ الموحِّدينَ: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الكهف: ١٦]؛ فانتظَمَتْ حقيقةَ «لا إلهَ إلَّا اللهُ»؛ ولهذا كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقْرِنُها بسُورةِ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ في سُنَّةِ الفَجرِ، ويقرأُ بهما في الوترِ[(٣)]؛ فإنَّ هاتَينِ السُّورتَينِ سُورتَا الإخلاصِ، وقد اشتمَلَتا على نَوعَيِ التَّوحيدِ الَّذي لا نجاةَ للعَبدِ ولا فلاحَ إلَّا بهما، وهما: **توحيدُ العِلمِ والاعتقادِ**

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٧٤).

(٢) يُنظر ما أخرجه أبو داود (٥٠٥٥)، والترمذي (٣٤٠٣)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٦٣٧)، وأحمد (٢٣٨٠٧) من حديث نوفل الأشجعي رضي الله عنه.
صحَّحه ابنُ حبانَ في ((صحيحه)) (٥٥٢٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٠٥٥)، وحسَّنه ابنُ حجرٍ في ((نتائج الأفكار)) (٣/ ٦١)، وصحَّحَ إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢٠٧٧)، وقال شُعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريجِ ((سنن أبي داود)) (٥٠٥٥): (حسنٌ على اضطرابٍ في إسنادِه).

(٣) يُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٤١).

المتضمِّنُ تنزيهَ اللهِ عمَّا لا يَليقُ به مِن الشِّركِ والكُفرِ والوَلَدِ والوالِدِ، وأنَّه إلهٌ أَحَدٌ صَمَدٌ، لم يَلِدْ؛ فيكونَ له فَرعٌ، ولم يولَدْ؛ فيكونَ له أصلٌ، ولم يكُنْ له كُفُوًا أحدٌ؛ فيكونَ له نظيرٌ، ومع هذا فهو الصَّمَدُ الَّذي اجتمَعَت له صِفاتُ الكَمالِ كُلُّها؛ فتضَمَّنت السُّورةُ إثباتَ ما يَليقُ بجلالِه مِن صِفاتِ الكَمالِ، ونَفْيَ ما لا يليقُ به مِنَ الشَّريكِ أصلًا وفَرْعًا ونظيرًا، فهذا توحيدُ العِلْمِ والاعتقادِ.

والثَّاني: توحيدُ القَصدِ والإرادةِ، وهو ألَّا يُعبَدَ إلَّا إيَّاه، فلا يُشْرَكَ به في عبادتِه سِواه، بل يكونُ وَحْدَه هو المعبودَ، وسورةُ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مُشتَمِلةٌ على هذا التَّوحيدِ؛ فانتظَمَت السُّورتانِ نَوعَيِ التَّوحيدِ، وأخلصَتا له، فكان صلَّى الله عليه وسلَّم يَفتَتِحُ بهما النَّهارَ في سُنَّةِ الفَجْرِ، وكان يُوتِرُ بهما[1]، فسُنَّةُ الفجرِ تجري مَجرَى بدايةِ العملِ، والوترُ خاتمتُه[2].

٧- تَخصيصُ البَراءةِ مِن الشِّرْكِ بشِرْكِ مُشرِكي العَربِ غلَطٌ عَظيمٌ، وإنَّما هي بَراءةٌ مِن كلِّ شِركٍ، فقولُه: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ خِطابٌ للكُفَّارِ مُطلقًا، فإذا قال اليَهودُ: نحن نَقصِدُ عِبادةَ الله، كانوا كاذِبينَ، سَواءٌ عرَفوا أنَّهم كاذِبونَ أو لم يَعرِفوا، كما يقولُ النَّصارَى: إنَّا نَعبُدُ اللهَ وَحْدَه وما نحن بمُشرِكين، وهم كاذِبون؛ لأنَّهم لو أرادوا عِبادَته لَعَبدوهُ بما أمَرَ به، وهو الشَّرعُ، لا بالمَنسُوخِ المُبَدَّلِ. وأيضًا فالرَّبُّ الَّذي يَزعُمون أنَّهم يَقصِدون عِبادتَه هو عِندَهم رَبٌّ لم يُنزِلِ الإنجيلَ ولا القُرآنَ، ولا أَرسلَ المَسيحَ ولا محمَّدًا، بل هو عندَ بَعضِهم فَقيرٌ، وعندَ بعضِهم بَخيلٌ، وعندَ بعضِهم عاجِزٌ، وعندَ بعضِهم لا يَقدِرُ أن يُغيِّرَ ما شَرَعَه، وعندَ جَميعِهم أنَّه أيَّد الكاذِبينَ المُفتَرِينَ عليه الَّذين يَزعُمون أنَّهم رُسُلُه،

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣٠٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٨).

وليسوا رُسُلَه، بل هُم كاذِبون سَحَرةٌ، قد أيَّدَهُم ونَصَرَهم، ونَصَر أتْباعَهم على أوليائه المُؤمِنينَ؛ لأنَّهم عندَ أنفُسِهم أَولياؤُه دُون النَّاسِ، فالرَّبُّ الَّذي يَعبُدونَه هو دائمًا يَنصُرُ أعداءَه! فهُم يَعبُدونَ هذا الرَّبَّ، والرَّسولُ والمُؤمِنونَ لا يَعبُدونَ هذا المَعبُودَ الَّذي تَعبُدُه اليَهودُ؛ فهو مُنَزَّهٌ عمَّا وَصَفَت به اليَهودُ مَعبُودَها مِن جِهَةِ كَوْنِه مَعبودًا لهم، مُنَزَّهٌ عن هذه الإضافةِ، فليس هو مَعبودًا لليَهودِ، وإنَّما في جِبِلَّاتِهم صِفاتٌ ليست هي صِفاتِه، زَيَّنَها لهم الشَّيطانُ، فهم يَقصِدون عِبادةَ المُتَّصِفِ بتلك الصِّفاتِ، وإنَّما هو الشَّيطانُ! فالرَّسولُ والمُؤمنونَ لا يَعبُدونَ شيئًا تَعبُدُه اليَهودُ، وإن كانوا يَعبُدونَ مَن يَعبُدونَه[1].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ تدُلُّ بظاهِرِها على أنَّ الكُفَّارَ المُخاطَبينَ بها لا يَعبُدونَ اللهَ أبدًا، مع أنَّه دَلَّت آياتٌ أُخَرُ على أنَّ منهم مَن يؤمِنُ باللهِ تعالى، كقَولِه: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ الآيةَ [العنكبوت: ٤٧]؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّه خِطابٌ لِجنسِ الكُفَّارِ وإن أسلَموا فيما بَعْدُ، فهو خِطابٌ لهم ما داموا كُفَّارًا، فإذا أسلَموا لم يَتناوَلْهم ذلك؛ لأنَّهم حينَئذٍ مؤمِنونَ لا كافِرونَ، وإن كانوا منافِقينَ فهم كافِرونَ في الباطِنِ، فيَتناوَلُهم الخِطابُ.

الوَجهُ الثَّاني: هو أنَّ الآيةَ مِنَ العامِّ المخصوصِ، وعليه فهي في خُصوصِ الأشقياءِ المُشارِ إليهم بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ الآيةَ[2] [يونس: ٩٦].

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٦٣، ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٨٩).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ تكريرُ الفِعل بلَفظِ المُستقبَلِ حينَ أَخْبَرَ عن نفْسِه -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وبلَفظِ الماضي حينَ أَخْبَرَ عنهم؛ ففي ذلك سِرٌّ، وهو الإشارةُ والإيماءُ إلى عِصمةِ اللهِ تعالى له عن الزَّيغِ والانحرافِ عن عبادةِ مَعبودِه، والاستبدالِ به غيرَه، وأنَّ معبودَه واحدٌ في الحالِ والمآلِ على الدَّوامِ، لا يَرضى به بدَلًا، ولا يَبغي عنه حِوَلًا، بخِلافِ الكافِرين؛ فإنَّهم يَعبُدون أهواءَهم، ويَتَّبِعون شَهَواتِهم في الدِّينِ وأغراضَهم، فهُم بصَدَدِ أنْ يَعبُدوا اليومَ معبودًا وغَدًا غيرَه؛ فقال: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ يعني: الآنَ، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ أنا الآنَ أيضًا، ثُمَّ قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ يعني: ولا أنا فيما يُستَقبَلُ يَصدُرُ منِّي عبادةٌ لِمَا عبدتُم أيُّها الكافِرونَ، وأشبَهَتْ «ما» هنا رائحةَ الشَّرطِ؛ فلذلك وَقَعَ بعْدَها الفِعلُ بلَفظِ الماضي وهو مُستقبَلٌ في المعنى، كما يَجيءُ ذلك بعْدَ حرفِ الشَّرطِ، كأنَّه يقولُ: مهما عبَدْتُم مِن شَيءٍ فلا أعبُدُه أنا[1].

١٠- إنْ قيلَ: ما الفائدةُ في قَولِه: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾؟ وهل أفادَ هذا معنًى زائدًا على ما تَقدَّمَ؟

فالجوابُ: الحِكمةُ -واللهُ أعلَمُ- أنَّ النَّفيَ الأوَّلَ أفاد البَراءةَ، وأنَّه لا يُتصوَّرُ منه ولا يَنْبغي له أنْ يَعبُدَ مَعبودِيهم، وهمْ أيضًا لا يَكونونَ عابِدينَ لِمَعبودِه، وأفادَ آخِرُ السُّورةِ إثباتَ ما تَضمَّنَه النَّفيُ مِن جِهتِهم مِن الشِّركِ والكفرِ الَّذي هو حظُّهم وقِسْمُهم ونَصيبُهم، فجَرى ذلك مَجرى مَنِ اقتسَمَ هو وغيرُه أرضًا، فقال له: لا تَدخُلُ في حدِّي، ولا أدخُلُ في حَدِّك؛ لك أرْضُك، ولي أرْضي، فتَضمَّنَت الآيةُ أنَّ هذه البَراءةَ اقتَضَت أنَّا اقتَسَمْنا خُطَّتَنا بيْنَنا، فأصابَنا التَّوحيدُ والإيمانُ؛ فهو نَصيبُنا وقِسْمُنا الَّذي نَختَصُّ به لا تَشْرَكونا فيه، وأصابَكم الشِّركُ باللهِ والكفرُ

(١) يُنظر: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ١٤٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٥).

به؛ فهو نَصيبُكم وقِسْمُكم الَّذي تَختصُّون به لا نَشْرَكُكم به[١].

١١- قَولُه تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ هذه كَلِمةٌ تَقتضي براءتَه مِن دِينِهم، ولا تَقتضي رِضاه بذلك، كما قال تعالى في الآيةِ الأخرى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]، ومَن ظَنَّ مِن الملاحدة أنَّ هذا رِضًا منه بدِينِ الكُفَّارِ فهو مِن أكذَبِ النَّاسِ وأكفَرِهم[٢].

١٢- هذه السُّورةُ مِن السُّوَرِ الَّتي يَستحيلُ دُخولُ النَّسخِ في مَضمونِها؛ فإنَّ أحكامَ التَّوحيدِ الَّتي اتَّفقتْ عليه دعوةُ الرُّسُلِ يَستحيلُ دخولُ النَّسخِ فيها، وهذه السُّورةُ أخلَصَتِ التَّوحيدَ؛ ولهذا تُسمَّى سورةَ الإخلاصِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾

- افتِتاحُ السُّورةِ بـ ﴿قُلْ﴾؛ للاهتِمامِ بما بعْدَ القولِ بأنَّه كَلامٌ يُرادُ إبلاغُه إلى النَّاسِ بوَجهٍ خاصٍّ، مَنصوصٌ فيه على أنَّه مُرسَلٌ بقَولٍ يُبلِّغُه، وإلَّا فإنَّ القرآنَ كلَّه مَأمورٌ بإبلاغِه[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ دونَ (يا أيُّها الَّذين كَفَروا)، وسِرُّه: إرادةُ الدَّلالةِ على أنَّ مَن كان الكُفْرُ وَصْفًا ثابتًا له لازِمًا لا يُفارِقُه؛ فهو حَقيقٌ أنْ يَتبرَّأَ اللهُ منه، ويكون هو أيضًا بَريئًا مِن اللهِ، فحَقيقٌ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٩).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٦٨).
(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٠).

بالموحِّدِ البَراءةُ منه، فكان ذِكرُه في مَعرِضِ البَراءةِ الَّتي هي غايةُ البُعدِ والمجانَبةِ بحَقيقةِ حالِه الَّتي هي غايةُ الكفْرِ -وهو الكفْرُ الثَّابتُ اللَّازِمُ- في غايةِ المُناسَبةِ، فكأنَّه يقولُ: كما أنَّ الكفْرَ لازمٌ لكمْ ثابتٌ لا تَنتَقِلون عنه، فمُجانَبتُكم والبَراءةُ منكم ثابتةٌ دائمًا أبدًا؛ ولهذا أتى فيها بالنَّفيِ الدَّالِّ على الاستمرارِ لمُقابَلةِ الكفْرِ الثَّابتِ المستمِرِّ[(١)].

- وقولُه: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ إخبارٌ عن نفْسِه بما يَحصُلُ منها، والمعْنى: لا تَحصُلُ منِّي عِبادتي ما تَعبُدون في أزمنةٍ في المُستقبَلِ تَحقيقًا -وذلك على قولٍ-، ونَفْيُ عِبادتِه آلهتَهم في المُستقبَلِ يُفيدُ نَفْيَ أنْ يَعبُدَها في الحالِ بدَلالةِ فَحْوى الخِطابِ[(٢)]، ولأنَّهم ما عَرَضوا عليه إلَّا أنْ يَعبُدَ آلهتَهم بعْدَ سَنةٍ مُستقبَلةٍ -على ما قيل في سببِ نُزولِ السُّورةِ-؛ ولذلك جاء في جانبِ نَفْيِ عِبادتِهم للهِ بنَفْيِ اسمِ الفاعِلِ الَّذي هو حَقيقةٌ في الحالِ بقولِه: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ﴾، أي: ما أنتُم بمُغيِّرينَ إشراكَكُم الآنَ؛ لأنَّهم عَرَضوا عليه أنْ يَبتدِئوا همْ فيَعبُدوا الرَّبَّ الَّذي يَعبُدُه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم سَنةً، فيما يُروَى، وبهذا تَعلَمُ وَجْهَ المُخالَفةِ بيْن نظْمِ الجُملتينِ في أُسلوبِ الاستعمالِ البليغِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٣٩).

(٢) فَحوَى الخِطابِ -ويُسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَولى، كقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظمُ مِن التَّأفيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كانَ دونَ القِنْطارِ، ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨١، ٥٨٢).

- وقولُه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ عطْفٌ على ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ [الكافرون: ٣] عطْفَ الجُملةِ على الجُملةِ؛ لِمُناسَبةِ نفْيِ أنْ يَعبُدوا اللهَ، فأُردِفَ بنَفْيِ أنْ يَعبُدَ هو آلهتَهم، وعَطْفُه بالواوِ صارِفٌ عن أنْ يكونَ المَقصودُ به تأكيدَ ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾، فجاء به على طَريقةِ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على الثَّباتِ، وبكَونِ الخبَرِ اسمَ فاعلٍ دالًّا على زَمانِ الحالِ، فلمَّا نَفَى عن نفْسِه أنْ يَعبُدَ في المُستقبَلِ ما يَعبُدونه بقَولِه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ -على قولٍ-، صرَّحَ هنا بما تَقتضيهِ دَلالةُ الفَحْوى على نَفْيِ أنْ يَعبُدَ آلهتَهم في الحالِ بما هو صَريحُ الدَّلالةِ على ذلك؛ لأنَّ المَقامَ يَقْتضي مَزيدَ البَيانِ، فاقْتَضى الاعتمادَ على دَلالةِ المَنطوقِ إطنابًا في الكلامِ؛ لتَأييسِهم ممَّا راوَدُوه عليه، ولمُقابَلةِ كَلامِهم المَردودِ بمِثلِه في إفادةِ الثَّباتِ، وحصَلَ من ذلك تَقريرُ المعْنى السَّابقِ وتأكيدُه، تَبَعًا لمَدلولِ الجُملةِ لا لمَوقعِها؛ لأنَّ مَوقِعَها أنَّها عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، وليستْ تَوكيدًا لجُملةِ ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ بمُرادِفِها؛ لأنَّ التَّوكيدَ لِلَّفظِ بالمُرادِفِ لا يُعرَفُ إلَّا في المُفرَداتِ، ولأنَّ وُجودَ الواوِ يُعيِّنُ أنَّها مَعطوفةٌ؛ إذ ليس في جُملةِ ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ واوٌ حتَّى يكونَ الواوُ في هذه الجُملةِ مُؤكِّدًا لها(١).

- وجِيءَ بالفِعلِ الماضي في قَولِه: ﴿مَّا عَبَدتُّمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على رُسوخِهم في عِبادةِ الأصنامِ مِن أزمانٍ مَضَت، وفيه رَمْزٌ إلى تَنزُّهِه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن عِبادةِ الأصنامِ مِن سالِفِ الزَّمانِ، وإلَّا لَقال: ولا أنا عابِدٌ ما كنَّا نَعبُدُ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٢، ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٨٣).

- قولُه: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ [الكافرون: ٤]؛ لبَيانِ تَمامِ الاختِلافِ بيْن حالِه وحالِهم، وإخبارٌ بأنَّهم لا يَعبُدونَ اللهَ إخبارًا ثانيًا؛ تَنْبيهًا على أنَّ اللهَ أعلَمَه بأنَّهم لا يَعبُدون اللهَ، وتَقويةً لدَلالةِ هذَينِ الإخبارينِ على نُبوَّتِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فقدْ أخْبَرَ عنهم بذلك، فمات أولئك كلُّهم على الكُفْرِ، وكانتْ هذه السُّورةُ مِن دَلائلِ النُّبوَّةِ، وقد حصَلَ مِن ذِكرِ هذه الجُملةِ بمِثلِ نَظيرتِها السَّابقةِ تَوكيدٌ للجُملةِ السَّابقةِ تَوكيدًا للمعْنى الأصليِّ منها، وليس مَوقِعُها مَوقعَ التَّوكيدِ؛ لوُجودِ واوِ العطْفِ في قَولِه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾؛ ولذلك فالواوُ في قَولِه هنا: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ عاطفةٌ جُملةً على جُملةٍ مِن أجْلِ ما اقتَضَتْه جُملةُ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ مِن المُناسَبةِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ تأكيدًا لَفظيًّا لنَظيرتِها السَّابقةِ بتَمامِها بما فيها مِن واوِ العطْفِ في نَظيرتِها السَّابقةِ، وتَكونَ جُملةُ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ مُعترِضةً بيْن التَّأكيدِ والمُؤكَّدِ، والمَقصودُ مِن التَّأكيدِ تَحقيقُ تَكذيبِهم في عَرْضِهم أنَّهم يَعبُدون ربَّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم[(١)].

- و(ماصَدَقَ)[(٢)] ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾ هو اللهُ تعالَى، وعُبِّرَ بـ(ما) المَوصولةِ؛ لأنَّها مَوضوعةٌ للعاقلِ وغيرِه، وإنَّما تَختَصُّ (مَن) بالعاقلِ؛ فلا مانعَ مِن إطلاقِ (ما) على العاقلِ إذا كان اللَّبْسُ مَأمونًا[(٣)].

أو إيثارُ (مَا) في ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾ على (مَنْ)؛ لأنَّ المرادَ هو الوَصفُ، كأنَّه قيلَ: ما أعبُدُ مِنَ المعبودِ العَظيمِ الشَّأنِ الَّذي لا يُقادَرُ قدْرُ عَظَمتِه، فـ(ما) يُؤتَى بها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٣، ٥٨٤).

(٢) تقدَّم تعريفُه (٤٣/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٢).

لقصْدِ الإبهامِ؛ لتُفيدَ المُبالَغةَ في التَّفخيم(١).

أو لم يَقُلْ: (مَن) مع أنَّه القِياسُ؛ رِعايةً لمُقابِلِه (ما) في قَولِه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾، أو لأنَّ المُرادَ الصِّفةُ، كأنَّه قال: لا أعبُدُ الباطِلَ، ولا تَعبُدون الحقَّ. وقيل: إنَّ (ما) مَصدريَّةٌ، أي: لا أعبُدُ عِبادتَكم، ولا تَعبُدون عِبادتي(٢).

- وأيضًا (ما) في قَولِه: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ فيها عُمومٌ وإجمالٌ يَصلُحُ لِما لا يَعلَمُ، ولصِفاتِ مَن يَعلَمُ(٣).

- وقيل: لم يَحتَجْ أنْ يقولَ فيهم: (ولا أنتمْ عابِدون ما عبَدْتُ) كما قال في نفْسِه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾؛ لأنَّ كلَّ مُؤمنٍ فهو مَأمورٌ بقِراءةِ هذه السُّورةِ، ومنهم مَن كان مَعبودُه غيرَ اللهِ، فلو قال: (ولا أنتمْ عابِدون ما عبَدْتُ) لَقالوا: بل نحنُ نَعبُدُ ما كنتَ تَعبُدُ لَمَّا كنتَ مُشرِكًا، بخِلافِ ما إذا قال: (ولا أنتمْ عابِدون ما أعبُدُه في هذا الوقتِ)، ولم يَقُلْ: (ما أنا عابدٌ له)؛ إذ نفْسُه قد

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٢٨).

قال ابن القيِّم: (المقصود هنا ذِكرُ المعبودِ المَوصوفِ بكَونِه أهلًا للعِبادةِ مُستحِقًّا لها، فأتى بـ «ما» الدَّالَّةِ على هذا المعنى، كأنَّه قيل: ولا أنتم عابِدونَ مَعبوديَ المَوصوفَ بأنَّه المعبودُ الحقُّ، ولو أتى بلَفظةِ «مَن» لَكانت إنَّما تدُلُّ على الذَّاتِ فقط، ويكونُ ذِكرُ الصِّلةِ تعريفًا لا أنَّه هو جِهةُ العِبادةِ، ففَرْقٌ بيْنَ أنَّ كَونَه تعالى أهلًا لأنْ يُعبَدَ تعريفٌ مَحْضٌ، أو وصْفٌ مُقتَضٍ لعِبادتِه، فتأمَّلْه؛ فإنَّه بديعٌ جدًّا، وهذا معنى قولِ مُحقِّقي النُّحاةِ: إنَّ «ما» تأتي لصِفاتِ مَن يعلمُ، ونظيرُه: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]، لَمَّا كان المرادُ الوصفَ وأنَّه هو السَّببُ الدَّاعي إلى الأمرِ بالنِّكاحِ وقصده، وهو الطِّيبُ، فتُنكَحُ المرأةُ المَوصوفةُ به؛ أتى بـ «ما» دونَ «مَنْ». وهذا بابٌ لا يَنخرِمُ، وهو مِن ألْطَفِ مَسالِكِ العربيَّةِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٣٤).

لا تكونُ عابدةً له مُطلَقًا، وقد يجوزُ أنْ يَعبُدَ الواحدُ مِن النَّاسِ غيرَ اللهِ في المستقبَلِ، فلا يكونُ مَن لم يَعبُدْ ما يَعبُدُه في المستقبَلِ مَذمومًا، بخِلافِ المؤمنِ الَّذي يُخاطِبُ بهذه السُّورةِ غيرَه؛ فإنَّه حِينَ يَقولُها ما يَعبُدُ إلَّا اللهَ، فهو يقولُ للكفَّارِ: ولا أنتمْ عابِدون ما أعبُدُه الآنَ(١).

- وذَكَر النَّفيَ عن الكُفَّارِ في الجُملتَينِ لِتُقارِبَ كلُّ جُملةٍ جُملةً؛ فلمَّا قال: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ فنفى الفعلَ قال: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، ثمَّ لَمَّا زاد النَّفيَ بنَفْيِ جَوازِ ذلك وبَراءةِ النَّفْسِ منه؛ ذَكَرَ ما يدُلُّ على كَراهتِه له وقُبحِه، ونَفَى أنْ يَعبُدَ شيئًا ممَّا عَبَدوه ولو في بعضِ الزَّمانِ، قال: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، بلْ أنتم بَريئونَ مِن عِبادةِ ما أعبُدُه، فليس لِبَراءتي، وكَمالِ بَراءتي، وبُعدي مِن مَعبودِكم، وكَمالِ قُرْبي إلى اللهِ في عِبادتي له وحْدَه لا شَريكَ له؛ يكونُ لكم نَصيبٌ مِن هذه العِبادةِ، بلْ أنتُم أيضًا في هذه الحالِ لا تَعبُدون ما أعبُدُ؛ لا في الحالِ الأُولى ولا في الثَّانيةِ، ولو اقتصَرَ في تَبرِّيهم مِن عِبادةِ اللهِ على الجُملةِ الأُولى لم يكُنْ فيها تَبرئةٌ لهم في هذه الحالِ الثَّانيةِ، فبَرَّأَهم مِن مَعبودِه حينَ البَراءةِ الأُولى الخاصَّةِ، وحِينَ البَراءةِ الثَّانيةِ العامَّةِ القاطعةِ، وهمْ لم يَختلِفْ حالُهم في الحالينِ، بلْ هم فيهما لا يَعبُدون ما يَعبُدُ، فلم يكُنْ في تَغييرِ العبارةِ فائدةٌ، وإنَّما غُيِّرَت العِبارةُ في حقِّه وحقِّ المؤمنينَ لتَغييرِ المعنيَينِ(٢).

- وقولُه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وإنْ كان لَفظُها خبرًا ففيها معنى الإنشاءِ كسائرِ ألْفاظِ الإنشاءاتِ، كقولِه: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وقولِه ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقولِه: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٥٥٧، ٥٥٨).

تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٧٨]، فكلُّ هذه الأقوالِ فيها معْنى الإنشاءِ لها يُنشِئُه المؤمنُ في نفْسِه مِن زِيادةِ البَراءةِ مِن الشِّركِ؛ فإنَّ الشِّركَ والكفرَ أعظَمُ أمراضِ القُلوبِ، فأُمِرَ المؤمنُ بقولٍ يُوجِبُ في قلْبِه مِن البَراءةِ مِن الشِّركِ ما لم يكُنْ في قلْبِه قبْلَ ذلك[١].

- ولم يَأتِ النَّفيُ في حقِّهم إلَّا باسمِ الفاعلِ ﴿عَٰبِدُونَ﴾، وفي جِهتِه جاء بالفعلِ المستقبَلِ تارةً ﴿أَعۡبُدُ﴾، وباسمِ الفاعِلِ ﴿عَابِدٌ﴾ أُخرى؛ فذلك -واللهُ أعلَمُ- لحكمةٍ بَديعةٍ؛ وهي أنَّ المقصودَ الأعظَمَ بَراءتُه مِن مَعبودِيهم بكلِّ وجْهٍ، وفي كلِّ وقْتٍ، فأتى أوَّلًا بصِيغةِ الفعلِ الدَّالَّةِ على الحدوثِ والتَّجدُّدِ، ثمَّ أتى في هذا النَّفيِ بعَينِه بصِيغةِ اسمِ الفاعلِ الدَّالَّةِ على الوصْفِ والثُّبوتِ، فأفاد في النَّفيِ الأوَّلِ أنَّ هذا لا يقَعُ مِنِّي، وأفادَ في الثَّاني أنَّ هذا ليس وَصْفي ولا شَأْني، فكأنَّه قال: عِبادةُ غيرِ اللهِ لا تكونُ فِعلًا لي ولا وَصْفًا، فأتى بنَفيَين لِمَنْفيَّين مَقصودينِ بالنَّفيِ، وأمَّا في حقِّهم فإنَّما أتى بالاسمِ الدَّالِّ على الوصْفِ والثُّبوتِ دونَ الفِعلِ، أي: أنَّ الوصفَ الثَّابتَ اللَّازِمَ العائدَ للهِ مُنتَفٍ عنكم، فليس هذا الوصْفُ ثابتًا لكم، وإنَّما ثَبَتَ لِمَن خصَّ اللهَ وحْدَه بالعِبادةِ لم يُشرِكْ معه فيها أحدًا، وأنتمْ لَمَّا عَبَدْتُم غيرَه، فلَسْتُم مِن عابِديه وإنْ عَبَدوه في بعضِ الأحيانِ؛ فإنَّ المشرِكَ يَعبُدُ اللهَ ويَعبُدُ معه غيرَه؛ فتَأمَّلْ هذه النُّكتةَ البَديعةَ كيف تَجِدُ في طَيِّها أنَّه لا يُوصَفُ بأنَّه عابدُ اللهِ وعَبْدُه المستقيمُ على عِبادتِه إلَّا مَن انقطَعَ إليه بكُلِّيَّتِه، وتَبَتَّلَ إليه تَبتيلًا، لم يَلتفِتْ إلى غيرِه، لم يُشرِكْ به أحدًا في عِبادتِه، وأنَّه وإنْ عَبَدَه وأشْرَكَ به غيرَه فليس عابدًا للهِ ولا عَبْدًا له، وهذا مِن أسرارِ هذه السُّورةِ العظيمةِ الجليلةِ[٢].

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥٩، ٥٦٠).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٧).

- وأيضًا أتَى النَّفيُ في هذه السُّورةِ بأداةِ (لا) دونَ (لن)؛ وذلك لأنَّ النَّفيَ بـ (لا) أبلَغُ منه بـ (لنْ)، وأنَّ (لا) أدلُّ على دَوامِ النَّفيِ وطُولِه مِن (لنْ)، وأنَّها للطُّولِ والمَدِّ الَّذي في نَفْيِها طالَ النَّفيُ بها واشتَدَّ، وأنَّ هذا ضِدُّ ما فَهِمَتْه الجَهميَّةُ والمعتزلةُ مِن أنَّ (لن) إنَّما تَنفي المستقبَلَ، و(لا) تَنْفي الحالَ المستمِرَّ النَّفيِ في الاستقبالِ، فالإتيانُ بـ(لا) مُتعيِّنٌ هنا، واللهُ أعلَمُ[1].

وقيل: النَّفيُ بـ (لن) أبلَغُ، لكنَّه لم يأتِ بها لأنَّ المُبالَغةَ إنَّما يُحتاجُ إليها في موضِعِ التُّهمةِ، وقد عَلِمَ كُلُّ أحدٍ مِن محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّه ما كان يَعبُدُ الصَّنَمَ قبْلَ الشَّرعِ، فكيف يَعبُدُه بعْدَ ظُهورِ الشَّرعِ؟! بخِلافِ أصحابِ الكَهْفِ؛ فإنَّهم لَمَّا بالَغوا قالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ [الكهف: ١٤]؛ فإنَّه وُجِدَ منهم ذلك فيما قَبلُ[2].

- وفي تَكرارِ الأفعالِ في هذِه الآياتِ قَولانِ[3]:

القولُ الأوَّلُ: أنَّه لا تَكرارَ فيها، وفيه وُجوهٌ:

أحدُها: أنَّه نَفى أوَّلًا عِبادتَه في المستقبَلِ؛ لأنَّ (لا) الغالبُ أنَّها تَنْفي المُستقبَلَ، ثمَّ عَطَفَ عليه ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ نفْيًا للمُستقبَلِ على سَبيلِ المُقابَلةِ، ثمَّ قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ نفْيًا للحالِ؛ لأنَّ اسمَ الفاعلِ العاملَ الحقيقةُ فيه دَلالتُه على الحالِ، ثمَّ عُطِفَ عليه ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ نفْيًا للحالِ على سَبيلِ المُقابَلةِ، فانتَظَمَ المعْنى: أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَعبُدُ ما يَعبُدونَ، لا حالًا ولا مُستقبَلًا، وهمْ كذلك؛ إذ قدْ حتَّمَ اللهُ مُوافاتَهم على الكفْرِ.

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٧، ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٤٦-٣٤٨).

وثانيها: أنْ يُقلَبَ، فيُجعَلَ الأوَّلُ للحالِ، والثَّاني للاستقبالِ.

وثالثُها: المَقصودُ مِن الأُولَيَينِ المَعبودُ، و(ما) بمعْنى (الَّذي)، أي: لا أعبُدُ الأصنامَ ولا تَعبُدونَ اللهَ، وفي الأُخريَيْنِ (ما) مَصدريَّةٌ، أي: ولا أنا عابدٌ مِثلَ عِبادتِكم المَبنيَّةِ على الشَّكِّ، ولا أنتمْ عابِدون مِثلَ عِباداتي المَبنيَّةِ على اليقينِ.

ورابعُها: أنْ تُحمَلَ الأُولى على نفْيِ الاعتبارِ الَّذي ذَكَروه، والثَّانيةُ على العامِّ بجَميعِ الجِهاتِ، أي: لا أعبُدُ ما تَعبُدون رَجاءَ أنْ تَعبُدوا اللهَ، ولا أنتمْ عابِدون رَجاءَ أنْ أعبُدَ صَنَمَكم، ثمَّ قال: ولا أنا عابدٌ صَنَمَكم لغرَضٍ مِن الأغراضِ، بوَجْهٍ مِن الوُجوهِ، وكذا أنتم لا تَعبُدون اللهَ لغَرَضٍ مِن الأغراضِ، مِثالُه: مَن يَدْعو غَيرَه إلى الظُّلمِ لغرَضِ التَّنعُّمِ، فيقولُ: لا أظلِمُ لغَرَضِ التَّنعُّمِ، بلْ لا أظلِمُ أصلًا، سواءٌ كان للتَّنعُّمِ أو غيرِه.

وخامسُها: لَمَّا كان قولُه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ مُحتمِلًا أنْ يُرادَ به الآنَ، ويَبْقى المُستقبَلُ مُنتظَرًا ما يكونُ فيه؛ جاء البَيانُ بقولِه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾، أي: أبدًا وما حَيِيتُ، ثمَّ جاء قولُه: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ الثَّاني حَتْمًا عليهم أنَّهم لا يُؤمِنون أبدًا، فهذا معْنى التَّرديدِ في هذه السُّورةِ، وهو بارعُ الفَصاحةِ، وليس بتَكرارٍ فقطْ.

وسادسُها: أُريدَ به العبادةُ فيما يُستقبَلُ، والمعنى: لا أفعَلُ في المستقبَلِ ما تَطلُبونه منِّي مِن عِبادةِ آلهتِكم، ولا أنتم فاعِلون فيه ما أطلُبُه منكم مِن عِبادةِ إلهي، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾، أي: وما كنتُ قَطُّ عابدًا فيما سَلَفَ ما عَبَدْتُم فيه، يعني: ما عُهِدَ منِّي قَطُّ عِبادةُ صَنَمٍ في الجاهليَّةِ، فكيف يُرْجى منِّي في الإسلامِ؟!

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي: وما عبَدْتُم في وقْتٍ ما أنا على عِبادتِه الآنَ.

والقولُ الثَّاني: هو أنْ يُسلَّمَ حُصولُ التَّكرارِ، وهو لوَجهينِ:

أحدُهما: أنَّ التَّكرارَ يُفيدُ التَّوكيدَ، وكلَّما كانتِ الحاجةُ إلى التَّوكيدِ أشدَّ كان التَّكريرُ أحسَنَ، ومِن مذاهبِ العربِ واستعمالاتِهم أنَّهم إذا أرادوا التَّأكيدَ كرَّروا، والقُرآنُ قدْ نزَلَ بلِسانِ العَربِ، ولا مَوضعَ أحوجُ إلى التَّأكيدِ مِن هذا المقامِ؛ لأنَّهم رَجَعوا إليه في هذا المعنى مِرارًا، وطَمِعوا فيه لِما رَأَوا فيه من الحرْصِ على إيمانِهم؛ فقولُه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ تأكيدٌ لقولِه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾، وقولُه: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ [الكافرون: ٥] تأكيدٌ لقولِه: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ [الكافرون: ٣]، وفائدةُ هذا التَّأكيدِ هنا قطْعُ أطماعِ الكُفَّارِ عن أنْ يُجيبَهم رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى ما سألوه مِن عِبادتِه آلهتَهم، وتَحقيقُ الإخبارِ بمُوافاتِهم على الكُفْرِ، وأنَّهم لا يُسلِمونَ أبدًا.

وثانيهما: أنَّهم ذَكَروا تلك الكلمةَ مرَّتينِ، يعني: تَعبُدُ آلهتَنا شَهرًا، ونَعبُدُ إلهَك شَهرًا، وتَعبُدُ آلهتَنا سَنةً، ونَعبُدُ إلهَك سَنةً، فأتَى الجوابُ على التَّكرارِ على وَفْقِ قَولِهم، وفيه ضَربٌ مِن التَّهكُّمِ؛ فإنَّ مَن كرَّرَ الكلمةَ الواحدةَ لغرَضٍ فاسدٍ، فإنَّه يُجازى لدَفْعِ تلك الكلمةِ على سَبيلِ التَّكرارِ استخفافًا[(١)].

- وعُبِّر بـ (ما) الَّتي لغيرِ العُقلاءِ في المواضعِ الأربعةِ؛ لأنَّه يجوزُ ذلك، والنُّكتةُ في ذلك أنْ يَجريَ الكلامُ على نمطٍ واحدٍ ولا يَختلِفَ[(٢)].

- قولُه: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ تَذييلٌ وفَذْلَكةٌ[(٣)] للكلامِ السَّابقِ بما فيه من

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٨، ٨٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٦١٠، ٦١١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٩، ٥٦٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٠٢ - ٦٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٢٠، ٦٢١)، ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٥٨).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٤).

التَّأكيداتِ، وقد أُرسِلَ هذا الكلامُ إرسالَ المَثَلِ[١].

- قَولُه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، أي: لكمْ شِركُكم ولي تَوحيدي، وهذا غايةٌ في التَّبرُّؤ، ولَمَّا كان الأهمُّ انتِفاءَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من دِينِهم؛ بَدَأَ بالنَّفيِ في الجُمَلِ السَّابقةِ بالمَنسوبِ إليه[٢].

- قَولُه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ تَقريرٌ لقولِه تعالَى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، وقولِه تعالَى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، كما أنَّ قولَه تعالَى: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ تَقريرٌ لقولِه تعالَى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، والمَعْنى: أنَّ دِينَكم -الَّذي هو الإشراكُ- مَقصورٌ على الحُصولِ لكم، لا يَتجاوَزُه إلى الحُصولِ لي أيضًا كما تَطمَعونَ فيه، فلا تُعلِّقوا بهِ أمانيَّكُم الفارِغةَ؛ فإنَّ ذلكَ مِن المُحالاتِ، وأنَّ دِيني -الَّذي هو التَّوحيدُ- مَقصورٌ على الحُصولِ لي لا يَتجاوَزُه إلى الحُصولِ لكُم أيضًا؛ لأنَّكم علَّقْتُموه بالمُحالِ الَّذي هو عِبادتي لآلهتِكم، أو استِلامي إيَّاها، ولأنَّ ما وعَدْتُموه عَينُ الإشراكِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ هذا تَقريرًا لقولِه تعالَى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، أيْ: ولِي دِيني لا دِينُكم[٣].

- وفي كِلْتا الجُملتينِ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ قُدِّمَ المُسنَدُ على المسنَدِ إليه؛ ليُفيدَ قصْرَ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ، أي: دِينُكم مَقصورٌ على الكَونِ بأنَّه لكم لا يَتجاوَزُكم إلى الكونِ لي، ودِيني مَقصورٌ على الكَونِ بأنَّه لا يَتجاوَزُني إلى كَونِه لكمْ، أي: لأنَّهم مُحقَّقٌ عَدَمُ إسلامِهم، فالقصْرُ قصْرُ إفرادٍ[٤]، واللَّامُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٧).

(٤) القَصرُ أو الحَصرُ: هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحَصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، =

في الموضعَينِ لشِبهِ المِلكِ، وهو الاختصاصُ أو الاستحقاقُ(١).

- وأيضًا قدَّمَ قِسْمَهم ونَصيبَهم على قِسْمِه ونَصيبِه هنا، وفي أوَّلِ السُّورةِ قدَّمَ ما يَختَصُّ بهم؛ وذلك لوَجْهينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ السُّورةَ لَمَّا اقتَضَت البَراءةَ، واقتسامَ دِينَي التَّوحيدِ والشِّركِ بيْنَه وبيْنَهم، ورَضِيَ كلٌّ بقِسْمِه، وكان المُحِقُّ هو صاحبَ القِسمةِ، وقد بَرَّزَ النَّصيبينِ، ومَيَّزَ القِسْمينِ، وعُلِمَ أنَّهم راضونَ بقِسْمِهم الدُّونِ الَّذي لا أردَأَ منه، وأنَّه هو قدِ استَولى على القِسمِ الأشرَفِ والحظِّ الأعظَمِ بمَنزلةِ مَن اقتسَمَ هو وغيرُه سمًّا وشِفاءً، فرَضِيَ مُقاسِمُه بالسُّمِّ؛ فإنَّه يقولُ له: لا تُشارِكُني في قِسْمِي، ولا أشارِكُك في قِسْمِك؛ لك قِسْمُك، ولي قِسْمي، فتَقديمُ ذِكرِ قِسْمِه هاهنا أحسَنُ وأبلَغُ، كأنَّه يقولُ: هذا هو قِسْمُك الَّذي آثَرْتَه بالتَّقديمِ وزَعَمْتَ أنَّه أشرَفُ القِسمينِ وأحقُّهما بالتَّقديمِ، فكان في تَقديمِ ذِكرِ قِسْمِه مِن التَّهكُّمِ به

= والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ. ويَنقسِمُ القَصرُ أو الحَصرُ باعتبارٍ آخَرَ إلى ثلاثةِ أقسام: قَصْرُ إفرادٍ، وقصْرُ قَلْبٍ، وقَصْرُ تعيينٍ؛ فالأوَّل: يُخاطَبُ به مَن يَعتقِدُ الشَّركةَ؛ نحو: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، خُوطِبَ به مَن يَعتقِدُ اشتراكَ اللهِ والأصنامِ في الأُلوهيَّة. والثَّاني: يُخاطَبُ به مَن يَعتقِدُ إثباتَ الحُكم لغيرِ مَن أثبتَه المُتكلِّمُ له؛ نحو: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، خُوطِبَ به نُمْرودُ، الَّذي اعتَقد أنَّه هو المحيي المميتُ دون اللهِ. والثَّالثُ: يُخاطَبُ به مَن تَساوَى عندَه الأمْرانِ، فلمْ يَحكُمْ بإثباتِ الصِّفةِ لواحدٍ بعَيْنِه، ولا لواحدٍ بإحْدى الصِّفتَينِ بعَيْنِها. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقَزْويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

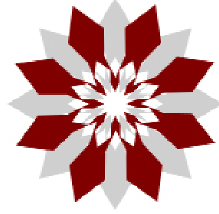
(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٤).

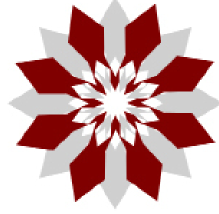
والنِّداءِ على سُوءِ اختيارِه وقُبْحِ ما رَضِيَه لنفْسِه؛ مِن الحُسنِ والبيانِ ما لا يُوجَدُ في ذِكرِ تَقديمِ قِسْمِ نفْسِه.

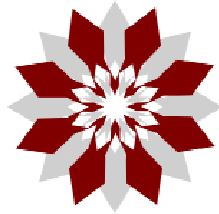
والوجهُ الثَّاني: أنَّ مَقصودَ السُّورةِ بَراءتُه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن دِينِهم ومَعبودِهم، هذا هو لُبُّها ومَغْزاها، وجاء ذِكرُ بَراءتِهم مِن دِينِه ومَعبودِه بالقصْدِ الثَّاني مُكمِّلًا لبَراءتِه ومُحقِّقًا لها، فلمَّا كان المقصودُ بَراءتَه مِن دِينِهم بدَأَ به في أوَّلِ السُّورةِ، ثمَّ جاء قولُه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ مُطابِقًا لهذا المعنى، أي: لا أُشارِكُكم في دِينِكم ولا أُوافِقُكم عليه، بلْ هو دِينٌ تَختصُّون أنتم به لا أَشْرَكُكم فيه أبدًا، فطابَقَ آخِرُ السُّورةِ أوَّلَها(١).



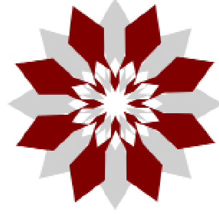
(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (١/ ١٣٩، ١٤٠).

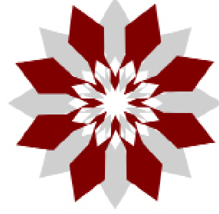


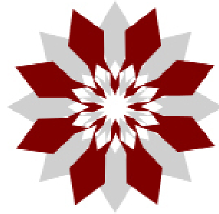




تَفْسِيرُ
سُورَةِ النَّصْرِ







سُورةُ النَّصْرِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (النَّصْر)[١].

فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها:

أنَّها آخِرُ سُورةٍ نَزلَت كامِلةً:

عن عُبَيْدِ الله بنِ عبدِ الله بنِ عُتْبةَ، قال: (قال لي ابنُ عبَّاسٍ: تَعلَمُ آخِرَ سُورةٍ نَزلَت مِن القُرآنِ نَزلَت جَميعًا؟ قلتُ: نعمْ، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾، قال: صَدقْتَ)[٢].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ النَّصرِ مَدَنيَّةٌ، نقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المُفسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

---

(١) سُمِّيتْ بذلك؛ لذِكرِ النَّصرِ في مُفتَتَحِها في قَولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٧).
وتُسمَّى أيضًا سورةَ ﴿إِذَا جَآءَ ﴾، وسورةَ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ ﴾، وسورةَ التَّوديع؛ لِما فيها مِن الإيماءِ إلى وفاةِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وتَوديعِه الدُّنيا وما فيها. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٧٨)، ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لعلم الدين السخاوي (ص: ٩٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٩١).

(٢) رواه مسلم (٣٠٢٤).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطُبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٢٩)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٦٨).

الإعلامُ بتَمامِ الدِّينِ(١).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- وَعدُ اللهِ تعالى لنَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالنَّصرِ والفَتحِ.

٢- البِشارَةُ بدُخولِ خَلائقَ كَثيرةٍ في الإسلامِ.

٣- أمْرُ الله سُبحانَه نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالمُواظَبةِ على التَّسبيحِ بحَمدِه واستِغفارِه.



(١) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٦٨).

الآيات (١-٢)

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَفۡوَاجٗا﴾: أي: جماعاتٍ كثيرةً، فَوجًا بعْدَ فَوجٍ، وأصلُ (فوج): يدُلُّ على تجمُّعٍ[١].

﴿تَوَّابَۢا﴾: التَّوَّابُ فعَّالٌ مِن تابَ يَتوبُ: أي: يُوفِّقُ العبدَ للتَّوبةِ، ويَقبَلُها منه، وحقيقةُ التَّوبةِ الرُّجوعُ إلى اللهِ بالْتِزامِ فِعلِ ما يُحِبُّ، وتَرْكِ ما يَكْرَهُ، وأصلُ (توب): يدُلُّ على الرُّجوعِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مخاطِبًا نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، بقَولِه تعالى:

إذا نصَرَك اللهُ -يا محمَّدُ- على أعدائِك، وتحقَّق لك فَتحُ مكَّةَ، ورأَيتَ العَرَبَ يَدخُلونَ في الإسلامِ جماعاتٍ كثيرةً؛ فنَزِّهْ رَبَّك عن النَّقائِصِ والعُيوبِ تَنزيهًا مُقترِنًا بحَمْدِه، واطلُبْ منه محوَ ذُنوبِك؛ إنَّ اللهَ مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بالتَّوبةِ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: ٦٢)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (١/ ٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٥٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٣)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للسعدي (ص: ١٧٦).

وقال ابن جرير: (﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ يقولُ: إنَّه كان ذا رُجوعٍ لعَبْدِه المُطيعِ إلى ما يُحِبُّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧١٣).

عِبادِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾.

أي: إذا نصَرَك اللهُ -يا محمَّدُ- على أعدائِك، وتحقَّق لك فَتحُ مكَّةَ[1].

﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾.

أي: ورأَيتَ العَرَبَ -يا محمَّدُ- يَدخُلونَ في الإسلامِ الَّذي أرسلَك اللهُ به

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٧-٥٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٩).

قال ابنُ عاشور: (النَّصرُ: الإعانةُ على العَدُوِّ، ونَصرُ اللهِ يَعقُبُه التَّغَلُّبُ على العَدُوِّ. والفَتحُ: امتِلاكُ بلَدِ العَدُوِّ وأرضِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٠).

وفي المرادِ بالنَّصرِ قَولانِ؛ أحدُهما: نصرُ الرَّسولِ على قُرَيش.

والثَّاني: نَصْرُه على كلِّ مَن قاتَله مِن أعدائِه، فإنَّ عاقبةَ النَّصرِ كانت له. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣٠).

قال ابنُ عطيَّةَ: (النَّصرُ الَّذي رآه رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم هو غلَبتُه لقُرَيشٍ ولِهَوازِنَ وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٢).

وقال الماوَرْدي: (وفي هذا الفتحِ قَولانِ؛ أحدُهما: فتحُ مكَّةَ، قاله الحسَنُ، ومُجاهِدٌ. الثَّاني: فتحُ المدائنِ والقُصورِ، قاله ابنُ عَبَّاسٍ، وابنُ جُبَيرٍ. وقيل: ما فتحه عليه مِن العُلومِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٦٠).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (الفَتحُ: هو فَتحُ مكَّةَ والطَّائِفِ ومُدُنِ الحجازِ وكثيرٍ مِنَ اليَمَنِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٢).

وقال ابنُ كثير: (المرادُ بالفَتحِ هاهنا فَتحُ مكَّةَ قَولًا واحِدًا؛ فإنَّ أحياءَ العرَبِ كانت تَتلَوَّمُ [أي: تنتظر] بإسلامِها فَتحَ مكَّةَ، يقولونَ: إنْ ظَهَر على قَومِه فهو نبيٌّ، فلمَّا فتح اللهُ عليه مكَّةَ دخَلوا في دينِ اللهِ أفواجًا، فلم تَمْضِ سنَتانِ حتَّى استَوْسَقَت جزيرةُ العَربِ إيمانًا، ولم يَبْقَ في سائرِ قبائِلِ العَربِ إلَّا مُظهِرٌ للإسلامِ، ولله الحَمدُ والمِنَّةُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١٣). ويُنظر: ((صحيح البخاري)) (٤٣٠٢).

جماعاتٍ كثيرةً، فَوجًا بعْدَ فَوجٍ[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نزَلَت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: أتاكم أهلُ اليَمَنِ، هم أرَقُّ قُلوبًا، الإيمانُ يَمانٍ، الفِقهُ يَمانٍ، الحِكمةُ يَمانيَةٌ))[٢].

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾.

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ﴾.

أي: فنَزِّهْ -يا محمَّدُ- رَبَّك عن النَّقائِصِ والعُيوبِ تنزيهًا مُقتَرِنًا بحَمْدِه، وهو وَصْفُه بصِفاتِ الكَمالِ محبَّةً له وتعظيمًا، واطلُبْ منه محوَ ذُنوبِك[٣].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُكثِرُ مِن قَولِ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه، أستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه. فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أَراك تُكثِرُ مِن قَولِ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه، أستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه. فقال: خَبَّرَني ربِّي أنِّي سأرى علامةً في أمَّتي، فإذا رأيتُها أكثَرْتُ مِن قَولِ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٢٤).

قال ابنُ عطيَّةَ: (دُخولُ النَّاسِ في الإسلامِ أفواجًا كان بيْن فَتحِ مكَّةَ إلى موتِه صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٢). ويُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٧٨).

(٢) أخرجه أحمدُ (٧٧٢٢)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في ((التفسير)) (٣٧٢٦).

صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٤/ ١٤٩)، والألبانيُّ على شَرطِ الشَّيخَينِ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٣٣٦٩)، وشعيبٌ الأرناؤوط على شَرطِ الشَّيخَينِ في تخريج ((مسند أحمد)) (١٣/ ١٥٦).

وقال ابنُ حَجَرٍ في ((الكافي الشاف)) (٣٢٧): (أصلُه في مسلمٍ دونَ ما في أوَّلِه، وله شاهِدٌ).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٧، ٧١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤١).

أستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه، فقد رأيتُها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فتحُ مكَّة، ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۞ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾))[١].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُكثِرُ أن يقولَ في رُكوعِه وسُجودِه: سُبحانَك اللَّهمَّ رَبَّنا وبحَمْدِك، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي؛ يَتأوَّلُ القُرآنَ[٢]))[٣].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (كان عُمَرُ يُدخِلُني مع أشْياخِ بَدْرٍ، فقال بعضُهم: لِمَ تُدخِلُ هذا الفتى معنا ولنا أبناءٌ مِثْلُه؟! فقال: إنَّه مِمَّن قد عَلِمتُم، فدعاهم ذاتَ يومٍ ودعاني معهم، وما رُئِيتُه[٤] دعاني يَومَئذٍ إلَّا لِيُريَهم مِنِّي[٥]، فقال: ما تَقولون في: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۞ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ حتَّى ختَمَ السُّورةَ؟ فقال بعضُهم: أُمِرْنا أن نحمَدَ اللهَ ونَستَغفِرَه إذا نصَرَنا وفَتَح علينا، وقال بعضُهم: لا ندري، أو لم يَقُلْ بعضُهم شيئًا، فقال لي: يا ابنَ عبَّاسٍ، أكذاك تقولُ؟ قُلتُ: لا، قال: فما تقولُ؟ قلتُ: هو أجَلُ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أعْلَمَه اللهُ له: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فَتحُ مكَّةَ، فذاك علامةُ أجَلِك، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، قال عُمَرُ: ما أعلَمُ منها إلَّا ما تَعلَمُ)[٦].

(١) رواه مسلم (٤٨٤).

(٢) يَتأوَّلُ القرآنَ: أي يَفعلُ ما أُمِر به. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٢٩٩).

(٣) رواه البخاري (٤٩٦٨)، ومسلم (٤٨٤).

(٤) رُئِيتُه: أي: ظَنَنْتُه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٦/ ٣٩٥).

(٥) لِيُريَهم مِنِّي: أي: بعضَ فضيلتي. يُنظر: ((الكواكب الدراري)) للكرماني (١٦/ ١٣٩).

(٦) رواه البخاري (٤٢٩٤).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

أي: إنَّ اللهَ مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بالتَّوبةِ على عِبادِه، فيُوَفِّقُهم إليها، ويَقْبَلُها منهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٦].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ الأمورُ الفاضِلةُ تُختَمُ بالاستغفارِ، كالصَّلاةِ والحَجِّ، وغيرِ ذلك، فأمْرُ اللهِ لِرَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم بالحَمدِ والاستغفارِ في هذه الحالِ إشارةٌ إلى أنَّ أجَلَه قد اقترب؛ فلْيَستعِدَّ ويتهيَّأْ للقاءِ رَبِّه، ويختِمْ عُمُرَه بأفضَلِ ما يجِدُه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه[(٢)]. فالواجبُ على الإنسانِ أن يَحرِصَ في آخِرِ عُمُرِه على الإكثارِ مِن طاعةِ الله، ولا سيَّما ما أوجَبَ اللهُ عليه، وأن يُكثِرَ مِن الاستِغفارِ والحَمدِ[(٣)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ إشارةٌ إلى أنَّه سُبحانَه يَقْبَلُ تَوبةَ المستغفِرينَ المُنيبينَ إليه؛ فهو تَرغيبٌ في الاستغفارِ، وحَثٌّ على التَّوبةِ[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣٣)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للسعدي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٢).
قال القرطبي: (﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾: أي: على المُسَبِّحينَ والمُستَغفِرينَ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٦).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥١٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ * وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا * فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ الإخبارُ بذلك كُلِّه قبْلَ وُقوعِه إخبارٌ بغَيبٍ؛ فهو مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إعلامٌ منه سُبحانَه لنَبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بدُنُوِّ أجَلِه، وهذا مِن أدَقِّ الفَهمِ وألطَفِه، ولا يُدْرِكُه كلُّ أحدٍ؛ فإنَّه سُبحانَه لم يُعَلِّقِ الاستغفارَ بعَمَلِه، بل عَلَّقَه بما يُحدِثُه هو سُبحانَه من نِعمةِ فَتْحِه على رَسولِه ودُخولِ النَّاسِ في دِينِه، وهذا ليس بسَبَبٍ للاستغفارِ؛ فعُلِمَ أنَّ سببَ الاستغفارِ غيرُه، وهو حُضورُ الأجَلِ الَّذي مِن تمامِ نعمةِ اللهِ على عَبْدِه توفيقُه للتَّوبةِ النَّصوحِ والاستغفارِ بيْن يَدَيه؛ لِيَلْقَى ربَّه طاهِرًا مُطهَّرًا من كلِّ ذنْبٍ، فيَقْدَمَ عليه مسرورًا راضيًا مَرْضيًّا عنه، ويدُلُّ عليه أيضًا قولُه: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ﴾، وهو صلَّى الله عليه وسلَّم كان يُسَبِّحُ بحَمدِه دائمًا، فعُلِمَ أنَّ المأمورَ به مِن ذلك التَّسبيحِ بعْدَ الفتحِ ودُخولِ النَّاسِ في هذا الدِّينِ أمرٌ أكبَرُ مِن ذلك المتقدِّمِ، وذلك مُقَدِّمةٌ بيْن يَدَي انتقالِه إلى الرَّفيقِ الأعلى، وأنَّه قد بَقِيت عليه مِن عُبوديَّةِ التَّسبيحِ والاستِغفارِ الَّتي تُرَقِّيه إلى ذلك المقامِ بقيَّةٌ، فأَمَرَه بتوفيتِها، ويدُلُّ عليه أيضًا أنَّه سُبحانَه شَرَعَ التَّوبةَ والاستغفارَ في خواتيمِ الأعمالِ؛ فشَرَعَها في خاتمةِ الحجِّ وقيامِ اللَّيلِ، وكان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا سَلَّمَ مِن الصَّلاةِ استغفرَ ثلاثًا(٢)، فعُلِمَ أنَّ التَّوبةَ مَشروعةٌ عَقيبَ الأعمالِ الصَّالحةِ، فأَمَرَ رسولَه بالاستِغفارِ عَقيبَ توفيتِه ما عليه مِن تبليغِ الرِّسالةِ والجِهادِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر ما أخرجه مسلم (٥٩١) من حديث ثَوْبانَ رضيَ الله عنه.

في سبيلِه حينَ دَخَلَ النَّاسُ في دِينِه أفواجًا، فكأنَّ التَّبليغَ عبادةٌ قد أكمَلَها وأدَّاها؛ فشُرِعَ له الاستِغفارُ عَقِيبَها[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ لم يقلْ: (في دينِ الرَّبِّ)، ولا سائرِ الأسماءِ؛ لأنَّ هذا الاسمَ أعظَمُ الأسماءِ -على قولٍ-؛ لدَلالتِه على الذَّاتِ والصِّفاتِ، فكأنَّه يقولُ: هذا الدِّينُ إن لم يكُنْ له خَصلةٌ سِوى أنَّه دينُ اللهِ، فإنَّه يكونُ واجِبَ القَبولِ. وقيل غير ذلك[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يدُلُّ على فَضلِ التَّسبيحِ والتَّحميدِ؛ حيثُ يُجعَلُ كافيًا في أداءِ ما وَجَب عليه مِن شُكرِ نِعمةِ النَّصرِ والفَتحِ[٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فيه استِحبابُ التَّسبيحِ في الرُّكوعِ والسُّجودِ[٤]، عن عائشةَ رضيَ الله عنها قالت: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُكثِرُ أن يقولَ في رُكوعِه وسُجودِه: سُبحانَك اللَّهُمَّ رَبَّنا وبحَمْدِك، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي؛ يَتأوَّلُ القُرآنَ))[٥].

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٢/ ٣٤٣).

(٤) وهذا مذهبُ الجمهورِ؛ مِن الحنفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والشافعيَّةِ، وهو روايةٌ عن أحمدَ، وقولُ أكثرِ الفُقهاءِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزيلعي (١/ ١٠٧)، ((التاج والإكليل)) للموَّاق (١/ ٥٣٨)، ((نهاية المحتاج)) للرملي (١/ ٤٩٩)، ((المغني)) لابن قدامة (١/ ٣٦٢).
وذهَب الحنابلةُ، والظَّاهريَّةُ إلى أنَّ التَّسبيحَ في الرُّكوعِ والسُّجودِ واجبٌ، واختارَه ابنُ تيميَّةَ، وابنُ بازٍ، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((كشاف القناع)) للبهوتي (١/ ٣٤٧)، ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (٢/ ٤١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٥٠)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٣٠/ ١٤)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٣/ ٣٢٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٣٠١). =

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ اقترانُ التَّسبيحِ بالحَمدِ، فالباءُ هنا للمُصاحَبةِ؛ وذلك لأنَّه إذا كان التَّسبيحُ مصحوبًا بالحَمدِ فإنَّه به يَتحقَّقُ الكَمالُ؛ لأنَّ الكَمالَ لا يَتحقَّقُ إلَّا بانتفاءِ العيوبِ، وثُبوتِ صِفاتِ الكَمالِ؛ فانتِفاءُ العُيوبِ مأخوذٌ مِن قَولِه: ﴿فَسَبِّحْ﴾؛ لأنَّ التَّسبيحَ معناه التَّنزيهُ عن كلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، وثبوتُ الكمالاتِ مأخوذٌ مِن قولِه: ﴿بِحَمْدِ﴾؛ لأنَّ الحمدَ هو وَصفُ المحمودِ بالصِّفاتِ الكامِلةِ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ إشارةٌ إلى قُربِ وفاةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويحتَمِلُ أن يكونَ فيه إشارةٌ إلى أنَّ قِلَّةَ الفُتوحِ في زمانِه صلَّى الله عليه وسلَّم لا صُنْعَ له فيه؛ لأنَّ سببَه قِصَرُ مُدَّتِه، فمعنى المغفرةِ له: رَفْعُ الملامةِ عنه صلَّى الله عليه وسلَّم[٢].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ أمَرَ بالتَّسبيحِ والحَمدِ؛ لِيَكونَ شُكرًا على النَّصرِ والفَتحِ وظُهورِ الإسلامِ، وأمَرَه بذلك وبالاستغفارِ عندَ اقترابِ أجَلِه؛ لِيَكونَ ذلك زادًا للآخِرةِ وعُدَّةً للِقاءِ اللهِ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ أمْرُه سُبحانَه للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالتَّسبيحِ بحَمْدِه، والاستغفارِ في هذه الحالِ، وهذا لا يَقتضي أنَّه لا يُشرَعُ في غَيرِها، أو لا يُؤمَرُ به غَيرُه، بل يَقتضي أنَّ هذا سَبَبٌ لِمَا أُمِرَ به -وإنْ كان مأمورًا به في مواضعَ أُخَرَ- كما يُؤْمَرُ الإنسانُ بالحَمدِ والشُّكرِ على نِعمةٍ وإنْ كان مأمورًا بالشُّكرِ على غيرِها، وكما يُؤمَرُ بالتَّوبةِ من

= والحديث أخرجه البخاريُّ (٤٩٦٨)، ومسلمٌ (٤٨٤) من حديث عائشةَ رضيَ الله عنها.

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٠).

ذَنْبٍ وإنْ كان مأمورًا بالتَّوبةِ مِن غيرِه، لكنْ هو أُمِرَ أنْ يَختِمَ عمَلَه بهذا، فغيرُه أحوَجُ إلى هذا منه، وقد يَحتاجُ العَبدُ إلى هذا في غيرِ هذه الحالِ، كما يَحتاجُ إلى التَّوبةِ؛ فهو محتاجٌ إلى التَّوبةِ والاستِغفارِ مُطلقًا[(١)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ سؤالٌ: أنَّ اللهَ تبارك وتعالى أنزَلَ على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا * لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ [الفتح: ١، ٢]، والفَتحُ قد حَصَل، فيكونُ المعلولُ حاصلًا، وهو المغفرةُ، فكيف يدعو بالمغفِرةِ؟

الجوابُ: أنَّ هذا مِن بابِ كَمالِ التَّذَلُّلِ مِن رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم للهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّ هذا مِن بابِ التَّأكيدِ لِمَا ثَبَتَ، والتَّوكيدُ لِمَا ثَبَتَ أمرٌ معلومٌ في اللُّغةِ العربيَّةِ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾

- قولُه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ عُطِفَ الفتْحُ على النَّصرِ؛ لأنَّهما مُتغايِرانِ؛ فالنَّصرُ الإغاثةُ والإظهارُ على العدُوِّ، ومنه: نصَرَ اللهُ الأرضَ؛ غاثَها، والفتحُ: فتْحُ البلادِ[(٣)].

- والمُرادُ بالفتحِ: فتْحُ مكَّةَ، كما يُشعِرُ به التَّعريفُ بلامِ العهْدِ، وهو المعهودُ في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا * لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١-

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٨٩).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٢/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٢).

٣]؛ فإضافةُ ﴿نَصۡرُ﴾ إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ تُشعِرُ بتَعظيم هذا النَّصرِ، وأنَّه نصْرٌ عَزيزٌ، خارِقٌ للعادةِ، اعْتَنى اللهُ بإيجادِ أسبابِه، ولم تَجْرِ على مُتعارَفِ تَولُّدِ الحَوادثِ عن أمثالِها[١]، فمعناه: نَصرٌ لا يَليقُ إلَّا باللهِ، ولا يَليقُ أن يَفعَلَه إلَّا اللهُ، أو لا يليقُ إلَّا بحِكمتِه، ويُقالُ: (هذا صَنعةُ زَيدٍ)، إذا كان زيدٌ مَشهورًا بإحكامِ الصَّنعةِ، والمرادُ منه تعظيمُ حالِ تلك الصَّنعةِ، فكذا هاهنا. أو: لأنَّه إجابةٌ لدُعائِهم: ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فيقولُ: هذا الَّذي سألْتُموه[٢].

وقيل: مُتعلَّقُ النَّصرِ والفتْحِ مَحذوفٌ؛ وهو نصْرُ رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم والمؤمنينَ على أعْدائِهم، وفتْحُ مكَّةَ وغيرِها عليهم؛ كالطَّائفِ ومُدنِ الحِجازِ وكثيرٍ مِن اليمَنِ. وقيل: نصْرُه صلَّى الله عليه وسلَّم على قُريشٍ، وفتْحُ مكَّةَ[٣].

وقيلَ: المرادُ: جِنسُ نصْرِ الله تعالَى ومُطلَقُ الفتْحِ؛ فإنَّ فتْحَ مكَّةَ لَمَّا كانَ مِفْتاحَ الفُتوحِ ومَناطَها -كما أنَّ نفْسَها أمُّ القُرَى وإمامُها- جُعِلَ مَجيئُه بمَنزلةِ مَجيءِ سائرِ الفُتوحِ، وعُلِّقَ بهِ أمْرُه عليه السَّلامُ بالتَّسبيحِ والحمْدِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ النَّاسُ: اسمُ جمْعٍ يدُلُّ على جَماعةٍ مِن الآدَميِّينَ، والتَّعريفُ في هذه الآيةِ قيل: هو للاستِغراقِ العُرفيِّ، أي: جَميعَ النَّاسِ الَّذين يَخطُرون بالبالِ؛ لعَدَمِ إرادةِ مَعهودينَ مُعيَّنينَ، ولاستحالةِ دُخولِ كلِّ إنسانٍ في دِينِ اللهِ بدَليلِ المُشاهَدةِ، فالمعْنى: ورَأيتَ العرَبَ، أو: ورَأيت ناسًا كَثيرينَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٢، ٥٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٢، ٥٩٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ قُرِنَ التَّسبيحُ بالحمْدِ بباءِ المُصاحَبةِ -على قولٍ- المُقتضيةِ أنَّ التَّسبيحَ لاحقٌ للحمْدِ؛ لأنَّ باءَ المُصاحَبةِ بمعْنى (مع)، فهي مِثلُ (مع) في أنَّها تَدخُلُ على المَتبوعِ، فكان حمْدُ اللهِ على حُصولِ النَّصرِ والفتْحِ ودُخولِ النَّاسِ في الإسلامِ شيئًا مَفروغًا منه لا يحتاجُ إلى الأمرِ بإيقاعِه؛ لأنَّ شَأنَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قدْ فعَلَه، وإنَّما يحتاجُ إلى تَذكيرِه بتَسبيحٍ خاصٍّ لم يَحصُلْ مِن قبْلُ في تَسبيحاتِه، وباستغفارٍ خاصٍّ لم يَحصُلْ مِن قبْلُ في استِغفارِه[١]. والحمْدُ مُضافٌ للمَفعولِ، أي: فسَبِّحْه حامدًا له، أي: نزِّهْه عمَّا لا يَليقُ به، وأثبِتْ له ما يَليقُ به، فهي داخلةٌ في حيِّزِ الأمرِ. وقيل: الباءُ للاستعانةِ، والحمدُ مُضافٌ إلى الفاعلِ، أي: سبِّحْه بما حَمِدَ به نفْسَه، كقولِه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ إذ ليس كلُّ تسبيحٍ بمحمودٍ[٢].

- والأمرُ بالاستغفارِ مع التَّسبيحِ في قَولِه: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ تَكميلٌ للأمرِ بما هو قِوامُ أمْرِ الدِّينِ؛ مِن الجمْعِ بيْن الطَّاعةِ، والاحتراسِ مِن المَعصيةِ، ولأنَّ الاستغفارَ مِن التَّواضُعِ للهِ وهضْمِ النَّفْسِ، فهو عِبادةٌ في نفْسِه[٣].

- وتَقديمُ التَّسبيحِ والحمْدِ على الاستِغفارِ؛ لأنَّ التَّسبيحَ راجعٌ إلى وَصْفِ اللهِ تعالَى بالتَّنزُّهِ عن النَّقصِ، وهو يَجمَعُ صِفاتِ السَّلبِ، فالتَّسبيحُ مُتمحِّضٌ لجانبِ اللهِ تعالَى، ولأنَّ الحمْدَ ثَناءٌ على اللهِ لإنعامِه، وهو أداءُ العبْدِ ما يَجبُ عليه لشُكرِ المُنعِمِ، فهو مُستلزِمٌ إثباتَ صِفاتِ الكَمالِ لله الَّتي هي مَنشَأُ إنعامِه على عَبْدِه، فهو جامعٌ بيْنَ جانبِ اللهِ وحظِّ العبْدِ، وأمَّا الاستغفارُ فهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١١، ٨١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٩). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٨٠).

حظٌّ للعبْدِ وَحْدَه؛ لأنَّه طلَبُه مِن اللهِ أنْ يَعفُوَ عمَّا يُؤاخِذُه عليه[١].

- وأيضًا في تَقديمِ الأمرِ بالتَّسبيحِ والحمْدِ على الأمرِ بالاستِغفارِ تَمهيدٌ لإجابةِ استغفارِه، على عادةِ العرَبِ في تقديمِ الثَّناءِ قبْلَ سُؤالِ الحاجةِ؛ فإنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يكُنْ يَخْلو عن تَسبيحِ اللهِ، فأُرِيدَ تَسبيحٌ يُقارِنُ الحمْدَ على ما أُعطِيَه مِن النَّصرِ والفتْحِ ودُخولِ الأُمَّةِ في الإسلامِ[٢].

- وعطْفُ الأمرِ باستِغفارِ اللهِ تعالَى على الأمرِ بالتَّسبيحِ مع الحمْدِ يَقْتضي أنَّه مِن حيِّزِ جَوابِ ﴿إِذَا﴾، وأنَّه استغفارٌ يَحصُلُ مع الحمْدِ، فيدُلُّ على أنَّه استغفارٌ خاصٌّ؛ لأنَّ الاستغفارَ الَّذي يعُمُّ طلَبَ غُفرانِ التَّقصيرِ ونحوه مَأمورٌ به مِن قبْلُ، وهو مِن شَأنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فقدْ قال: ((إنَّه لَيُغَانُ[٣] على قَلْبي، وإنِّي لَأَستَغفِرُ اللهَ في اليَومِ مِئةَ مَرَّةٍ))[٤]، فكان تَعليقُ الأمرِ بالتَّسبيحِ وبالاستغفارِ على حُصولِ النَّصرِ والفتْحِ إيماءً إلى تَسبيحٍ واستغفارٍ يَحصُلُ بهما تَقرُّبٌ لم يُنْوَ مِن قبْلُ، وهو التَّهيُّؤُ لِلِقاءِ اللهِ، وأنَّ حَياتَه الدُّنيويَّةَ أوشَكَت على الانتهاءِ، وانتهاءِ أعمالِ الطَّاعاتِ والقُرُباتِ الَّتي تَزيدُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في رفْعِ دَرَجاتِه عندَ ربِّه، فكان هذا إيذانًا باقترابِ وَفاةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بانتقالِه مِن حَياةِ تَحمُّلِ أعباءِ الرِّسالةِ إلى حَياةٍ أبَديَّةٍ في العُلويَّاتِ المَلَكيَّةِ، والكلامُ مِن قَبيلِ الكِنايةِ الرَّمزيةِ[٥]، وهي لا تُنافي إرادةَ المعْنى الصَّريحِ بأنْ يُحمَلَ الأمرُ بالتَّسبيحِ والاستغفارِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٩٤).

(٣) أي: يُطبَقُ ويُستَرُ ويُغَطَّى. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦١٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغَرِّ المُزَنيِّ رضيَ اللهُ عنه.

(٥) تقدَّم تعريفُه (٤٣/ ٤٩٨).

على معْنى الإكثارِ مِن قَولِ ذلك[١].

- وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يقولَ: (فسَبِّحْ بحَمْدِه)؛ لتَقدُّمِ اسمِ الجَلالةِ في قَولِه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾، فعُدِلَ عن الضَّميرِ إلى الاسمِ الظَّاهرِ -وهو ﴿رَبِّكَ﴾- لِما في صِفةِ (ربّ) وإضافتِها إلى ضَميرِ المُخاطَبِ مِن الإيماءِ إلى أنَّ مِن حِكمةِ ذلك النَّصرِ والفتْحِ ودُخولِ النَّاسِ في الإسلامِ نِعمةً أنعَمَ اللهُ بها عليه إذ حَصَلَ هذا الخيرُ الجليلُ بواسطتِه، فذلك تَكريمٌ له وعِنايةٌ به، وهو شَأنُ تَلطُّفِ الرَّبِّ بالمَربوبِ؛ لأنَّ مَعناهُ السِّيادةُ المَرفوقةُ بالرِّفقِ والإبلاغِ إلى الكَمالِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ تَذييلٌ للكلامِ السَّابقِ كلِّه، وتَعليلٌ لِما يَقْتضي التَّعليلَ فيه مِن الأمرِ باستغفارِ ربِّه باعتبارِ الصَّريحِ مِن الكلامِ السَّابقِ[٣].

- وتَوَّابٌ: مِثالُ مُبالَغةٍ مِن: تابَ عليه، أيْ: مُبالِغًا في قَبولِ تَوبتِهم[٤].

- وقد اشتَمَلَت جُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ على أربعةِ مُؤكِّداتٍ؛ هي: (إنَّ)، و(كان)، وصِيغةُ المُبالَغةِ في التَّوَّابِ، وتَنوينُ التَّعظيمِ فيه، وحيثُ كان التَّوكيدُ بـ(إنَّ) هنا غيرَ مَقصودٍ به ردُّ إنكارٍ ولا إزالةُ تَردُّدٍ -إذ لا يُفرَضانِ في جانبِ المُخاطَبِ صلَّى الله عليه وسلَّم- فقدْ تَمحَّضَ (إنَّ) لإفادةِ الاهتمامِ بالخبَرِ بتَأكيدِه، وقدْ تقرَّرَ أنَّ مِن شَأنِ (إنَّ) إذا جاءت على هذا الوجْهِ أنْ تُغنِيَ غَناءَ فاءِ التَّرتيبِ والتَّسبُّبِ، وتُفيدَ التَّعليلَ ورَبْطَ الكلامِ بما قبْلَه كما تُفيدُه الفاءُ. وإذ قدْ كان الكلامُ تَذييلًا وتَعليلًا للكلامِ السَّابقِ؛ تعيَّنَ أنَّ حذْفَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٦).

مُتعلَّقِ ﴿تَوَّابَۢا﴾ يُقدَّرُ بنَحْوِ: على التَّائبينَ، وهذا المُقدَّرُ مُرادٌ به العُمومُ، وهو عُمومٌ مَخصوصٌ بالمَشيئةِ تُخصِّصُه أدِلَّةُ وَصْفِ الرُّبوبيَّةِ. ولَمَّا ذُكِرَ دَليلُ العُمومِ عَقِبَ أمْرِه بالاستغفارِ أفاد أنَّه إذا استَغفَرَه غَفَرَ له، دَلالةً تَقْتضيها مُستتبَعاتُ التَّراكيبِ، فأفادتْ هذه الجُملةُ تَعليلَ الأمرِ بالاستِغفارِ؛ لأنَّ الاستغفارَ طَلَبُ الغَفْرِ، فالطَّالبُ يَترقَّبُ إجابةَ طَلَبِه، وأمَّا ما في الجُملةِ مِن الأمرِ بالتَّسبيحِ والحمْدِ فلا يَحتاجُ إلى تَعليلٍ؛ لأنَّهما إنشاءُ تَنزيهٍ وثَناءٍ على اللهِ تعالى. ومِن وَراءِ ذلك أفادَتِ الجُملةُ إشارةً إلى وَعْدٍ بحُسنِ القَبولِ عندَ اللهِ تعالَى حِينَما يَقدَمُ على العالَمِ القُدسيِّ، وهذا معنًى كِنائيٌّ؛ لأنَّ مَن عُرِفَ بكَثرةِ قَبولِ تَوبةِ التَّائبينَ شَأنُه أنْ يُكرِمَ وِفادةَ الوافِدينَ الَّذين سَعَوا جُهودَهم في مَرْضاتِه بمُنْتهى الاستطاعةِ؛ فهذه الجُملةُ بمَدلولِها الصَّريحِ ومَدلولِها الكِنائيِّ ومُستتبَعاتِها؛ تَعليلٌ لِما تَضمَّنَتْه الجُملةُ الَّتي قبْلَها مِن معنًى صَريحٍ أو كِنائيٍّ يُناسِبُه التَّعليلُ بالتَّسبيحِ والحمْدِ باعتبارِهما تَمهيدًا للأمرِ بالاستغفارِ لا يَحتاجانِ إلى التَّعليلِ، أو يُغْني تَعليلُ المُمهَّدِ له بهما عن تَعليلِهما، ولكنَّهما باعتبارِ كَونِهما رمْزًا إلى مُداناةِ وَفاةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يكونُ ما في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ من الوعْدِ بحُسنِ القَبولِ تَعليلًا لِمَدلولِهما الكِنائيِّ، وأمَّا الأمرُ بالاستغفارِ فمُناسَبةُ التَّعليلِ له بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ ناهِضةٌ باعتبارِ كِلْتا دَلالتَيْه الصَّريحةِ والكِنائيَّةِ، أي: إنَّه مُتقبِّلٌ استِغفارَك ومُتقبِّلُك بأحسَنِ قَبولٍ، شَأنَ مَن عُهِدَ منه الصَّفْحُ والتَّكرُّمُ(١).

- ومُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (إنَّه كان غفَّارًا)، فيَجْري الوصْفُ على ما يُناسِبُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٦، ٥٩٧).

قولَه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]؛ فقيل: المرادُ مِن الاستغفارِ ليس قولَه: أستغفِرُ اللهَ، ولكنْ أن يَتوبَ إليه، ويَطلُبَ منه المغفرةَ بالتَّوبةِ. ويجوزُ أن يكونَ فيه إضمارٌ، كأنَّه قال: واستغفِرْه، وتُبْ إليه؛ إنَّه كان تَوَّابًا. ويجوزُ أن يكونَ احتِباكًا[1]، والأصلُ: واستغفِرْه إنَّه كان غَفَّارًا، وتُبْ إليه إنَّه كان تَوَّابًا، فاستُغْنيَ بذِكْرِ الاستغفارِ في السُّؤالِ عن ذِكرِه في الجوابِ، وأحرى أن يُستغنى بذِكرِ التَّوبةِ في الجَوابِ عن ذِكرِها في السُّؤالِ. وقيل: اختيارُ ﴿تَوَّابَۢا﴾ على (غَفَّارًا) مع أنَّه الَّذي يَستدعيه ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ ظاهِرًا؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الاستغفارَ إنَّما يَنفعُ إذا كان مع التَّوبةِ[2].

ولأنَّ وصْفَ (توَّاب) أشَدُّ مُلاءَمةً لإقامةِ الفاصلةِ مع فاصلةِ ﴿أَفْوَاجًا﴾؛ لأنَّ حرْفَ الجيمِ وحرْفَ الباءِ كِلَيْهما حرْفٌ مِن الحُروفِ المَوصوفةِ بالشِّدَّةِ، بخِلافِ حرْفِ الرَّاءِ؛ فهو مِن الحُروفِ الَّتي صِفتُها بيْن الشِّدَّةِ والرِّخوةِ[3]. وقيل غيرُ ذلك[4].

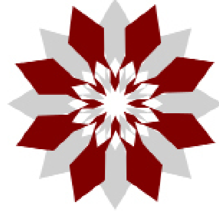


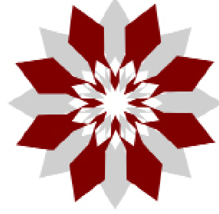
(١) تقدَّم تعريفُه (٤٣/ ٥٢٥).

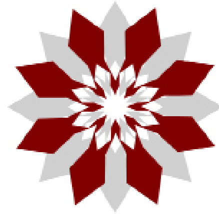
(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٦٣٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٧، ٥٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٨).

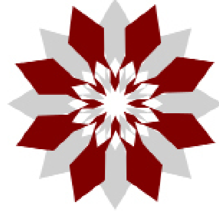
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٧، ٥٩٨).

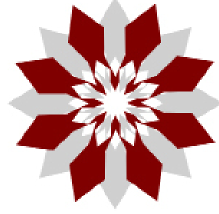


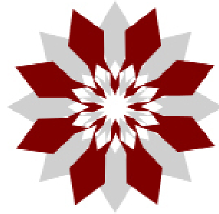




تَفْسِيرُ
سُورَةِ المَسَدِ







سُورةُ المَسَدِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (المَسَدِ)[(١)].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ المَسَدِ مكِّيَّةٌ، نقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المُفسِّرينَ[(٢)].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

الإخبارُ عن شَقاءِ أبي لَهبٍ وامرأتِه[(٣)].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- الإخبارُ عن أبي لَهبٍ بالهَلاكِ والخُسرانِ.

٢- عدَمُ إغناءِ مالِه عنهُ ولا كَسْبِه.

٣- تَوَعُّدُه وامرأتِه بدُخولِ النَّارِ.

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ بذلك؛ لذِكرِ لَفظِ (المَسَدِ) فيها في قولِه: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٢).
وسُمِّيت أيضًا بسورةِ ﴿تَبَّتْ﴾ و﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، وسورةِ (أبي لهبٍ) على تقديرِ: سورةِ ذِكْرِ أبي لهبٍ. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٧٩)، ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لعلم الدين السخاوي (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٩).

(٢) ممَّن نقلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطُبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٥٣٧).

الآيات (١-٥)

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ
نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبَّتۡ﴾: أي: خَسِرَتْ وهلَكَتْ، وأصلُ (تبب): يدُلُّ على خُسرانٍ[(١)].

﴿جِيدِهَا﴾: أي: عُنُقِها[(٢)].

﴿حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾: المسَدُ: ما فُتِلَ مِن أيِّ شَيءٍ كان، قيل: إنَّه سِلْسلةٌ فُتِلَتْ مِن الحديدِ فَتْلًا مُحكَمًا، ولُوِيَت ليًّا شَديدًا، وقيل: المسَدُ: اللِّيفُ، وأصلُ (مسد): يدُلُّ على فَتْلِ شَيءٍ وطَيِّه[(٣)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ * وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾

قَولُه تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ مَعطوفٌ على الضَّميرِ في ﴿سَيَصۡلَىٰ﴾، وسوَّغ هذا العَطفَ دونَ توكيدٍ الفَصْلُ بالمفعولِ، أي: سيَصْلَى هو وامرأتُه نارًا. ﴿حَمَّالَةَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩، ٥٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٩٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٨)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ٨٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٤١٧)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

﴿ٱلۡحَطَبِ﴾: مَنصوبٌ على الذَّمِّ، مَفعولٌ به لِفعلٍ محذوفٍ، أي: أَذُمُّ حمَّالةَ. وجملةُ (أذُمُّ) مُعترِضةٌ بيْنَ الحالِ؛ جملةِ ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٌ﴾، وصاحِبِها «امرَأتُه»، على تقديرِ: وتَصْلَى هي النَّارَ مُسَلْسلةً. وقيل: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾: نَصبٌ على الحالِ من «امرأتُه» و﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ -على هذا- نَكِرةٌ؛ لإفادتِه الاستقبالِ، فإضافتُه لَفظيَّةٌ.

ويجوزُ رَفعُ «امرَأتُه» على الابتداءِ، و﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٌ﴾ جملةٌ في محَلِّ رَفعٍ خَبَرُ المُبتدَأِ[١].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه تعالى: خَسِرَت وهلَكَت يدا أبي لَهَبٍ، وقد تحَقَّقَت خَسارتُه هو وهَلاكُه، لم يَنفَعْه مالُه وما كَسَبَه من الأولادِ أو غَيرِهم، سيَدخُلُ نارًا ذاتَ إحراقٍ شَديدٍ هو وزَوجتُه الحمَّالةُ للحَطَبِ، في عُنُقِ امرأتِه حَبلٌ مَفتولٌ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم خَرَج إلى البَطحاءِ[٢]، فصَعِدَ إلى الجَبَلِ فنادى: يا صَباحاه! فاجتمَعَت إليه قُرَيشٌ، فقال:

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٤١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ١٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٢٨)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) لأحمد الخراط (٤/ ١٤٩٠).

(٢) البَطْحاءُ والأَبْطَحُ: مَسِيلٌ واسعٌ فيه دِقاقُ الحصى، والمرادُ هنا: مَسِيلُ وادي مكَّةَ. يُنظر: ((الصَّحاح)) للجوهري (١/ ٣٥٦)، ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٧/ ٤٣٨).

أرأَيْتُم إنْ حدَّثْتُكم أنَّ العَدُوَّ مُصَبِّحُكم أو مُمَسِّيكم، أكنتُم تُصَدِّقوني؟! قالوا: نعم، قال: فإنِّي نَذيرٌ لكم بيْنَ يدَيْ عذابٍ شديدٍ. فقال أبو لهَبٍ: ألِهذا جمَعْتَنا؟! تبًّا لك! فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخِرِها))[1].

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾.

أي: خَسِرَتْ وهلَكَتْ يدا أبي لَهَبٍ، وقد تحقَّقَت خَسارتُه هو وهَلاكُه[2]!

عن طارقٍ المُحارِبيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((رأيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بسوقِ ذي المَجازِ، وأنا في بِياعةٍ[3] أَبيعُها، فمَرَّ وعليه جُبَّةٌ له حَمراءُ، وهو يُنادي بأعلى صَوتِه: أيُّها النَّاسُ، قولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ تُفلِحوا، ورجُلٌ يَتْبَعُه بالحِجارةِ قد أدمى كعبَيْه وعُرقُوبَيه[4]! وهو يقولُ: يا أيُّها النَّاسُ، لا تُطيعوه؛ فإنَّه كَذَّابٌ! قُلتُ: مَن هذا؟ قالوا: هذا غُلامُ بني عبدِ المطَّلِبِ. قلتُ: فمَن هذا الَّذي يَتْبَعُه يَرميه بالحِجارةِ؟ قالوا: عَمُّه عبدُ العُزَّى، وهو أبو لَهَبٍ!))[5].

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾.

(١) رواه البخاريُّ (٤٩٧٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٢٩-٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

قال الواحدي: (أبو لهَبٍ هو ابنُ عبدِ المطَّلِبِ، عَمُّ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، واسمُه عبدُ العُزَّى). ((البسيط)) (٢٤/ ٤٠٩).

(٣) البِياعةُ: السِّلعةُ. يُنظر: ((نخب الأفكار)) للعيني (١١/ ٤٨٦)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٠/ ٣٦٧).

(٤) العُرْقوبُ: هو العَصَبةُ الَّتي فوقَ العَقِبِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ١٣١).

(٥) أخرجه ابنُ أبي شَيْبةَ (٣٧٧٢٠) واللَّفظُ له، وابنُ خُزَيْمةَ (١٥٩)، وابنُ حِبَّانَ (٦٥٦٢).

صحَّحه ابنُ خُزَيْمةَ، وابنُ حِبَّانَ، وابنُ حزم في ((المحلى)) (٩/ ١١٢)، وابنُ المُلَقِّنِ في ((البدر المنير)) (١/ ٦٨٠).

أي: لم يَنفَعْه مالُه وما كَسَبَه مِن الأولادِ أو غيرِهم؛ فيَدفَعَ عنه شيئًا مِن عذابِ اللهِ[(١)].

قال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ١١].

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ تعالى عن حالِ أبي لهَبٍ في الماضي بالتَّبابِ، وبأنَّه ما أغنى عنه مالُه وكَسْبُه؛ أخبَرَ عن حالِه في المستقبَلِ بأنَّه سيَصلَى نارًا[(٢)].

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾.

أي: سيَدخُلُ أبو لهبٍ نارًا ذاتَ شَرَرٍ ولَهيبٍ وإحراقٍ شَديدٍ، لا تَسكُنُ ولا تَخمُدُ أبدًا[(٣)].

قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٤، ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٣، ٦٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٦، ٣٤٧).

قال ابنُ عاشور: (ما: نافيةٌ، ويجوزُ أن تكونَ استفهاميَّةً للتَوبيخِ والإنكارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٤).

وقال الشوكاني: (﴿مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ أيْ: ... ما جَمَعَ مِن المالِ ولا ما كَسَب مِن الأرباحِ والجاهِ، أو المرادُ بقولِه: ﴿مَالُهُۥ﴾: ما وَرِثه مِن أبيه، وبقولِه: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ الَّذي كسَبه بنفسِه. قال مجاهدٌ: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ مِن وَلَدٍ، ووَلَدُ الرَّجُلِ مِن كَسْبِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٣٨).

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أن أعقَبَ ذمَّ أبي لهَبٍ ووَعيدَه بمِثْلِ ذلك لامرأتِه؛ لأنَّها كانت تُشارِكُه في أذى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتُعينُه عليه(١).

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤﴾.

أي: وسيَدخُلُ معه النَّارَ زَوجتُه الحامِلةُ للحَطَبِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٧).

قال البِقاعي: (﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ أي: أمُّ جميلٍ -أختُ أبي سُفْيانَ بنِ حَربِ بنِ أُمَيَّةَ بنِ عبدِ شَمسِ ابنِ عبدِ مَنافِ بنِ قُصَيٍّ- مِثلُ زَوجِها في التَّبابِ والصِّليِّ مِن غيرِ أن يُغْنيَ عنها شيءٌ من مالٍ ولا حَسَبٍ ولا نَسَبٍ). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٣٤١).

قيل: المرادُ: أنَّها كانت تحمِلُ حَطَبًا ذا شَوكٍ فتَضَعُه في طريقِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزمخشريُّ، والنسفيُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٩١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعطيَّةُ الجَدَليِّ، والرَّبيعُ بنُ أنَسٍ، ومُرَّةُ الهَمْدانيُّ والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧١٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١٥).

قال ابنُ عاشور: (فيَحتَمِلُ أنَّها صِفتُها في جهنَّمَ، ويحتَمِلُ أنَّها صِفتُها الَّتي كانت تعمَلُ في الدُّنيا بجَلْبِ حَطَبِ العِضاهِ [الأشجار التي لها شوك]؛ لتَضَعَه في طريقِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، على طريقةِ التَّوجيهِ والإيماءِ إلى تعليلِ تعذيبِها بذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٦).

وقيل: المعنى: أنَّها كانت تمشي بالنَّميمةِ؛ إيقادًا للعداوةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجُملةِ: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٩٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢). =

﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدِۭ ﴿٥﴾ ﴾.

أي: في عُنُقِ امرأةِ أبي لهَبٍ حَبلٌ مَفتولٌ[1].

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ، وعِكْرِمةُ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والثَّوْريُّ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١٥).

قال النَّيْسابوريُّ: (والأكثَرونَ على أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ أنَّها كانت تَمشي بالنَّميمةِ). ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٥٩١).

وممَّن ذهب إلى الجَمعِ بيْن معنى حَمْلِها الشَّوكَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ونَثْرِه في طريقِه إيذاءً له، ومَشْيِها بالنَّميمةِ لحَمْلِ النَّاسِ على مُعاداتِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وحَمْلِها الحَطَبَ في الآخرةِ تعذيبًا لها: البِقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٤١، ٣٤٢).

قال ابنُ كثير: (﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ وكانت زَوجتُه مِن ساداتِ نِساءِ قُرَيشٍ، وهي: أُمُّ جَميلٍ، واسمُها أَروَى بنتُ حَربِ بنِ أُمَيَّةَ، وهي أُختُ أبي سُفْيانَ. وكانت عَونًا لزَوجِها على كُفرِه وجُحودِه وعِنادِه؛ فلهذا تكونُ يومَ القيامَة عَونًا عليه في عَذابِه في نارِ جَهنَّمَ؛ ولهذا قال: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدِۭ﴾ يعني: تَحمِلُ الحَطبَ فتُلقِي على زَوجِها، ليَزدادَ على ما هو فيه، وهي مُهيَّأةٌ لذلك، مُستَعِدَّةٌ له). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢٢، ٧٢٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٧).

قال ابنُ جُزَي: (في المرادِ به ثلاثةُ أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّه إخبارٌ عن حَمْلِها الحَطَبَ في الدُّنيا...

والآخَرُ: أنَّه حالُها في جهنَّمَ يكونُ كذلك، أي: يكونُ في عُنُقِها حَبلٌ.

الثَّالِثُ: أنَّها كانت لها قِلادةٌ فاخِرةٌ، فقالت: لَأُنفِقَنَّها على عداوةِ محمَّدٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٢). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٦٧، ٣٦٨).

وقال السَّمَرْقَنْديُّ: (قال أكثَرُ أهلِ التَّفسيرِ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدِۭ﴾ يعني: في الآخِرةِ في عُنُقِها سِلسلةٌ مِن حديدٍ، وتحتَها نارٌ، وفوقَها نارٌ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٣٣).

وقيل: إنَّ المسَدَ هو اللِّيفُ، وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- إنَّ سورةَ ﴿تَبَّتْ﴾ نزَلَتْ في أبي لهبٍ وامرأتِه، وهما مِن أشرَفِ بطنَينِ في قُرَيشٍ، وهو عَمُّ عَليٍّ، وهي عمَّةُ مُعاويةَ، واللَّذان تَداوَلا الخِلافةَ في الأُمَّةِ هذانِ البَطنانِ: بنو أميَّةَ، وبنو هاشمٍ، وأمَّا أبو بكرٍ وعُمَرُ فمِن قبيلتَينِ أبْعَدَ عنه صلَّى الله عليه وسلَّم، واتَّفَقَ في عَهدِهما ما لم يَتَّفِقْ بَعْدَهما، وليس في القرآنِ ذَمُّ مَن كَفَرَ به صلَّى الله عليه وسلَّم باسمِه إلَّا هذا وامرأتُه؛ ففيه أنَّ الأنسابَ لا عِبرةَ بها، بل صاحِبُ الشَّرَفِ يكونُ ذَمُّه على تَخَلُّفِه عن الواجِبِ أعظَمَ، كما قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] الآيةَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ * وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ وَصْفُ بَعْلِها وهو يَصْلَى، وهي تَحْمِلُ الحَطَبَ عليه -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، كما أعانَتْه على الكُفرِ؛ فيكونُ مِن حَشْرِ الأزواجِ، وفيه عِبرةٌ لكلِّ مُتعاوِنَينِ على الإثمِ، أو على إثمٍ ما، أو عُدوانٍ ما[٢].

= ٨٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٧).

قال ابنُ عثيمين: (يعني: أنَّها متقلِّدةٌ حَبلًا مِنَ اللِّيفِ، تخرُجُ به إلى الصَّحراءِ لتَربطَ به الحَطَبَ الَّذي تأتي به لتضَعَه في طريقِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٧).

وقال ابنُ قُتَيْبَةَ: (أمَّا المسَدُ، فهو عندَ كثيرٍ مِن النَّاسِ: اللِّيفُ دونَ غيرِه. وليس كذلك، إنَّما المسَدُ: كلُّ ما ضُفِر وفُتِل مِن اللِّيفِ وغيرِه). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ١٠٣).

وقال ابن جرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصَّوابِ، قولُ مَن قال: هو حبلٌ جُمِع من أنواعٍ مُختَلِفةٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢٥).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٦٠٣).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ ورَدَ عن ابنِ عبَّاسٍ والضَّحَّاكِ وغَيرِهما: أنَّها كانت تأتي بالشَّوكِ تَطرَحُه باللَّيلِ في الطَّريقِ، فيُفهَمُ منه أنَّ مِن شُعَبِ الإيمانِ: إماطةَ الأذى عن الطَّريقِ؛ لأنَّه تعالى عَدَّ ضِدَّه مِن خِصالِ الكُفَّارِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾، فيه سُؤالٌ: ما السَّببُ في أنه لم يقلْ: (قُلْ: تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)، وقال في سُورةِ الكافِرون: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؟

الجوابُ: قيل: لأنَّ قَرابةَ العُمومةِ تَقتضي رِعايةَ الحُرمةِ، فلهذا السَّببِ لم يقلْ له: (قُلْ تَبَّتْ...)؛ لِئَلَّا يكونَ مُشافِهًا لعَمِّه بالشَّتْمِ، بخِلافِ السُّورةِ الأُخرَى؛ فإنَّ أولئك الكُفَّارَ ما كانوا أعمامًا له.

وقيل أيضًا: لَمَّا شَتَمُوك، فاسكُت حتَّى تَندَرِجَ تحتَ هذه الآيةِ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وإذا سَكَتَّ أنتَ، أكونُ أنا المُجيبَ عنكَ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ ليس مِن التَّكرارِ؛ لاختلافِ مَقصودِ الفِعلَينِ؛ فإنَّ الأولَ منهما دُعاءٌ يُرادُ به الإنشاءُ، والثَّاني خَبَرٌ، أي: «تبَّتْ يدا أبي لهَبٍ، وقد تَبَّ»[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ استُدِلَّ به على جوازِ تَكنيةِ الكافِرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٥١)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٥٨٩).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٥٧)، ويُنظر ما يأتي (ص: ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠١).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ فيه سُؤالٌ: لِماذا كنَّاه، والتَّكنيةُ مِن بابِ التَّعظيمِ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّه لَمَّا كانت التَّكنيةُ قد تكونُ اسمًا، خَرَج عن إفادةِ التَّعظيمِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه كان اسمُه عبدَ العُزَّى، فعَدَل عنه إلى كُنيتِه؛ لأنَّ في اسمِه عِبادةَ العُزَّى، وذلك لا يُقِرُّه القرآنُ العزيزُ، ولأنَّ ذِكرَه باسْمِه خِلافُ الواقعِ حَقيقةً؛ لأنَّه عبدُ اللهِ لا عبْدُ العُزَّى.

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّه لَمَّا كان مِن أهلِ النَّارِ، ومآلُه إلى نارٍ ذاتِ لَهَبٍ، وافَقَت حالُه كُنيتَه؛ فكان جديرًا بأن يُذكَرَ بها، ويُقالَ: (أبو لهَبٍ)، كما يُقالُ: (أبو الشَّرِّ) للشِّرِّيرِ، و(أبو الخيرِ) للخَيِّرِ، والأبُ: يُطلَقُ على مُلازِمِ ما أُضيفَ إليه، كقولِهم: «أبُوها وكَيَّالُها»، وكما كُنِّيَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ أبا الضِّيفانِ، فكانتْ كُنيةُ أبي لَهَبٍ صالحةً مُوافِقةً لحالِه مِن استِحقاقِه لَهَبَ جَهنَّمَ، فصار هذا التَّوجيهُ كِنايةً عن كَونِه جَهنَّميًّا؛ ليُنتقَلَ مِن جَعْلِ أبي لَهَبٍ بمعْنى مُلازِمِ اللَّهَبِ إلى لازِمِ تلك المُلازَمةِ في العُرفِ، وهو أنَّه مِن أهْلِ جَهنَّمَ.

الوَجهُ الرَّابعُ: كُنِّيَ بذلك لتلَهُّبِ وَجنَتَيه وإشراقِهما، فيَجوزُ أن يُذكَرَ بذلك تهكُّمًا به وبافتخارِه بذلك، واحتِقارًا له. وقد قيل: إنَّه كان يُكنَّى بذلك في الجاهليَّةِ لُحسْنِه وإشراقِ وَجْهِه، وإنَّه اشتَهَرَ بتلك الكُنيةِ.

الوَجهُ الخامسُ: أنَّه كان بكُنيتِه أشهَرَ منه باسمِه العَلَمِ، فلمَّا أُريدَ تَشهيرُه بدَعوةِ السَّوءِ وأنْ تَبقى سِمةً له، ذُكِرَ الأشهَرُ مِن عَلَمَيْه[1]. ....

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٤)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣١، ٦٣٢)، =

وقيلَ غيرُ ذلك(١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ فيه آيةٌ باهِرةٌ مِن آياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ اللهَ أنزَلَ هذه السُّورةَ، وأبو لهَبٍ وامرأتُه لم يَهلِكا، وأخبَرَ أنَّهما سيُعَذَّبانِ في النَّارِ ولا بُدَّ، ومِن لازِمِ ذلك أنَّهما لا يُسلِمانِ؛ فوقَعَ كما أخبَرَ عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ(٢)، ففي هذه السُّورةِ معجزةٌ ظاهرةٌ، ودليلٌ واضحٌ على النُّبوَّةِ(٣).

٦- قال الله تبارك وتعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾، ولو كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُداهِنُ أحدًا في الدِّينِ ويُسامِحُه فيه، لَكانت تلك المُداهَنةُ والمُسامَحةُ مع عَمِّه الَّذي هو قائمٌ مَقامَ أَبيه، فلمَّا لم تَحصُلْ هذه المُداهَنةُ معه، انقَطعَتِ الأَطماعُ، وعَلِمَ كلُّ أحدٍ أنَّه لا يُسامِحُ أحدًا في شَيءٍ يَتعلَّقُ بالدِّينِ أَصلًا(٤).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ استدَلَّ به الشَّافعيُّ رحمه الله على صِحَّةِ أنكِحةِ الكُفَّارِ(٥)؛ فقد سَمَّاها اللهُ تعالى امرأتَه بعَقدِ النِّكاحِ الواقِعِ في الشِّرْكِ. وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾

= ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠١، ٦٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٥٠، ٣٥١).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠١).

مذهبُ جمهورِ الفُقهاءِ مِن الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ -على الصَّحيح-، والحنابلةِ، وهو قولٌ عندَ المالكيَّةِ: أنَّ نكاحَ الكفَّارِ -غيرِ المرتدِّينَ- بعضِهم لبعضٍ صحيحٌ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٤١/ ٣١٩).

[التحريم: ١١]، فسَمَّاها «امرأتَه». والصَّحابةُ رضيَ الله عنهم غالبُهم إنَّما وُلِدُوا مِن نِكاحٍ كان قبْلَ الإسلامِ في حالِ الشِّرْكِ، وهُم يُنسَبونَ إلى آبائِهم انتِسابًا لا رَيبَ فيه عندَ أحدٍ مِن أهلِ الإسلامِ، وقد أَسلَمَ الجَمُّ الغَفيرُ في عَهدِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فلم يأمُرْ أحدًا منهم أن يُجدِّدَ عَقْدَه على امرأتِه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾

- افتِتاحُ السُّورةِ بالتَّبابِ مُشعِرٌ بأنَّها نَزَلَت لتَوبيخٍ ووَعيدٍ، فذلك بَراعةُ استهلالٍ[٢] مِثلَ ما تُفتتَحُ أشعارُ الهِجاءِ بما يُؤذِنُ بالذَّمِّ والشَّتمِ[٣].

- والتَّبُّ: الخُسرانُ والهلاكُ، والكلامُ دُعاءٌ وتَقريعٌ لأبي لَهَبٍ دافَعَ اللهُ به عن نَبيِّه بمِثلِ اللَّفظِ الَّذي شَتَمَ به أبو لَهَبٍ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم جَزاءً وِفاقًا[٤].

- وإسنادُ التَّبِّ إلى اليَدَينِ؛ لأنَّ العمَلَ أكثَرُ ما يكونُ بهما، وهو في الحقيقةِ للنَّفْسِ، فالمرادُ: هَلاكُ جُملتِه. وقيل: إنَّما خُصَّت اليَدانِ بالذِّكرِ؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لَمَّا جمَعَ أقارِبَه فأنْذَرَهم، قال أبو لَهَبٍ: تَبًّا لك، أَلِهذا دَعَوْتَنا؟! وأخَذَ حَجَرًا ليَرمِيَه به، فنَزَلَت[٥]. وفي حديث طارقٍ المُحارِبيِّ رضيَ الله عنه أنَّ أبا لهبٍ كان يَتْبَعُ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالحِجارةِ قد

(١) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٦١٤). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٧٥).

(٢) تقدَّم تعريفُه (٤٣/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٦٠١).

(٥) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٥٠).

أدمى كعبَيْه وعُرقُوبَيه[١]؛ فوقَعَ الدُّعاءُ على يَدَيْه؛ لأنَّهما سَببُ أذى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[٢].

- وجُملةُ ﴿وَتَبَّ﴾ إمَّا مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ عطْفَ الدُّعاءِ على الدُّعاءِ إذا كان إسنادُ التَّبابِ إلى اليَدَينِ لأنَّهما آلةُ الأذى بالرَّمي بالحِجارةِ، فأُعِيدَ الدُّعاءُ على جَميعِه؛ إغلاظًا له في الشَّتْمِ والتَّقريعِ، وتُفيدُ بذلك تَأكيدًا لجُملةِ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾؛ لأنَّها بمَعناها، وإنَّما اختَلَفَتا بالكُلِّيَّةِ والجُزئيَّةِ، وذلك الاختلافُ هو مُقْتضى عَطْفِها، وإلَّا لَكان التَّوكيدُ غيرَ مَعطوفٍ؛ لأنَّ التَّوكيدَ اللَّفظيَّ لا يُعطَفُ بالواوِ، وإمَّا أنْ تكونَ في مَوضعِ الحالِ، والواوُ واوَ الحالِ، ولا تَكون دُعاءً، وإنَّما إخبارٌ بعْدَ دُعاءٍ، والتَّعبيرُ بالماضي لتَحقُّقِ وُقوعِه، وكأنَّ ذلك قدْ حصَلَ؛ فيكونَ الكلامُ قبْلَه مُستعمَلًا في الذَّمِّ والشَّماتةِ به، أو لطَلَبِ الازديادِ، فيَتمحَّضُ الكلامُ قبْلَه لمَعْنى الذَّمِّ والتَّحقيرِ دونَ معْنى طَلَبِ حُصولِ التَّبابِ له. وقيلَ: الأوَّلُ إخبارٌ عن هَلاكِ عَمَلِه؛ لأنَّ الأعمالَ تُزاوَلُ غالبًا بالأيدِي، والثَّاني إخبارٌ عن هَلاكِ نفْسِه[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾

- قولُه: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ للانتقالِ من إنشاءِ الشَّتمِ والتَّوبيخِ إلى الإعلامِ بأنَّه آيسٌ مِن النَّجاةِ من هذا التَّبابِ، ولا

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٥، ٥٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٣).

يُغْنيه مالُه، ولا كسْبُه، أي: لا يُغْني عنه ذلك في دفْعِ شَيءٍ عنه في الآخرةِ[١].

- والتَّعبيرُ بالماضي في قَولِه: ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾؛ لتَحقيقِ وُقوعِ عدَمِ الإغناءِ[٢].

- قَولُه: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ مَوصولٌ وصِلتُه، والعائدُ مَحذوفٌ جوازًا؛ لأنَّه ضَميرُ نصْبٍ، والتَّقديرُ: وما كَسَبَه، أي: ما جَمَعَه، والمرادُ به: ما يَملِكُه من غيرِ النَّعَمِ؛ مِن نُقودٍ وسِلاحٍ، ورَبْعٍ وعُروضٍ، وطَعامٍ. ويَجوزُ أنْ يُرادَ بمالِه: جَميعُ مالِه، ويكونَ عطْفُ ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ مِن ذِكرِ الخاصِّ بعْدَ العامِّ؛ للاهتِمامِ به، أي: ما أغْنى عنه مالُه التَّالِدُ، وهو ما وَرِثَه عن أبيهِ عبدِ المُطَّلِبِ، وما كَسَبَه هو بنفْسِه، وهو طَريفُه[٣]. وقيلَ غيرُ ذلك.

ويَجوزُ أنْ تكونَ (ما) في قَولِه: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ استفهامًا في معْنى الإنكارِ، أيْ: أيَّ شَيءٍ يُغْني عنه مالُه؟! وأيَّ شَيءٍ كَسَبَ؟ على وَجْهِ التَّقريرِ والإنكارِ[٤].

- قَولُه: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ أي: لا يُغْني عنه شَيءٌ مِن عَذابِ جهنَّمَ[٥].

- قَولُه: ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ السِّينُ للاستِقبالِ وإنْ تَراخى الزَّمانُ، وهو وَعيدٌ كائنٌ إنجازُه لا مَحالةَ وإنْ تَراخى وَقْتُه، فالسِّينُ لتَأكيدِ الوَعيدِ وتَشديدِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٦٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٤، ٨١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٦، ٥٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٤).

- ووَصْفُ النَّارِ بـ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ لزيادةِ تَقريرِ المُناسَبةِ بيْن اسمِه وبيْن كُفْرِه؛ إذ هو أبو لَهَبٍ، والنَّارُ ذاتُ لَهَبٍ، وهو ما تَقدَّمَ الإيماءُ إليه بذِكرِ كُنيتِه، وفي وَصْفِ النَّارِ بذلك زِيادةُ كَشْفٍ لحقيقةِ النارِ، وهو مِثلُ التَّأكيدِ[١].

٣- قَولُه تعالَى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾

- قَولُه: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ ﴿حَمَّالَةَ﴾ على وَزْنِ (فعَّالة)؛ للمُبالَغةِ[٢].

- وقُدِّمَ الخبَرُ مِن قولِه: ﴿فِى جِيدِهَا﴾؛ للاهتِمامِ بوَصْفِ تلك الحالةِ الفَظيعةِ الَّتي عُوِّضَت فيها بحَبْلٍ في جِيدِها عن العِقدِ الَّذي كانت تُحلِّي به جِيدَها في الدُّنيا، فتُربَطُ به؛ إذ قد كانت هي وزَوجُها مِن أهلِ الثَّراءِ، وسادةِ أهلِ البَطْحاءِ[٣].

- والجِيدُ: العُنقُ، وغَلَبَ في الاستِعمالِ على عُنقِ المرأةِ وعلى مَحلِّ القِلادةِ منه، فقَلَّ أنْ يُذكَرَ العُنقُ في وَصْفِ النِّساءِ في الشِّعرِ العربيِّ إلَّا إذا كان عُنقًا مَوصوفًا بالحُسنِ، والمعروفُ أنْ يُذكَرَ العُنقُ إذا ذُكِرَ الحَلْيُ أو الحُسنُ؛ فإنَّما حَسُنَ هنا ذِكرُ الجِيدِ في حُكْمِ البلاغةِ؛ لأنَّها امرأةٌ، والنِّساءُ تُحلِّي أجْيادَهنَّ، وأمُّ جَميلٍ لا حَلْيَ لها في الآخِرةِ إلَّا الحبْلُ المَجعولُ في عُنقِها، فلمَّا أُقيمَ لها ذلك مُقامَ الحَلْيِ ذُكِرَ الجِيدُ معه[٤].

- وفي قَولِه: ﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّهكُّمِ؛ فقدْ صوَّرَها تَصويرًا فيه مُنتهَى الخِسَّةِ والقَماءةِ، والمعْنى ﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٦).

مَّسَدِۭ ﴾: مِن الحِبالِ، وأنَّها تَحمِلُ تلك الحُزمةَ وتَربِطُها في جِيدِها؛ تَخسيسًا لحالِها، وتَصويرًا لها بصُورةِ بَعضِ الحطَّاباتِ مِن المَواهِنِ -جمْعُ ماهنٍ، وهي الخادِمُ- لتَمتعِضَ مِن ذلك، ويَمتعِضَ زَوجُها، وهما في بَيتِ العِزِّ والشَّرفِ، وفي مَنصبِ الثَّروةِ والجِدَةِ[1].

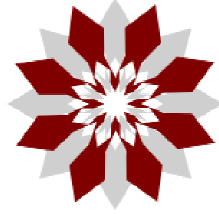
وقيل: إنَّما عُبِّرَ عن قِلادتِها بـ﴿ حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ﴾ على جِهةِ التَّفاؤُلِ لها، وذِكرِ تَبرُّجِها في هذا السَّعيِ الخَبيثِ[2].

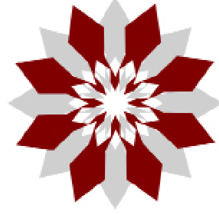


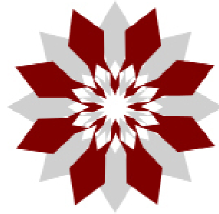
(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٨).

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الإِخْلاصِ







سُورةُ الإِخْلاصِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ الإِخْلاصِ[(١)].

وسُمِّيت أيضًا بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ فعن أبي الدَّرْداءِ رضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: ((أَيَعْجِزُ أَحَدُكم أن يَقرأَ في لَيلةٍ ثُلُثَ القُرآنِ؟ قالوا: وكيف يَقرأُ ثُلُثَ القُرآنِ؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ))[(٢)].

ويُطلَقُ عليها مع سورتَي (الفَلَقِ) و(النَّاسِ): (المُعَوِّذاتُ):

عن عُقْبةَ بنِ عامرٍ رضِيَ الله عنه، قال: ((أمَرَني رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن أَقرأَ بالمُعَوِّذاتِ[(٣)] ....

(١) قال الفيروزابادي: (سُمِّيت سورةَ الإخلاصِ؛ لأَنَّها خالصُ التَّوحيدِ؛ وسببُ خلاصِ أهْلِه). ((بصائر ذوي التمييز)) (٢/ ١٧٣).

وقال ابن عاشور: (واشْتُهِرَ هذا الاسمُ؛ لاختِصارِه، وجَمْعِه مَعانيَ هذه السُّورةِ؛ لأنَّ فيها تعليمَ النَّاسِ إخلاصَ العبادَةِ لله تعالَى، أي: سلامةَ الاعتقادِ مِن الإشراكِ باللهِ غيرَه في الإلَهيَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٩).

وقال ابنُ عثيمين: (سُمِّيت به؛ لأنَّ اللهَ تعالى أخلَصَها لنَفْسِه، فلَمْ يَذكُرْ فيها إلَّا ما يَتعَلَّقُ بأسمائِه وصِفاتِه، ولأنَّها تُخَلِّصُ قارِئَها مِن الشِّركِ والتَّعطيلِ). ((مذكرة على العقيدة الواسطية)) (ص: ١٣).

وسُمِّيت أيضًا: الأساسَ، والمقشقشةَ [أي: المبرئة، وهو من قَشْقَشَ المريضُ: إذا صحَّ وبَرِئَ]، والتَّوحيدَ، والتَّجريدَ... إلى غيرِ ذلك، وقد ذكروا لها أكثرَ من عِشرينَ اسْمًا. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٥٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (٨١١).

وأخرجه البخاري (٥٠١٥) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) قال ابنُ حجر: (المُعَوِّذاتِ أي: السُّوَرِ الثَّلاثِ، وذكَر سورةَ الإخلاصِ معهما تغليبًا؛ لِما اشتمَلَت عليه مِن صفةِ الرَّبِّ، وإن لم يصرَّحْ فيها بلَفظِ التَّعويذِ). ((فتح الباري)) (٩/ ٦٢).

في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ))[١].

فضائلُ السُّورة وخصائصُها:

١- أنَّها تَعدلُ ثُلُثَ القُرآنِ:

عن أبي الدَّرْداءِ رضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: ((أيَعْجِزُ أحَدُكم أن يَقرأَ في لَيلةٍ ثُلُثَ القُرآنِ؟ قالوا: وكيف يَقرأُ ثُلُثَ القُرآنِ؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ))[٢].

وعن أبي سعيد الخدري رضيَ الله عنه: ((أنَّ رجلًا سمِع رجلًا يقرأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يردِّدُها، فلمَّا أصبَح جاء إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فذكَر ذلك له، وكأنَّ الرَّجلَ يتقالُّها، فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: والذي نَفْسي بيدِه إنَّها لتعدلُ ثلثَ القرآنِ))[٣].

---

(١) أخرجه أبو داودَ (١٥٢٣)، والنَّسائيُّ (١٣٣٦)، وأحمدُ (١٧٤١٧) واللَّفظُ لهم، والترمذيُّ (٢٩٠٣) باختلافٍ يسيرٍ.
صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٢٠٠٤)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٢٩٠)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٥٢٣)، وشعيبُ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٨/ ٦٣٤). وذكر ابنُ باز في ((الفوئد العلمية)) (٦/ ٣٣٥) أنَّ له طرقًا جيِّدةً.

(٢) تقدَّم تخريجُه قريبًا.
قال ابن تيميَّةَ: (القُرآنُ باعتبارِ معانيه ثلاثةُ أثلاثٍ: ثُلُثٌ توحيدٌ، وثُلُثٌ قَصَصٌ، وثُلُثٌ أمْرٌ ونَهْيٌ؛ لأنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ، والكلامُ: إمَّا إنشاءٌ، وإمَّا إخبارٌ، والإخبارُ: إمَّا عن الخالقِ، وإمَّا عن المخلوقِ، والإنشاءُ: أمرٌ ونهيٌ وإباحةٌ؛ فـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها ثُلُثُ التَّوحيدِ، الَّذي هو خَبَرٌ عن الخالقِ). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٩٣).
وقال ابن عثيمين: («تعدلُ ثلثَ القرآنِ» يعني أجرها كأجرِ ثلثِ القرآنِ، لكنَّها لا تجزئُ عن القرآنِ، ولهذا لو قرَأها الإنسانُ مثلًا ثلاثَ مرَّاتٍ بدلَ قراءةِ الفاتحةِ في الصلاةِ لا تجزئُ). ((شرح رياض الصالحين)) (٤/ ٦٧٦). ويُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٩٢).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠١٣).

٢- أَمَرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقِراءةِ المُعَوِّذاتِ (ومنها سورةُ الإخلاصِ) في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ:

كما في حديثِ عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضِيَ الله عنه، وقد تقدَّم.

٣- ما أُنزِلَ مِثلُ المُعَوِّذاتِ (ومنها سورةُ الإخلاصِ) في التَّوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في الفُرقانِ:

عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضِيَ الله عنه، قال: ((... لَقِيتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال لي: يا عُقْبةُ بنَ عامرٍ، ألَا أُعَلِّمُك سوَرًا ما أُنزِلَتْ في التَّوراةِ، ولا في الزَّبورِ، ولا في الإنجيلِ، ولا في الفُرقانِ مِثلُهُنَّ؟ لا يأتِيَنَّ عليك لَيلةٌ إلَّا قَرَأْتَهُنَّ فيها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. قال عُقْبةُ: فما أَتَتْ علَيَّ لَيلةٌ إلَّا قرأْتُهُنَّ فيها، وحُقَّ لي ألَّا أَدَعَهُنَّ وقد أَمَرَني بهِنَّ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم))[1].

٤- مَن قَرأَ المعوِّذاتِ (ومنها سورةُ الإخلاصِ) صباحًا ومَساءً ثلاثًا تَكْفيه مِن كلِّ شَيءٍ:

عن عبدِ الله بنِ خُبَيبٍ رضِيَ الله عنه، قال: ((خرَجْنا في لَيلةٍ مَطِيرةٍ وظُلْمةٍ شديدةٍ نَطلُبُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُصَلِّي لنا، فأدرَكْتُه فقال: قُلْ. فلمْ أَقُلْ شيئًا، ثمَّ قال: قُلْ. فلمْ أقُلْ شيئًا، ثمَّ قال: قُلْ. قلتُ: ما أقولُ؟ قال: قُلْ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمُعَوِّذَتَينِ حينَ تُمْسي وحينَ تُصبِحُ ثلاثَ مرَّاتٍ تَكفيكَ مِن

---

(١) أخرجه أحمدُ (١٧٤٥٢) واللَّفظُ له، وهَنَّادٌ في ((الزهد)) (٢/ ٤٩٣)، وابنُ أبي الدنيا في ((مكارم الأخلاق)) (٢٠) كلاهما مختصرًا.

صحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٦/ ٨٥٩)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٨/ ٦٥٥)، ووثَّق رجالَه الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٥١)، والشَّوكانيُّ في ((تحفة الذاكرين)) (ص: ٤٤٤).

كلِّ شَيءٍ[(١)]))[(٢)].

٥- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا اشتكى رقَى نفْسَه بالمعوِّذاتِ (ومنها سورةُ الإخلاصِ):

عن عائشةَ رَضِيَ الله عنها: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا اشْتكى يَقرأُ على نفْسِه بالمُعَوِّذاتِ ويَنْفُثُ[(٣)]، فلمَّا اشْتَدَّ وَجَعُه كنتُ أقرَأُ عليه وأمْسَحُ بيَدِه؛ رجاءَ بَرَكَتِها))[(٤)].

٦- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُعَوِّذُ نفْسَه بالمعوِّذاتِ (ومنها سورةُ الإخلاصِ) إذا أَوَى إلى فِراشِه:

عن عائشةَ رضيَ الله عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا أَوَى إلى فِراشِه كُلَّ لَيلةٍ جَمَع كَفَّيْه، ثُمَّ نَفَث فيهما فقَرَأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمسَحُ بهما ما اسْتَطاع

(١) قيل: المعنى: تكفيك مِن كلِّ شَيءٍ تَخْشى منه كائنًا ما كان، وتَدفَعُ عنك كلَّ سوءٍ. ويحتملُ أن يكونَ معناه: تُغْنيك عمَّا سِواها. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (٥/ ١٦٧١)، ((مرقاة المفاتيح)) لعليٍّ القاري (٤/ ١٤٨٥)، ((تحفة الذاكرين)) للشوكاني (ص: ٩٧).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٥٠٨٢)، والترمذيُّ (٣٥٧٥) واللَّفظُ له، والنَّسائيُّ (٥٤٢٨)، وعبدُ الله بنُ أحمدَ في ((زوائد المسند)) (٢٢٦٦٤).

صحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (ص: ١٢٨)، وحسَّنه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٣٤٥)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٠٨٢)، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((الأذكار)) (ص: ١٠٧)، وحسَّنه ابنُ باز في ((مجموع فتاواه)) (٢٦/ ٢٦).

(٣) النَّفثُ: هو نفخٌ لطيفٌ مِن الفَمِ معه ريقٌ خفيفٌ أو بلا ريقٍ. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (٥/ ١٦٥١)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٢٠٩)، ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٨/ ٣٩٣).

(٤) أخرجه البخاري (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢).

مِن جَسَدِه، يَبْدَأُ بهما على رَأْسِه ووَجْهِه وما أقْبَلَ مِن جَسَدِه، يَفعَلُ ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ))[(١)].

٧- مَن دَعا بما تَضَمَّنَتْه مِن أسماءٍ فقد دَعا اللهَ باسمِه الأعظَمِ:

عن بُرَيْدَةَ رضيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم سَمِعَ رجُلًا يقولُ: اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ بأنَّكَ أنتَ اللهُ الأحَدُ الصَّمَدُ، الَّذي لم يَلِدْ ولم يولَدْ، ولم يَكُنْ له كُفُوًا أحَدٌ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: لَقد سألَ اللهَ باسْمِه الأعظَمِ، الَّذي إذا سُئِلَ به أعطى، وإذا دُعِيَ به أجابَ))[(٢)].

٨- مَن أحَبَّها دخَل الجنَّةَ:

عن أنَسٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رجُلٌ مِن الأنصارِ يَؤُمُّهم في مَسجدِ قُباءٍ، وكان كُلَّما افتتَح سورةً يَقرأُ بها لهم في الصَّلاةِ ممَّا يُقرأُ به افتتَح بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾ حتَّى يَفرُغَ منها ثمَّ يَقرأُ سورةً أخرى معها، وكان يَصنعُ ذلك في كلِّ ركعةٍ، فكلَّمهُ أصحابُه فقالوا: إنَّك تَفتَتِحُ بهذه السُّورةِ ثمَّ لا ترى أنَّها تُجزئُكَ حتَّى تَقرأَ بأخرى، فإمَّا أنْ تَقرأَ بها وإمَّا أنْ تَدَعَها وتَقرأَ بأخرى. فقال: ما أنا بتارِكِها، إنْ أحبَبْتُم أنْ أَؤُمَّكم بذلك فعَلْتُ، وإنْ كَرِهْتُم تَرَكْتُكم، وكانوا يَرَوْنَ أنَّه مِن أفضَلِهم، وكَرِهوا أنْ يَؤُمَّهم غيرُه، فلمَّا أتاهم النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٧).

(٢) أخرجه أبو داودَ (١٤٩٣)، والترمذيُّ (٣٤٧٥)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٧٦٦٦)، وابنُ ماجه (٣٨٥٧)، وأحمدُ (٢٣٠٤١) واللَّفظُ له.
صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٨٩١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (١٤٩٣)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (١٤٩٣)، وصحَّح إسنادَه ابنُ باز في ((فتاوى نور على الدرب)) (٢/ ١٣٢).

أخبَروه الخبَرَ، فقال: يا فُلانُ، ما يَمْنَعُك أنْ تَفعلَ ما يأمُرُك به أصحابُك؟ وما يَحمِلُك على لُزومِ هذه السُّورةِ في كلِّ ركعةٍ؟ فقال: إنِّي أُحِبُّها. فقال: حُبُّكَ إيَّاها أدخَلكَ الجنَّةَ))[١].

٩- مَن أَحَبَّ القِراءةَ بها أَحَبَّه اللهُ، وهي صِفَةُ الرَّحمنِ:

عن عائشةَ رضيَ الله عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بَعَثَ رجُلًا على سَرِيَّةٍ[٢]، وكان يَقرأُ لأصْحابِه في صَلاتِهم فيَختِمُ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾، فلَمَّا رَجَعوا ذَكَروا ذلك للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: سَلُوهُ لأيِّ شَيءٍ يَصنَعُ ذلك، فسَأَلوه، فقال: لأنَّها صِفةُ الرَّحمنِ، وأنا أُحِبُّ أنْ أقرَأَ بها، فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: أَخْبِرُوهُ أنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّه))[٣].

١٠- سَمِعَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم رجُلًا يقرأُ بها فقال: ((وَجَبَتْ له الجنَّةُ)):

عن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم سمِعَ رجُلًا يقرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾ حتَّى ختَمها، فقال: وَجَبَتْ، قيل: يا رسولَ اللهِ، ما وجبَتْ؟ قال: الجنَّةُ، قال أبو هُرَيرةَ: فأرَدْتُ أنْ آتيَه فأُبَشِّرَه، فآثَرْتُ الغَداءَ معَ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وفَرِقْتُ أن يَفوتَني الغداءُ معَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ثمَّ رجَعْتُ إلى الرَّجُلِ، فوجَدْتُه قد ذهَبَ))[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٧٤م).

(٢) السَّرِيَّة: هي طائفةٌ مِن الجَيشِ يَبلُغُ أَقْصاها أربَعَمِئةٍ تُبعَثُ إلى العَدوِّ، وجَمْعُها: السَّرايا، سُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم يَكونُون خُلاصةَ العَسْكرِ وخيارَهم، مِنَ الشَّيءِ السَّرِيِّ النَّفيسِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

(٤) أخرجه الترمذيُّ (٢٨٩٧)، والنَّسائيُّ (٩٩٤)، وأحمدُ (١٠٩١٩) واللَّفظُ له.

صحَّحه ابنُ عبدِ البَرِّ في ((التمهيد)) (٧/ ٢٥٤)، وابنُ العربيِّ في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ٤٠)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٨٩٧).

١١- سَمِعَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم رجُلًا يَقرأُ بها في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِن رَكعَتَيِ الفَجرِ فقال: ((هذا عَبْدٌ آمَنَ برَبِّه)):

عن جابرٍ رضيَ الله عنه: ((أنَّ رجُلًا قام فرَكَعَ رَكْعَتَيِ الفَجرِ... وقرأَ في الآخِرةِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتَّى انقَضَت السُّورةُ، فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: هذا عَبدٌ آمَنَ برَبِّه))[١].

١٢- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقرأُ بها في رَكعةِ الوِتْرِ:

عن عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُوتِرُ بثلاثٍ، يقرأُ في الأُولى بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وفي الثَّانيةِ بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي الثَّالثةِ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾))[٢].

١٣- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقرأُ بها في سنَّةِ الفجرِ:

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ((كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يُصلِّي... ركعتينِ قبلَ الفجرِ، وكان يقولُ: نِعْمَ السُّورَتانِ هُما، تَقرَؤُونَهما في الرَّكعَتَينِ قَبلَ الفَجرِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾))[٣].

---

(١) أخرجه الطَّحاويُّ في ((شرح معاني الآثار)) (١٧٧٤)، وابنُ حِبَّانَ (٢٤٦٠)، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٢٥٢٤).

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وحسَّنه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٨٩)، وقوَّى إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٢٤٦٠)، وجوَّد إسنادَه الألبانيُّ في ((أصل صفة الصلاة)) (٢/ ٤٥٦).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ٣٩٧).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١١٥٠)، وأحمد (٢٦٠٢٢) واللفظ له، وابن حبان في ((صحيحه)) (٢٤٦١).

صحَّحه ابن حبان، والألباني في ((صحيح ابن ماجه)) (٩٥٠) وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((المسند)) (٤٣/ ١٤٩).

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الإخلاصِ مكِّيَّةٌ، وقيلَ: مَدَنيَّةٌ(١).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

بيانُ ما يَجِبُ لله تعالَى مِن صِفاتِ الكمالِ، وبيانُ ما يَجِبُ تَنْزيهُه عنه مِن النَّقائصِ والأمثالِ(٢).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- إثباتُ وَحدانيَّةِ الله تعالى.

٢- أنَّ لله تعالى صِفاتِ الكمالِ، ولا يُقصدُ في الحوائجِ غيرُه.

٣- إبطالُ أن يكونَ اللهُ والدًا، أو أن يكونَ مولودًا.

٤- تنزيهُ الله عن النَّظيرِ والمثيلِ.

---

(١) ونسَب القولَ بأنَّها مكيةٌ للجمهورِ: النَّسَفيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١١).

وقيل: مَدَنيَّةٌ. وممَّن اختاره: السمعانيُّ، والسيوطيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٥٥).

قال القُرطُبيُّ: (سورةُ الإخلاصِ مكِّيَّةٌ في قولِ ابنِ مسعودٍ، والحسَنِ، وعَطاءٍ، وعِكْرِمةَ، وجابرٍ. ومَدَنيَّةٌ في أحَدِ قَولَيِ ابنِ عبَّاسٍ، وقَتادةَ، والضَّحَّاكِ، والسُّدِّيِّ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٤٤). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٩٤). ويُنظر أيضًا: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٨٠).

الآيات (١-٤)

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَحَدٌ﴾: الأحدُ هو الَّذي لا ثانيَ له، ولم يَسبِقْه في أوَّليَّتِه شيءٌ، الَّذي توحَّدَ بجميعِ الكَمالاتِ، وتفرَّدَ بالجَلالِ والعَظَمةِ، فلا شَريكَ له ولا مِثلَ ولا نَظيرَ[1].

﴿ٱلصَّمَدُ﴾: أي: الَّذي لا جَوْفَ له، والسَّيِّدُ الَّذي يُصمَدُ إليه -أي: يُقصَدُ- في الأُمورِ، وأصلُ (صمد): يدُلُّ على القَصْدِ[2].

﴿كُفُوًا﴾: أي: مَثيلًا أو نظيرًا، وأصلُ (كفأ): يدُلُّ على التَّساوي في الشَّيئَينِ[3].

---

(١) يُنظر: ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: ٩٠)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للسعدي (ص: ١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٩).

قال الخَطَّابيُّ: (قال النَّحْويُّونَ: أصْلُه في الكلامِ: الوَحَدُ، ويُقالُ: وَحُدَ الشَّيءُ يَوْحَدُ فهو وَحَدٌ. كما يُقالُ: حَسُنَ الشَّيءُ يَحْسُنُ فهو حَسَنٌ. ثمَّ أبْدَلُوا عن الواوِ الهَمْزةَ). ((شأن الدعاء)) (ص: ٨٢).

الفرق بيْن الواحِدِ والأحَدِ من وُجوهٍ:

منها: أنَّ الواحِدَ يُفيدُ وَحدةَ الذَّاتِ فقط، والأحَدَ يُفيدُه بالذَّاتِ والمعاني.

ومنها: أنَّ الواحِدَ في جِنسِ المَعدودِ، وقد يُفتتَحُ به العددُ، والأحَدَ يَنقطِعُ معه العددُ.

ومنها: أنَّ الأحدَ يَصلُحُ في الكلامِ في مَوضِعِ الجُحودِ، والواحدَ في موضعِ الإثباتِ، تقولُ: لَمْ يَأْتِني مِن القَومِ أحَدٌ، وجاءَني منهم واحدٌ، ولا يُقالُ: جاءني منهم أحدٌ. يُنظر: ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٥٨)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨٢).

المعنى الإجماليُّ:

افتتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه: قُلْ -يا محمَّدُ- مُعَرِّفًا باللهِ تعالى: هو المتفَرِّدُ بالوَحدانيَّةِ في ذاتِه وصِفاتِه، اللهُ الكاملُ في صِفاتِه الَّذي افتقَرَتْ إليه جميعُ مَخلوقاتِه، لم يَلِدْ أحَدًا ولم يَلِدْه أحَدٌ، وليس له مُساوٍ ولا نَظيرٌ سُبحانَه وتعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- مُعَرِّفًا باللهِ تعالى: هو المتفَرِّدُ بالوَحدانيَّةِ في ذاتِه وصِفاتِه، فلا نَظيرَ له ولا شَريكَ(١).

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢﴾.

أي: اللهُ الكاملُ في صِفاتِه، الَّذي افتقَرَتْ إليه جميعُ مَخلوقاتِه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢٩)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٩٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢١٤، ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٩).
قال مقاتلٌ: (﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ يعني: الَّذي لا جَوفَ له كجَوفِ المخلوقينَ. ويُقالُ: الصَّمَدُ: السَّيِّدُ الَّذي تَصمُدُ إليه الخلائقُ بحوائِجِهم، وبالإقرارِ والخُضوعِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٩٢٦).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (وتفسيرُ «الصَّمَدِ» بأنَّه الَّذي لا جَوفَ له: مَعروفٌ عن ابنِ مَسعودٍ مَوقوفًا ومرفوعًا، وعن ابنِ عبَّاسٍ، والحسَنِ البَصريِّ، ومجاهدٍ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ، وعِكْرِمةَ، والضَّحَّاكِ، والسُّدِّيِّ، وقَتادةَ، وبمعنى ذلك قال سعيدُ بنُ المسَيِّبِ؛ قال: هو الَّذي لا حَشْوَ له. وكذلك قال ابنُ مسعودٍ: هو الَّذي ليست له أحشاءٌ. وكذلك قال الشَّعْبيُّ: هو الَّذي لا يأكُلُ ولا يَشرَبُ. وعن محمَّدِ بنِ كَعبٍ القُرَظيِّ وعِكْرِمةَ: هو الَّذي لا يخرُجُ منه شيءٌ. وعن مَيسَرةَ قال: هو =

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾.

أي: لم يَلِدْ أحَدًا مِنَ الإنسِ والجِنِّ والملائِكةِ أو غَيرِهم، ولم يَلِدْه أحَدٌ؛ فهو الأوَّلُ الَّذي ليس قَبْلَه شَيءٌ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ

= المُصمَتُ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٢١٥).

وقيل: الَّذي يُقصَدُ في طَلَبِ الحوائجِ، فجَميعُ الخلائقِ مُفتَقِرونَ إليه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ قُتَيْبةَ، والزَّجَّاجُ، والسعديُّ، وابنُ عاشور، وذكَرَ ابنُ تيميَّةَ أنَّه قولُ طائفةٍ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ، وجُمهورِ اللُّغَويِّينَ. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢١٤، ٢١٥).

وذهب ابنُ تيميَّةَ إلى أنَّ كِلا القولَينِ حَقٌّ وصوابٌ، فقال: (الاسمُ «الصَّمَدُ» فيه للسَّلَفِ أقوالٌ متعَدِّدةٌ، قد يُظَنُّ أنَّها مختَلِفةٌ، وليس كذلك، بل كُلُّها صوابٌ، والمشهورُ منها قَولانِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٢١٤، ٢١٥).

وقال ابنُ كثير: (قال الحافِظُ أبو القاسِمِ الطَّبَرانيُّ في كتابِ السُّنَّةِ له بعْدَ إيرادِه كثيرًا من هذه الأقوالِ في تفسيرِ «الصَّمَدِ»: وكُلُّ هذه صحيحةٌ، وهي صفاتُ رَبِّنا عزَّ وجَلَّ، وهو الَّذي يُصمَدُ إليه في الحوائِجِ، وهو الَّذي قد انتهى سُؤدُدُه، وهو الصَّمَدُ الَّذي لا جَوفَ له، ولا يأكُلُ ولا يَشرَبُ، وهو الباقي بعْدَ خَلْقِه. وقال البَيْهَقيُّ نحوَ ذلك أيضًا). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢٩).

قال ابن عثيمين: (رُويَ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّ الصَّمدَ هو الكاملُ في عِلمِه، الكاملُ في حلمِه، الكاملُ في عِزَّتِه، الكاملُ في قُدرتِه، إلى آخِرِ ما ذُكِر في الأثرِ. وهذا يعني أنَّه مُستَغْنٍ عن جميعِ المخلوقاتِ؛ لأنَّه كاملٌ، وورد أيضًا في تفسيرِها أنَّ الصَّمدَ هو الَّذي تَصمُدُ إليه الخلائقُ في حوائجِها، وهذا يعني أنَّ جميعَ المخلوقاتِ مُفتَقِرةٌ إليه، وعلى هذا فيكونُ المعنى الجامعُ للصَّمدِ هو: الكاملَ في صِفاتِه، الَّذي افتقَرَتْ إليه جميعُ مَخلوقاتِه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٣٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٠).

شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [الأنعام: ١٠٠، ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا * لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا * وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا * لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا * وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ * هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢، ٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((قال اللهُ: كَذَّبَني ابنُ آدَمَ ولم يكُنْ له ذلك، وشتَمَني ولم يكُنْ له ذلك؛ فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ فقَولُه: لن يُعيدَني كما بدأني! وليس أوَّلُ الخَلْقِ بأهْوَنَ علَيَّ مِن إعادتِه، وأمَّا شَتمُه إيَّايَ فقَولُه: اتَّخذ اللهُ ولَدًا! وأنا الأحَدُ الصَّمَدُ، لم ألِدْ ولم أُولَدْ، ولم يكُنْ لي كُفْئًا أحَدٌ))[(١)].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((اللَّهمَّ أنت الأوَّلُ فليس قَبْلَك شَيءٌ، وأنت الآخِرُ فليس بَعْدَك شَيءٌ))[(٢)].

﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤ ﴾.

أي: وليس للهِ مُساوٍ ولا نَظيرٌ، أو مَثيلٌ وشَبيهٌ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) رواه البخاري (٤٩٧٤).

(٢) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٣٨، ٧٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٥)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٠).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ نفَى عن نَفْسِه الأُصولَ والفُروعَ والنُّظَراءَ، وهي جِماعُ ما يُنسَبُ إليه المخلوقُ مِن الآدَميِّينَ والبهائِمِ، والملائكةِ والجِنِّ، بل والنَّباتِ، ونحوِ ذلك؛ فإنَّه ما مِن شيءٍ مِن المخلوقاتِ إلَّا ولا بُدَّ أن يكونَ له شَيءٌ يُناسِبُه: إمَّا أصلٌ، وإمَّا فَرعٌ، وإمَّا نظيرٌ، أو اثنانِ من ذلك، أو ثلاثةٌ، وهذا في الآدَميِّينَ والجِنِّ والبهائِمِ ظاهِرٌ، وأمَّا الملائِكةُ فإنَّهم وإن لم يتَوالَدوا بالتَّناسُلِ فلَهم الأمثالُ والأشْباهُ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ فيه الرَّدُّ على اليَهودِ والنَّصارى، والمَجوسِ والمُشرِكين، والحُلوليَّةِ والاتِّحاديَّةِ، وجميعِ الأديانِ الباطِلةِ[٢].

٣- قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وإنَّما نُفِيَ أنْ يكونَ اللهُ والدًا وأنْ يكونَ مَولودًا في الزَّمنِ الماضي؛ لأنَّ عَقيدةَ التَّولُّدِ ادَّعَت وُقوعَ ذلك في زمَنٍ مَضَى، ولم يَدَّعِ أحدٌ أنَّ اللهَ سيَتَّخِذُ ولَدًا في المُستقبَلِ[٣].

٤- إنَّ سورتَيْ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هما سُورتا الإخلاصِ، وقد اشتمَلَتا على نوعَيِ التَّوحيدِ الَّذي لا نجاةَ للعَبدِ ولا فلاحَ إلَّا بهما، وهما: **توحيدُ العِلمِ والاعتقادِ** المتضمِّنُ تنزيهَ اللهِ عمَّا لا يَليقُ به مِن الشِّركِ والكُفرِ والوَلَدِ والوالِدِ، وأنَّه إلهٌ أَحَدٌ صَمَدٌ، لم يَلِدْ؛ فيكونَ له فَرعٌ، ولم يولَدْ؛

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٩).

فيكونَ له أصلٌ، ولم يكُنْ له كُفُوًا أحدٌ؛ فيكونَ له نظيرٌ، ومع هذا فهو الصَّمَدُ الَّذي اجتمَعَت له صِفاتُ الكَمالِ كُلُّها؛ فتضَمَّنت السُّورةُ إثباتَ ما يليقُ بجلالِه مِن صِفاتِ الكَمالِ، ونَفْيَ ما لا يليقُ به مِنَ الشَّريكِ أصلًا وفَرْعًا ونظيرًا، فهذا توحيدُ العِلْمِ والاعتقادِ.

والثَّاني: توحيدُ القَصدِ والإرادةِ، وهو ألَّا يُعبَدَ إلَّا إيَّاه، فلا يُشْرَكَ به في عبادتِه سِواه، بل يكونُ وَحْدَه هو المعبودَ، وسورةُ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مُشتَمِلةٌ على هذا التَّوحيدِ؛ فانتظَمَت السُّورتانِ نَوعَيِ التَّوحيدِ، وأُخلِصَتا له، فكان صلَّى الله عليه وسلَّم يَفتَتِحُ بهما النَّهارَ في سُنَّةِ الفَجْرِ[1]، وأيضًا فإنَّه كان يُوتِرُ بهما[2]، فيَكونانِ خاتِمةَ عَمَلِ اللَّيلِ[3]. فسُنَّةُ الفجر تَجري مجرى بدايةِ العملِ، والوترُ خاتمتُه؛ ولذلك كان مِن السُّنَّةِ صلاةُ سنةِ الفجرِ والوترِ بهاتينِ السورتينِ؛ سورتَي الإخلاصِ: [﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾]، فهما الجامعتانِ لتوحيدِ العلمِ والعملِ، وتوحيدِ المعرفةِ والإرادةِ، وتوحيدِ الاعتقادِ والقصدِ[4].

٥- تضَمَّنتْ هذه السُّورةُ العظيمةُ نفْيَ نوعينِ عن اللهِ تعالى؛ أحدُهما: المُماثَلةُ، ودلَّ على نَفْيِها قولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ مع دَلالةِ قَولِه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ على ذلك؛ لأنَّ أحَديَّتَه تَقتضي أنَّه مُتفرِّدٌ بذاتِه وصِفاتِه، فلا يُشارِكُه في ذلك أحدٌ، والثَّاني: نفْيُ النَّقائصِ والعُيوبِ، وقد نفى منها التَّوَلُّدَ مِن الطَّرفَينِ، وتضَمَّنتْ إثباتَ جميعِ صِفاتِ الكَمالِ بإثباتِ الأحَديَّةِ؛ فالصَّمَديَّةُ

---

(١) يُنظر ما أخرجه مسلم (٧٢٦).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٣١).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣٠٦).

تُثبتُ الكمالَ المنافيَ للنَّقائصِ، والأحَديَّةُ تُثبتُ الانفرادَ بذلك؛ فإنَّ الأحَديَّةَ تَقتضي انفرادَه بصِفاتِه، وامتيازَه عن خَلْقِه بذاتِه وصفاتِه، والصَّمَديَّةُ تَقتضي إثباتَ جميعِ صِفاتِ الكَمالِ ودوامِها وقِدَمِها؛ فإنَّ السَّيِّدَ الَّذي يُصمَدُ إليه لا يكونُ إلَّا مُتَّصِفًا بجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ الَّتي استحَقَّ مِن أجْلِها أنْ يكونَ صَمَدًا، وأنَّه لم يَزَلْ كذلك ولا يَزالُ؛ فإنَّ صَمَديَّتَه مِن لَوازمِ ذاتِه لا تَنفَكُّ عنه بحالٍ، ومِن هنا فُسِّرَ الصَّمَدُ بالسَّيِّدِ الَّذي قد انتهى سُؤْدُدُه، وفُسِّرَ بالَّذي ليس فوقَه أحَدٌ(١).

٦- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ومعناه: أنَّ اللهَ مُنفرِدٌ بالإلَهيَّةِ لا يُشارِكُه فيها شَيءٌ مِن الموجوداتِ، وهذا إبطالٌ للشِّركِ الَّذي يَدينُ به أهلُ الشِّركِ، وللتَّثليثِ الَّذي أحْدَثَه النَّصارى المَلكانيَّةُ(٢)، وللثَّنَويَّةِ عندَ المَجوسِ(٣)، وللعَدَدِ الَّذي لا يُحْصى عندَ البَراهمةِ(٤)، فقولُه: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ نَظيرُ قولِه في الآيةِ الأُخرى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١]، وهذا هو المعْنى الَّذي يُدرِكُه المُخاطَبونَ بهذه الآيةِ السَّائلونَ عن نِسبةِ اللهِ، أي: حَقيقتِه، فابتُدِئَ لهم بأنَّه واحدٌ؛ ليَعلَموا أنَّ الأصنامَ لَيست مِن الإلَهيَّةِ في شَيءٍ. ثمَّ إنَّ الأحَديَّةَ تَقْتضي الوُجودَ لا مَحالةَ؛ فبَطَلَ قَولُ المُعطِّلةِ والدَّهريِّينَ(٥).

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ لا يُطلَقُ هذا اللَّفظُ على أحَدٍ في

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((المِلَل والنِّحَل)) للشَّهْرَسْتاني (٢/ ٢٧).

(٣) الثَّنَويَّةُ: فِرقةٌ تَزعُمُ أنَّ النُّورَ والظُّلْمةَ صانِعانِ أزَليَّانِ قديمانِ، والنُّورَ منهما فاعلُ الخَيراتِ والمنافِعِ، والظَّلامَ فاعلُ الشُّرورِ والمَضارِّ، وأنَّ الأجسامَ ممتزجةٌ مِن النُّورِ والظُّلمةِ! يُنظر: ((الفَرْق بين الفِرَق)) للبغدادي (ص: ٢٦٩)، ((المِلَل والنِّحَل)) للشهرستاني (٢/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((الملل والنحل)) للشهرستاني (٣/ ٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٥، ٦١٦).

الإثباتِ إلَّا على اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ لأنَّه الكامِلُ في جميعِ صِفاتِه وأفعالِه[١]، وليس في المَوجُوداتِ ما يُسمَّى أَحَدًا في الإثباتِ مُفردًا غيرَ مُضافٍ إلَّا اللهُ تعالى؛ بخِلافِ النَّفْيِ وما في مَعناهُ: كالشَّرطِ والاستِفهامِ، وإنَّما استُعمِلَ في العددِ المُطلَقِ، يُقالُ: أحَدٌ، اثْنانِ. ويُقالُ: أحَدَ عَشَرَ. وفي أوَّلِ الأيَّامِ يُقالُ: يومُ الأحَدِ[٢].

٨- مَذهَبُ السَّلَفِ والأئمَّةِ إثباتُ الصِّفاتِ، ونَفْيُ مُماثَلتِها لصِفاتِ المخلوقاتِ؛ فاللهُ تعالى مَوصوفٌ بصِفاتِ الكَمالِ الَّذي لا نَقْصَ فيه، مُنَزَّهٌ عن صِفاتِ النَّقصِ مُطلَقًا، ومُنَزَّهٌ عن أن يُماثِلَه غَيرُه في صِفاتِ كَمالِه؛ فهذانِ المَعْنَيانِ جمَعَا التَّنزيهَ، وقد دلَّ عليهما قَولُه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾؛ فالاسمُ «الصَّمَدُ» يتضَمَّنُ صِفاتِ الكَمالِ، والاسمُ «الأحَدُ» يتضَمَّنُ نَفيَ المِثْلِ[٣].

٩- هذه السُّورةُ فيها الاسمانِ: «الأحَدُ» و«الصَّمَدُ»، وكلٌّ منهما يدُلُّ على الكَمالِ؛ فقولُه: «أَحَدٌ» يدُلُّ على نَفيِ النَّظيرِ، وقولُه: «الصَّمَدُ» -بالتَّعريفِ- يدُلُّ على اختصاصِه بالصَّمَديَّةِ؛ ولهذا جاء التَّعريفُ في اسمِه «الصَّمدِ» دونَ «الأحَدِ»؛ لأنَّ أحدًا لا يُوصَفُ به في الإثباتِ غيرُه، بخِلافِ «الصَّمَدِ»؛ فإنَّ العربَ تُسَمِّي السَّيِّدَ صَمَدًا[٤]، فالصَّمَدُ يُسمَّى به غيرُ اللهِ، فأتى فيه بالألِفِ واللَّامِ؛ ليدُلَّ على أنَّه سُبحانَه هو المُستحِقُّ لكمالِ الصَّمَديَّةِ؛ فإنَّ الألِفَ واللَّامَ تأتي لاستغراقِ الجِنسِ تارةً، ولاستغراقِ خصائصَ أُخرى، كقَولِك: زَيدٌ هو الرَّجُلُ، أي: الكامِلُ في صِفاتِ الرُّجولةِ؛ فكذلك قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أي: الكامِلُ في صفاتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢٧، ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٤٢).

الصَّمَديَّةِ، وأمَّا الأحَدُ فلم يَتَسَمَّ به غيرُ اللهِ؛ فلم يُحتَجْ فيه إلى الألِفِ واللَّامِ[(١)].

١٠- قَولُ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، لم يقُلْ: اللهُ صَمَدٌ، بل قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، فبَيَّن أنَّه المستَحِقُّ لأن يكونَ هو الصَّمَدَ دونَ ما سِواه؛ فإنَّه المستوجِبُ لغايَتِه على الكَمالِ، والمخلوقُ وإن كان صَمَدًا مِن بَعضِ الوُجوهِ فإنَّ حقيقةَ الصَّمَديَّةِ مُنتَفيةٌ عنه؛ فإنَّه يَقبَلُ التَّفَرُّقَ والتَّجزئةَ، وهو أيضًا مُحتاجٌ إلى غيرِه؛ فإنَّ كُلَّ ما سِوى اللهِ مُحتاجٌ إليه مِن كُلِّ وَجهٍ، فليس أحَدٌ يَصمُدُ إليه كُلُّ شَيءٍ ولا يَصمُدُ هو إلى شَيءٍ إلَّا اللهُ تبارك وتعالى، وليس في المخلوقاتِ إلَّا ما يَقبَلُ أن يتجَزَّأَ ويتفَرَّقَ وينقَسِمَ وينفَصِلَ بَعضُه من بعضٍ، واللهُ سُبحانَه هو الصَّمَدُ الَّذي لا يجوزُ عليه شَيءٌ مِن ذلك، بل حقيقةُ الصَّمَديَّةِ وكَمالُها له وَحْدَه واجِبةٌ لازِمةٌ، لا يُمكِنُ عدَمُ صَمَديَّتِه بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ، كما لا يمكِنُ تثنيةُ أحَديَّتِه بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ؛ فهو أحَدٌ لا يُماثِلُه شَيءٌ مِن الأشياءِ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ[(٢)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾ ردٌّ على ثلاثِ طوائفَ مُنحرفةٍ مِن بني آدَمَ، وهم: المُشرِكون، واليهودُ، والنَّصارى؛ لأنَّ المُشرِكينَ جَعَلوا الملائكةَ الَّذين هم عِبادُ الرَّحمنِ إناثًا، وقالوا: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، واليهودَ قالوا: عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ، والنَّصارى قالوا: المَسيحُ ابنُ اللهِ، فكَذَّبَهم اللهُ بقَولِه تعالى: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ هو الأوَّلُ الَّذي ليس قَبْلَه شيءٌ، فكيف يكونُ مولودًا[(٣)]؟!

١٢- قال اللهُ تعالى: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ إذا كان اللهُ سُبحانَه مُنَزَّهًا عن

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٠). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٠).

أنْ يَخرُجَ منه مادَّةُ الولَدِ الَّتي هي أشرَفُ الموادِّ، فلَأنْ يُنَزَّهَ عن خروج مادَّةِ غيرِ الولَدِ أَولى، وكذلك تنزيهُه نفسَه عن أنْ يُولَدَ، فلا يكونُ مِن مِثْلِه: تنزيهٌ له عن أنْ يكونَ مِن سائرِ الموادِّ بطَريقِ الأَولى؛ فمَن أثْبَتَ للهِ ولَدًا فقد شَتَمَه[1]!

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ فيه سُؤالٌ: إذا كان ادِّعاءُ الوَلَدِ قد وَقَع، وجاء الرَّدُّ عليه، فإنَّ ادِّعاءَ الوِلادةِ لم يقَعْ، فلماذا ذَكَر نَفْيَه مع عَدَمِ ادِّعائِه؟

الجوابُ: أنَّ مَن جَوَّز الوِلادةَ له وأن يكونَ له وَلَدٌ، فقد يجَوِّزُ الوِلادةَ عليه وأن يكونَ مولودًا؛ فجاء نَفْيُها تتمَّةً للنَّفيِ والتَّنزيهِ، كما في حديثِ البَحرِ؛ كان السُّؤالُ عن الوُضوءِ مِن مائِه فقط، فجاء الجوابُ عن مائِه ومَيْتَتِه[2]؛ لأنَّ ما احتَمَلَ السُّؤالَ في مائِه يحتَمِلُ الاشتباهَ في مَيتتِه[3]. وأيضًا فقد نفَى اللهُ عن نفْسِه سُبحانَه خصائصَ آلهةِ المشركينَ؛ فإنَّ منهم مَن عَبَدَ المسيحَ، ومنهم مَن عَبَدَ العُزَيْرَ، وهما مَولودانِ، ونفْيُ الولادةِ يدُلُّ على نفْيِ المتولِّدِ بطَريقِ الأَولى[4].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ إثباتُ الصِّفاتِ الَّتي تُسَمَّى «الصِّفاتِ السَّلبيَّةَ» أي: المنفيَّةَ[5].

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٥).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٨٣)، والترمذيُّ (٦٩)، والنسائيُّ (٥٩)، وابنُ ماجه (٣٨٦)، وأحمدُ (٨٧٣٥) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ اللهُ عنه.
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه البخاريُّ كما في ((الاستذكار)) لابن عبدِالبَرِّ (١/ ١٩٧)، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (١٢٤٣)، والنوويُّ في ((المجموع)) (١/ ٨٢)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٧).
ويُنظر ما يأتي في البلاغةِ (ص: ٤٣٠).

(٥) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٦/ ٥٠٠).

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾ فيه سُؤالٌ: لماذا اقتَصر على ذِكرِ الماضي، ولم يقُلْ: (لن يَلِدَ)؟

الجوابُ: إنَّما اقتَصر على ذلك؛ لأنَّه ورَد جوابًا عن قَولِهم: وَلَدَ اللهُ، والدَّليلُ عليه قَولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ١٥١، ١٥٢]، فلمَّا كان المقصودُ مِن هذه الآيةِ تكذيبَ قَولِهم، وهم إنَّما قالوا ذلك في الماضي؛ لا جرَمَ ورَدَت الآيةُ على وَفْقِ قَولِهم[١].

١٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ دَلَّ على أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى أحَدٌ، أي: في ذاتِه وصِفاتِه، لا شَبيهَ ولا شَريكَ ولا نظيرَ ولا نِدَّ له، سُبحانَه وتعالى[٢].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ نفيٌ للشُّرَكاءِ والأنْدادِ يَدخُلُ فيه كلُّ مَن جَعَلَ شيئًا كُفُوًا للهِ في شَيءٍ مِن خَواصِّ الرُّبوبيَّةِ، مِثلُ خَلْقِ الخَلْقِ، والإلَهيَّةِ، كالعِبادةِ له ودُعائِه ونحوِ ذلك، وفي هذا وغيرِه بَيانُ اشتِمالِ كِتابِ اللهِ على إبطالِ قَولِ مَن يَعتقِدُ في أحدٍ مِن البَشَرِ الإلَهيَّةَ باتِّحادٍ، أو حُلولٍ، أو غيرِ ذلك[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾

- افتِتاحُ هذه السُّورةِ بالأمرِ بالقَولِ؛ لإظهارِ العِنايةِ بما بعْدَ فِعلِ القولِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٦٣، ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٢).

- ولَفظُ ﴿هُوَ﴾ ضَميرُ الشَّأنِ، ومَدارُ وَضْعِه مَوضِعَه معَ عدَمِ سَبْقِ ذِكرِه الإيذانُ بأنَّه مِن الشُّهرةِ والنَّباهةِ بحيثُ يَستَحضِرُه كلُّ أحدٍ، وإليه يُشيرُ كلُّ مُشيرٍ، وإليه يَعودُ كلُّ ضَميرٍ، والسِّرُّ في تَصديرِ الجُملةِ بضَميرِ الشَّأنِ ﴿هُوَ﴾: التَّنبيهُ مِن أوَّلِ الأمرِ على فَخامةِ مَضمونِها، وجَلالةِ حيِّزِها، مع ما فيه مِن زِيادةِ تَحقيقٍ وتَقريرٍ؛ فإنَّ الضَّميرَ لا يُفهَمُ منه مِن أوَّلِ الأمرِ إلَّا شَأنٌ مُبهَمٌ له خطَرٌ جَليلٌ، فيَبْقى الذِّهنُ مُترقِّبًا لِما أمامَه ممَّا يُفسِّرُه ويُزيلُ إبهامَه، فيَتمكَّنُ عندَ وُرودِه له فضْلَ تَمكُّنٍ[(١)].

- قولُه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ إشارةٌ إلى مَن هو خالِقُ الأشياءِ وفاطِرُها، وفي طَيِّ ذلك وَصْفُه بأنَّه قادرٌ عالِمٌ؛ لأنَّ الخلْقَ يَسْتدعي القُدرةَ والعِلمَ؛ لكَونِه واقعًا على غايةِ إحكامٍ واتِّساقٍ وانتظامٍ، وفي ذلك وَصْفُه بأنَّه حيٌّ سَميعٌ بَصيرٌ، ولَمَّا اقْتَضى الفَرْدانيَّةُ قَطْعَ السَّبيلِ مِن الغيرِ، أثبَتَ له صِفةَ الصَّمَدانيَّةِ؛ ليكونَ الالتجاءُ إليه، ولَمَّا عُلِمَ مِن ذلك ثُبوتُ الذَّاتِ المُستلزِمةِ للصِّفاتِ مِن الخالِقيَّةِ والعالِميَّةِ، والقادِريَّةِ، والحَييَّةِ، والإلَهيَّةِ؛ أُريدَ بَيانُ كَمالِها، وأنَّها مُباينةٌ لِصِفاتِ المَخلوقاتِ فيما مَضى ويُستقبَلُ[(٢)].

- وابتُدِئَ باسمِه تعالَى العَلَمِ (الله) قبْلَ إجراءِ الأخبارِ عليه؛ لِيَكونَ ذلك طَريقَ استحضارِ صِفاتِه كلِّها عندَ التَّخاطُبِ بيْن المسلمينَ، وعندَ المُحاجَّةِ بيْنَهم وبيْن المشركينَ؛ فإنَّ هذا الاسمَ مَعروفٌ عندَ جَميعِ العرَبِ، فمُسمَّاهُ لا نِزاعَ في وُجودِه، ولكنَّهم كانوا يَصِفونه بصِفاتٍ تَنزَّهَ عنها[(٣)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ جُملةٌ ثانيةٌ مَحكيَّةٌ بالقَولِ المحكيِّ به جُملةُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٦٣٦، ٦٣٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٣).

﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ فهي خبَرٌ ثانٍ عن الضَّميرِ (هو)، والخبَرُ المُتعدِّدُ يَجوزُ عطْفُه وفصْلُه، وإنَّما فُصِلَت عن الَّتي قبْلَها؛ لأنَّ هذه الجُملةَ مَسوقةٌ لتَلقينِ السَّامِعينَ، فكانت جَديرةً بأنْ تكونَ كلُّ جُملةٍ مُستقِلَّةً بذاتِها غيرَ مُلحَقةٍ بالَّتي قبْلَها بالعطْفِ، على طَريقةِ إلْقاءِ المسائلِ على المُتعلِّم، نحوُ قولِك: عَنترةُ مِن فُحولِ الشُّعراءِ، عَنترةُ مِن أبطالِ الفُرسانِ؛ ولهذا الاعتبارِ وَقَعَ إظهارُ اسمِ الجَلالةِ في قَولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: هو الصَّمَدُ[١].

وقيل: إخلاءُ هذه الجُملةِ عن العاطفِ؛ لأنَّها كالنَّتيجةِ للأُولى أو الدَّليلِ عليها[٢].

- وتَكريرُ الاسمِ الجَليلِ (الله) في قَولِه: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ مَن لم يَتَّصِفْ به لم يَستحِقَّ الأُلوهيَّةَ، ولتَكونَ كلُّ جُملةٍ منْهما مُستقِلَّةً بذاتِها، غيرَ مُحتاجةٍ إلى ما قبْلَها[٣].

- وصِيغةُ ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ صِيغةُ قصْرٍ بسَببِ تَعريفِ المُسنَدِ؛ فتُفيدُ قصْرَ صِفةِ الصَّمَديَّةِ على اللهِ تعالَى، وهو قصْرُ قَلبٍ[٤] لإبطالِ ما تَعوَّدَه أهلُ الشِّركِ في الجاهليَّةِ مِن دُعائِهم أصنامَهم في حَوائجِهم، والفزَعِ إليها في نَوائبِهم حتَّى نَسُوا اللهَ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٢، ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((أسرار التَّكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٢).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٨).

- قولُه: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ إمَّا كِنايةٌ عن كَونِه تعالَى مُتعاليًا عن الجِنسيَّةِ؛ لأنَّ مَن جانَسَ شيئًا اتَّخَذَ مِن جِنسِه صاحبةً، ومَن اتَّخذ صاحبةً حصَلَ التَّوالدُ. أو بالعكْسِ؛ بأنْ يُقالَ: كيف يَكونُ له وَلَدٌ وأنَّه ما اتَّخذَ صاحبةً؟ لأنَّ الولادةَ لا تكونُ إلَّا بيْن زَوجينِ مِن جِنسٍ واحدٍ، وهو مُتعالٍ عن مُجانسٍ، فلم يَصِحَّ أنْ تَكونَ له صاحبةٌ، فلم تَصِحَّ الوِلادةُ[1].

- وأيضًا جُملةُ ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، أي: ولم يَلِدْه غيرُه، وهي بمَنزلةِ الاحتِراسِ[2]؛ سَدًّا لتَجويزِ أنْ يكونَ له والدٌ، فأُردِفَ نفْيُ الولدِ بنَفْيِ الوالدِ، وإنَّما قُدِّمَ نفْيُ الولَدِ -معَ أنَّ التَّولُّدَ أسبقُ وُقوعًا عن الولادةِ في حقِّ مَن هو متوَلِّدٌ-؛ وذلك لأنَّه أهمُّ؛ إذ قد نَسَبَ أهلُ الضَّلالةِ الولَدَ إلى اللهِ تعالَى ولم يَنسُبوا إلى اللهِ والدًا، فالولادةُ لم يَدَّعِها أحدٌ في حقِّه سُبحانَه، وإنما ادَّعَوا أنَّه وَلَدَ؛ فإنَّ مُشركي العَربِ قالوا: الملائكةُ بَناتُ اللهِ، وقالت اليَهودُ: عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ، وقالت النَّصارَى: المَسيحُ ابنُ اللهِ، ولم يَدَّعِ أحَدٌ أنَّ له والِدًا، فلهذا السببِ بَدأَ بالأَهمِّ، فقال: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، ثُم أشارَ إلى الحُجَّةِ، فقال: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾، كأنَّه قِيلَ: الدَّليلُ على امتِناعِ الوَلَدِيَّةِ، اتِّفاقُنا على أنَّه ما كان وَلدًا لغيرِه[3].

وفيه الإيماءُ إلى أنَّ مَن يكونُ مَولودًا مِثلَ عِيسى لا يكونُ إلهًا؛ لأنَّه لو كان الإلهُ مَولودًا لَكان وُجودُه مَسبوقًا بعَدَمٍ لا مَحالةَ، وذلك مُحالٌ؛ لأنَّه لو كان مَسبوقًا بعَدَمٍ لَكان مُفتقِرًا إلى مَن يُخصِّصُه بالوُجودِ بعْدَ العدَمِ، فحَصَلَ مِن مَجموعِ جُملةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٦٣٦).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٦٣، ٣٦٤)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٨، ٦١٩).

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ إبطالُ أنْ يكونَ اللهُ والدًا لمَولودٍ، أو مَولودًا مِن والدٍ بالصَّراحةِ، وبَطَلَت إلَهيَّةُ كلِّ مَولودٍ بطَريقِ الكِنايةِ، فبَطَلَت العقائدُ المَبنيَّةُ على تَولُّدِ الإلهِ، فلمَّا أبْطَلَت الجُملةُ الأُولى إلَهيَّةَ إلهٍ غيرِ اللهِ بالأصالةِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وأبطَلَت الجُملةُ الثَّانيةُ إلَهيَّةَ غيرِ اللهِ بالاستحقاقِ ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾؛ أبْطَلَت هذه الجُملةُ إلَهيَّةَ غيرِ اللهِ بالفَرعيَّةِ والتَّولُّدِ بطَريقِ الكِنايةِ(١).

- وكذلِك قولُه: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ تَنصيصٌ على إبطالِ زعْمِ المُفترينَ في حقِّ المَلائكةِ والمَسيحِ؛ ولذلكَ ورَدَ النَّفيُ على صِيغةِ الماضِي، أو ليُطابِقَ قولَه: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾(٢).

- والتَّصريحُ بقولِه: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ مع كَونِهم مُعترِفين بمَضمونِه؛ لتَقريرِ ما قبْلَه وتَحقيقِه بالإشارةِ إلى أنَّهما مُتلازِمانِ؛ إذِ المَعهودُ أنَّ ما يَلِدُ يُولَدُ، وما لا فَلا، ومِن قَضيَّةِ الاعترافِ بأنَّه لم يُولَدِ الاعترافُ بأنَّه لا يَلِدُ(٣).

- وجُملةُ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ في معْنى التَّذييلِ للجُمَلِ الَّتي قبْلَها؛ لأنَّها أعمُّ مِن مَضمونِها؛ لأنَّ تلك الصِّفاتِ المُتقدِّمةَ -صَريحَها، وكِنايتَها، وضِمْنيَّها- لا يُشبِهُه فيها غيرُه، مع إفادةِ هذه انتفاءَ شَبيهٍ له فيما عَداها، مِثلَ صِفاتِ الأفعالِ، والواوُ في قَولِه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ اعتراضيَّةٌ، وهي واوُ الحالِ. ويَجوزُ كَونُ الواوِ عاطفةً إنْ جُعِلَت الواوُ الأُولى عاطفةً، فيكونُ المَقصودُ مِن الجُملةِ إثباتَ وصْفِ مُخالَفتِه تعالَى للحوادثِ، وتكونُ استفادةُ معْنى التَّذييلِ تَبَعًا للمعْنى، والنُّكَتُ لا تَتزاحَمُ(٤). فيصحُّ أن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٩، ٦٢٠).

يَشتمِلَ الكلامُ على أكثَرَ مِن نُكتةٍ دونَ أن تتعارَضَ.

- وتَقديمُ خبَرِ (كان) ﴿كُفُوًا﴾ على اسْمِها ﴿أَحَدٌ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ، وللاهتِمامِ بذِكرِ الكُفؤِ عَقِبَ الفِعلِ المنفيِّ؛ ليَكونَ أسْبَقَ إلى السَّمعِ. وتَقديمُ المجرورِ ﴿لَّهُۥ﴾ على مُتعلَّقِه -وهو ﴿كُفُوًا﴾-؛ للاهتمامِ باستحقاقِ اللهِ نفْيَ كَفاءةِ أحدٍ له، فكان هذا الاهتمامُ مُرجِّحًا تَقديمَ المجرورِ على مُتعلَّقِه وإنْ كان الأصلُ تَأخيرَ المتعلَّقِ إذا كان ظَرْفًا لَغْوًا[1].

- وارتَبَطَت هذه الجُمَلُ الثَّلاثُ ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ * وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ بالواوِ دونَ الثَّلاثِ الأُولى؛ لأنَّ قولَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ مُحقِّقٌ ومُقرِّرٌ لِما قبْلَه، وكذلك تَرْكُ العطْفِ في قَولِه: ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾؛ لأنَّه مُؤكِّدٌ للصَّمَديَّةِ؛ لأنَّ الغنيَّ عن كلِّ شَيءٍ المُحتاجَ إليه كلُّ ما سِواهُ، لا يكونُ والدًا ولا مَولودًا، ووَصَلَ بيْنَ الثَّلاثِ المتأخِّرةِ؛ لأنَّها سِيقَت لغَرَضٍ ومعْنًى واحدٍ، وهو نفْيُ المُماثَلةِ والمُناسَبةِ عنه تعالَى بوَجْهٍ مِن الوُجوهِ[2].

- وتَتميَّزُ سُورةُ الإخلاصِ بالإيجازِ، ويُبيِّنُ ذلك أنَّها:

أ- اشتَمَلَت على اسمينِ مِن أسماءِ اللهِ تعالَى يَتضَمَّنانِ جَميعَ أوصافِ الكَمالِ، وهما الأحَدُ والصَّمَدُ؛ لأنَّهما يدُلَّانِ على أَحَديَّةِ الذَّاتِ المُقدَّسةِ المَوصوفةِ بجَميعِ أوصافِ الكَمالِ، وبَيانُ ذلك أنَّ الأحَدَ يُشعِرُ بوُجودِه الخاصِّ الَّذي لا يُشارِكُه فيه غيرُه، والصَّمَدَ يُشعِرُ بجَميعِ أوصافِ الكَمالِ؛ لأنَّه الَّذي انْتَهى إليه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٨، ٨١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٢، ٥٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦١٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦١٦، ٦١٧).

سُؤْدُدُه، فكان مَرجِعُ الطَّلبِ منه وإليه، ولا يَتِمُّ ذلك على وَجْهِ التَّحقيقِ إلَّا لِمَن حاز جَميعَ صِفاتِ الكَمالِ، وذلك لا يَصلُحُ إلَّا للهِ تعالَى.

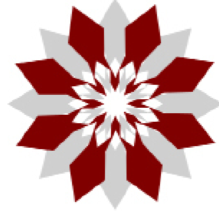
ب- تَضمَّنَت تَوجيهَ الاعتقادِ وصِدقَ المَعرفةِ، وما يَجِبُ إثباتُه للهِ مِن الأَحَديَّةِ المُنافيةِ لمُطلَقِ الشَّرِكةِ، والصَّمَديَّةِ المُثبِتةِ له جَميعَ صِفاتِ الكَمالِ الَّذي لا يَلحَقُه نقْصٌ.

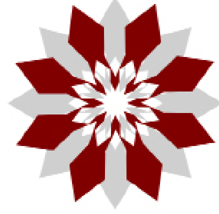
ج- وتَضمَّنَت نفْيَ الولدِ والوالدِ المُقرِّرَ لكَمالِ الغنَى.

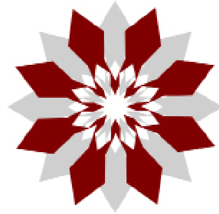
د- وتَضمَّنَت نَفْيَ الكُفْءِ المُتضمِّنَ لنفْيِ الشَّبيهِ والنَّظيرِ(١).



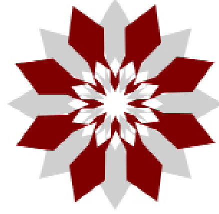
(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦١٩).

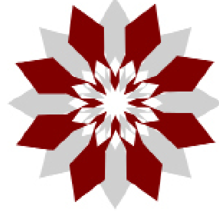


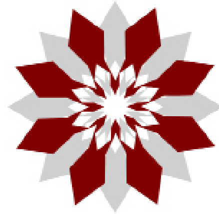




تَفْسِيرُ
سُورَةِ الفَلَقِ







سورةُ الفَلَقِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسورةِ (الفَلَقِ)[١].

وسمِّيت أيضًا ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾؛ فعن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ألم تَرَ آياتٍ أُنزِلَتِ اللَّيلةَ لم يُرَ مِثلُهنَّ قَطُّ، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾))[٢].

ويُطلَقُ عليها معَ سورةِ (النَّاسِ): (المُعَوِّذَتانِ)، ومعَ (النَّاسِ والإخلاصِ): (المُعَوِّذاتُ):

فعن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضِيَ الله عنه، قال: قال لي رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أُنْزِل، أو أُنْزِلَتْ عليَّ آياتٌ لم يُرَ مِثْلُهنَّ قطُّ، المُعَوِّذتَينِ[٣]))[٤].

وعنه أيضًا رضيَ الله عنه، قال: ((أمَرَني رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أن أقرأَ بالمُعَوِّذاتِ في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ))[٥].

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ بذلك؛ لذِكْرِ لَفظِ الفَلَقِ في أوَّلِها في قولِه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٦).

وسُمِّيت أيضًا مع سورةِ النَّاسِ بالمقشقشتين، أي: تبرِّئان من النِّفاق. يُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لعلم الدين السخاوي (ص: ٩٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (٨١٤).

(٣) منصوبٌ بفعلٍ مَحذوفٍ، أي: أعني: المُعَوِّذَتَينِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ١٦٩).

(٤) أخرجه مسلم (٨١٤).

(٥) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٦).

فضلُها وخصائصُها:

١- تستحبُّ قراءتُها في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ:

عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، قال: ((أمَرَني رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ أقرَأَ بالمُعَوِّذاتِ في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ))[١].

٢- ما أُنزِلَ مِثلُ المُعَوِّذاتِ في التَّوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في الفُرقانِ:

عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، قال: ((... لَقِيتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال لي: يا عُقْبةُ بنَ عامرٍ، ألَا أُعَلِّمُك سوَرًا ما أُنزِلَتْ في التَّوراةِ، ولا في الزَّبورِ، ولا في الإنجيلِ، ولا في الفُرقانِ مِثلُهُنَّ؟ لا يأتِيَنَّ عليك لَيلةٌ إلَّا قَرأْتَهُنَّ فيها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. قال عُقْبةُ: فما أَتَتْ عليَّ لَيلةٌ إلَّا قرأْتُهُنَّ فيها، وحُقَّ لي ألَّا أَدَعَهُنَّ وقد أَمَرَني بهِنَّ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم))[٢].

٣- مَن قَرأَ المُعَوِّذاتِ حينَ يُمسِي وحينَ يُصبِحُ ثلاثًا تَكفيه مِن كلِّ شَيءٍ:

عن عبدِ الله بنِ خُبَيْبٍ رضيَ الله عنه، قال: ((خرَجْنا في لَيلةٍ مَطِيرةٍ وظُلْمةٍ شديدةٍ نَطلُبُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُصَلِّي لنا، فأدرَكْتُه فقال: قُلْ. فلمْ أَقُلْ شيئًا، ثمَّ قال: قُلْ. فلمْ أقُلْ شيئًا، ثمَّ قال: قُلْ. قلتُ: ما أقولُ؟ قال: قُلْ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمُعَوِّذَتَينِ حينَ تُمْسي وحينَ تُصبِحُ ثلاثَ مرَّاتٍ تَكفيكَ مِن كلِّ شَيءٍ))[٣].

---

(١) تقدَّم تخريجُه قريبًا.

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٧).

(٣) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٧).

٤- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا اشتَكى رقَى نفْسَه بالمُعَوِّذاتِ:

عن عائشةَ رضيَ الله عنها: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا اشْتَكى يَقرأُ على نفْسِه بالمُعَوِّذاتِ ويَنْفُثُ، فلمَّا اشْتَدَّ وَجَعُه كنتُ أقرَأُ عليه وأمْسَحُ بيَدِه؛ رجاءَ بَرَكَتِها))[١].

٥- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُعوِّذُ نفْسَه بالمُعَوِّذاتِ إذا أوَى إلى فِراشِه:

عن عائشةَ رضيَ الله عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا أوَى إلى فِراشِه كُلَّ لَيلةٍ جَمَع كَفَّيْه، ثُمَّ نَفَث فيهما فقَرَأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمسَحُ بهما ما اسْتَطاع مِن جَسَدِه، يَبْدَأُ بهما على رَأْسِه ووَجْهِه وما أقْبَلَ مِن جَسَدِه، يَفعَلُ ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ))[٢].

٦- آياتُ سورتَيِ الفَلَقِ والنَّاسِ لم يُرَ مِثلُهنَّ فيما أُنزل على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم:

عن عُقْبةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ألم تَرَ آياتٍ أُنزِلَتِ اللَّيلةَ لم يُرَ مِثلُهنَّ قَطُّ[٣]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾))[٤].

٧- أُمِر النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقراءتِها معَ سورةِ النَّاسِ لَمَّا سُحِر:

عن زَيْدِ بنِ أرْقَمَ رضيَ الله عنه، قال: ((سَحَرَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم رجُلٌ

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٨).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٩).

(٣) ((لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ)): أي: في بابِهما وهو التَّعَوُّذ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٤٦٧).

(٤) أخرجه مسلم (٨١٤).

مِن اليَهودِ، فاشْتَكى، فأتاهُ جِبريلُ -عليه السَّلامُ- بالمُعوِّذَتيْنِ، وقال: إنَّ رجُلًا مِن اليَهودِ سحَرَك، والسِّحرُ في بِئرِ فُلانٍ، فأرسَلَ عليًّا، فجاءَ به، فأمَرَه أنْ يَحُلَّ العُقَدَ، ويَقرَأَ آيةً، فجعَلَ يقرَأُ ويَحُلُّ، حتَّى قام النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم كأنَّما أُنشِطَ مِن عِقالٍ[١]، فما ذكَرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم لذلك اليَهوديِّ شيئًا ممَّا صنَعَ، ولا أراهُ في وَجْهِه))[٢].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الفَلَقِ، مُختلَفٌ فيها؛ فقيل: مكِّيَّةٌ، وقيل: مَدَنيَّةٌ[٣].

---

(١) أُنشِط مِن عِقالٍ: أي: حُلَّ مِن وَثاقٍ. يُنظر: ((معالم السنن)) للخَطَّابي (٣/ ١٠٢).

(٢) أخرجه عبدُ بنُ حُمَيد (٢٧١)، والطَّحاويُّ في ((شرح مشكل الآثار)) (٥٩٣٥).
قال شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((شرح مشكل الآثار)) (٥٩٣٥): (إسنادُه على شرطِ مسلمٍ).
والحديث أخرجه دونَ ذِكْرِ المعوِّذتَين: النَّسائيُّ (٤٠٨٠)، وأحمدُ (١٩٢٨٦).
صحَّحه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٢٧٦١)، والوادعيُّ في ((الصحيح المسند)) (٣٥١).

(٣) ممَّن اختار أنَّها مكِّيَّةٌ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والسمعاني، والزمخشري، وابن جُزَي، وأبو السعود، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٩٣١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٧٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٧٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٤).
وممَّن اختار أنَّها مَدَنيَّةٌ: الثعلبيُّ، ومكِّي، والبغوي، وابن الجوزي، والرازي، والخازن، وابن كثير، والفيروزابادي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٣٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٥٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٠٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٦٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) =

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

الاسْتِعاذةُ مِن جميعِ أنواعِ الشُّرورِ عُمومًا وخُصوصًا[1].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

الاستعاذةُ باللهِ مِن الشُّرورِ، والأوقاتِ الَّتي يَكثُرُ فيها حُدوثُ الشَّرِّ، ومِن شرِّ السَّحَرةِ والحاسِدينَ.



= (٨/ ٥٣٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

الآيات (١-٥)

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾
وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلْفَلَقِ﴾: أي: الصُّبحِ المتصَدِّعِ عن الظُّلمةِ، وأصلُ (فلق): يدُلُّ على فُرجةٍ في الشَّيءِ[١].

﴿غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾: أي: اللَّيلِ المُظلِمِ إذا دَخَل واشتدَّ ظَلامُه، وأصلُ (غسق): يدُلُّ على ظُلمةٍ، وأصلُ (وقب): يدُلُّ على غَيبةِ شَيءٍ[٢].

﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾: أي: السَّواحِرِ اللَّاتي يَنفُثْنَ في عُقَدِ الخَيطِ حينَ يَرقِينَ عليها. والنَّفْثُ: النَّفخُ؛ قيل: مع ريقٍ، وقيل: بدونِ ريقٍ، وأصلُ (نفث): يدُلُّ على خُروجِ شَيءٍ مِن فَمٍ، وأصلُ (عقد): يدُلُّ على شَدٍّ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

افتتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه: قُلْ -يا محمَّدُ- متعَوِّذًا باللهِ وَحْدَه: ألتجِئُ وأستجيرُ بخالِقِ الصَّباحِ المتصَدِّعِ عن الظُّلمةِ، مِن شَرِّ كُلِّ مخلوقٍ، ومِن

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥) و(٦/ ١٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٨٦) و(٥/ ٤٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٥٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٤٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٢١).

شَرِّ اللَّيلِ إذا دَخَل واشتدَّ ظَلامُه، ومِن آيتِه: القمر، ومِن شَرِّ السَّاحِراتِ اللَّاتي يَنفُثْنَ في عُقَدِ الخُيوطِ وَقتَ السِّحرِ، ومِن شَرِّ حاسِدٍ إذا حَسَد.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن زَيدِ بنِ أرقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سَحَرَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم رجُلٌ مِن اليَهودِ، فاشتكى، فأتاه جبريلُ، فنَزَل عليه بالمعَوِّذتَينِ وقال: إنَّ رجُلًا مِنَ اليَهودِ سحَرَك، والسِّحرُ في بئرِ فُلانٍ، فأرسَلَ عليًّا فجاء به، فأمَرَه أن يَحُلَّ العُقَدَ، ويَقرَأَ آيةً، فجَعَل يَقرَأُ ويَحُلُّ، حتَّى قام النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم كأنَّما أُنشِطَ مِن عِقالٍ، فما ذكَرَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لذلك اليَهوديِّ شَيئًا مِمَّا صَنَع به، ولا أراه في وَجْهِه!))(١).

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((سَحَرَ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يَهوديٌّ مِن يَهودِ بني زُرَيْقٍ، يُقالُ له: لَبِيدُ بنُ الأعصَمِ، حتَّى كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُخَيَّلُ إليه أنَّه يَفعَلُ الشَّيءَ وما يَفعَلُه، حتَّى إذا كان ذاتَ يومٍ أو ذاتَ لَيلةٍ دعا رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ثمَّ دعا، ثمَّ دعا، ثمَّ قال: يا عائِشةُ، أشَعَرْتِ أنَّ اللهَ أفتاني فيما استفتَيتُه فيه؟ جاءني رجُلانِ فقعَد أحدُهما عندَ رأسي، والآخَرُ عندَ رِجْلَيَّ، فقال الَّذي عندَ رأسي للَّذي عندَ رِجْليَّ، أو الَّذي عند رِجْليَّ للَّذي عندَ رأسي: ما وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قال: مَطبوبٌ(٢)، قال: مَن طَبَّه؟ قال: لَبِيدُ بنُ

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٩٦).

(٢) مَطْبوبٌ: أي: مسحورٌ، يُقالُ: طُبَّ الرَّجلُ بالضمِّ: إذا سُحِر، يُقالُ: كَنَوْا عن السِّحرِ بالطِّبِّ تفاؤُلًا، كما قالوا لِلَّدِيغِ سَليمٌ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٢٢٨). ويُنظر أيضًا: =

الأعصَمِ، قال: في أيِّ شَيءٍ؟ قال: في مُشْطٍ[١] ومُشاطةٍ[٢]، قال: وَجُفِّ[٣] طَلْعةِ ذَكَرٍ، قال: فأين هو؟ قال: في بئرِ ذي أروانَ[٤]، فأتاها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أُناسٍ مِن أصحابِه، ثمَّ قال: يا عائِشةُ، واللهِ لَكأنَّ ماءَها نُقاعةُ الحِنَّاءِ، ولَكَأنَّ نَخْلَها رُؤوسُ الشَّياطينِ. فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أفلا أحرَقْتَه؟ قال: لا، أمَّا أنا فقد عافاني اللهُ، وكَرِهْتُ أن أُثيرَ على النَّاسِ شَرًّا؛ فأَمَرْتُ بها فدُفِنَت))[٥].

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- متعَوِّذًا باللهِ وَحْدَه: ألتجِئُ وأستجيرُ بخالِقِ الصَّباحِ المتصَدِّعِ عن الظُّلمةِ[٦].

= ((الأضداد)) لابن الأنباري (ص: ٢٣١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١١٥٥).

(١) المُشْط: هو الآلةُ المعروفةُ الَّتي يُسرَّحُ بها شَعرُ الرَّأسِ واللِّحيةِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٢٢٩).

(٢) المُشاطة: الشَّعرُ الَّذي يَسقُطُ مِن الرَّأسِ واللِّحيةِ عندَ التَّسريحِ بالمُشطِ. يُنظر: ((المُعْلِم بفوائد مسلم)) للمازَري (٣/ ١٦٢).

(٣) الجُفُّ: وِعاءُ الطَّلعِ، وهو الغِشاءُ الَّذي عليه. يُنظر: ((المُعْلِم بفوائد مسلم)) للمازَري (٣/ ١٦٢).

(٤) هي بئرٌ بالمدينةِ في بُستانِ بني زُرَيْق. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ١٧٧).

(٥) رواه البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (٢١٨٩) واللَّفظُ له.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤١، ٧٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

قال ابن عطيَّة: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمرادُ هو وآحادُ أمَّتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٥).

قال الرَّسْعَنيُّ: (﴿ٱلْفَلَقِ﴾: الصُّبح، في قولِ الحسَنِ، ومجاهِدٍ، وسعيدِ بنِ جُبَير، وقَتادةَ، وعامَّةِ المفسِّرينَ واللُّغَويِّينَ والعُرفِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٧٥).

قال ابن كثير: (قال ابن جرير: والصَّوابُ... أنَّه فَلَقُ الصُّبحِ. وهذا هو الصَّحيحُ، وهو اختيارُ البُخاريِّ رحمه الله في «صحيحه»). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣٥). ويُنظر: ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وعن زِرِّ بنِ حُبَيشٍ، قال: ((سألْتُ أُبَيَّ بنَ كَعبٍ عن المعَوِّذتَينِ؟ فقال: سألتُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: قيل لي، فقُلتُ. فنحن نقولُ كما قال رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم))(١).

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾.

أي: ألتجِئُ وأستجيرُ باللهِ مِن شَرِّ كُلِّ مخلوقٍ فيه شَرٌّ؛ مِنَ الإنسِ والجِنِّ، والحيواناتِ والرِّياحِ، وغيرِ ذلك(٢).

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يتعوَّذُ مِن الجانِّ وعَينِ الإنسانِ، حتَّى نزَلَت المعَوِّذتانِ، فلَمَّا نزَلَتا أخَذَ بهما، وتَرَك ما سِواهما))(٣).

وعن خَوْلةَ بنتِ حَكيمٍ السُّلَميَّةِ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ

= جرير)) (٢٤/ ٧٤٥)، ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٨١).

قال ابن عثيمين: (الفَلَقُ: الإصباحُ. ويجوزُ أن يكونَ أعمَّ مِن ذلك: أنَّ الفَلَقَ كلُّ ما يَفلِقُه اللهُ تعالى مِن الإصباحِ، والنَّوى، والحَبِّ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٢).

وقال الزَّجَّاجُ: (الفَلَقُ: جميعُ المخلوقاتِ، وفَلَقُ الصُّبحِ مِن ذلك). ((معاني القرآن)) (٥/ ٣٧٩).

ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٤، ٥٠٥).

(١) رواه البخاري (٤٩٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٧٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣٥)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٦٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٢).

(٣) أخرجه الترمذيُّ (٢٠٥٨) واللَّفظُ له، والنَّسائيُّ (٥٤٩٤)، وابنُ ماجه (٣٥١١).

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ). وصَحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٠٥٨)، وصحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٤/ ٤٦٨).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((مَن نَزَل مَنزِلًا ثمَّ قال: أعوذُ بكَلِماتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ ما خَلَق، لم يَضُرَّه شَيءٌ حتَّى يَرتحِلَ مِن مَنزِله ذلك))(١).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((جاء رجُلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: يا رَسولَ اللهِ، ما لَقِيتُ مِن عَقربٍ لَدَغَتْني البارِحةَ! قال: أمَا لو قُلْتَ حينَ أمسَيتَ: أعوذُ بكَلِماتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ ما خَلَق، لم تَضُرَّك))(٢).

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾.

أي: وأعوذُ باللهِ مِن شَرِّ اللَّيلِ إذا دَخَل واشتدَّ ظَلامُه، وأعوذُ بالله مِن آيتِه وهو القمرُ(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٨).

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤٥، ٧٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٥، ٥٣٣، ٥٣٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٧، ٦٢٨).

وقال ابنُ القيِّم: (قال أكثَرُ المفسِّرينَ: إنَّه اللَّيلُ). ونسَبَه لابن عبَّاسٍ والحسَنِ ومجاهِدٍ، ثمَّ ذكَرَ أنَّ الغَسَقَ الظُّلْمةُ، ثمَّ ذكر أنَّ في تسميةِ اللَّيلِ غاسقًا قولًا آخَرَ: أنَّه من البَرْدِ، واللَّيلُ أبرَدُ من النَّهارِ، والغَسَقُ البَرْدُ. قال: (ولا تَنافيَ بيْنَ القَولَينِ؛ فإنَّ اللَّيلَ باردٌ مُظلِمٌ، فمَن ذكَرَ بَرْدَه فقط أو ظُلْمَتَه فقط اقتصَر على أحَدِ وصْفَيه، والظُّلْمةُ في الآيةِ أنسَبُ لمكانِ الاستِعاذةِ؛ فإنَّ الشَّرَّ الَّذي يُناسِبُ الظُّلْمةَ أَولى بالاستعاذةِ من البَرْدِ الَّذي في اللَّيلِ؛ ولهذا استعاذ برَبِّ الفَلَقِ الَّذي هو الصُّبحُ والنُّورُ من شرِّ الغاسِقِ الَّذي هو الظُّلْمةُ، فناسَبَ الوصفُ المُستعاذُ به للمعنى المطلوبِ بالاستِعاذة)، وأجاب عن حديثِ عائشةَ أنَّ الغاسِقَ إذا وقَبَ هو القمَرُ، فقال: (هذا التَّفسيرُ حَقٌّ، ولا يُناقِضُ التَّفسيرَ الأوَّلَ، بل يوافِقُه ويَشهَدُ بصِحَّتِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]، فالقمَرُ هو آيةُ اللَّيلِ وسُلطانُه، فهو أيضًا غاسِقٌ إذا وَقَب، والنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أخبَرَ عن القمَرِ بأنَّه غاسِقٌ إذا وَقَب، وهذا خبَرٌ صِدقٌ، وهو أصْدَقُ الخبَرِ، ولم يَنْفِ عن اللَّيلِ اسمَ الغاسِقِ إذا وَقَب، وتخصيصُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم له بالذِّكرِ لا يَنفي شُمولَ الاسمِ لِغَيرِه، والسَّببُ الَّذي لأجلِه =

كما قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم نَظَر إلى القَمَرِ فقال: يا عائِشةُ، استَعيذي باللهِ مِن شَرِّ هذا؛ فإنَّ هذا هو الغاسِقُ إذا وَقَب))(١).

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

عُطِفَ ﴿شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ على شَرِّ اللَّيلِ؛ لأنَّ اللَّيلَ وقْتٌ يَتحيَّنُ فيه السَّحَرةُ إجراءَ شَعوذتِهم؛ لئلَّا يَطَّلِعَ عليهم أحَدٌ(٢).

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ٤﴾.

= أمَرَ اللهُ بالاستعاذةِ من شَرِّ اللَّيلِ وشَرِّ القَمَرِ إذا وَقَب هو أنَّ اللَّيلَ إذا أقبَلَ فهو محلُّ سُلطانِ الأرواحِ الشِّرِّيرةِ الخبيثةِ، وفيه تنتشِرُ الشَّياطينُ، وفي الصَّحيحِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أخبَرَ أنَّ الشَّمسَ إذا غرَبَت انتشَرَت الشَّياطينُ [البخاري (٣٢٨٠) ومسلم (٢٠١٢)]. ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢١٧، ٢١٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (ولا مُنافاةَ بيْنَ تَفسيرِه باللَّيلِ وبالقَمَرِ؛ فإنَّ القَمَرَ آيةُ اللَّيلِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٥٣٤).

وذكر ابنُ تيميَّةَ أيضًا أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أمَر عائشةَ بالاستعاذةِ منه مع ظُهورِه، فالقمرُ آيةُ اللَّيلِ، فأمْرُه بالاستعاذةِ من ذلك أمرٌ بالاستعاذةِ من آيةِ اللَّيلِ ودليلِه وعلامتِه، والدَّليلُ مُستلزِمٌ للمَدلولِ، فإذا كان شرُّ القمَرِ موجودًا فشَرُّ اللَّيلِ موجودٌ، وللقمرِ من التَّأثيرِ ما ليس لغيرِه، فتكونُ الاستعاذةُ من الشَّرِّ الحاصِلِ عنه أقوى. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٦).

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣٣٦٦)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٠١٣٧)، وأحمدُ (٢٥٨٠٢).
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وكذا قال الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٦٦). وصَحَّحه ابنُ العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ٤٠٩)، وقال ابن حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٤/ ٣٣٤)-: (حسَنٌ غريبٌ)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٠/ ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٨).

أي: وأعوذُ باللهِ مِن شَرِّ السَّاحِراتِ اللَّاتي يَنفُثْنَ في عُقَدِ الخُيوطِ وما أشبَهَها؛ حتَّى ينعَقِدَ ما أرَدْنَه مِنَ السِّحرِ[1].

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبْلَها:

عُطِفَ شَرُّ الحاسدِ على شَرِّ السَّاحرِ المَعطوفِ على شَرِّ اللَّيلِ؛ لمُناسَبةٍ بيْنَه وبيْن المعطوفِ عليه مُباشَرةً، وبيْنَه وبيْن المَعطوفِ عليه بواسطةٍ؛ فإنَّ ممَّا يَدْعو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

قال الرازي: (السَّاحِرُ إذا أخذَ في قراءةِ الرُّقْيةِ أخَذَ خَيطًا، ولا يزالُ يَعقِدُ عليه عَقْدًا بعدَ عَقْدٍ، ويَنفُثُ في تلك العُقَدِ، وإنَّما أنَّث ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾؛ لوُجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ هذه الصِّناعةَ إنَّما تُعرَفُ بالنِّساءِ؛ لأنَّهنَّ يَعقِدنَ ويَنفُثْنَ؛ وذلك لأنَّ الأصلَ الأعظَمَ فيه رَبطُ القَلبِ بذلك الأمرِ، وإحكامُ الهِمَّةِ والوَهمِ فيه، وذلك إنَّما يتأتَّى مِنَ النِّساءِ...

وثانيها: أنَّ المرادَ من ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾: النُّفوسُ.

وثالثُها: المرادُ منها الجماعاتُ؛ وذلك لأنَّه كُلَّما كان اجتماعُ السَّحَرةِ على العمَلِ الواحِدِ أكثَرَ كان التَّأثيرُ أشَدَّ). ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٧٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢١).

وممَّن فَسَّر النَّفَّاثات بالنِّساءِ السَّاحراتِ: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّةَ، والسعديُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٣).

وممَّن ذهب في الجملةِ إلى أنَّ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ هنَّ الأرواحُ والأنفُسُ النَّفَّاثاتُ، لا النِّساءُ النَّفَّاثاتُ؛ لأنَّ تأثيرَ السِّحرِ إنَّما هو من جهةِ الأنفُسِ الخبيثةِ، والأرواحِ الشِّرِّيرةِ، وسُلطانُه إنَّما يظهَرُ منها: ابنُ القيِّم، والألوسيُّ. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٢٠).

الحاسدَ إلى أذى المَحسودِ أنْ يَتطلَّبَ حُصولَ أذاهُ؛ لتَوهُّم أنَّ السِّحرَ يُزيلُ النِّعمةَ الَّتي حَسَدَه عليها، ولأنَّ ثَوَرانَ وجْدانِ الحسَدِ يَكثُرُ في وَقتِ اللَّيلِ؛ لأنَّ اللَّيلَ وقْتُ الخَلْوةِ، وخُطورِ الخواطِرِ النَّفسيَّةِ، والتَّفكُّرِ في الأحوالِ الحافَّةِ بالحاسدِ وبالمحسودِ[١].

وأيضًا لَمَّا كان أعظَمُ حاملٍ على السِّحرِ وغَيرِه مِن أذى النَّاسِ: الحسَدَ[٢]، مع اشتِراكِهما في التَّأثيرِ الخَفيِّ للحالِ -بإذْنِ الله تعالى-؛ قال عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥﴾.

أي: وأعوذُ باللهِ مِن شَرِّ كُلِّ حاسِدٍ مِن الإنسِ والجِنِّ يتمَنَّى زَوالَ نِعمةِ اللهِ عن غَيرِه، إذا حَسَده وأراده بسُوءٍ بعَينِه الخبيثةِ، أو بقَولِه أو بفِعْلِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٥١، ٧٥٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٨)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢٨-٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٣).

قال الألوسي: (ذكروا أنَّ العائنَ والحاسدَ يَشترِكانِ في أنَّ كلًّا منهما تَتكيَّفُ نفْسُه وتَتوَجَّهُ نحوَ مَن تُريدُ أذاه، إلَّا أنَّ العائنَ تتكيَّفُ نفْسُه عندَ مُقابَلةِ العَينِ والمُعايَنةِ، والحاسدَ يَحصُلُ حسَدُه في الغَيبةِ والحُضورِ. وأيضًا العائنُ قد يَعينُ مَن لا يَحسُدُه مِن حَيوانٍ وزرعٍ، وإن كان لا يَنفَكُّ مِن حسدِ صاحِبِه). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٢٢). ويُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣١).

وقال ابن القيِّم بعْدَ أنْ ذكر أنَّ الحاسِدَ أعَمُّ مِنَ العائِنِ؛ فكُلُّ عائنٍ حاسِدٌ، وليس كلُّ حاسِدٍ عائنًا: (وأصْلُه مِن إعجابِ العائنِ بالشَّيءِ، ثمَّ تَتبَعُه كيفيَّةُ نفْسِه الخبيثةِ، ثمَّ تستعينُ على تنفيذِ سمِّها بنَظرةٍ إلى المَعينِ، وقد يَعينُ الرَّجُلُ نفْسَه، وقد يَعينُ بغيرِ إرادَتِه، بل بطَبْعِه، وهذا أردَأُ ما يكونُ مِن النَّوعِ الإنسانيِّ). ((زاد المعاد)) (٤/ ١٥٤).

وقال السعدي: (ويَدخُلُ في الحاسِدِ العائنُ؛ لأنَّه لا تَصدُرُ العَينُ إلَّا مِن حاسدٍ شِرِّيرِ الطَّبعِ، خَبيثِ النَّفْسِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان إذا اشتكى رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم رقاه جِبريلُ، قال: باسْمِ اللهِ يُبْرِيك، ومِن كُلِّ داءٍ يَشْفيك، ومِن شَرِّ حاسِدٍ إذا حَسَد، وشَرِّ كُلِّ ذي عَينٍ))[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ فيه استِحبابُ التَّعَوُّذِ مِمَّا ذُكِرَ فيه[٢].

٢- في المعَوِّذتَينِ الاستِعاذةُ مِن كُلِّ مكروهٍ جملةً وتفصيلًا؛ فإنَّ الاستعاذةَ مِن شَرِّ ما خَلَق تَعُمُّ كُلَّ شَرٍّ يُستعاذُ منه، سواءٌ كان في الأجسامِ أو الأرواحِ، والاستعاذةَ مِن شَرِّ الغاسِقِ -وهو اللَّيلُ- وآيتِه -وهو القَمَرُ- تتضَمَّنُ الاستعاذةَ مِن شَرِّ ما ينتَشِرُ فيه مِن الأرواحِ الخبيثةِ الَّتي كان نورُ النَّهارِ يَحولُ بيْنَها وبيْن الانتشارِ، فلمَّا أظلَمَ اللَّيلُ عليها انتشَرَت وعاثَتْ، والاستعاذةَ مِن شَرِّ النَّفَّاثاتِ في العُقَدِ تتضَمَّنُ الاستعاذةَ مِن شَرِّ السَّواحِرِ وسِحْرِهنَّ، والاستعاذةَ مِن شَرِّ الحاسِدِ تتضَمَّنُ الاستعاذةَ مِن النُّفوسِ الخبيثةِ المُؤذِيةِ بحَسَدِها ونَظَرِها.

والسُّورةُ الثَّانيةُ تتضَمَّنُ الاستعاذةَ مِن شَرِّ شياطينِ الإنسِ والجِنِّ؛ فقد جمعت السُّورتانِ الاستعاذةَ مِن كُلِّ شَرٍّ، ولهما شأنٌ عظيمٌ في الاحتراسِ والتَّحَصُّنِ مِن الشُّرورِ قبْلَ وُقوعِها؛ ولهذا أوصى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم عُقْبةَ بنَ عامرٍ رضيَ الله عنه بقِراءتِهما عَقِبَ كُلِّ صلاةٍ[٣]، وفي هذا سِرٌّ عظيمٌ في استدفاعِ الشُّرورِ

(١) رواه مسلم (٢١٨٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠٢).

(٣) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٦).

مِن الصَّلاةِ إلى الصَّلاةِ، وقال: ((ما تعوَّذ مُتعَوِّذٌ بمِثْلِهما))[(١)]، وقد ذُكِرَ أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم سُحِرَ، وأنَّ جِبريلَ نزَل عليه بهما، فجَعَل كُلَّما قرَأَ آيةً منهما انحَلَّت عُقدةٌ، حتَّى انحَلَّت العُقَدُ كُلُّها، وكأنَّما أُنشِطَ من عِقالٍ[(٢)].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ذكَر اللهُ عزَّ وجَلَّ الغاسِقَ إذا وَقَب، والنَّفَّاثاتِ في العُقَد، والحاسِدَ إذا حسَدَ؛ لأنَّ البلاءَ كُلَّه في هذه الأحوالِ الثَّلاثةِ يكونُ خَفيًّا، اللَّيلُ سَترٌ وغِشاءٌ. ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: ١] يَكمُنُ به الشَّرُّ ولا يُعلَمُ به. ﴿النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أيضًا السِّحرُ خَفِيٌّ لا يُعلَمُ. ﴿حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ العائِنُ أيضًا خَفِيٌّ تأتي العينُ مِن شَخصٍ تَظُنُّ أنَّه مِن أحَبِّ النَّاسِ إليك وأنت مِن أحَبِّ النَّاسِ إليه، ومع ذلك يُصيبُك بالعَينِ؛ لهذا السَّبَبِ خَصَّ اللهُ هذه الأمورَ الثَّلاثةَ؛ الغاسِقَ إذا وَقَب، والنَّفَّاثاتِ في العُقَدِ، والحاسِدَ إذا حَسَد، وإلَّا فهي داخِلةٌ في قَولِه تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾[(٣)]. وقيل: معنى الاستعاذةِ من الغاسِقِ والنَّفَّاثاتِ والحاسِدِ بعْدَ قولِه: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ -مع أنَّه عامٌّ في كُلِّ ما يُستعاذُ منه-: التَّنبيهُ على أنَّ هذه الشُّرورَ أعظَمُ أنواعِ الشَّرِّ[(٤)].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ

(١) أخرجه مطوَّلًا أبو داودَ (١٤٦٣) واللَّفظُ له، والطَّحاويُّ في ((شرح مشكل الآثار)) (١٢٧)، والطَّبَرانيُّ (١٧/ ٣٤٥) (٩٥٠) مِن حديثِ عُقْبةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه.

صحَّحه ابنُ القيِّم في ((المنار المُنيف)) (٩١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٤٦٣)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (١٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ١٦٦، ١٦٧).

وحديثُ السِّحرِ المذكورُ تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٧٥).

إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾
حاصِلُ هذه السُّورةِ العُظمى في معناها الأبدَعِ الأَسْمى الاستعاذةُ باللهِ -بذِكْرِ اسمِه «الرَّبِّ» المقتضي للإحسانِ والتَّربيةِ بجَلْبِ النِّعَمِ ودَفعِ النِّقَمِ- مِن شَرِّ ما خلَقَ، ومِنَ السِّحرِ والحَسَدِ(١).

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾
وَقَعَ ترتيبُ المُستعاذِ منه في هذه السُّورةِ على كَمالِ التَّرتيبِ، انتِقالًا مِن الأعمِّ الأعلى الأبعَدِ إلى الأخصِّ الأقرَبِ الأسفَلِ، فجُعِلَتْ أربعةَ أقسامٍ:

الأوَّلُ: من شَرِّ المخلوقاتِ عُمومًا.

والثَّاني: شَرُّ الغاسقِ إذا وَقَبَ؛ فدَخَلَ فيه ما يُؤَثِّرُ مِن العُلْويَّاتِ في السُّفْليَّاتِ مِن اللَّيلِ، وما فيه مِن الكواكِبِ كالثُّرَيَّا وسُلْطانه الَّذي هو القَمَرُ، ودَخَلَ في ذلك سِحْرُ التَّمزيجاتِ(٢) الَّذي هو أعلى السِّحرِ وأرفَعُه.

الثَّالثُ: شَرُّ النَّفَّاثاتِ في العُقَدِ، وهُنَّ السَّواحِرُ.

والرَّابعُ: الحاسِدُ، وهي النُّفوسُ المُضِرَّةُ سَفَهًا؛ فانتظَمَ بذلك جميعُ أسبابِ الشُّرورِ(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ سِرٌّ في الاستعاذةِ بربِّ الفَلَقِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤١٩).

(٢) سحرُ التَّمزيجاتِ -وهو أقوى ما يكونُ مِن السِّحرِ- أن يمزجَ بيْن القُوى النَّفْسانيَّةِ الخبيثةِ الفعَّالةِ، والقُوى الطَّبيعيَّةِ المُنفَعِلةِ. يُنظر: ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (٣/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٣٥).

في هذا الموضِعِ؛ فإنَّ الفَلَقَ الصُّبحُ الَّذي هو مَبدأُ ظُهورِ النُّورِ، وهو الَّذي يَطْرُدُ جيشَ الظَّلامِ، وعَسْكَرَ المفسِدينَ في اللَّيلِ، فيأوي كلُّ خبيثٍ وكلُّ مُفْسِدٍ وكلُّ لِصٍّ وكلُّ قاطعِ طريقٍ إلى سَرَبٍ[١] أو كِنٍّ[٢] أو غارٍ، وتأوي الهَوامُّ إلى أحجرَتِها، والشَّياطينُ الَّتي انتشرتْ باللَّيلِ إلى أمكنَتِها ومحالِّها؛ فأمَرَ اللهُ تعالى عبادَه أنْ يَستعيذوا بربِّ النُّورِ الَّذي يَقْهَرُ الظُّلْمةَ ويُزيلُها، ويَقهَرُ عَسْكَرَها وجَيْشَها؛ ولهذا ذَكَرَ سُبحانَه أنَّه يُخرِجُ عبادَه مِن الظُّلماتِ إلى النُّورِ، ويَدَعُ الكُفَّارَ في ظُلُماتِ كُفْرِهم؛ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[٣] [البقرة: ٢٥٧].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ وقَولِه: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١] سؤالٌ: كيف جاء امتثالُ هذا الأمرِ بلَفظِ الأمرِ والمأمورِ به، ومعلومٌ أنَّه إذا قيل: قُلِ: «الحَمدُ للهِ»، وقُلْ: «سُبحانَ اللهِ»؛ فإنَّ امتثالَه أنْ يقولَ: «الحَمدُ للهِ»، و«سُبحانَ اللهِ»، ولا يقولَ: «قُلْ سُبحانَ اللهِ».

الجوابُ: هذا هو السُّؤالُ الَّذي أورَدَه أُبَيُّ بنُ كَعبٍ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعَينِه، وأجابَه عنه رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيثُ قال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((قيل لي، فقُلْتُ))[٤]. وتحتَ هذا السِّرِّ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم ليس له في القُرآنِ إلَّا بلاغُه، لا أنَّه هو أنْشَأَه مِن قِبَلِ نفْسِه، بل هو المُبَلِّغُ له عن اللهِ، وقد قال اللهُ له: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ فكان يَقتضي البلاغُ التَّامُّ أنْ

(١) السَّرَب: الحَفيرُ تحتَ الأرضِ. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٩٦).

(٢) الكِنُّ: وِقاءُ كلِّ شيءٍ وسِتْرُه، والغارُ ونحوُه يُسكَنُ فيه، والجمعُ: أَكْنانٌ وأَكِنَّةٌ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٩/ ٣٣٥)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ١٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١٩).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٧٧).

يقولَ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ كما قال اللهُ، وهذا هو المعنى الَّذي أشار إليه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقولِه: ((قيل لي، فقُلْتُ))، أي: أنِّي لَسْتُ مُبتَدِئًا، بل أنا مُبَلِّغٌ، أقولُ كما يُقالُ لي، وأُبَلِّغُ كلامَ رَبِّي كما أنزَلَه إلَيَّ، وفي هذا ردٌّ على المُعتَزِلةِ والجَهميَّةِ وإخوانِهم مِمَّن يقولُ: هذا القُرآنُ العربيُّ وهذا النَّظْمُ كلامُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ابتَدأَ هو به! ففي هذا الحديثِ أبْيَنُ الرَّدِّ لهذا القَولِ، وأنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بَلَّغَ القولَ الَّذي أُمِرَ بتبليغِه على وَجْهِه ولفْظِه، حتَّى إنَّه لَمَّا قيلَ له: «قُلْ»، قال هو: «قُلْ»؛ لأنَّه مُبَلِّغٌ مَحْضٌ، وما على الرَّسولِ إلَّا البَلاغُ[1].

٨- في سُورةِ الفَلَقِ الاستِعاذةُ مِن شَرِّ المخلوقاتِ عمومًا وخصوصًا؛ ولهذا قيل فيها: ﴿بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾؛ فإنَّ فالِقَ الإصباحِ بالنُّورِ يُزيلُ بما في نُورِه مِن الخيرِ ما في الظُّلمةِ مِن الشَّرِّ، وفالِقَ الحَبِّ والنَّوى بعْدَ انعقادِهما يُزيلُ ما في عُقَدِ النَّفَّاثاتِ؛ فإنَّ فَلْقَ الحَبِّ والنَّوى أعظمُ مِن حَلِّ عُقَدِ النَّفَّاثاتِ، وكذلك الحسَدُ هو مِن ضِيقِ الإنسانِ وشُحِّهِ لا يَنشَرِحُ صَدْرُه لإنعامِ اللهِ؛ فرَبُّ الفَلَقِ يُزيلُ ما يَحصلُ بضيقِ الحاسِدِ وشُحِّه، وهو سُبحانَه لا يَفْلِقُ شيئًا إلَّا بخيرٍ، فهو فالِقُ الإصباحِ بالنُّورِ الهادي والسِّراجِ الوَهَّاجِ الَّذي به صلاحُ العِبادِ، وهو فالِقُ الحَبِّ والنَّوى بأنواعِ الفواكهِ والأقواتِ الَّتي هي رِزْقُ النَّاسِ ودَوابِّهم، والإنسانُ محتاجٌ إلى جَلْبِ المنفعةِ مِن الهُدى والرِّزقِ، وهذا حاصِلٌ بالفَلْقِ، والرَّبُّ الَّذي فَلَقَ للنَّاسِ ما تحصُلُ به منافعُهم يُستعاذُ به ممَّا يَضُرُّ النَّاسَ، فيُطْلَبُ منه تمامُ نعمتِه بصَرفِ المؤذِياتِ عن عبْدِه الَّذي ابتدأَ بإنعامِه عليه، وفَلْقُ الشَّيءِ عن الشَّيءِ هو دليلٌ على تمامِ القُدرةِ، وإخراجُ الشَّيءِ مِن ضِدِّهِ كما يُخرِجُ الحَيَّ مِن

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٠٢).

الميِّتِ والميِّتَ مِن الحَيِّ، هذا مِن نَوعِ الفَلْقِ؛ فهو سُبحانَه قادِرٌ على دَفْعِ الضِّدِّ المؤذِي بالضِّدِّ النَّافعِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ ردٌّ على مَن قال: إنَّ اللهَ لم يَخلُقِ الشَّرَّ[٢]!

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ سؤالٌ عن الجَمعِ مع قَولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((والشَّرُّ ليس إليك))[٣]؟

الجوابُ: أنَّ الفَرقَ بيْنَهما ظاهِرٌ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أضاف الشَّرَّ إلى المخلوقِ، أمَّا إلى اللهِ فلا يُضافُ الشَّرُّ، فلا شكَّ أنَّ اللهَ هو الَّذي قَدَّرَ الشَّرَّ، لكنْ قَدَّرَ الشَّرَّ في مَفعولاتِه، أمَّا تقديرُه لهذا الشَّرِّ فهو لِحِكمةٍ عظيمةٍ يترتَّبُ عليها مِن المصالحِ ما يَجعَلُها غيرَ مكروهةٍ، لكنْ فَرْقٌ بيْنَ المفعولِ وبيْنَ الفِعلِ والفاعِلِ؛ فالفاعِلُ هو اللهُ عزَّ وجلَّ، وهو المُقَدِّرُ، وهذا لا شَكَّ نُحِبُّه على كلِّ حالٍ، وفِعْلُه أيضًا خيرٌ على كلِّ حالٍ، أمَّا مَفعولُه ففيه خيرٌ وفيه شَرٌّ[٤]، فالشَّرُّ لا يُضافُ إلى الرَّبِّ تعالى لا وصفًا ولا فِعلًا، ولا يتسمَّى باسمِه بوجهٍ من الوُجوهِ، وإنَّما يَدخُلُ في مفعولاتِه بطريقِ العُمومِ[٥]. والشَّرُّ مُسنَدٌ في الآيةِ إلى المخلوقِ المفعولِ، لا إلى خَلقِ الرَّبِّ تعالى الَّذي هو فِعلُه وتكوينُه؛ فإنَّه لا شرَّ فيه بوجهٍ ما؛ فإنَّ الشَّرَّ لا يَدخُلُ في شيءٍ مِن صِفاتِه ولا في أفعالِه، كما لا يَلحَقُ ذاتَه تبارَك وتعالى؛ فإنَّ ذاتَه لها الكمالُ المُطلَقُ الَّذي لا نقْصَ فيه بوَجهٍ من

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٨).
(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٣٠٢).
(٣) رواه مسلم (٧٧١) من حديث عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ الله عنه.
(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٣٧٣).
(٥) يُنظر: ((شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل)) لابن القيم (ص: ٢٧٠).

الوُجوهِ، وأوصافُه كذلك لها الكمالُ المُطلَقُ والجلالُ التَّامُّ، ولا عيبَ فيها ولا نقصَ بوَجهٍ ما، وكذلك أفعالُه كلُّها خَيراتٌ مَحْضةٌ، لا شرَّ فيها أصلًا(١).

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أي: مِن شَرِّ جميعِ المخلوقاتِ، ومنه النَّفْسُ؛ لأنَّ النَّفْسَ أمَّارةٌ بالسُّوءِ، فإذا قُلْتَ: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ فأوَّلُ ما يدخُلُ فيه نَفْسُك(٢).

١٢- أمَرَ اللهُ تعالى بالاستِعاذةِ مِن ﴿ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾، وهو اللَّيلُ إذا أَظلَمَ؛ فإنَّه يَنتشِرُ فيه شَياطينُ الجِنِّ والإنسِ، والاستِعاذةُ مِن القَمرِ لأنَّه آيةُ اللَّيلِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ شَرَّ اللَّيلِ المَخوف لا يَندفِعُ بإشراقِ القَمرِ فيه، ولا يَصيرُ بذلك كالنَّهارِ، بل يُستَعاذُ منه وإنْ كان مُقْمِرًا(٣).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴾ دَلالةٌ على تأثيرِ السِّحْرِ، وأنَّ له حقيقةً، وقد أنكَرَ ذلك طائفةٌ مِن أهلِ الكلامِ مِن المعتزلةِ وغيرِهم، وقالوا: إنَّه لا تأثيرَ للسِّحرِ البَتَّةَ؛ لا في مرَضٍ ولا قَتْلٍ، ولا حَلٍّ ولا عَقْدٍ! قالوا: وإنَّما ذلك تخيُّلٌ لأعيُنِ النَّاظِرينَ، لا حقيقةَ له سِوى ذلك! وهذا خلافُ ما تواترتْ به الآثارُ عن الصَّحابةِ والسَّلَفِ، واتَّفَقَ عليه الفُقَهاءُ، وأهلُ التَّفسيرِ والحديثِ، وأربابُ القلوبِ مِن أهلِ التَّصوُّفِ، وما يَعْرِفُه عامَّةُ العقلاءِ، والسِّحْرُ الَّذي يُؤَثِّرُ مَرَضًا وثِقلًا، وحَلًّا وعقدًا، وحُبًّا وبُغضًا، وتَزيينًا وغيرَ ذلك مِن الآثارِ: موجودٌ تَعرِفُه عامَّةُ النَّاسِ، وكثيرٌ منهم قد عَلِمَه ذَوقًا بما أُصيبَ به منه، وقَولُه تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴾ دليلٌ على أنَّ هذا النَّفْث يَضُرُّ المسحورَ في حالِ غَيبتِه عنه، ولو كان الضَّرَرُ لا يَحصُلُ إلَّا بمُباشَرةِ البَدَنِ ظاهِرًا -كما

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١٠، ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٧٣).

يقولُه هؤلاء- لم يكُنْ للنَّفْثِ ولا للنَّفَّاثاتِ شَرٌّ يُستعاذُ منه، وأيضًا فإذا جاز على السَّاحرِ أنْ يَسْحَرَ جميعَ أعيُنِ النَّاظِرينَ مع كثرتِهم حتَّى يَرَوُا الشَّيءَ بخِلافِ ما هو به، مع أنَّ هذا تَغَيُّرٌ في إحساسِهم، فما الَّذي يُحِيلُ تأثيرَه في تغييرِ بعضِ أعراضِهم وقُواهم وطِباعِهم؟ وما الفَرقُ بيْن التَّغييرِ الواقِعِ في الرُّؤيةِ، والتَّغييرِ في صفةٍ أُخرى مِن صفاتِ النَّفْسِ والبَدَنِ؟ فإذا غَيَّرَ إحساسَه حتَّى صار يرى السَّاكِنَ متحَرِّكًا، والمتَّصِلَ مُنفَصِلًا، والميِّتَ حَيًّا، فما المُحيلُ لأن يغَيِّرَ صِفاتِ نَفْسِه حتَّى يجعلَ المحبوبَ إليه بغيضًا، والبغيضَ محبوبًا، وغيرِ ذلك مِن التَّأثيراتِ[1]؟! فالسِّحرُ له حقيقةٌ يُخشى مِن ضَرَرِه، ويُستعاذُ باللهِ منه ومِن أهْلِه[2].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ سؤالٌ: أنَّ السِّحْرَ يكونُ مِن الذُّكورِ والإناثِ، فلِمَ خَصَّ الاستعاذةَ مِن الإناثِ دونَ الذُّكورِ؟

الجوابُ: أنَّ النَّفَّاثاتِ هنا هُنَّ الأرواحُ والأنفُسُ النَّفَّاثاتُ، لا النِّساءُ النَّفَّاثاتُ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لأنَّ تأثيرَ السِّحْرِ إنَّما هو مِن جهةِ الأنْفُسِ الخَبيثةِ، والأرواحِ الشِّرِّيرةِ، وسُلطانُه إنَّما يَظْهَرُ منها؛ فلهذا ذُكِرَتِ النَّفَّاثاتُ هنا بلَفظِ التَّأنيثِ دونَ التَّذكيرِ[3]. أو: أنَّه جيءَ بصِفةِ المؤنَّثِ؛ لأنَّ الغالِبَ عندَ العَرَبِ أن يتعاطى السِّحرَ النِّساءُ؛ لأنَّ نِساءَهم لا شُغلَ لهُنَّ بعدَ تهيئةِ لَوازمِ الطَّعامِ والماءِ والنَّظافةِ؛ فلذلك يَكثُرُ انكِبابُهنَّ على مِثْلِ هاته السَّفاسِفِ مِن السِّحرِ والتَّكَهُّنِ ونحوِ ذلك، فالأوهامُ الباطِلةُ تتفَشَّى بيْنَهنَّ[4].

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ وعَطاءٌ:

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).
(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٨). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤٤٨).

(مِن نَفْسِ ابنِ آدَمَ وعَينِه)؛ ففيه أنَّ العَينَ حَقٌّ(١).

١٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ الحاسِدُ هو الَّذي يحِبُّ زوالَ النِّعمةِ عن المحسودِ، فيَسعى في زَوالِها بما يَقدِرُ عليه مِنَ الأسبابِ؛ فاحتِيجَ إلى الاستِعاذةِ باللهِ مِن شَرِّه، وإبطالِ كَيْدِه، فهذه السُّورةُ تضَمَّنَت الاستعاذةَ من جميعِ أنواعِ الشُّرورِ عُمومًا وخُصوصًا(٢).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ جاء في السُّورةِ ذِكْرُ الحاسِدِ دونَ العائِنِ؛ لأنَّه أعمُّ، فكلُّ عائنٍ حاسِدٌ ولا بُدَّ، وليس كلُّ حاسدٍ عائنًا، فإذا استعاذ مِن شَرِّ الحَسَدِ دَخَلَ فيه العَينُ، وهذا مِن شُمولِ القُرآنِ الكريمِ وإعجازِه وبلاغتِه(٣).

١٨- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ قال بَعضُ الحُكَماءِ: بارَزَ الحاسِدُ رَبَّه مِن خمسةِ أوجُهٍ:

أحَدُها: أنَّه أبغَضَ كُلَّ نِعمةٍ ظهَرَت على غَيرِه.

وثانيها: أنَّه ساخِطٌ لقِسمةِ رَبِّه، كأنَّه يقولُ: لِمَ قَسَمْتَ هذه القِسمةَ؟

وثالثُها: أنَّه ضادَّ فِعلَ اللهِ، أي: أنَّ فَضلَ اللهِ يُؤتيه مَن يشاءُ، وهو يَبخَلُ بفَضلِ اللهِ.

ورابِعُها: أنَّه خَذَلَ أولياءَ اللهِ، أو يُريدُ خِذْلانَهم وزَوالَ النِّعمةِ عنهم.

وخامِسُها: أنَّه أعان عَدُوَّه إبليسَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٦٠).

وقد قيل: ليس شيءٌ مِن الشرِّ أضرُّ مِن الحسدِ؛ لأنَّه يصِلُ إلى الحاسدِ خمسُ عقوباتٍ، قبلَ أنْ يصِلَ إلى المحسودِ مكروهٌ:

أولُها: غمٌّ لا ينقطِعُ. **والثاني**: مصيبةٌ لا يؤجرُ عليها. **والثالثُ**: مذمَّةٌ لا يُحمدُ بها. **والرابعُ**: يُسخِطُ عليه الربَّ. **والخامسُ**: تُغلَقُ عليه أبوابُ التَّوفيقِ(١).

١٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ شَرُّ الحاسِدِ ومَضَرَّتُه إنَّما تَقَعُ إذا أمضى حَسَدَه، فحينَئذٍ يَضُرُّ بقَولِه أو بفِعْلِه أو بإصابتِه بالعَينِ؛ فإنَّ عينَ الحَسُودِ قاتِلةٌ، وأمَّا إذا لم يُمْضِ حَسَدَه ولم يتصَرَّفْ بمُقْتضاه فشَرُّه ضَعيفٌ(٢). فالحاسِدُ لا يَضُرُّ إلَّا إذا ظَهَرَ حَسَدُه بفِعلٍ أو قَولٍ، وذلك بأن يحمِلَه الحَسَدُ على إيقاعِ الشَّرِّ بالمحسودِ، فيَتبعَ مَساوِيَه، ويَطلُبَ عَثَراتِه، والحسَدُ أوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللهُ به في السَّماءِ، وأوَّلُ ذَنبٍ عُصِيَ به في الأرضِ؛ فحَسَد إبليسُ آدَمَ، وحَسَد قابيلُ هابيلَ(٣).

٢٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أصلُ الحَسَدِ هو بُغضُ نِعمةِ اللهِ على المحسودِ، وتمَنِّي زوالِها؛ فالحاسِدُ عَدُوُّ النِّعَمِ، وهذا الشَّرُّ هو مِن نفْسِ الحاسِدِ وطَبْعِها، ليس هو شيئًا اكتسَبَه مِن غَيرِها، بل هو مِن خُبثِها وشَرِّها، بخِلافِ السِّحرِ؛ فإنَّه إنَّما يكونُ باكتسابِ أمورٍ أُخرى، واستِعانةٍ بالأرواحِ الشَّيطانيَّةِ؛ فلهذا -واللهُ أعلَمُ- قَرَن في السُّورةِ بيْن شَرِّ الحاسِدِ وشَرِّ السَّاحِرِ؛ لأنَّ الاستعاذةَ مِن شَرِّ هذينِ تَعُمُّ كُلَّ شَرٍّ يأتي مِن شياطينِ الإنسِ والجِنِّ؛ فالحسَدُ مِن شياطينِ الإنسِ والجِنِّ، والسِّحرُ مِنَ النَّوعَينِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تنبيه الغافلين)) للسمرقندي (ص: ١٧٧، ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣٣).

٢١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ يَعُمُّ الحاسِدَ مِن الجِنِّ والإنسِ؛ فإنَّ الشَّيطانَ وحِزبَه يَحسُدونَ المؤمِنينَ على ما آتاهم اللهُ تعالى من فَضْلِه، كما حَسَد إبليسُ أبانا آدَمَ، وهو عَدُوٌّ لذُرِّيَّته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، ولكِنَّ الوَسواسَ أخَصُّ بشياطينِ الجِنِّ، والحَسَدَ أخَصُّ بشياطينِ الإنسِ، والوَسواسُ يَعُمُّهما، والحَسَدُ يَعُمُّهما أيضًا، فكِلا الشَّيطانينِ حاسِدٌ مُوسوِسٌ؛ فالاستعاذةُ من شَرِّ الحاسِدِ تتناوَلُهما جميعًا؛ فقد اشتمَلَت السُّورةُ على الاستعاذةِ مِن كُلِّ شَرٍّ في العالَمِ(١).

٢٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ الحامِلُ على الحسَدِ أصْلُه أمْرانِ:

الأوَّلُ: ازدراءُ المحسودِ.

والثَّاني: إعجابُ الحاسِدِ بنَفْسِه(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾

- الخِطابُ بلَفظِ ﴿قُلْ﴾ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وإذ قد كان قُرآنًا كان خِطابُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم به يَشمَلُ الأُمَّةَ حيث لا دَليلَ على تَخصيصِه به؛ فلذلك أمَرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بَعضَ أصحابِه بالتَّعوُّذِ بهذه السُّورةِ، فتكونُ صِيغةُ الأمرِ المُوجَّهةُ إلى المُخاطَبِ مُستعمَلةً في مَعنيَي الخِطابِ مِن تَوجُّهِه إلى مُعيَّنٍ -وهو الأصلُ-، ومِن إرادةِ كلِّ مَن يَصِحُّ خِطابُه، وهو طَريقٌ مِن طُرقِ الخِطابِ تدُلُّ على قَصْدِه القرائنُ، فيكونُ من

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٦٥).

استعمالِ المُشتركِ في مَعْنيَيه، واستعمالُ صِيغةِ التَّكلُّمِ في فِعلِ ﴿أَعُوذُ﴾ يَتبَعُ ما يُرادُ بصِيغةِ الخِطابِ في فِعلِ ﴿قُلْ﴾؛ فهو مَأمورٌ به لكلِّ مَن يُريدُ التَّعوُّذَ بها(١).

- ولَفظُ الرَّبِّ هنا أوقَعُ مِن سائرِ أسمائِه تعالَى؛ لأنَّ الإعاذةَ مِن المَضارِّ تَربيةٌ(٢).

- وفي تَعليقِ العِياذِ باسمِ الرَّبِّ المُضافِ إلى الفَلَقِ المُنبِئِ عن النُّورِ عَقيبَ الظُّلمةِ، والسَّعةِ بعْدَ الضِّيقِ، والفَتْقِ بعْدَ الرَّتْقِ؛ عِدَةٌ كَريمةٌ بإعاذةِ العائذِ ممَّا يَعوذُ منْه، وإنجائِه منْه، وتَقويةٌ لرَجائِه بتَذكيرِ بَعضِ نَظائرِه، ومَزيدُ تَرغيبٍ له في الجِدِّ والاعتناءِ بقَرْعِ بابِ الالتِجاءِ إليه تعالَى(٣).

- ورَبُّ الفَلَقِ: هو اللهُ سُبحانَه؛ لأنَّه الَّذي خَلَقَ أسبابَ ظُهورِ الصُّبحِ، وتَخصيصُ وَصْفِ اللهِ بأنَّه ربُّ الفَلَقِ دونَ وصْفٍ آخَرَ؛ لأنَّ شرًّا كثيرًا يَحدُثُ في اللَّيلِ مِن لُصوصٍ، وسِباعٍ، وذَواتِ سُمومٍ، وتَعذُّرِ السَّيرِ، وعُسرِ النَّجدةِ، وبُعدِ الاستِغاثةِ، واشتِدادِ آلامِ المَرْضى، حتَّى ظنَّ بَعضُ أهلِ الضَّلالةِ اللَّيلَ إلهَ الشَّرِّ، والمعْنى: أعوذُ بفالِقِ الصُّبحِ مَنجاةً مِن شُرورِ اللَّيلِ؛ فإنَّه قادرٌ على أنْ يُنجِيَني في اللَّيلِ مِن الشَّرِّ كما أنْجى أهلَ الأرضِ كلَّهم بأنْ خَلَقَ لهم الصُّبحَ، فوُصِفَ اللهُ بالصِّفةِ الَّتي فيها تَمهيدٌ للإجابةِ(٤).

- وكُرِّرَ ﴿مِن شَرِّ﴾ أربعَ مرَّاتٍ؛ لأنَّ شرَّ كلٍّ منهما غيرُ شرِّ البَقيَّةِ عنها(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٥، ٦٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٦).

(٥) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) =

أو ذُكِرَت كَلمةُ ﴿ مِن شَرِّ ﴾ أربعَ مرَّاتٍ مع أنَّ حرْفَ العطفِ مُغْنٍ عن إعادةِ العامِلِ؛ قصْدًا لتأكيدِ الدُّعاءِ؛ تَعرُّضًا للإجابةِ، وهذا مِن الابتهالِ، فيُناسِبُه الإطنابُ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ فيه تَخصيصٌ لبَعضِ الشُّرورِ بالذِّكرِ مع اندراجِه فيما قبْلَه؛ للحاجةِ الماسَّةِ إلى الاستعاذةِ منه؛ لكَثرةِ وُقوعِه، ولأنَّها الأسبابُ القَريبةُ للمَضرَّةِ، ولأنَّ تَعيينَ المُستعاذِ منه أدَلُّ على الاعتناءِ بالاستعاذةِ، وأدْعَى إلى الإعاذةِ[٢]. أو فائدةُ التَّخصيصِ تَعظيمُ شرِّها، ودفْعُ تَوهُّمِ أنَّه لا شرَّ لها؛ لخَفائِه فيها، وأنَّه يَلحَقُ الإنسانَ مِن حيث لا يَعلَمُ، كأنَّما يُغتالُ به[٣].

- والغاسِقُ: وَصْفُ اللَّيلِ إذا اشتَدَّت ظُلمتُه، يُقالُ: غَسَقَ اللَّيلُ يَغسِقُ؛ إذا أظْلَمَ؛ فالغاسقُ صِفةٌ لمَوصوفٍ مَحذوفٍ؛ لظُهورِه مِن معْنى وَصْفِه[٤].

- وإضافةُ الشَّرِّ إلى اللَّيلِ؛ لمُلابَستِه له بحُدوثِه فيه. وتَنكيرُ ﴿غَاسِقٍ ﴾؛ لعَدَمِ شُمولِ الشَّرِّ لجَميعِ أفرادِه، ولا لكُلِّ أجزائِه. أو تَنكيرُ ﴿غَاسِقٍ ﴾ للجِنسِ؛ لأنَّ المرادَ جِنسُ اللَّيلِ، وتَنكيرُ ﴿غَاسِقٍ ﴾ في مَقامِ الدُّعاءِ يُرادُ به العُمومُ؛ لأنَّ مَقامَ الدُّعاءِ يُناسِبُ التَّعميمَ[٥].

= للفيروزابادي (١/ ٥٥٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٣).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن =

- وتَقييدُ ذلك بظَرْفِ ﴿إِذَا وَقَبَ﴾، أي: إذا اشتَدَّت ظُلمتُه؛ لأنَّ ذلك وقْتٌ يَتحيَّنُه الشُّطَّارُ(١) وأصحابُ الدَّعارةِ والعَيثِ؛ لتَحقُّقِ غَلَبةِ الغفْلةِ والنَّومِ على النَّاسِ فيه، فحُدوثُ الشَّرِّ فيه أكثرُ، والتَّحرُّزُ منه أصعَبُ وأعسَرُ؛ فخُصَّ بالتَّعوُّذِ أشدُّ أوقاتِ اللَّيلِ توقُّعًا لحُصولِ المَكروهِ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾

- إنَّما جُعِلَت الاستعاذةُ مِن النَّفَّاثاتِ لا مِن النَّفْثِ، فلم يُقَلْ: إذا نَفَثْنَ في العُقَدِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ نَفْثَهنَّ في العُقَدِ ليس بشَيءٍ يَجلِبُ ضرًّا بذاتِه، وإنَّما يَجلِبُ الضُّرَّ النَّافثاتُ، وهنَّ مُتعاطياتُ السِّحرِ؛ لأنَّ السَّاحرَ يَحرِصُ على ألَّا يَترُكَ شَيئًا ممَّا يُحقِّقُ له ما يَعمَلُه مِن أجْلِه إلَّا احتالَ على إيصالِه إليه(٣).

- وعرَّفَ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ ونكَّر ما قبْلَها وما بعْدَها؛ لأنَّ كلَّ نفَّاثةٍ لها شرٌّ، وليس كلُّ غاسقٍ وحاسدٍ له شرٌّ(٤)، أو تَعريفُ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وهو في معْنى النَّكرةِ؛ فلا تَفاوُتَ في المعْنى بيْنَه وبيْن قولِه: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ [الفلق: ٣] وقولِه: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ﴾ [الفلق: ٥]، وإنَّما أُوثِرَ لَفظُ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ بالتَّعريفِ؛ لأنَّ التَّعريفَ في مِثلِه للإشارةِ إلى أنَّه حَقيقةٌ مَعلومةٌ للسَّامعِ، وتَعريفُ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ باللَّامِ إشارةٌ إلى أنَّهنَّ مَعهوداتٌ

= عاشور)) (٣٠/ ٦٢٧).

(١) الشُّطَّارُ: جمعُ الشَّاطِرِ، وهو مَن أعيا أهْلَه ومؤدِّبَه خُبثًا ومَكرًا. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٢/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٧، ٦٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٣، ٦٣٤).

بيْن العرَبِ(١).

أو التَّعريفُ إمَّا للعهدِ، أوْ للإيذانِ بشُمولِ الشَّرِّ لجَميعِ أفرادِهِنَّ، وتَمَحُّضِهنَّ فيه(٢).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

- تَخصيصُ ذِكرِ الحسَدِ؛ لأنَّه العُمدةُ في إضرارِ الإنسانِ، بلِ الحيوانِ وغَيرِه(٣).

- وتَقييدُ الاستِعاذةِ من شرِّ الحاسدِ بوَقتِ ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؛ لأنَّه حِينَئذٍ يَندفِعُ إلى عمَلِ الشَّرِّ بالمَحسودِ حِينَ يَجيشُ الحسَدُ في نفْسِه، فتَتحرَّكُ له الحِيَلُ والنِّيَّاتُ لإلحاقِ الضُّرِّ به، فلا يَعودُ ضَررٌ منه قبْلَ ذلك إلى المحسودِ، بل يُخَصُّ به؛ لاغتِمامِه بسُرورِه(٤). وقيل: المرادُ مِن الحسَدِ في قَولِه: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ حسَدٌ خاصٌّ، وهو البالِغُ أشَدَّ حَقيقتِه؛ فلا إشكالَ في تَقييدِ الحسَدِ بـ﴿حَسَدَ﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٠).

قال ابن القيِّم: (وتأمَّلْ تقييدَه سُبحانَه شرَّ الحاسِدِ بقولِه: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؛ لأنَّ الرَّجُلَ قد يكونُ عندَه حسَدٌ ولكنْ يُخْفيه، ولا يُرَتِّبُ عليه أذًى بوَجْهٍ ما؛ لا بقلبِه ولا بلِسانِه ولا بيَدِه، بل يَجِدُ في قلبِه شيئًا مِن ذلك ولا يُعامِلُ أخاه إلَّا بما يُحِبُّ اللهُ، فهذا لا يكادُ يَخلو منه أحدٌ إلَّا مَن عصَمَه اللهُ. وقيل للحسَنِ البصريِّ: أيَحْسُدُ المؤمنُ؟ قال: ما أنساك إخوةَ يوسُفَ! لكنَّ الفرقَ بيْن القوَّةِ الَّتي في قلبِه مِن ذلك وهو لا يُطيعُها، ولا يأْتَمِرُ بها، بل يَعصيها طاعةً للهِ، وخَوفًا وحَياءً منه، وإجلالًا له أن يَكرَهَ نِعَمَه على عِبادِه، فيَرى ذلك مُخالَفةً للهِ، وبُغضًا لِما يُحِبُّ اللهُ، ومحَبَّةً لِما يُبغِضُه، فهو يجاهِدُ نفْسَه على دفْعِ ذلك، ويُلزِمُها بالدُّعاءِ للمحسودِ، وتمَنِّي زيادةِ الخَيرِ =

- وفي قَولِه: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق: ٣-٥] مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قُيِّدَ بالظَّرفِ في قَولِه تعالَى: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾، وفي قَولِه: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾، فلم تَقَعِ الاستعاذةُ من شرِّ هَذينِ إلَّا بتَقييدِ الوُقوبِ في الغاسقِ، ووُقوعِ الحسَدِ مِن الحاسدِ، وأُطلِقَ حكْمُ الاستعاذةِ من شرِّ النَّفَّاثاتِ -وهُنَّ السَّاحراتُ- ولم يُقَلْ: (إذا نَفَثْنَ) أو (سَحَرْنَ)، فيُقَيَّدَ كما قُيِّدَ ما قبْلُ وما بعْدُ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ قولَه سُبحانه في سُورةِ (طه): ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٩] إطلاقٌ حاكمٌ بتَمادِيه وتَمادي حُكمِه على تلك الصِّفةِ المذمومةِ، فلم يكُنِ التَّقييدُ في آيةِ الفلَقِ لو قِيلَ: (إذا كذا) ليُطابِقَ ما وَرَدَ في سُورةِ (طه) مِن الإطلاقِ، والسِّحرُ شَرٌّ مُطلَقٌ؛ فورَدَ التَّعوُّذُ منه مُطلَقًا. أمَّا الغاسقُ فإنَّه اللَّيلُ إذا أظلَمَ، وليس الشَّرُّ منه بما هو لَيلٌ مُظلِمٌ، إنَّما هو سِترٌ لِذَوي الشَّرِّ؛ لاحتِجابِهم بظُلمتِه عن أعيُنِ النَّاسِ، فيُوقِعون فيه شَرَّهم، فالشَّرُّ فيه لا منه، ألَا ترى أنَّه لأهلِ الخيرِ رَحمةٌ ونِعمةٌ، وكذلك لكلِّ مَن لا يَترصَّدُه لشَرٍّ، وتَردَّدَ ذِكرُ اللَّيلِ في غيرِ ما آيةٍ في كِتابِ اللهِ مَعدودًا في نِعَمِ اللهِ تعالَى على عِبادِه، وهو شَقيقُ النَّهارِ في تلك. ثمَّ إنَّه مِن حيثُ هو لِباسٌ وسِترٌ عن الأعيُنِ، فيُمكِنُ فيه لأهلِ الشَّرِّ ما لا يُمكِنُهم في نَهارِهم، فيَسْتَحكِمُ فيه شَرُّهم عندَ امتدادِ ظُلْمتِه؛ لأمْنِهم مِن النَّاسِ في ذلك، فتبيَّنَ أنَّه ليس شَرًّا بما هو لَيلٌ، إنَّما الشَّرُّ فيه وعندَه، لا به بما هو لَيلٌ ولا منه، ولا يَتمكَّنُ مَطلوبُ ذوي الشَّرِّ إلَّا في ظُلمتِه، فنِسبةُ الشَّرِّ إليه بهذا الوجْهِ، والإضافةُ في لِسانِ العرَبِ تكونُ بأدْنى مُلابَسةٍ.

= له، بخِلافِ ما إذا حقَّق ذلك وحسَدَ، ورتَّب على حسَدِه مُقتضاه مِن الأذى بالقلبِ واللِّسانِ والجَوارحِ؛ فهذا الحسدُ المذمومُ هو كلُّه حسَدُ تمنِّي الزَّوالِ. ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٣٦).

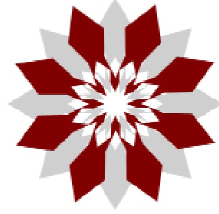
وأمَّا الحاسدُ فإنَّ القائمَ بنفْسِه مِن هذه الصِّفةِ قبْلَ أنْ يُمضِيَ يُمكِنُ أنْ يُنفِذَها حَسَدًا، ويُمكِنُ أنْ يُنفِذَها غِبطةً، فإذنْ لا يَتبيَّنُ كَونُه حسَدًا إلَّا بعْدَ أنْ يُمضِيَ ويُوقِعَ، ألَا تَرى اتِّحادَ ما يَقومُ بالنَّفْسِ أوَّلًا مِن هذه الصِّفةِ. بَيانُ ذلك أنَّ كلَّ عاقلٍ -بما هو عاقلٌ- إذا رأى نِعمةً على غيرِه مِن دِينٍ أو دُنيا، أعجَبَتْه وتَمنَّاها لنفْسِه، فإنْ أراد زَوالَها عمَّن ظَهَرَت عليه، وانفرادَه هو بها؛ فهذا هو الحسَدُ المذمومُ، وإنْ تَمنَّى مِثلَها أو أكثَرَ، وبَقاءَ تلك على صاحبِها؛ فهذه هي الغِبطةُ، وهي مِن صِفاتِ المؤمنينَ. فقد وضَحَ أنَّه إنَّما يكونُ حَسَدًا ويُوصَفُ بتلك الصِّفةِ عندَ ظُهورِه ووُقوعِه على الصِّفةِ المذمومةِ، وأمَّا قبْلَ ذلك فلا شَرَّ فيه ولا هو شرٌّ، فلمَّا كان حالُ الحسَدِ على ما ذُكِرَ، وحالُ الغاسقِ على ما تَقدَّم؛ لذلك وَقَعَ التَّقييدُ في الاستعاذةِ من شَرِّهما بالظَّرفِ فقيل: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ و﴿إِذَا حَسَدَ﴾، ولم يقَعْ تَقييدٌ في الاستعاذةِ مِن شرِّ السَّحَرةِ، وجاء كلٌّ مِن ذلك على ما يُناسِبُ[1].

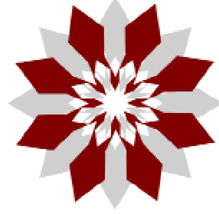


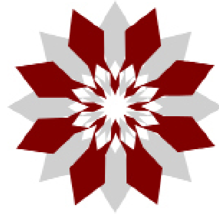
(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٥١٧، ٥١٨).

تَفْسِيرُ

سُورَةِ النَّاسِ







سورةُ النَّاسِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (النَّاسِ)[١].

وسُمِّيت أيضًا بسورةِ ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾؛ فعن عُقْبةَ بن عامرٍ رضيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ألم تَرَ آياتٍ أُنزِلَتِ اللَّيلةَ لم يُرَ مِثلُهنَّ قَطُّ، ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾))[٢].

وتُسمَّى بالمُعَوِّذَتينِ هي وسُورةُ (الفَلَقِ)، وبالمُعَوِّذاتِ هي وسُورةُ (الفَلَقِ) و(الإخلاصِ)؛ فعن عُقْبَةَ بن عامرٍ رضيَ الله عنه، قال: قال لي رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أُنْزِل، أو أُنزِلَتْ علَيَّ آياتٌ لم يُرَ مِثْلُهنَّ قَطُّ، المُعَوِّذتَينِ[٣]))[٤].

وعنه أيضًا قال: ((أمَرَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ أقرَأَ بالمُعوِّذاتِ في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ))[٥].

فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها:

١- تستحبُّ قِراءَتُها في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ:

عن عُقْبةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، قال: ((أمَرَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ أقرَأَ بالمُعوِّذاتِ في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ))[٦].

---

(١) سُمِّيت هذه السورةُ بذلك؛ لتَكرارِ لَفظِ النَّاسِ فيها خَمْسَ مرَّاتٍ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٧). وتقدَّم (ص: ٤٣٧) أنَّها تسمَّى هي وسورةُ الفلقِ بالمقشقشتينِ.

(٢) أخرجه مسلم (٨١٤/ ٢٦٤).

(٣) هو منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ: أي: أعني المعوِّذَتينِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ٩٦).

(٤) أخرجه مسلم (٨١٤/ ٢٦٥).

(٥) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٠٩-٤١٠).

(٦) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٠٩-٤١٠).

٢- ما أُنزِلَ مِثلُ المُعَوِّذاتِ في التَّوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في الفُرقانِ:

عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: ((... لَقِيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال لي: يا عُقْبةُ بنَ عامرٍ، ألَا أُعَلِّمُك سوَرًا ما أُنزِلَتْ في التَّوراةِ، ولا في الزَّبورِ، ولا في الإنجيلِ، ولا في الفُرقانِ مِثلُهُنَّ؟ لا يأتِيَنَّ عليك لَيلةٌ إلَّا قرأْتَهُنَّ فيها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. قال عُقْبةُ: فما أَتَتْ علَيَّ لَيلةٌ إلَّا قرأْتُهُنَّ فيها، وحُقَّ لي ألَّا أَدَعَهُنَّ وقد أَمَرَني بهِنَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[١].

٣- مَن قَرَأَ المُعَوِّذاتِ حينَ يُمسِي وحينَ يُصبِحُ ثلاثًا تَكفِيه مِن كلِّ شَيءٍ:

عن عبدِ الله بنِ خُبَيْبٍ رضيَ الله عنه، قال: ((خرَجْنا في لَيلةٍ مَطِيرةٍ وظُلْمةٍ شديدةٍ نَطلُبُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُصَلِّي لنا، فأدرَكْتُه فقال: قُلْ. فلمْ أَقُلْ شيئًا، ثمَّ قال: قُلْ. فلمْ أَقُلْ شيئًا، ثمَّ قال: قُلْ. قلتُ: ما أقولُ؟ قال: قُلْ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمُعَوِّذَتَينِ حينَ تُمْسي وحينَ تُصبِحُ ثلاثَ مرَّاتٍ تَكفيكَ مِن كلِّ شَيءٍ))[٢].

٤- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا اشتَكَى رقَى نفْسَه بالمُعَوِّذاتِ:

عن عائشةَ رضيَ الله عنها: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا اشْتَكى يَقرأُ على نفْسِه بالمُعَوِّذاتِ ويَنْفُثُ، فلمَّا اشْتَدَّ وَجَعُه كنتُ أقرَأُ عليه وأمْسَحُ بيَدِه؛ رجاءَ بَرَكَتِها))[٣].

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٧).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢).

٥- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعَوِّذُ نفْسَه بالمُعَوِّذاتِ إذا أوَى إلى فِراشِه:

عن عائشةَ رضيَ الله عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا أوَى إلى فِراشِه كُلَّ لَيلةٍ جَمَع كَفَّيْه، ثُمَّ نَفَث فيهما فقَرَأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمسَحُ بهما ما اسْتَطاع مِن جَسَدِه، يَبْدَأُ بهما على رَأْسِه ووَجْهِه وما أقْبَلَ مِن جَسَدِه، يَفعَلُ ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ))(١).

٦- لم يُرَ مِثلُ آياتِ سورتَيِ الفَلَقِ والنَّاسِ فيما أُنزِل على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

عن عُقْبةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ألم تَرَ آياتٍ أُنزِلتِ اللَّيلةَ لم يُرَ مِثلُهنَّ قَطُّ، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾))(٢).

٧- أُمِر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقِراءتِها مَعَ سورةِ الفَلَقِ لَمَّا سُحِر:

عن زَيدِ بنِ أرْقَمَ رضيَ الله عنه، قال: ((سَحَرَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجُلٌ مِن اليَهودِ، فاشْتَكى، فأتاهُ جِبريلُ -عليه السَّلامُ- بالمُعوِّذَتيْنِ، وقال: إنَّ رجُلًا مِن اليَهودِ سَحَرَك، والسِّحرُ في بِئرِ فُلانٍ، فأرسَلَ عليًّا، فجاءَ به، فأمَرَه أنْ يَحُلَّ العُقَدَ، ويَقرَأَ آيةً، فجعَلَ يَقرأُ ويَحُلُّ حتَّى قام النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كأنَّما أُنشِطَ مِن عِقالٍ، فما ذكَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لذلك اليَهوديِّ شيئًا ممَّا صنَعَ، ولا أراهُ في وَجْهِه))(٣).

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٧).

(٢) أخرجه مسلم (٨١٤).

(٣) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٩٦).

بَيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ النَّاسِ مُختلَفٌ فيها؛ فقيلَ: مكِّيَّةٌ، وقيلَ: مَدَنيَّةٌ[١].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

الاستِعاذَةُ مِن شَرِّ ما يُوَسْوِسُ في الصُّدورِ[٢].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

الاستِعاذَةُ باللهِ رَبِّ النَّاسِ ومَلِكِهم وإلَهِهم مِن شَرِّ الشَّيطانِ، والَّذي مِن صِفاتِه أنَّه وَسْواسٌ خَنَّاسٌ، يُوَسْوِسُ في صُدورِ النَّاسِ، وأنَّه قد يكونُ مِن الجِنِّ ويكونُ مِن الإنسِ.

(١) ممَّن اختار أنَّها مكِّيَّةٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، والزمخشري، وابنُ جُزَي، وابن عادل، والشربيني، وأبو السعود، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٩٤١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٨١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٥٧٦)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٦١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣١).
وممَّن اختار أنَّها مَدَنيَّةٌ: الماتُريديُّ، والثعلبيُّ، ومكِّيٌّ، والسمعاني، والبغوي، والرازي، والخازن، وابن كثير، والعُلَيمي، والفيروزابادي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٦٥٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٤١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٥١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٧٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٦٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥١٤).

الآيات (١-٦)

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾: أي: الشَّيطانِ الَّذي يَخنِسُ -أي: يَرجِعُ ويَتأخَّرُ ويَستَتِرُ- إذا ذُكِرَ اللهُ عزَّ وجَلَّ، وأصلُ (خنس): يدُلُّ على استِخفاءٍ وتستُّرٍ(١).

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه: قُلْ -يا محمَّدُ- متعَوِّذًا باللهِ وَحْدَه: ألتَجِئُ وأستجيرُ برَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، مَعبودِ النَّاسِ الحَقِّ؛ من شَرِّ الشَّيطانِ الَّذي يُوسوِسُ بالشَّرِّ ويَرجِعُ عن العَبدِ إذا ذكَرَ رَبَّه، الَّذي يُلقي وَساوِسَه في صُدورِ النَّاسِ، مِن شَياطينِ الجِنِّ وشياطينِ الإنسِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- متعَوِّذًا باللهِ وَحْدَه: ألتَجِئُ وأستجيرُ برَبِّ النَّاسِ الَّذي يُدَبِّرُ أمورَهم، ويُصلِحُ أحوالَهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨٣).

وذكر ابنُ القيِّم أنَّ الخَنَّاسَ فَعَّالٌ مِن خَنَسَ يَخنِسُ، وأنَّه مأخوذٌ من معنيَين؛ الأوَّلُ: مِن التَّواري والاختِفاءِ بعْدَ ظُهورٍ، والثَّاني: التَّأخُّرُ والرُّجوعُ إلى وراء. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥١٧)، ((تفسير =

﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ ﴾.

أي: مَلِكِ جَميعِ النَّاسِ، فهُم تحتَ سُلطانِه وتدبيرِه، وقُدرتِه وقَهْرِه، ويَنفُذُ فيهم أمْرُه وقضاؤُه دونَ غيرِه[١].

﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ ﴾.

أي: مَعبودِ النَّاسِ الحَقِّ، المُستَحِقِّ للعبادةِ وَحْدَه، وكُلُّ مَعبودٍ سِواه باطِلٌ[٢].

﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أكمَلَ الاستِعاذةَ مِن جميعِ وُجوهِها الَّتي مَدارُها الإحسانُ أو العَظَمةُ، أو القَهرُ أو الإذعانُ والتَّذَلُّلُ؛ ذكَرَ المُستعاذَ منه، فقال[٣]:

﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ٤ ﴾.

أي: ألتَجِئُ وأستجيرُ برَبِّ النَّاسِ مِن شَرِّ الشَّيطانِ الَّذي يُوسوِسُ بالشَّرِّ، والَّذي يَذهَبُ عن العبدِ ويتأخَّرُ ويختَفي إذا ذكَرَ رَبَّه[٤].

= الشوكاني)) (٥/ ٦٤٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٤٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٥٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥١٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٥٣-٧٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٥).

قال القرطبي: (ووُصِف بالخنَّاسِ؛ لأنَّه كثيرُ الاختفاءِ؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴾ =

كما قال تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠ - ٢٠٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِنكم مِن أحَدٍ إلَّا وقد وُكِّلَ به قَرينُه مِنَ الجِنِّ. قالوا: وإيَّاك يا رسولَ اللهِ؟ قال:

= [التكوير: ١٥] يعني: النُّجومَ؛ لاختِفائِها بعْدَ ظُهورِها. وقيل: لأنَّه يَخنِسُ إذا ذكَر العبدُ اللهَ؛ أي: يتأخَّرُ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٦٢). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٧٨).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ معنى الخَنَّاسِ: الَّذي يَتأخَّرُ أو يُدبِرُ إذا ذكَرَ العَبدُ رَبَّه: السَّمْعانيُّ، والزمخشري، والنسفي، والخازن، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٧٠٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٥).

قال ابنُ القيِّم: (الخنَّاسُ مأخوذٌ مِن ... الاختفاءِ، والرُّجوعِ والتَّأخُّرِ؛ فإنَّ العبدَ إذا غفَل عن ذِكرِ اللهِ جَثَم على قَلْبِه الشَّيطانُ، وانبسَطَ عليه وبَذَر فيه أنواعَ الوَساوِسِ الَّتي هي أصلُ الذُّنوبِ كُلِّها، فإذا ذكَرَ العَبدُ رَبَّه واستعاذ به انخنَسَ وانقَبَض كما يَنخَنِسُ الشَّيءُ لِيَتوارى، وذلك الانخناسُ والانقباضُ هو أيضًا تجَمُّعٌ ورُجوعٌ وتأخُّرٌ عن القَلبِ إلى خارجٍ، فهو تأخُّرٌ ورُجوعٌ معه اختِفاءٌ، وخَنَس وانخنَسَ يدُلُّ على الأمْرَينِ معًا). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٥٥، ٢٥٦).

وقال ابن عاشور: (والخنسُ والخنوسُ: الاختفاءُ. والشَّيطانُ يُلقَّبُ بـ «الخَنَّاسِ»؛ لأنَّه يَتَّصِلُ بعقلِ الإنسانِ وعَزمِه مِن غيرِ شُعورٍ منه، فكأنَّه خنَس فيه، وأهلُ المكرِ والكَيدِ والتَّختُّلِ خنَّاسونَ؛ لأنَّهم يتحَيَّنونَ غَفَلاتِ النَّاسِ، ويَتسترونَ بأنواعِ الحِيَلِ؛ لكيلا يَشعُرَ النَّاسُ بهم...، ولأنَّ خواطرَ الشَّرِّ يهمُّ بها صاحبُها فيُطرِقُ ويَترَدَّدُ ويَخافُ تَبِعاتِها، وتَزجُرُه النَّفْسُ اللَّوَّامةُ، أو يَزَعُه وازِعُ الدِّينِ أو الحياءِ أو خَوفِ العِقابِ عندَ اللهِ أو عندَ النَّاسِ، ثمَّ تُعاوِدُه حتَّى يَطمئنَّ لها ويَرتاضَ بها، فيُصمِّمَ على فعلِها فيَقترِفُها، فكأنَّ الشَّيطانَ يَبدو له ثمَّ يَختفي، ثمَّ يَبدو ثمَّ يَختفي حتَّى يَتمكَّنَ مِن تَدْليَتِه بغُرورٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٤).

وإيَّاي، إلَّا أنَّ اللهَ أعانَني عليه فأسْلَمَ[(١)]؛ فلا يأمُرُني إلَّا بخَيرٍ))[(٢)].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَعقِدُ الشَّيطانُ على قافيةِ رأسِ أحَدِكم إذا هو نامَ ثلاثَ عُقَدٍ، يَضرِبُ كُلَّ عُقدةٍ: عليك لَيلٌ طويلٌ؛ فارقُدْ! فإنِ استيقَظَ فذكَرَ اللهَ انحَلَّت عُقْدةٌ، فإنْ توَضَّأَ انحَلَّت عُقْدةٌ، فإن صلَّى انحَلَّت عُقْدةٌ؛ فأصبَحَ نَشيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وإلَّا أصبَحَ خَبيثَ النَّفسِ كَسْلانَ))[(٣)].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا نُودِيَ للصَّلاةِ أدبَرَ الشَّيطانُ وله ضُراطٌ؛ حتَّى لا يَسمَعَ التَّأذينَ، فإذا قُضِيَ النِّداءُ أقْبَلَ، حتَّى إذا ثُوِّبَ[(٤)] بالصَّلاةِ أدبَرَ، حتَّى إذا قُضِيَ التَّثويبُ أقبَلَ؛ حتَّى يَخطِرَ بيْنَ المرءِ ونَفْسِه، يقولُ: اذكُرْ كذا، اذكُرْ كذا، لِما لم يكُنْ يَذكُرُ، حتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لا يَدري كَمْ صَلَّى!))[(٥)].

﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر صِفةَ المُستعاذِ منه، ذكَرَ إبرازَه لصِفتِه بالفِعلِ، فقال[(٦)]:

---

(١) فأَسْلَم: برفعِ الميمِ وفَتحِها، وهُما روايتانِ مشهورتانِ، فمَن رفَع قال: معناه: أَسْلَمُ أنا من شَرِّه وفِتْنَتِه، ومَن فتَح قال: إنَّ القَرينَ أَسْلَمَ -مِن الإسلامِ- وصار مؤمنًا لايأمُرُني إلَّا بخَيرٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٥٧).

(٢) رواه مسلم (٢٨١٤).

(٣) رواه البخاريُّ (١١٤٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٧٧٦).

(٤) التَّثويبُ: المرادُ به: الإقامةُ؛ فإنَّه رُجوعٌ إلى النِّداءِ، يُقالُ: ثابَ الرَّجُلُ، إذا رجَع. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ٤٢٥).

(٥) رواه البخاريُّ (٦٠٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٣٨٩).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٣٣).

﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾.

أي: الَّذي يُلقي في صُدورِ النَّاسِ على وَجهِ الخَفاءِ والتَّكريرِ بالمعاني الباطِلةِ، فيُزَيِّنُ لهم الضَّلالَ، ويَحُثُّهم على الشَّرِّ، ويُثَبِّطُهم عن الخَيرِ[١].

﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الَّذي يُعَلِّمُ الإنسانَ الشَّرَّ تارةً مِنَ الجِنِّ، وأُخرَى مِنَ الإنسِ؛ قال مُبَيِّنًا للوَسواسِ؛ تحذيرًا مِن شياطينِ الإنسِ كالتَّحذيرِ مِن شياطينِ الجِنِّ، مُقَدِّمًا الأهَمَّ الأضَرَّ[٢]:

﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

أي: أعوذُ باللهِ مِن شَياطينِ الجِنِّ وشياطينِ الإنسِ الَّذين يُوَسوِسونَ بالشَّرِّ في صُدورِ النَّاسِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٣٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٠-٢٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٤٠)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥٠٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٦).

ممَّن اختار في الجملةِ القولَ المذكورَ -وهو أنَّ قولَه: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيانٌ للَّذي يُوَسوِسُ، وأنَّهما نَوعانِ: إنْسٌ وجِنٌّ؛ فالجِنِّيُّ يوسوِسُ في صدورِ الإنسِ، والإنسيُّ أيضًا يوسوسُ إلى الإنسيِّ-: السمعانيُّ، وابن عطية، والنسفي، وابن تيميَّةَ، وابن جُزَي، وابن القيِّم، والكوراني، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٤٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٧٠٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن =

= تيمية (١٧/ ٥٠٩)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٣٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٦)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٤٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٦).

وقال ابن تيميَّةَ: (القولُ الصَّحيحُ الَّذي عليه أكثرُ السَّلَفِ أنَّ المعنى: مِن شرِّ المُوَسْوِسِ مِن الجِنَّةِ ومِن النَّاسِ، مِن شياطينِ الإنسِ والجنِّ). ((الرد على المنطقيين)) (ص: ٥٠٦).

قال ابن القيِّم: (فالمُوَسْوِسُ نَوعانِ: إنسٌ وجِنٌّ؛ فإنَّ الوَسْوَسَةَ هي الإلقاءُ الخَفيُّ في القلبِ، وهذا مشتركٌ بيْن الجنِّ والإنسِ، وإن كان إلقاءُ الإنسيِّ ووَسوستُه إنَّما هي بواسِطةِ الأُذُنِ، والجِنِّيُّ لا يحتاجُ إلى تلك الواسِطةِ؛ لأنَّه يَدخُلُ في ابنِ آدَمَ ويَجري منه مَجرى الدَّمِ، على أنَّ الجِنِّيَّ قد يَتمَثَّلُ له ويُوَسْوِسُ إليه في أُذُنِه كالإنسيِّ). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٦٦).

وقيل: قولُه: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ هو بيانٌ للنَّاسِ المُوَسْوَسِ في صُدورِهم، والمعنى: يُوَسْوِسُ في صُدورِ النَّاسِ الَّذين هُم مِن الجنِّ والإنسِ، أي: المُوَسْوَسُ في صُدورِهم قِسمانِ: إنسٌ وجِنٌّ، فالوَسْواسُ يُوَسْوِسُ للجِنِّيِّ كما يُوَسْوِسُ للإنسيِّ. وممَّن اختار هذا القولَ: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٥٦).

وقد ردَّ هذا القولَ وضعَّفه غيرُ واحدٍ؛ منهم: الزمخشريُّ، والبيضاوي، وابنُ تيميَّةَ، وابن القيم، وأبو السعود، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٥).

وقيل: المعنى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ الَّذي هو الجِنَّةُ، ومِن شَرِّ النَّاسِ. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، والنَّحَّاسُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٨١)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ٢٠٠).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ لبَيانِ الوَسْواسِ، أي: الَّذي يُوسوِسُ مِنَ الجِنَّةِ ومِن النَّاسِ في صُدورِ النَّاسِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى قد أخبَرَ أنَّه جَعَل لكُلِّ نَبيٍّ عدوًّا شَياطينَ الإنسِ والجِنِّ، يُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القَولِ غُرورًا، وإيحاؤُهم هو وسوستُهم... فالَّذي يوسوِسُ في صدورِ النَّاسِ: نُفوسُهم، وشياطينُ الجِنِّ، وشياطينُ الإنسِ. والوَسْواسُ الخَنَّاسُ يتناوَلُ وَسوسةَ الجِنَّةِ، ووَسوسةَ الإنسِ... وأمَّا قَولُ الفَرَّاءِ: إنَّ المرادَ: مِن شَرِّ الوَسْواسِ الَّذي يُوسوِسُ في صُدورِ النَّاسِ؛ الطَّائفتَينِ مِنَ الجِنِّ والإنسِ، وإنَّه سَمَّى الجِنَّ ناسًا كما سَمَّاهم =

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وعن صَفيَّةَ بنتِ حُيَيٍّ رَضيَ اللهُ عنها، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الشَّيطانَ يَجري مِن ابنِ آدَمَ مَجرى الدَّمِ))[١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يأتي الشَّيطانُ أحَدَكم، فيقولُ: مَن خَلَق كذا؟ مَن خَلَق كذا؟ حتَّى يقولَ: مَن خَلَق رَبَّك؟! فإذا بلَغَه فلْيَستَعِذْ باللهِ ولْيَنْتَهِ[٢]))[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَٰهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ

= رِجالًا، وسَمَّاهم نفَرًا- فهذا ضعيفٌ؛ فإنَّ لفظَ النَّاسِ أشهَرُ وأظهَرُ وأعرَفُ من أن يحتاجَ إلى تنويعِه إلى الجِنِّ والإنسِ... وكذلك قولُ الزَّجَّاج: إنَّ المعنى ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ الَّذي هو الجِنَّةُ، ومِن شَرِّ النَّاسِ- فيه ضَعفٌ وإن كان أرجَحَ مِنَ الأوَّلِ؛ لأنَّ شَرَّ الجِنِّ أعظَمُ مِن شَرِّ الإنسِ، فكيف يُطلِقُ الاستعاذةَ من جميعِ النَّاسِ، ولا يَستعيذُ إلَّا من بَعضِ الجِنِّ؟!). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٥٠٩-٥١٢). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٨١).

(١) رواه البخاري (٧١٧١).

(٢) ولْيَنْتَهِ: أي: عن الاسْترسالِ معه في ذلك، بل يَلجأُ إلى الله في دفْعِه، ويَعلَمُ أنَّه يريدُ إفسادَ دينه وعقلِه بهذه الوَسوَسةِ، فيَنبغي أن يَجتَهِدَ في دفْعِها، بالاشتِغالِ بغيرِها. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٤٠).

(٣) رواه البخاريُّ (٣٢٧٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٣٤).

وَٱلنَّاسِ ﴾ فيه تعليمُ المُسلِمينَ التَّعَوُّذَ بذلك، فيكونُ لهم مِن هذا التَّعَوُّذِ ما هو حَظُّهم مِن قابليَّةِ التَّعرُّضِ إلى الوَسْواسِ، ومع السَّلامةِ منه بمِقْدارِ مَراتِبِهم في الزُّلْفى[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ فيه ذَمُّ الوَسْواسِ، ونَدْبُ الاستعاذةِ منهم[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ فيه سُؤالٌ: لا يَخفى ما بيْن هذَينِ الوَصفَينِ اللَّذَينِ وُصِفَ بهما هذا اللَّعينُ الخبيثُ مِنَ التَّنافي؛ لأنَّ الوَسْواسَ كثيرُ الوَسْوَسةِ لِيُضِلَّ بها النَّاسَ، والخَنَّاسَ كَثيرُ التَّأخُّرِ والرُّجوعِ عن إضلالِ النَّاسِ؟

الجوابُ: أنَّ لكُلِّ مَقامٍ مَقالًا، فهو وَسْواسٌ عندَ غَفلةِ العَبدِ عن ذِكْرِ رَبِّه، خَنَّاسٌ عندَ ذِكرِ العَبدِ رَبَّه تعالى، كما دَلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقَولُه تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ الآيةَ[(٣)] [النحل: ٩٩].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ تأمَّلْ حِكمةَ القُرآنِ الكريمِ وجلالَتَه كيف أوقَعَ الاستِعاذةَ من شَرِّ الشَّيطانِ الموصوفِ بأنَّه الوَسْواسُ الخَنَّاسُ الَّذي يُوَسوِسُ في صُدورِ النَّاسِ، ولم يَقُلْ: «من شَرِّ وَسْوَستِه»؛ لِتَعُمَّ الاستِعاذةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٩٠).

شَرَّه جميعَه؛ فإنَّ قولَه: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ يَعُمُّ كلَّ شَرِّه[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ تأمَّلْ كيف جاء بِناءُ ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ مُكَرَّرًا؛ لتكريرِه الوَسْوَسةَ الواحِدةَ مِرارًا حتَّى يَعْزِمَ عليها العبدُ، وجاء بناءُ ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ على وزنِ «الفَعَّالِ» الَّذي يتكَرَّرُ منه نوعُ الفِعلِ؛ لأنَّه كُلَّما ذُكِرَ اللهُ انْخَنَسَ، ثُمَّ إذا غَفَلَ العبدُ عاوَدَه بالوَسْوَسةِ؛ فجاء بناءُ اللَّفظَينِ مُطابِقًا لمعنَيَيهما[٢].

٤- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾، وجيءَ مِن هذا الفِعلِ بوَزنِ فَعَّالٍ الَّذي للمُبالَغةِ دونَ الخانِسِ والمُنخَنِسِ؛ إيذانًا بشِدَّةِ هُروبِه ورُجوعِه وعِظَمِ نُفورِه عند ذِكرِ اللهِ، وأنَّ ذلك دأبُه ودَيدَنُه، لا أنَّه يَعرِضُ له ذلك عندَ ذِكرِ اللهِ أحيانًا، بل إذا ذُكِرَ اللهُ هَرَب وانخنَسَ وتأخَّرَ؛ فإنَّ ذِكرَ اللهِ هو مِقْمَعَتُه الَّتي يُقمَعُ بها كما يُقمَعُ المفسِدُ والشِّرِّيرُ بالمَقامِعِ الَّتي تَردَعُه؛ مِن سِياطٍ وحديدٍ وعِصِيٍّ ونحوِها؛ فذِكرُ اللهِ يَقمَعُ الشَّيطانَ ويُؤلِمُه ويُؤذيه كالسِّياطِ والمَقامِعِ الَّتي تُؤذي مَن يُضرَبُ بها؛ ولهذا يكونُ شيطانُ المؤمِنِ هزيلًا ضئيلًا مُضنًى؛ ممَّا يُعَذِّبُه ويَقمَعُه به مِن ذِكرِ اللهِ وطاعتِه[٣].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ وَصَفَه بأعظَمِ صِفاتِه، وأشَدِّها شَرًّا، وأقواها تأثيرًا، وأعَمِّها فسادًا، وهي الوَسْوَسةُ الَّتي هي مَبادئُ الإرادةِ؛ فإنَّ القَلْبَ يكونُ فارِغًا مِنَ الشَّرِّ والمعصيةِ، فيُوسوِسُ إليه ويُخطِرُ الذَّنْبَ ببالِه، فيُصَوِّرُه لنَفْسِه ويُمَنِّيه ويُشَهِّيه؛ فيَصيرُ شَهوةً، ويُزَيِّنُها له ويُحَسِّنُها ويُخَيِّلُها له في خيالٍ تَميلُ نَفْسُه إليه؛ فيصيرُ إرادةً، ثمَّ لا يزالُ يُمَثِّلُ ويُخَيِّلُ، ويُمَنِّي ويُشَهِّي، ويُنَسِّي عِلْمَه بضَرَرِها، ويَطوي عنه سوءَ عاقِبَتِها؛ فيَحُولُ بيْنَه

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٥).

وبينَ مطالعتِه، فلا يرى إلَّا صورةَ المعصيةِ والْتِذاذَه بها فقط، ويَنسى ما وراءَ ذلك؛ فتَصيرُ الإرادةُ عزيمةً جازمةً، فيَشتَدُّ الحِرصُ عليها مِن القَلْبِ، فيَبعَثُ الجُنودَ في الطَّلَبِ، فيَبعَثُ الشَّيطانُ معهم مَدَدًا لهم وعَونًا(١)!

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ وَسْوَسةُ الشَّيطانِ في صَدْرِ الإنسانِ بأنواعٍ كثيرةٍ؛ منها: إفسادُ الإيمانِ والتَّشكيكُ في العقائِدِ، فإن لم يَقدِرْ على ذلك أمَرَه بالمعاصي، فإنْ لم يَقدِرْ على ذلك ثَبَّطه عن الطَّاعاتِ، فإن لم يقدِرْ على ذلك أدخَلَ عليه الرِّياءَ في الطَّاعاتِ لِيُحبِطَها، فإنْ سَلِمَ مِن ذلك أدخَلَ عليه العُجْبَ بنَفْسِه، واستكثارَ عَمَلِه، ومِن ذلك أنَّه يُوقِدُ في القَلبِ نارَ الحسَدِ والحِقدِ والغَضَبِ؛ حتَّى يَقودَ الإنسانَ إلى شَرِّ الأعمالِ وأقبَحِ الأحوالِ. وعِلاجُ وَسوَسته بثلاثةِ أشياءَ؛ واحِدُها: الإكثارُ من ذِكرِ اللهِ. وثانيها: الإكثارُ من الاستعاذةِ باللهِ منه، ومِن أنفَعِ شَيءٍ في ذلك قراءةُ هذه السُّورةِ. وثالِثُها: مُخالَفتُه والعَزمُ على عِصيانِه(٢).

٧- تأمَّلِ السِّرَّ في قَولِه تعالى: ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، ولم يَقُلْ: «في قُلوبِهم»، والصَّدرُ هو ساحةُ القَلبِ وبَيتُه؛ فمِنْه تَدخُلُ الوارداتُ إليه فتَجتَمِعُ في الصَّدرِ، ثُمَّ تَلِجُ في القَلبِ، فهو بمنزلةِ الدِّهليزِ له، ومِن القَلبِ تَخرُجُ الأوامرُ والإراداتُ إلى الصَّدرِ، ثُمَّ تتفرَّقُ على الجنودِ، ومَن فَهِمَ هذا فَهِمَ قولَه تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ فالشَّيطانُ يَدخُلُ إلى ساحةِ القَلبِ وبَيتِه، فيُلقي ما يريدُ إلقاءَه في القَلبِ، فهو مُوَسوِسٌ في الصَّدرِ، ووَسْوَستُه واصِلةٌ إلى القلبِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [طه: ١٢٠] ولم يَقُلْ: «فيه»؛ لأنَّ المعنى: أنَّه

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٥٧، ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٣٠).

أَلْقَى إليه ذلك وأوصَلَه فيه؛ فدَخَلَ في قَلْبِه[(١)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ أنَّ للإنسِ شياطينَ يُستعاذُ مِن شَرِّهم، كما أنَّ للجِنِّ شياطينَ يُستعاذُ منهم[(٢)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ سُؤالٌ: أنَّه إنْ كان أصلُ الشَّرِّ كلِّه مِن الوَسْواسِ الخَنَّاسِ، فلا حاجةَ إلى ذِكْرِ الاستعاذةِ مِن وَسْواسِ النَّاسِ؛ فإنَّه تابعٌ لوَسْواسِ الجِنِّ!

الجوابُ: بلِ الوَسْوسةُ نَوعانِ: نوعٌ مِن الجِنِّ، ونوعٌ مِن نُفوسِ الإنسِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، فالشَّرُّ مِن الجِهَتينِ جميعًا، والإنسُ لهم شياطينُ كما للجِنِّ شياطينُ، والوَسْوسةُ مِن جنسِ «الوشوشةِ» -بالشِّينِ المعجمةِ-؛ يُقالُ: فلانٌ يُوشوِشُ فُلانًا، وقد وَشْوَشَه: إذا حَدَّثَه سِرًّا في أُذُنِه، وكذلك الوَسْوسةُ، ومنه وَسْوسةُ الحُلِيِّ، لكنْ هو بالسِّينِ المُهمَلةِ أخَصُّ[(٣)].

١٠- إنْ قيلَ: لِمَ خُتِمَ القُرآنُ بالمُعَوِّذَتينِ، وما الحِكمةُ في ذلك؟

فالجوابُ مِن ثلاثةِ أَوجُهٍ:

الأوَّلُ: لَمَّا كان القُرآنُ مِن أعظَمِ النِّعَمِ على العِبادِ، والنِّعَمُ مَظِنَّةُ الحَسدِ؛ فختمَ بما يُطفِئُ الحَسدَ مِن الاستِعاذَةِ باللهِ.

الثَّاني: أنَّه يَظهرُ أنَّ المُعَوِّذَتينِ خُتِمَ بهما لأنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥١٦).

قال فيهما: ((أُنزِلَت علَيَّ آياتٌ لم يُرَ مِثلُهنَّ قَطُّ))[١]، كما قال في فاتحةِ الكتابِ: ((ما أُنزِلَتْ في التَّوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في الزَّبُورِ ولا في الفُرقانِ مِثْلُها))[٢]، فافتُتِحَ القُرآنُ بسُورةٍ لم يَنزِلْ مِثلُها، واختُتِمَ بسُورتَينِ لم يُرَ مِثلُهما؛ ليجمعَ حُسنَ الافتِتاحِ والاختِتامِ، ألا ترَى أنَّ الخُطَبَ والرَّسائلَ والقَصائدَ وغيرَ ذلك مِن أنواعِ الكلامِ إنَّما يُنظَرُ فيها إلى حُسنِ افتِتاحِها واختِتامِها.

الوجهُ الثَّالثُ: أنه يَظهرُ أيضًا أنَّه لَمَّا أُمِرَ القارئُ أن يَفتَتِحَ قِراءتَه بالتَّعَوُّذِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ، خُتِمَ القُرآنُ الكريمُ بالمُعَوِّذَتينِ لِيُحصِّلَ الاستِعاذةَ باللهِ عندَ أوَّلِ القِراءَةِ وعندَ آخِرِ ما يَقرأُ مِن القِراءةِ، فتكونُ الاستِعاذةُ قد اشتَمَلت على طَرَفَيِ الابتِداءِ والانتِهاءِ، ولِيَكونَ القارئُ مَحفوظًا بحِفظِ اللهِ الَّذي استَعاذَ به مِن أوَّلِ أَمْرِه إلى آخِرِه، وباللهِ التَّوفيقُ، لا رَبَّ غيرُه[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾

- شابَهَت فاتحةُ هذه السُّورةِ فاتحةَ سُورةِ (الفَلَقِ)، إلَّا أنَّ سُورةَ (الفَلَقِ) تَعوُّذٌ مِن شُرورِ المَخلوقاتِ مِن حَيوانٍ وناسٍ، وسُورةَ (الناسِ) تَعوُّذٌ مِن شُرورِ مَخلوقاتٍ خَفيَّةٍ، وهي الشَّياطينُ، والأمرُ بالقولِ يَقْتضي المُحافَظةَ على هذه الألفاظِ؛ لأنَّها الَّتي عيَّنَها اللهُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليَتعوَّذَ بها، فإجابتُها مَرجوَّةٌ؛ إذ ليس هذا المَقولُ مُشتمِلًا على شَيءٍ يُكلَّفُ به أو يُعمَلُ حتَّى يَكونَ

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٩٣).

(٢) أخرجه مطوَّلًا الترمذيُّ (٢٨٧٥) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٩٣٤٥) مِن حديثِ أبي هريرةَ.
صحَّحه الترمذيُّ، وابنُ جرير في ((التفسير)) (٨/ ٧٥)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٨٧٥)، وشعيبٌ في تخريج ((مسند أحمد)) (١٥/ ٢٠١). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٣٠).

المرادُ: قُلْ لهم كذا، كما في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وإنَّما هو إنشاءُ معنًى في النَّفْسِ تدُلُّ عليه هذه الأقوالُ الخاصَّةُ[١].

- والخِطابُ بلَفظِ ﴿قُلۡ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإذ قد كان قُرآنًا كان خِطابُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم به يَشملُ الأُمَّةَ حيث لا دَليلَ على تَخصيصِه به؛ فلذلك أمَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَعضَ أصحابِه بالتَّعوُّذِ بهذه السُّورةِ، فتكونُ صِيغةُ الأمرِ المُوجَّهةُ إلى المُخاطَبِ مُستعمَلةً في مَعنيَي الخِطابِ مِن تَوجُّهِه إلى مُعيَّنٍ، وهو الأصلُ، ومِن إرادةِ كلِّ مَن يَصِحُّ خِطابُه، وهو طَريقٌ مِن طُرقِ الخِطابِ تدُلُّ على قَصْدِه القرائنُ، فيكونُ مِن استعمالِ المُشتركِ في مَعْنيَيه، واستعمالُ صِيغةِ التَّكلُّمِ في فِعلِ ﴿أَعُوذُ﴾ يَتبَعُ ما يُرادُ بصِيغةِ الخِطابِ في فِعلِ ﴿قُلۡ﴾؛ فهو مَأمورٌ به لكلِّ مَن يُريدُ التَّعوُّذَ بها[٢].

- ولَمَّا كانت مَضرَّةُ الدِّينِ -وهي آفةُ الوَسوسةِ- أعظَمَ مِن مَضرَّةِ الدُّنيا وإنْ عَظُمَت، جاء البِناءُ في الاستِعاذةِ منها بصِفاتٍ ثَلاثٍ (الرَّبُّ، والمَلِكُ، والإلهُ) في قَولِه: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾، وإنِ اتَّحَدَ المطلوبُ، وفي الاستعاذةِ مِن ثَلاثٍ (الغاسقُ، والنَّفَّاثاتُ، والحاسدُ) بصِفةٍ واحدةٍ، وهي الرَّبُّ، وإنْ تَكثَّرَ الَّذي يُستعاذُ منه[٣].

- وأيضًا لَمَّا كانتِ الاستعاذةُ في السُّورةِ المُتقدِّمةِ مِن المَضارِّ البَدنيَّةِ، وهي تعُمُّ الإنسانَ وغيرَه، والاستِعاذةُ في هذه السُّورةِ مِن الأضرارِ الَّتي تَعرِضُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٥، ٣٠/ ٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٦٢٥، ٦٢٦) و(٣٠/ ٦٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٩).

للنُّفوسِ البَشريَّةِ وتخُصُّها[١]؛ عمَّمَ الإضافةَ ثَمَّ، وخصَّصَها بالنَّاسِ هاهنا، فكأنَّه قِيل: أعوذُ مِن شرِّ المُوَسوِسِ إلى النَّاسِ برَبِّهم، الَّذي يَملِكُ أُمورَهم، ويَستحِقُّ عِبادتَهم[٢].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ إن قيل: لِمَ قَدَّم وَصْفَه تعالى ﴿بِرَبِّ﴾ ثمَّ بـ﴿مَلِكِ﴾ ثمَّ بـ﴿إِلَٰهِ﴾؟

فالجوابُ: أنَّ هذا على التَّرتيبِ في الارتقاءِ إلى الأعلى؛ وذلك أنَّ الرَّبَّ قد يُطلَقُ على كثيرٍ مِن النَّاسِ، فيُقالُ: فُلانٌ رَبُّ الدَّارِ، وشِبهُ ذلك، فبدأ به لاشتراكِ معناه، وأمَّا المَلِكُ فلا يُوصَفُ به إلَّا آحادٌ مِنَ النَّاسِ، وهم الملوكُ، ولا شَكَّ أنَّهم أعلى مِن سائِرِ النَّاسِ؛ فلذلك جاء به بعْدَ الرَّبِّ، وأمَّا الإلهُ فهو أعلى مِن المَلِكِ؛ ولذلك لا يدَّعي الملوكُ أنَّهم آلهةٌ، فإنَّما الإلهُ واحِدٌ لا شَريكَ له ولا نَظيرَ؛ فلذلك خُتِمَ به[٣].

وقيل: رُتِّبَت أوصافُ اللهِ بالنِّسبةِ إلى النَّاسِ تَرتيبًا مُدرَّجًا؛ فإنَّ اللهَ خالِقُهم، ثمَّ هم غيرُ خارِجينَ عن حُكْمِه إذا شاء أنْ يَتصرَّفَ في شُؤونِهم، ثمَّ زِيدَ بَيانًا بوَصْفِ إلَهيَّتِه لهم؛ ليَتبيَّنَ أنَّ رُبوبيَّتَه لهم وحاكميَّتَه فيهم لَيستْ كرُبوبيَّةِ بَعضِهم بعضًا وحاكميَّةِ بَعضِهم في بَعضٍ[٤].

- وعُرِّفَ (رب) بإضافتِه إلى النَّاسِ دونَ غَيرِهم مِن المَربوبينَ؛ لأنَّ الاستعاذةَ مِن شرٍّ يُلْقِيه الشَّيطانُ في قُلوبِ النَّاسِ، فيَضِلُّون ويُضِلُّون، فالشَّرُّ المُستعاذُ

---

(١) قال أبو السعود: (مَن جعَل مدارَ تخصيصِ الإضافةِ مجرَّدَ كَونِ الاستعاذةِ مِن المَضارِّ المختصَّةِ بالنُّفوسِ البشَريَّةِ فقد قصَّر في تَوفيةِ المقامِ حقَّه). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٢، ٦٣٣).

منه مَصبُّه إلى النَّاسِ، فناسَبَ أنْ يُستحضَرَ المُستعاذُ إليه بعُنوانِ أنَّه ربُّ مَن يُلْقون الشَّرَّ، ومَن يُلْقى إليهم؛ ليَصرِفَ هؤلاء، ويَدفَعَ عن الآخَرينَ، كما يُقالُ لِمَولى العبْدِ: يا مَولى فُلانٍ، كُفَّ عنِّي عَبْدَك[١].

وقيلَ: ذكَر أنَّه رَبُّ النَّاسِ على التَّخصيصِ؛ وذلك لأنَّ أشرفَ المَخلوقاتِ في العالَمِ هُم النَّاسُ. أو لأنَّ المَأمورَ بالاستِعاذةِ هو الإنسانُ، فإذا قرأَ الإنسانُ هذه، صارَ كأنَّه يقولُ: يا رَبِّ، يا مَلِكي، يا إلَهي[٢].

- قولُه: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ عطْفُ بَيانٍ؛ جِيءَ به لبَيانِ أنَّ تَربيتَه تعالَى إيَّاهم لَيستْ بطَريقِ تَربيةِ سائرِ المُلَّاكِ لِما تحْتَ أيْديهم مِن مَماليكِهم، بلْ بطَريقِ المُلْكِ الكاملِ والتَّصرُّفِ الكُلِّيِّ والسُّلطانِ القاهرِ، وكذا قولُه تعالَى: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾؛ فإنَّه لبَيانِ أنَّ مُلْكَه تعالَى ليس بمُجرَّدِ الاستيلاءِ عليهم، والقِيامِ بتَدْبيرِ أُمورِهم، وسِياستِهم، والتَّولِّي لتَرتيبِ مَبادئِ حِفظِهم وحِمايتِهم كما هو قُصارَى أمْرِ المُلوكِ، بلْ هو بطَريقِ المعبوديَّةِ المُؤسَّسةِ على الأُلوهيَّةِ المُقتضيةِ للقُدْرةِ التَّامَّةِ على التَّصرُّفِ الكُلِّيِّ فيهم؛ إحياءً وإماتةً، وإيجادًا وإعدامًا، فقولُه: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ خاصٌّ لا شَركةَ فيه، فجُعِلَ غايةً للبَيانِ، ولم يُكتَفَ بإظهارِ المُضافِ إليه -الَّذي هو ﴿ٱلنَّاسِ﴾- مرَّةً واحدةً؛ لأنَّ عطْفَ البيانِ بمَنزلةِ عَلَمٍ للاسمِ المُبيَّنِ، ففيه مَزيدٌ مِن البَيانِ والكشْفِ والتَّقريرِ، فكان مَظِنَّةً للإظهارِ دونَ الإضمارِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٣)، ((إعراب =

وقيل: قَولُه: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ المَلِكُ هو المتَّصِفُ بالأمرِ والنَّهيِ، وذلك يَختصُّ بالنَّاطِقينَ؛ ولهذا قال: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يَقُلْ: مَلِكِ الأشياءِ، وأمَّا قولُه: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ -على قراءةٍ- [الفاتحة: ٤] فتقديرُه: «الْمَلِكُ في يوم الدِّينِ»؛ لقولِه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر: ١٦]. ويحتَمِلُ أنْ يكونَ خَصَّ النَّاسَ بالذِّكرِ في قَولِه تعالى: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ المخلوقاتِ جمادٌ ونامٍ، والنَّامي صامتٌ وناطقٌ، والنَّاطقُ متكلِّمٌ وغيرُ متكلِّمٍ، فأشرفُ الجميعِ المتكلِّمُ، وهم ثلاثةٌ: الإنسُ، والجِنُّ، والملائكةُ، وكلُّ مَن عَدَاهم جائزٌ دُخولُه تحتَ قبضتِهم وتصَرُّفِهم، وإذا كان المرادُ بالنَّاسِ في الآيةِ المتكلِّمَ، فمَن مَلَكوه في مُلْكِ مَن مَلَكَهم؛ فكان في حُكْمِ ما لو قال: «مَلِكِ كلِّ شيءٍ»، مع التَّنويهِ بذِكْرِ الأشرَفِ، وهو المتكلِّمُ[(١)].

- وتَخصيصُ الإضافةِ بالنَّاسِ مع انتظامِ جَميعِ العالَمِينَ في سِلكِ رُبوبيَّتِه تعالَى ومَلَكوتيَّتِه وأُلوهيَّتِه؛ للإرشادِ إلى مَنهجِ الاستِعاذةِ المَرْضيَّةِ عندَه تعالَى الحقيقةِ بالإعاذةِ؛ فإنَّ تَوسُّلَ العائذِ بربِّه وانتِسابَه إليه تعالَى بالمَربوبيَّةِ والمَمْلوكيَّةِ والعُبوديَّةِ في ضِمنِ جِنسٍ هو فرْدٌ مِن أفرادِه؛ مِن دَواعي مَزيدِ الرَّحمةِ والرَّأفةِ، وأمْرُه تعالَى بذلك مِن دَلائلِ الوعْدِ الكريم بالإعاذةِ لا مَحالةَ، ولأنَّ المُستعاذَ منه شرُّ الشَّيطانِ المَعروفِ بعَداوتِهم، ففي التَّنصيص على انتظامِهم في سِلكِ عُبوديَّتِه تعالَى ومَلكوتِه رمْزٌ إلى إنْجائِهم مِن ملْكةِ الشَّيطانِ وتَسلُّطِه عليهم، حسبَما يَنطِقُ به قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ

= القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٢٥).

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٣٦٧). ويُنظر أيضًا: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٧٤).

عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ﴾[١] [الحجر: ٤٢].

- وقيل: خُصَّ النَّاسُ بالذِّكرِ في الثَّلاثةِ الأُولى مع أنَّه تعالَى ربُّ كلِّ شَيءٍ، ومَليكُه، وإلَهُه؛ تَشريفًا لهم، وتَفضيلًا على غَيرِهم[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ﴾الوَسواسُ اسمٌ بمعْنى الوَسوسةِ، والمرادُ به الشَّيطانُ المُوسوِسُ، سُمِّيَ بالمَصدَرِ مُبالَغةً، كأنَّه وَسوسةٌ في نفْسِه؛ لأنَّها صَنْعَتُه وشُغلُه الَّذي هو عاكفٌ عليه، أو أُريدَ ذو الوَسواسِ[٣].

وقيل: الوَسواسُ: المُتكلِّمُ بالوَسوسةِ، وهي الكَلامُ الخَفيُّ، فالوَسواسُ اسمُ فاعلٍ، والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡوَسۡوَاسِ﴾ تَعريفُ الجِنسِ[٤].

٣- قولُه تبارك وتعالَى: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾

- قولُه: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بَيانٌ للشَّيطانِ المُوَسوِسِ على أنَّ الشيطانَ ضَربانِ: جِنِّيٌّ وإنسيٌّ؛ كما قال تعالَى: ﴿عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾ [الأنعام: ١١٢]؛ فـ(مِن) في قَولِه: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بَيانيَّةٌ بيَّنَت الَّذي يُوسوِسُ في صُدورِ النَّاسِ بأنَّه جِنسٌ يَنحَلُّ إلى صِنفَينِ: صِنفٌ مِن الجِنَّةِ، وهو أصْلُه، وصِنفٌ من النَّاسِ، وما هو إلَّا تَبَعٌ ووَلِيٌّ للصِّنفِ الأوَّلِ، ووَجْهُ الحاجةِ إلى هذا البَيانِ خَفاءُ ما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٤، ٦٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٣).

يَنجَرُّ مِن وَسوسةِ نَوعِ الإنسانِ؛ لأنَّ الأُمَمَ اعْتادوا أنْ يُحذِّرَهم المُصلِحون مِن وَسوسةِ الشَّيطانِ، ورُبَّما لا يَخطُرُ بالبالِ أنَّ مِن الوَسواسِ ما هو شَرٌّ مِن وَسواسِ الشَّياطينِ، وهو وَسوسةُ أهلِ نَوعِهم، وهو أشدُّ خطَرًا، وهم بالتَّعوُّذِ منهم أجدَرُ؛ لأنَّهم منهم أقرَبُ، وهُمْ عليهم أخطَرُ، وأنَّهم في وَسائلِ الضُّرِّ أدخَلُ وأقدَرُ. ويَجوزُ أنْ تكونَ ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ للتَّبعيضِ، أي: كائنًا مِن الجِنَّةِ والنَّاسِ، فهي في مَوضعِ الحالِ، أي: ذلك المُوسوِسُ هو بَعضُ الجِنَّةِ وبعضُ النَّاسِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿مِنَ﴾ مُتعلِّقًا بلَفظِ ﴿يُوَسْوِسُ﴾، ومعْناهُ: ابتِداءُ الغايةِ، أي: يُوسوِسُ في صُدورِهم مِن جِهةِ الجِنِّ ومِن جِهةِ النَّاسِ(١).

- وفي قَولِه: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قُدِّمَ ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ على ﴿ٱلنَّاسِ﴾ هنا؛ لأنَّهم أصلُ الوَسواسِ، بخِلافِ تَقديمِ الإنسِ على الجِنِّ في قَولِه تعالَى تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]؛ لأنَّ خُبثاءَ النَّاسِ أشدُّ مُخالَطةً للأنبياءِ مِن الشَّياطينِ؛ لأنَّ اللهَ عَصَمَ أنْبياءَه مِن تَسلُّطِ الشَّياطينِ على نُفوسِهم؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]؛ فإنَّ اللهَ أرادَ إبلاغَ وَحْيِه لأنبيائِه، فزَكَّى نُفوسَهم مِن خُبثِ وَسوسةِ الشَّياطينِ، ولم يَعصِمْهم مِن لَحاقِ ضُرِّ النَّاسِ بهم، والكَيدِ لهم؛ لضَعْفِ خطَرِه؛ قال تعالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ولكنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٢٥).

ضَمِنَ لرُسلِه النَّجاةَ مِن كلِّ ما يَقطَعُ إبلاغَ الرِّسالةِ إلى أنْ يَتِمَّ مُرادُ اللهِ[١].

- وتَكريرُ كَلمةِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في هذه الآياتِ المَرَّتينِ الأُولَيَينِ باعتِبارِ معنًى واحدٍ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لقَصْدِ تأكيدِ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالَى ومُلْكِه وإلَهيَّتِه للنَّاسِ كلِّهم. وأمَّا تَكريرُه المرَّةَ الثَّالثةَ بقولِه: ﴿فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾؛ فهو إظهارٌ مِن أجْلِ بُعدِ المعادِ. وأمَّا تَكريرُه المرَّةَ الرَّابعةَ بقولِه: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾؛ فلأنَّه بَيانٌ لأحَدِ صِنفَيِ الَّذي يُوسوِسُ في صُدورِ النَّاسِ، وذلك غيرُ (ماصَدَقَ)[٢] كَلمةِ النَّاسِ في المرَّاتِ السَّابقةِ، واللهُ يَكْفِينا شَرَّ الفَريقينِ، ويَنفَعُنا بصالِحِ الثَّقلَينِ[٣].

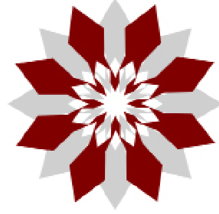


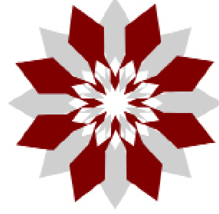
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٥).

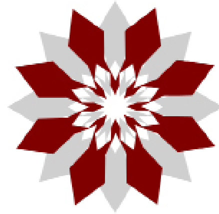
(٢) تقدَّم تعريفُه (٤٣/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٥، ٦٣٦).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٧٢-١٣٧٥)، ((أسرار التَّكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٧، ٢٥٨)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٥١٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٤).







الحمد للّه على التمام

﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

تمَّ بفَضلِ اللهِ العظيمِ، ذي الإحسانِ العَميمِ، الفَراغُ من تفسيرِ القرآنِ الكريمِ (التَّفسيرِ المُحَرَّر) بعد عمل عشرِ سنواتٍ متواصِلة، على نحوٍ جامعٍ شاملٍ، يُعينُ على تدَبُّرِ كتابِ اللهِ ومعْرِفةِ معانِيهِ والعَمَلِ بما فيه؛ فالحَمدُ لله الذي هدى ووفَّقَ لهذا، والحَمدُ للهِ الذي بِنعمتِه تتمُّ الصَّالحاتُ، واللهُ المرجوُّ أن يتقبَّلَ هذا السِّفرَ المبارَكَ بقَبولٍ حَسَنٍ، وأن يضَعَ له القَبولَ بَينَ عِبادِه، فيَظَلَّ نِبراسًا مُضيئًا للدُّروبِ، وهاديًا للقُلوبِ.

ونسألُ الله تبارَك وتعالى أنْ يَجزيَ خيرًا كلَّ مَن شارَك في هذا العملِ مِن الناحيةِ العلميَّةِ أو الفنيَّةِ، أو ساهم في إنجازه ودعَمه، وأنْ يُثقِّلَ مَوازينَهم.

هذا وما كان في هذا الكتابِ مِن صوابٍ فمِن الله وحدَه، فهو المحمودُ والمستعانُ، وما كان فيه مِن خطأٍ فمنَّا ومِن الشَّيطانِ، ويأْبى الله إلَّا أنْ يَتفَرَّدَ بالكمالِ.







الفهارس

- فهرس الموضوعات
- فهرس مراجع التفسير المحرر





فهرس الموضوعات

سُورةُ الزَّلْزَلةِ

سُورةُ العادِياتِ

سُورةُ القارِعَةِ

سُورةُ قُرَيْش

سُورةُ الماعُونِ

سُورةُ الكَوْثَرِ



فهرس مراجع التفسير المحرر

١ – آداب البحث والمناظرة: لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، تحقيق: سعود ابن عبد العزيز العريفي، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد – مجمع الفقه الإسلامي بجدة.

٢- الآداب الشرعية والمنح المرعية: لمحمد بن مفلح بن محمد، أبي عبد الله، شمس الدين، الناشر: عالم الكتب.

٣- الإبانة الكبرى: لعبيد الله بن محمد، ابن بَطَّة العكبري، تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.

٤- الإبانة عن أصول الديانة: لعلي بن إسماعيل، أبي الحسن الأشعري، تحقيق: فوقية حسين محمود، الناشر: دار الأنصار، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣٩٧هـ.

٥- الإبانة عن معاني القراءات: لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، الناشر: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

٦- إتحاف الخيرة المهرة: لأحمد بن أبي بكر البوصيري، تحقيق: دار المشكاة للبحث العلمي، الناشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى،١٤٢٠ هـ.

٧- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين: لمحمد مرتضى الزبيدي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.

٨- إتحاف المهرة: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: زهير بن ناصر الناصر، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٩- إتحاف ذوي الألباب في قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾: لمرعي بن يوسف الكرمي، ضبط نصه وعلق عليه: حازم خنفر، الناشر: منشورات منتديات كل السلفيين، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ – ٢٠١٢م.

١٠- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: لأحمد بن محمد بن أحمد الدمياطي، تحقيق: أنس مهرة، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.

١١- الإتقان في علوم القرآن: لعبد الرحمن بن أبي بكر، السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ.

١٢- آثار ابن باديس: لعبد الحميد محمد بن باديس، تحقيق: عمار طالبي، الناشر: دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الطبعة: الأولى، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

١٣- اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية: لمحمد بن أبي بكر ابن أيوب، ابن قيم الجوزية، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٣١هـ.

١٤- الآحاد والمثاني: لابن أبي عاصم، تحقيق: باسم فيصل أحمد الجوابرة، الناشر: دار الراية، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

١٥- الأحاديث المختارة: لمحمد بن عبد الواحد المقدسي، ضياء الدين، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الناشر: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠هـ.

١٦- أحاديث معلة: لمقبل بن هادي الوادعي، الناشر: دار الآثار، اليمن، الطبعة: الثانية، ١٤٢١هـ.

١٧- أحكام الأضحية والذكاة (مطبوع ضمن كتاب الصيد الثمين في رسائل ابن عثيمين): لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثقة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

١٨- الأحكام السلطانية: لعلي بن محمد الماوردي، الناشر: دار الحديث، القاهرة.

١٩- أحكام القرآن الكريم: لأحمد بن محمد بن سلامة، الطحاوي، تحقيق: سعد الدين أونال، الناشر: مركز البحوث الإسلامية التابع لوقف الديانة التركي، إستانبول، الطبعة: الأولى، المجلد (١): ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، المجلد (٢): ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٢٠- أحكام القرآن للشافعي: لأحمد بن الحسين الخراساني، كتب هوامشه: عبد الغني عبد الخالق، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٢١- أحكام القرآن: لأحمد بن علي، أبي بكر الجصاص، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٢٢- أحكام القرآن: لعبد المنعم بن عبد الرحيم، ابن الفرس، تحقيق: طه بن علي بوسريح، الناشر: دار ابن حزم، الطبعة: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٢٣- أحكام القرآن: لعلي بن محمد بن علي، الكيا الهراسي، تحقيق: موسى محمد علي وعزت عيد عطية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ.

٢٤- أحكام القرآن: لمحمد بن عبد الله، ابن العربي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا،

الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ.

٢٥- إحكام النظر في أحكام النظر بحاسة البصر: لعلي بن محمد، أبي الحسن ابن القطان، تحقيق: إدريس الصمدي، راجعه وضبطه: فاروق حمادة، الناشر: دار القلم، دمشق، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

٢٦- أحكام أهل الذمة: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: يوسف ابن أحمد البكري، وشاكر بن توفيق العاروري، الناشر: رمادى للنشر، الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٢٧- الإحكام في أصول الأحكام: لعلي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٢٨- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار: لمحمد بن عبد الله، أبي الوليد الأزرقي، دراسة وتحقيق: علي عمر، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة: الأولى.

٢٩- اختلاف الأئمة العلماء: ليحيى بن هُبَيْرَة بن محمد، تحقيق: السيد يوسف أحمد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٣٠- الاختيارات الفقهية (لابن تيمية): لعلي بن محمد بن عباس ابن اللحام، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٧هـ.

٣١- الإخنائية (أو الرد على الإخنائي): لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: أحمد ابن مونس العنزي، الناشر: دار الخراز، جدة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٣٢- أدب الدنيا والدين: لعلي بن محمد، الماوردي، الناشر: دار مكتبة الحياة، تاريخ النشر: ١٩٨٦م.

٣٣- أدب الكاتب: لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: محمد الدالي، الناشر: مؤسسة الرسالة.

٣٤- الأدب المفرد: لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ.

٣٥- الأذكار: ليحيى بن شرف النووي، الناشر: مكتبة المؤيد، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٣٦- الأذكار: ليحيى بن شرف النووي، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٣٧- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود): لمحمد ابن محمد بن مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٨- إرشاد الفحول: لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، الناشر:

دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٣٩- إرواء الغليل: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٩هـ.

٤٠- إزالة الإشكال عن آية ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾: لمنصور العيدي، الطبعة: الأولى، ١٤٤٠هـ- ٢٠١٩م.

٤١- الأزمنة والأمكنة: لأحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

٤٢- أسباب نزول القرآن: لعلي بن أحمد الواحدي، تحقيق: ماهر ياسين الفحل، الناشر: دار الميمان، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

٤٣- الاستذكار: ليوسف بن عبد الله، ابن عبد البر، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ.

٤٤- الاستغاثة في الرد على البكري: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، دراسة وتحقيق: عبد الله بن دجين السهلي، الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

٤٥- الاستقامة: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ.

٤٦- الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ليوسف بن عبد الله، ابن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

٤٧- أسد الغابة في معرفة الصحابة: لعلي بن أبي الكرم محمد، ابن الأثير، الناشر: دار الفكر، بيروت عام النشر: ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

٤٨- أسرار التكرار في القرآن (البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان): لمحمود بن حمزة بن نصر، الكرماني، (تاج القراء)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مراجعة وتعليق: أحمد عبد التواب عوض، الناشر: دار الفضيلة.

٤٩- أسرار ترتيب القرآن (تناسق الدُّرر في تناسب السُّور): لعبد الرحمن ابن أبي بكر السُّيوطي، تحقيق: مرزوق علي إبراهيم، الناشر: دار الفضيلة للنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٢م.

٥٠- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: لمحمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، الناشر: مكتبة السنة، الطبعة: الرابعة.

٥١- اشتقاق أسماء الله: لعبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق: عبد رب الحسين المبارك، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ.

٥٢- الإصابة في تمييز الصحابة: لأحمد بن علي، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

٥٣- إصلاح المنطق: ليعقوب بن إسحاق، ابن السكيت، تحقيق: محمد مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٥٤- الأصنام: لهشام بن محمد بن السائب الكلبي، تحقيق: أحمد زكي باشا، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة: الرابعة، ٢٠٠٠م.

٥٥- أصول السرخسي: لمحمد بن أحمد بن أبي سهل، السرخسي، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

٥٦- أصول الفقه (إجابة السائل شرح بغية الآمل): لمحمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، تحقيق: القاضي حسين بن أحمد السياغي وحسن محمد مقبولي الأهدل، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٦م.

٥٧- أصول الفقه: لمحمد بن مفلح، شمس الدين، حققه وعلق عليه وقدم له: فهد بن محمد السَّدَحَان، الناشر: مكتبة العبيكان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

٥٨- الأضداد: لمحمد بن القاسم، أبي بكر الأنباري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

٥٩- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، الناشر: دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ.

٦٠- الاعتصام: لإبراهيم بن موسى، الشاطبي، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، الناشر: دار ابن عفان، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٦١- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث: لأحمد ابن الحسين، أبي بكر البيهقي، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠١هـ.

٦٢- الإعجاز والإيجاز: لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل، أبي منصور الثعالبي، الناشر: مكتبة القرآن، القاهرة.

٦٣- إعراب القرآن الكريم: لقاسم حميدان دعاس، الناشر: دار المنير، دار الفارابى،

دمشق، ١٤٢٥هـ.

٦٤- إعراب القرآن وبيانه: لمحيي الدين بن أحمد مصطفى درويش، الناشر: دار الإرشاد للشؤون الجامعية، حمص، دار اليمامة، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤١٥ هـ.

٦٥- إعراب القرآن: لأحمد بن محمد، أبي جعفر النَّحَّاس، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ.

٦٦- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم: للحسين بن أحمد بن خالويه، أبي عبد الله، الناشر: مطبعة دار الكتب المصرية (١٣٦٠هـ-١٩٤١م).

٦٧- إعراب ما يشكل من ألفاظ الحديث النبوي: لعبد الله بن الحسين، أبي البقاء العكبري، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الحميد هنداوي، الناشر: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مصر، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٦٨- أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري): لحمد بن محمد الخطابي، تحقيق: محمد ابن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، الناشر: جامعة أم القرى (مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي)، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ- ١٩٨٨ م.

٦٩- أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة (٢٠٠ سؤال وجواب في العقيدة الاسلامية): لحافظ بن أحمد بن علي الحكمي، تحقيق: حازم القاضي، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٢هـ.

٧٠- أعلام الموقعين عن رب العالمين: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

٧١- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض.

٧٢- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض.

٧٣- الإقناع في القراءات السبع: لأحمد بن علي بن أحمد، ابن الباذش، الناشر: دار الصحابة للتراث.

٧٤- الإقناع في مسائل الإجماع: لعلي بن محمد الفاسي، أبي الحسن ابن القطان، تحقيق: حسن فوزي الصعيدي، الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى،

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

٧٥- آكام المرجان في أحكام الجان: لمحمد بن عبد الله الشبلي، تحقيق: إبراهيم محمد الجمل، الناشر: مكتبة القرآن، مصر، القاهرة.

٧٦- الإكليل في استنباط التنزيل: لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: سيف الدين عبد القادر الكاتب، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٧٧- الإكليل في المتشابه والتأويل: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، خرج أحاديثه وعلق عليه: محمد الشيمي شحاته، الناشر: دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر.

٧٨- إكمال المعلم بفوائد مسلم: لعياض بن موسى بن عياض، تحقيق: يحيى إسماعيل، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٧٩- أمالي ابن الحاجب: لعثمان بن عمر، ابن الحاجب، دراسة وتحقيق: فخر صالح سليمان قدارة، الناشر: دار عمار، الأردن، دار الجيل، بيروت عام النشر: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٨٠- أمراض القلب وشفاؤها: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، الناشر: المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٩٩هـ.

٨١- الأموال: لحميد بن مخلد، ابن زنجويه، تحقيق: شاكر ذيب فياض، الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٨٢- الأموال: للقاسم بن سلام، أبي عبيد، تحقيق: خليل محمد هراس، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٨٣- الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار: ليحيى بن أبي الخير العمراني، تحقيق: سعود بن عبد العزيز الخلف، الناشر: أضواء السلف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٨٤- الانتصار للقرآن: لمحمد بن الطيب، أبي بكر الباقلاني، تحقيق: محمد عصام القضاة، الناشر: دار الفتح، عَمَّان، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٨٥- الأنساب: لعبد الكريم بن محمد السمعاني، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة: الأولى، ١٣٨٢هـ.

٨٦- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين، البصريين والكوفيين: لعبد الرحمن بن محمد، الأنباري، الناشر: المكتبة العصرية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٨٧- الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف: لعلي بن سليمان المرداوي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الثانية.

٨٨- أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل: لمحمد بن أبي بكر، زين الدين الرازي، تحقيق: عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودى، الناشر: دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ، ١٩٩١ م.

٨٩- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: لعبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٩٠- أهوال القبور: لعبد الرحمن بن أحمد بن رجب، تحقيق: عاطف صابر شاهين، الناشر: دار الغد الجديد، المنصورة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٩١- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: لعبد الله بن يوسف، ابن هشام، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٩٢- إيضاح الوقف والابتداء: لمحمد بن القاسم، أبي بكر الأنباري، تحقيق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، الناشر: مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق عام النشر: ١٣٩٠هـ -١٩٧١م.

٩٣- الإيمان ومعالمه، وسننه، واستكماله، ودرجاته: للقاسم بن سلام، أبي عبيد، تحقيق: محمد نصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ -٢٠٠٠م.

٩٤- الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث: لإسماعيل ابن كثير، تحقيق: أحمد محمد شاكر عناية: مكتب الأجهوري للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٣٥ هـ.

٩٥- باهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن: لمحمود بن أبي الحسن (علي) بن الحسين الغزنوي، الشهير بـ (بيان الحق)، تحقيق: سعاد بنت صالح (رسالة علمية)، الناشر: جامعة أم القرى، مكة المكرمة، عام النشر: ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٩٦- البحر المحيط في أصول الفقه: لمحمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، الناشر: دار الكتبي، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٩٧- البحر المحيط في التفسير: لمحمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٩٨- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: لأحمد بن محمد بن المهدي ابن عجيبة،

تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: حسن عباس زكي، القاهرة، الطبعة: ١٤١٩هـ.

٩٩- بداية المجتهد ونهاية المقتصد: لمحمد بن أحمد، أبي الوليد ابن رشد الحفيد، الناشر: دار الحديث، القاهرة، تاريخ النشر: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

١٠٠- البداية والنهاية: لإسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١٠١- البداية والنهاية: لإسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٠٢- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: لعلاء الدين الكاساني الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، سنة النشر: ١٩٨٢م.

١٠٣- بدائع الفوائد: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت.

١٠٤- البرهان فى تناسب سور القرآن: لأحمد بن إبراهيم بن الزبير، أبي جعفر الغرناطي، تحقيق: محمد شعباني، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المغرب، ١٤١٠هـ.

١٠٥- البرهان في علوم القرآن: لمحمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.

١٠٦- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: لمحمد بن يعقوب الفيروزابادى، تحقيق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ.

١٠٧- البصائر والذخائر: لعلي بن محمد بن العباس، أبي حيان التوحيدي، تحقيق: وداد القاضي، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

١٠٨- بغية الطلب في تاريخ حلب: لعمر بن أحمد بن هبة الله، ابن العديم، تحقيق: سهيل زكار، الناشر: دار الفكر.

١٠٩- بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: موسى الدويش، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الثالثة، ١٤١٥هـ.

١١٠- البلاغة العربية: لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني، الناشر: دار القلم، دمشق،

الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ.

١١١- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: لفاضل صالح السامرائي، الناشر: شركة العاتك لصناعة الكتاب للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١١٢- بيان المعاني: لعبد القادر بن ملا حويش السيد محمود آل غازي العاني، الناشر: مطبعة الترقي، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٥م.

١١٣- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

١١٤- البيان في مذهب الإمام الشافعي: ليحيى بن أبي الخير بن سالم العمراني، تحقيق: قاسم محمد النوري، الناشر: دار المنهاج، جدة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ- ٢٠٠٠ م.

١١٥- البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة: لمحمد بن أحمد بن رشد، أبي الوليد، تحقيق: محمد حجي وآخرون، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

١١٦- تاج العروس من جواهر القاموس: لمحمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الملقب بمرتضى الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

١١٧- تاريخ أصبهان (أخبار أصبهان): لأحمد بن عبد الله، أبي نعيم الأصبهاني، تحقيق: سيد كسروي حسن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ-١٩٩٠م.

١١٨- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك): لمحمد بن جرير، أبي جعفر الطبري، ومعه (صلة تاريخ الطبري): لعريب بن سعد القرطبي، الناشر: دار التراث، بيروت، الطبعة: الثانية - ١٣٨٧ هـ.

١١٩- تاريخ الطبري: لمحمد بن جرير، أبي جعفر الطبري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ.

١٢٠- تاريخ المدينة: لعمر بن شبة البصري، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، عام النشر: ١٣٩٩ هـ.

١٢١- تاريخ بغداد: لأحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

١٢٢- تاريخ دمشق: لعلي بن الحسن بن هبة الله، ابن عساكر، تحقيق: عمرو ابن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع عام النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

١٢٣- تأويل مشكل القرآن: لعبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٤- التبصرة في القراءات السبع: لمكي بن أبي طالب، تحقيق: محمد غوث الندوي، الناشر: الدار السلفية، الهند، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

١٢٥- التبصرة: لعبد الرحمن بن علي، أبي الفرج ابن الجوزي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

١٢٦- التبصرة: لعلي بن محمد الربعي، اللخمي، دراسة وتحقيق: أحمد عبد الكريم نجيب، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.

١٢٧- التبيان في إعراب القرآن: لعبد الله بن الحسين العكبري، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه.

١٢٨- التبيان في أقسام القرآن: لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

١٢٩- التبيان في تفسير غريب القرآن: لأحمد بن محمد، ابن الهائم، الناشر: دار الصحابة للتراث بطنطا، مصر، الطبعة: الأولى، ١٩٩٢م.

١٣٠- التبيان في تفسير غريب القرآن: لأحمد بن محمد، ابن الهائم، تحقيق: ضاحي عبد الباقي محمد، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

١٣١- التجريد: لأحمد بن محمد القدوري، تحقيق: مركز الدراسات الفقهية والاقتصادية (محمد أحمد سراج - علي جمعة محمد)، الناشر: دار السلام، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١٣٢- تحبير التيسير في القراءات العشر: لمحمد بن محمد بن يوسف، ابن الجزري، تحقيق: أحمد محمد مفلح القضاة، الناشر: دار الفرقان، الأردن، عمان، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١٣٣- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: لعبد العظيم بن عبد الواحد، ابن أبي الإصبع، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي.

١٣٤- تحرير ألفاظ التنبيه: ليحيى بن شرف النووي، تحقيق: عبد الغني الدقر، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٣٥- التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد): لمحمد الطاهر بن عاشور، الناشر: الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١٣٦- التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل: لأحمد بن عمار المهدوي، تحقيق: مجموعة من الباحثين، إصدارات وزراة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م.

١٣٧- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: لمحمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣٨- تحفة المودود بأحكام المولود: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٣٩١هـ.

١٣٩- تحقيق منيف الرتبة لمن ثبت له شريف الصحبة: لخليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي، تحقيق: عبد الرحيم محمد أحمد القشقري، الناشر: دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ.

١٤٠- تخريج الكشاف: لعبد الله بن يوسف الزيلعي، تحقيق: سلطان فهد الطبيشي، الناشر: دار ابن خزيمة، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

١٤١- التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار: لعبد الرحمن بن أحمد ابن رجب، تحقيق: بشير محمد عيون، دار النشر: مكتبة المؤيد، الطائف، الطبعة: الثانية، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م.

١٤٢- تذكرة الأريب في تفسير الغريب: لعبد الرحمن بن علي، أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: طارق فتحي السيد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ.

١٤٣- ترتيب الأمالي الخميسية: ليحيى بن الحسين الشجري، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ.

١٤٤- الترغيب والترهيب: لإسماعيل بن محمد بن الفضل الملقب بقوام السنة، تحقيق: أيمن بن صالح بن شعبان، الناشر: دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

١٤٥- التسعينية: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، دراسة وتحقيق: محمد بن إبراهيم العجلان، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

١٤٦- التسهيل لعلوم التنزيل: لمحمد بن أحمد، ابن جزي، تحقيق: عبد الله الخالدي،

الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ.

١٤٧- تشنيف المسامع بجمع الجوامع: لمحمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، دراسة وتحقيق: سيد عبد العزيز - عبد الله ربيع، الناشر: مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.

١٤٨- تعظيم قدر الصلاة: لمحمد بن نصر المَروزي، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، الناشر: مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٤٩- تعليق مختصر على كتاب لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد: لمحمد بن صالح العثيمين، تحقيق: أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: مكتبة أضواء السلف، الطبعة: الثالثة ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

١٥٠- تفسير ابن أبى حاتم: لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا.

١٥١- تفسير ابن باديس ((في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)): لعبد الحميد محمد الصنهاج، علق عليه وخرج آياته وأحاديثه: أحمد شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

١٥٢- تفسير ابن عرفة: لمحمد بن محمد ابن عرفة، تحقيق: جلال الأسيوطي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨م.

١٥٣- التفسير البسيط: لعلي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، تحقيق: مجموعة محققين (أصل تحقيقه في ١٥رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد ابن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه)، الناشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ.

١٥٤- التفسير البياني للقرآن الكريم: لعائشة محمد علي عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، الناشر: دار المعارف، القاهرة، الطبعة: السابعة.

١٥٥- تفسير الثوري: لسفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٥٦- تفسير الجلالين: لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي، وجلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي، الناشر: دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الأولى.

١٥٧- تفسير الراغب الأصفهاني: للحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق الجزء

الأول: محمد عبد العزيز بسيوني، الناشر: كلية الآداب - جامعة طنطا، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ. تحقيق الجزء الثاني والثالث: عادل بن علي الشِّدِي، الناشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ. تحقيق الجزء الرابع والخامس: هند بنت محمد بن زاهد سردار، الناشر: كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٥٨- تفسير الشعراوي: لمحمد متولي الشعراوي، الناشر: مطابع أخبار اليوم سنة ١٩٩١م.

١٥٩- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): لمحمد رشيد بن علي رضا، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

١٦٠- تفسير القرآن العزيز: لمحمد بن عبد الله بن عيسى، ابن أبي زمنين، تحقيق: حسين ابن عكاشة ومحمد بن مصطفى الكنز، الناشر: الفاروق الحديثة، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

١٦١- تفسير القرآن العظيم: لابن المنذر، تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩ هـ.

١٦٢- تفسير القرآن العظيم: لإسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ.

١٦٣- تفسير القرآن الكريم - الفاتحة والبقرة: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٦٤- تفسير القرآن الكريم - سورة آل عمران: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

١٦٥- تفسير القرآن الكريم - سورة النور: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ.

١٦٦- تفسير القرآن الكريم- جزء عم: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثريا، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٦٧- تفسير القرآن الكريم- سورة الأحزاب: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ.

١٦٨- تفسير القرآن الكريم- سورة الحديد: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثريا، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ.

١٦٩- تفسير القرآن الكريم- سورة الروم: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٧٠- تفسير القرآن الكريم- سورة الزمر: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٧١- تفسير القرآن الكريم- سورة السجدة: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٧٢- تفسير القرآن الكريم- سورة الشعراء: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ.

١٧٣- تفسير القرآن الكريم- سورة الشورى: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٧ هـ.

١٧٤- تفسير القرآن الكريم- سورة العنكبوت: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٧٥- تفسير القرآن الكريم- سورة الفرقان: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ.

١٧٦- تفسير القرآن الكريم- سورة القصص: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٧٧- تفسير القرآن الكريم- سورة النساء: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ.

١٧٨- تفسير القرآن الكريم- سورة النمل: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٧٩- تفسير القرآن الكريم- سورة سبأ: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٨٠- تفسير القرآن الكريم- سورة غافر: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٧ هـ.

١٨١- تفسير القرآن الكريم- سورة فاطر: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة

الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٨٢- تفسير القرآن الكريم- سورة فصلت: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٧ هـ.

١٨٣- تفسير القرآن الكريم- سورة لقمان: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٨٤- تفسير القرآن الكريم- سورة يس: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثريا للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ.

١٨٥- تفسير القرآن: لمنصور بن محمد السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

١٨٦- التفسير القرآني للقرآن: لعبد الكريم يونس الخطيب، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة.

١٨٧- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة): لمحمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، تحقيق: مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ- ٢٠٠٥ م.

١٨٨- تفسير المراغي: لأحمد بن مصطفى المراغي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ- ١٩٤٦ م.

١٨٩- التفسير المظهري: للمظهري، محمد ثناء الله، تحقيق: غلام نبي التونسي، الناشر: مكتبة الرشدية، الباكستان، الطبعة: ١٤١٢ هـ.

١٩٠- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: لوهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤١٨ هـ.

١٩١- تفسير الموطأ: لعبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الأنصاري، أبو المطرف القَنَازِعي، حققه وقدم له وخرج نصوصه: عامر حسن صبري، الناشر: دار النوادر - بتمويل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ- ٢٠٠٨ م.

١٩٢- التفسير الوسيط للقرآن الكريم: لمحمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٧م- ١٩٩٨م.

١٩٣- تفسير آيات أَشكلت على كثير من العلماء: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق:

عبد العزيز بن محمد الخليفة، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

١٩٤- تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس): لمحمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجد، تحقيق: محمد بلتاجي، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

١٩٥- تفسير سورة النور: لمحمد الأمين الشنقيطي، الناشر: دار المجتمع، جدة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ.

١٩٦- تفسير عبد الرزاق: لعبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعاني، تحقيق: محمود محمد عبده، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

١٩٧- تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم: لمحمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي، تحقيق: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، الناشر: مكتبة السنة، القاهرة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٩٨- تفسير مقاتل بن سليمان: لمقاتل بن سليمان، أبي الحسن البلخى، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، الناشر: دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

١٩٩- تفسير يحيى بن سلام: ليحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، تقديم وتحقيق: هند شلبي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

٢٠٠- تقريب التدمرية: لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين، الناشر: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٢٠١- تقريب الوصول إلى علم الأصول (مطبوع مع: الإشارة في أصول الفقه): لمحمد ابن جزي الكلبي، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢٠٢- التقييد الكبير في تفسير كتاب الله المجيد: لأحمد بن محمد البسيلي التونسي، الناشر: كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

٢٠٣- تلخيص العلل المتناهية: لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: ياسر إبراهيم محمد، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ه

٢٠٤- تلخيص كتاب الاستغاثة (الرد على البكري): لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد علي عجال، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

٢٠٥- تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد (شرح التسهيل): لمحمد بن يوسف، ناظر الجيش، دراسة وتحقيق: علي محمد فاخر وآخرين، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ.

٢٠٦- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: ليوسف بن عبد الله، ابن عبد البر، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، ومحمد عبد الكبير البكري، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، الطبعة: الأولى، ١٣٨٧هـ.

٢٠٧- التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه: لعبد الله بن عبد العزيز البكري، تحقيق: دار الكتب والوثائق القومية - مركز تحقيق التراث، الناشر: مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، الطبعة: الثانية ٢٠٠٠ م.

٢٠٨- تهذيب الآثار (الجزء المفقود): لمحمد بن جرير، أبي جعفر الطبري، تحقيق: علي رضا بن عبد الله بن علي رضا، الناشر: دار المأمون للتراث، دمشق، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٢٠٩- تهذيب الأسماء واللغات: ليحيى بن شرف النووي، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢١٠- تهذيب اللغة: لمحمد بن أحمد بن الأزهري، أبي منصور، تحقيق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.

٢١١- توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم: لأحمد بن إبراهيم بن حمد، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٦هـ.

٢١٢- التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق وتذكرة أولي الألباب في طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، الناشر: دار طيبة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٢١٣- التوضيح لشرح الجامع الصحيح: لعمر بن علي ابن الملقن، تحقيق: خالد الرباط وجمعة فتحي، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ١٤٢٩هـ.

٢١٤- توضيح مقاصد العقيدة الواسطية: لعبد الرحمن بن ناصر البراك، الناشر: دار التدمرية، الطبعة: الثالثة، ١٤٣٢ هـ.

٢١٥- التوقيف على مهمات التعاريف: لمحمد المدعو بعبد الرؤوف ابن تاج العارفين المناوي، الناشر: عالم الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٢١٦- التيجان في ملوك حمير: لعبد الملك بن هشام الحميري المعافري، تحقيق: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، الناشر: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء، الجمهورية العربية اليمنية، الطبعة: الأولى، ١٣٤٧ هـ.

٢١٧- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٢١٨- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢١٩- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري): لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي - بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٢٠- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري): لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، محمود محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٢٢١- جامع الرسائل: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: دار العطاء، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٢٢- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم: لعبد الرحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: السابعة: ١٤٢٢هـ.

٢٢٣- جامع المسائل: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد عزير شمس، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٢٤- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري): لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٢٥- جامع بيان العلم وفضله: ليوسف بن عبد الله، ابن عبد البر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

٢٢٦- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): لمحمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ.

٢٢٧- جزء في تفسير الباقيات الصالحات: لخليل بن كيكلدي العلائي، تحقيق: بدر الزمان محمد شفيع النيالي، الناشر: مكتبة الإيمان، المدينة المنورة.

٢٢٨- جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار العروبة، الكويت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ.

٢٢٩- جلباب المرأة المسلمة: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار السلام للنشر والتوزيع، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢ م.

٢٣٠- جمال القراء وكمال الإقراء: لعلي بن محمد بن الشافعي، دراسة وتحقيق: عبد الحق عبد الدايم سيف القاضي (أصل الكتاب رسالة دكتوراة)، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٢٣١- الجمل في النحو: للخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي، تحقيق: فخر الدين قباوة، الطبعة: الخامسة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٢٣٢- جمهرة الأمثال: للحسن بن عبد الله العسكري، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٢٣٣- جمهرة اللغة: لمحمد بن الحسن بن دُرَيد الأزدي، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م.

٢٣٤- جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر: جمعها وقرأها وقدم لها: عادل سليمان جمال، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣م.

٢٣٥- الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: مجموعة محققين، الناشر: دار العاصمة، السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ.

٢٣٦- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية،

الناشر: دار المعرفة، ١٤١٨هـ.

٢٣٧- الجواهر الحسان في تفسير القرآن: لعبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، تحقيق: محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ.

٢٣٨- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: مطبعة المدني، القاهرة.

٢٣٩- حاشية السِّندي على سنن النسائي: لمحمد بن عبد الهادي، نور الدين السندي، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ.

٢٤٠- حاشية السندي على مسند الإمام أحمد بن حنبل: لمحمد بن عبد الهادي السندي، تحقيق: طارق عوض الله، الناشر: دار المأثور للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٣١ه - ٢٠١٠م.

٢٤١- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوي): لأحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، الناشر: دار صادر، بيروت.

٢٤٢- حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي: لمحمد ابن مصلح الدين بن مصطفى، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٢٤٣- حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي: لإسماعيل بن محمد ومصلح الدين بن إبراهيم الرومي المحقق: عبد الله محمود مُحَمَّد عمر، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

٢٤٤- الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي: لعلي بن محمد بن محمد، الماوردي، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٩ م.

٢٤٥- حجة القراءات: لعبد الرحمن بن محمد ابن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني، الناشر: دار الرسالة.

٢٤٦- الحجة في القراءات السبع: للحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، الناشر: دار الشروق، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤٠١هـ.

٢٤٧- الحجة في بيان المحجة: لقَوَّام السنة أبي القاسم الأصبهاني، تحقيق: محمد بن ربيع المدخلي، ومحمد أبو رحيم، الناشر: دار الراية، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

٢٤٨- الحجة للقراء السبعة: للحسن بن أحمد بن عبد الغفار، تحقيق: بدر الدين قهوجي وبشير جويجابي، راجعه ودققه: عبد العزيز رباح وأحمد يوسف الدقاق، الناشر: دار المأمون للتراث، دمشق ، الطبعة: الثانية، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.

٢٤٩- حراسة الفضيلة: لبكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الحادية عشر، ١٤٢٦هـ.

٢٥٠- حز الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر: لشيث بن إبراهيم بن محمد بن حيدرة، أبي الحسن القفطي، المعروف بابن الحاج القناوي، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ.

٢٥١- حسن التنبه لما ورد في التشبه: لمحمد بن محمد الغزي، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين طالب، الناشر: دار النوادر، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.

٢٥٢- الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي صلى الله عليه وسلم بعثت بالسيف بين يدي الساعة: لعبد الرحمن بن أحمد بن رجب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار المأمون، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٩٩٠م.

٢٥٣- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأحمد بن عبد الله، أبي نعيم الأصبهاني، الناشر: السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٢٥٤- حلية الأولياء: لأحمد بن عبد الله، أبي نعيم الأصبهاني، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤٠٥هـ.

٢٥٥- حماسة الخالديين (الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين): لمحمد بن هاشم الخالدي، وسعيد بن هاشم الخالدي، تحقيق: محمد علي دقة، الناشر: وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، عام النشر: ١٩٩٥م.

٢٥٦- حياة الحيوان الكبرى: لمحمد بن موسى بن عيسى، أبي البقاء الدميري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ.

٢٥٧- الحيوان: لعمرو بن بحر الجاحظ، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ.

٢٥٨- خلق أفعال العباد: لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، الناشر: دار المعارف السعودية، الرياض.

٢٥٩- خلق الإنسان بين الطب والقرآن: لمحمد علي البار، الناشر: الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٦٠- الدُّر المصون في علوم الكتاب المكنون: لأحمد بن يوسف، السمين الحلبي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق.

٢٦١- الدُّر المنثور: لعبد الرحمن بن أبي بكر السُّيوطي، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٢٦٢- درء تعارض العقل والنقل (أو: موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول): لأحمد ابن عبد الحليم، ابن تيمية، تحقيق: عبد اللطيف عبد الرحمن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧ هـ.

٢٦٣- الدراري المضية: لمحمد بن علي الشوكاني، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ.

٢٦٤- دراسات لأسلوب القرآن الكريم: لمحمد عبد الخالق عضيمة، تصدير: محمود محمد شاكر، الناشر: دار الحديث، القاهرة، .

٢٦٥- الدراية في تخريج أحاديث الهداية: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الناشر: مكتبة الفيصلية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ.

٢٦٦- الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية: لعبد الرحمن ابن ناصر سعدي، تحقيق: أشرف بن عبد المقصود، الناشر: أضواء السلف، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٢٦٧- درة التنزيل وغرة التأويل: لمحمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي، دراسة وتحقيق وتعليق: محمد مصطفى آيدين، الناشر: جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها، معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

٢٦٨- درج الدرر في تفسير الآي والسور: لعبد القاهر بن عبد الرحمن، الجرجاني، دراسة وتحقيق: (الفاتحة والبقرة) وليد بن أحمد بن صالح الحسين، (وشاركه في بقية الأجزاء): إياد عبد اللطيف القيسي، الناشر: مجلة الحكمة، بريطانيا، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

٢٦٩- الدرر السنية في الأجوبة النجدية: جمعه عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الطبعة: السادسة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٢٧٠- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: لمحمد الأمين بن محمد المختار

الشنقيطي، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، توزيع: مكتبة الخراز، جدة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

٢٧١- دلائل النبوة: لأحمد بن الحسين، أبي بكر البيهقي، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، دار الريان للتراث القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٢٧٢- دليل البلاغة القرآنية - سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران: لمحمد بن سعد الدبل، الناشر: بدون، الطبعة: الثانية، ١٤٣١هـ.

٢٧٣- ديوان الإمام الشافعي: تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة: الثانية - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٢٧٤- ديوان العرجي: جمعه وحققه وشرحه: سجيع جميل الجبيلي الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٨م.

٢٧٥- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: لعبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

٢٧٦- ديوان المتنبي: لأحمد بن حسين، أبي الطيب المتنبي، الناشر: دار بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٧٧- ديوان النمر بن تولب العكلي: جمع وشرح وتحقيق: محمد نبيل طريفي، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م.

٢٧٨- ديوان امرئ القيس: لامرئ القيس بن حجر الكندي، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٢٧٩- ديوان زهير بن أبي سلمى: شرحه وقدم له: الأستاذ علي حسن فاعور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢٨٠- الذخيرة: لأحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، القرافي، تحقيق: جزء (١، ٨، ١٣): محمد حجي جزء (٢، ٦): سعيد أعراب جزء (٣ - ٥، ٧، ٩ - ١٢): محمد بو خبزة، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٤م.

٢٨١- الذريعة إلى مكارم الشريعة: للحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، تحقيق: أبو اليزيد أبو زيد العجمي، الناشر: دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

٢٨٢- ذم الهوى: لعبد الرحمن بن علي، أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد مراجعة: محمد الغزالي .

٢٨٣- ذيل طبقات الحنابلة: لعبد الرحمن بن أحمد بن رجب، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

٢٨٤- الرحلة في طلب الحديث: لأحمد بن علي بن ثابت، أبي بكر الخطيب البغدادي، تحقيق: نور الدين عتر، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٥هـ.

٢٨٥- الرد على الجهمية والزنادقة: لأحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: صبري بن سلامة شاهين، الناشر: دار الثبات للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى.

٢٨٦- الرد على الجهمية: لعثمان بن سعيد الدارمي، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، الناشر: دار ابن الأثير، الكويت، الطبعة: الثانية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٢٨٧- الرد على الشاذلي في حزبيه، وما صنفه في آداب الطريق: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: علي بن محمد العمران، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ.

٢٨٨- الرد على المنطقيين: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

٢٨٩- الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب: لمحمد بن محمود بن أحمد البابرتى، تحقيق: (جـ ١) ضيف الله بن صالح بن عون العمرى - (جـ ٢) ترحيب بن ربيعان الدوسري، الناشر: مكتبة الرشد ناشرون، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢٩٠- رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه: لمحمد بن أبي بكر بن أيوب، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الله بن محمد المديفر، الناشر: مطابع الشرق الأوسط، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٢٩١- الرسالة الأكملية في ما يجب لله من صفات الكمال: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، الناشر: مطبعة المدني، المؤسسة السعودية، القاهرة، مصر، الطبعة: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٩٢- الرسالة التبوكية (زاد المهاجر إلى ربه): لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد جميل غازي، الناشر: مكتبة المدني، جدة.

٢٩٣- الرسالة القشيرية: لعبد الكريم بن هوازن القشيري، تحقيق: عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف، الناشر: دار المعارف، القاهرة.

٢٩٤- رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب: لعلي بن إسماعيل، أبي الحسن الأشعري، تحقيق: عبد الله شاكر محمد الجنيدي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: ١٤١٣هـ.

٢٩٥- الرقة والبكاء: لعبد الله بن محمد، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، الناشر: دار ابن حزم، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

٢٩٦- رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز: لعبد الرازق بن رزق الله الرسعني، دراسة وتحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الناشر: مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

٢٩٧- روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي): لعبد الرحمن ابن أحمد ابن رجب، جمع وترتيب: طارق بن عوض الله بن محمد، الناشر: دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٩٨- روح البيان: لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٢٩٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لمحمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٣٠٠- الرُّوح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدَّلائل من الكتاب والسُّنة: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٠١- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام: لعبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٣٠٢- الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم صلَّى اللَّه عليه وسلَّم (وعليه حواشٍ لجماعةٍ من العلماء منهم الأمير الصنعاني): لمحمد بن إبراهيم، ابن الوزير، اعتنى به: علي بن محمد العمران، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.

٣٠٣- الروض المعطار في خبر الأقطار: لمحمد بن عبد الله الحِميرى، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٨٠م.

٣٠٤- روضة الطالبين وعمدة المفتين: ليحيى بن شرف النووي، تحقيق: زهير الشاويش،

الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان، الطبعة: الثالثة، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

٣٠٥- روضة المحبين ونزهة المشتاقين: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣٠٦- رياض الصالحين: ليحيى بن شرف النووي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٣٠٧- رياض الصالحين: ليحيى بن شرف النووي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٤هـ.

٣٠٨- زاد المسير في علم التفسير: لعبد الرحمن بن علي، أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٠٩- زاد المعاد في هدي خير العباد: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون: ١٤١٥هـ.

٣١٠- الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي: لمحمد بن أحمد بن الأزهري، تحقيق: مسعد عبد الحميد السعدني، الناشر: دار الطلائع.

٣١١- الزاهر في معاني كلمات الناس: لمحمد بن القاسم، أبي بكر الأنباري، تحقيق: حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٣١٢- الزهد والورع والعبادة: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق: حماد سلامة ومحمد عويضة، الناشر: مكتبة المنار، الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ.

٣١٣- الزهد: لأحمد بن محمد بن حنبل، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٣١٤- الزهر النضر في حال الخضر: لأحمد بن علي، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: صلاح مقبول أحمد، الناشر: مجمع البحوث الإسلامية - جوغابائي نيودلهي، الهند، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٣١٥- زهرة التفاسير: لمحمد بن أحمد بن مصطفى أبو زهرة، الناشر: دار الفكر العربي.

٣١٦- سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد: لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي، تحقيق وتعليق: عادل أحمد

عبد الموجود، وعلي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

٣١٧- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: لمحمد ابن أحمد الخطيب الشربيني، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية)، القاهرة، ١٢٨٥هـ.

٣١٨- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة: الأولى.

٣١٩- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار المعارف، الرياض، الطبعة: الأولى.

٣٢٠- السنة: لأبي بكر ابن أبي عاصم، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠هـ.

٣٢١- سنن ابن ماجه: لمحمد بن يزيد، ابن ماجه القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٣٢٢- سنن أبي داود: لسليمان بن الأشعث، أبي داود السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الفكر.

٣٢٣- سنن الترمذي: لمحمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد بن محمد شاكر، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: بدون، بدون

٣٢٤- سنن الترمذي: لمحمد بن عيسى، أبي عيسى الترمذي ، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٢٥- سنن الدارقطني: لعلي بن عمر الدارقطني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ.

٣٢٦- سنن الدارقطني: لعلي بن عمر الدارقطني، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبدالموجود، الناشر: دار المعرفة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٢٧- سنن الدارقطني: لعلي بن عمر، أبي الحسن الدارقطني، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة: بدون، ١٣٨٦هـ.

٣٢٨- سنن الدارمي: لعبد الله بن عبدالرحمن، أبي محمد الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ.

٣٢٩- السنن الصغير: لأحمد بن الحسين، أبي بكر البيهقي، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، باكستان، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ.

٣٣٠- السنن الكبرى: لأحمد بن الحسين، أبي بكر البيهقي، الناشر: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، الطبعة: الأولى، ١٣٤٤هـ.

٣٣١- السنن الكبرى: لأحمد بن شعيب، أبي عبد الرحمن النسائي، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

٣٣٢- سنن النسائي: لأحمد بن شعيب، أبي عبدالرحمن النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ.

٣٣٣- سنن سعيد بن منصور: لسعيد بن منصور، أبي عثمان، تحقيق: سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، الناشر: دار العصيمي، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

٣٣٤- سير أعلام النبلاء: لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٣٣٥- سيرة ابن إسحاق: لمحمد بن إسحاق بن يسار، تحقيق: محمد حميد الله، الناشر: معهد الدراسات والأبحاث للتعريف.

٣٣٦- السيرة النبوية: لعبد الملك بن هشام المعافري، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ، ١٩٥٥م.

٣٣٧- السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار: لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ.

٣٣٨- شجرة المعارف والأحوال وصالح الأعمال: لعز الدين بن عبد السلام السلمي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣م - ١٤٢٤هـ.

٣٣٩- شرح (مسائل الجاهلية لمحمد بن عبد الوهاب): لصالح بن فوزان ابن عبد الله الفوزان، الناشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٥م.

٣٤٠- شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك: لمحمد ابن الإمام جمال الدين محمد

ابن مالك، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م.

٣٤١- شرح أسماء الله الحسنى: لعبد السلام بن عبد الرحمن الإشبيلي، دار الكتب العلمية.

٣٤٢- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: لهبة الله بن الحسن اللالكائي، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، الناشر: دار طيبة، السعودية، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٣٤٣- شرح الأربعين النووية: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثريا للنشر.

٣٤٤- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك: لعلي بن محمد بن عيسى، نور الدين الأُشْمُوني، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨مـ.

٣٤٥- شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو: لخالد بن عبد الله الجرجاوي الأزهري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٣٤٦- شرح السنة: للحسين بن مسعود بن محمد البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣٤٧- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن): للحسين بن عبد الله الطيبي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

٣٤٨- شرح العقيدة الأصفهانية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: حسين محمد مخلوف، الناشر: دار الكتب الإسلامية.

٣٤٩- شرح العقيدة الأصفهانية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد بن رياض الأحمد، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة: الأولى، - ١٤٢٥هـ.

٣٥٠- شرح العقيدة السفارينية (الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية): لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ.

٣٥١- شرح العقيدة الطحاوية: لمحمد بن علاء الدين علي، ابن أبي العز، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد الله بن المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: العاشرة،

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٣٥٢- شرح العقيدة الواسطية: لمحمد بن صالح العثيمين، تحقيق: سعد فواز الصميل، الناشر: دار ابن الجوزي، الرياض، الطبعة: الخامسة: ١٤١٩هـ.

٣٥٣- شرح العقيدة الواسطية: لمحمد خليل هراس، تعليق: محمد بن صالح بن عثيمين، تحقيق: علوي بن عبد القادر السقاف، الناشر: الدرر السنية، الظهران، الطبعة: الثامنة، ١٤٣٦هـ.

٣٥٤- شرح العمدة في بيان مناسك الحج والعمرة: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، تحقيق: صالح بن محمد الحسن، الناشر: مكتبة الحرمين، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

٣٥٥- شرح الكوكب المنير: لمحمد بن أحمد الفتوحي، ابن النجار، تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، الناشر: مكتبة العبيكان، الطبعة: الثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٧ م.

٣٥٦- شرح الواحدي لديوان المتنبي: تحقيق: ياسين الأيوبي وقصي الحسين، الناشر: دار الرائد العربي، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٣٥٧- شرح تسهيل الفوائد: لمحمد بن عبد الله، ابن مالك، تحقيق: عبد الرحمن السيد، محمد بدوي المختون، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٣٥٨- شرح ثلاثة الأصول: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثريا للنشر، الطبعة: الرابعة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

٣٥٩- شرح ديوان الحماسة: لأحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، تحقيق: غريد الشيخ وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

٣٦٠- شرح ديوان المتنبي: لعبد الرحمن البرقوقي، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة: الأولى، ١٩٨٦م.

٣٦١- شرح رياض الصالحين: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة: ١٤٢٦ هـ.

٣٦٢- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب: لعبد الله بن يوسف بن أحمد، جمال الدين، ابن هشام، تحقيق: عبد الغني الدقر، الناشر: الشركة المتحدة للتوزيع، سوريا.

٣٦٣- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب: لمحمد بن عبد المنعم الجوجري، تحقيق: نواف بن جزاء الحارثي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٤م.

٣٦٤- شرح صحيح البخارى: لعلي بن خلف بن عبد الملك، ابن بطال، تحقيق: ياسر ابن إبراهيم، الناشر: مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٣٦٥- شرح عمدة الفقه (من أول كتاب الصلاة إلى آخر باب آداب المشي إلى الصلاة): لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: خالد بن علي بن محمد المشيقح، الناشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٣٦٦- شرح عمدة الفقه (من كتاب الطهارة والحج): لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: سعود صالح العطيشان، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ.

٣٦٧- شرح قواعد الإعراب: لمحمد بن مصطفى القُوجَوي، شيخ زاده، دراسة وتحقيق: إسماعيل إسماعيل مروة، الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

٣٦٨- شرح كتاب سيبويه: للحسن بن عبد الله السيرافي، تحقيق: أحمد حسن مهدلي، وعلي سيد علي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨ م.

٣٦٩- شرح كفاية المتحفظ (تحرير الرواية في تقرير الكفاية): لمحمد بن الطيب الفاسي، تحقيق: علي حسين البواب، الناشر: دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣٧٠- شرح مختصر التحرير: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ محمد ابن صالح العثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٣٧١- شرح مختصر الروضة: لسليمان بن عبد القوي الطوفي الصرصري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣٧٢- شرح مختصر الطحاوي: لأحمد بن علي، أبي بكر الرازي، تحقيق: عصمت الله عنايت الله محمد، ومحمد عبيد الله خان، وزينب محمد حسن فلاتة، أعد الكتاب للطباعة وراجعه وصححه: سائد بكداش، الناشر: دار البشائر الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.

٣٧٣- شرح مراقي السعود المسمى (نثر الورود): لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، تحقيق: علي بن محمد العمران، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع .

٣٧٤- شرح مشكل الآثار: لأحمد بن محمد بن سلامة، أبي جعفر الطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٤٩٤ م.

٣٧٥- شرح مشكل الوسيط: لعثمان بن عبد الرحمن، ابن الصلاح، تحقيق: عبد المنعم خليفة أحمد بلال، الناشر: دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.

٣٧٦- شرح مصابيح السنة: لمحمد بن عز الدين عبد اللطيف، ابن الملك، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، الناشر: إدارة الثقافة الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

٣٧٧- شرح معاني الآثار: لأحمد بن محمد بن سلامة، أبي جعفر الطحاوي، تحقيق: محمد زهري النجار ومحمد سيد جاد الحق، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

٣٧٨- شرح مقدمة التفسير: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

٣٧٩- شرح نظم الورقات: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ.

٣٨٠- شعب الإيمان: لأحمد بن الحسين، أبي بكر البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ.

٣٨١- شعب الإيمان: لأحمد بن الحسين، أبي بكر البيهقي، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: عبد العلي عبد الحميد حامد، وأشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

٣٨٢- الشعر والشعراء: لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الناشر: دار الحديث، القاهرة عام النشر: ١٤٢٣ هـ.

٣٨٣- الشفا بتعريف حقوق المصطفى: للقاضي عياض بن موسى (مذيلًا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء) لأحمد بن محمد الشمنى، الناشر: دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع: ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

٣٨٤- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، الناشر: دار المعرفة، بيروت : ١٣٩٨هـ.

٣٨٥- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: لنشوان بن سعيد الحميرى، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري ومطهر بن علي الإرياني ويوسف محمد عبد الله، الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، سورية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ- ١٩٩٩ م.

٣٨٦- الصارم المسلول على شاتم الرسول: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: الحرس الوطني السعودي، المملكة العربية السعودية.

٣٨٧- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.

٣٨٨- صحيح ابن حبان: لمحمد بن حبان بن أحمد، أبي حاتم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ.

٣٨٩- صحيح ابن خزيمة: لمحمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: بدون، ١٣٩٠هـ.

٣٩٠- صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الصديق، الطبعة: الأولى ١٤١٤هـ.

٣٩١- صحيح البخاري: لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، الناشر: المكتبة السلفية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠هـ.

٣٩٢- صحيح الترغيب والترهيب: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ.

٣٩٣- صحيح الجامع الصغير: لمحمد ناصر الدين الألباني، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ.

٣٩٤- الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين: لمقبل بن هادي الوادعي، الناشر: مكتبة دار القدس، صنعاء، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

٣٩٥- الصحيح المسند من أسباب النزول: لمقبل بن هادي الوادعي، الناشر: دار ابن حزم، الطبعة: الثانية، ١٤١٥هـ.

٣٩٦- الصحيح المسند من أسباب النزول: لمقبل بن هادي الوادعي، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة: الرابعة ١٤٠٨هـ.

٣٩٧- الصحيح المسند من دلائل النبوة: لمقبل بن هادي الوادعي، الناشر: مكتبة صنعاء الأثرية، الطبعة: الثانية ١٤٢٤هـ.

٣٩٨- صحيح سنن ابن ماجه: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ.

٣٩٩- صحيح سنن أبي داود: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.

٤٠٠- صحيح سنن الترمذي: لمحمد ناصر الدين الألباني، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٤٠١- صحيح سنن النسائي: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.

٤٠٢- صحيح مسلم: لمسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة: الأولى، ١٣٧٤هـ.

٤٠٣- صحيح موارد الظمآن: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الصميعي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٤٠٤- صفات الله عزَّ وجلَّ الواردة في الكتاب والسُّنة: لعَلَوي بن عبد القادر السَّقَّاف، الناشر: الدرر السنية، الظهران، الطبعة: الرابعة، ١٤٣٢هـ.

٤٠٥- صفة جزيرة العرب: للحسن بن أحمد، ابن الحائك الهمداني، الناشر: مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٤ م.

٤٠٦- الصَّفدية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: مكتية ابن تيمية، مصر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ.

٤٠٧- صفوة البيان لمعاني القرآن: لحسنين محمد مخلوف، الناشر: لجنة الاحتفالات بمقدم القرن الخامش عشر الهجري، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢ ه-١٩٨٢م.

٤٠٨- الصلاة وأحكام تاركها: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: مكتبة الثقافة،

المدينة المنورة.

٤٠٩- الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطِّلة: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، الناشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٤١٠- صيد الخاطر: لعبد الرحمن بن علي بن محمد، أبي الفرج ابن الجوزي، بعناية: حسن المساحي سويدان، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

٤١١- ضعيف الأدب المفرد: لمحمد ناصر الدين الألباني، تحقيق: بدون، الناشر: دار الصديق، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

٤١٢- ضعيف الترغيب والترهيب: لمحمد ناصر الدين الألباني، تحقيق: بدون، الناشر: مكتبة المعارف، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ.

٤١٣- ضعيف الجامع الصغير: لمحمد ناصر الدين الألباني، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ.

٤١٤- ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة: لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة: الرابعة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٤١٥- الضياء اللامع من الخطب الجوامع: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٤١٦- طبقات الشافعية الكبرى: لعبد الوهاب بن علي، تاج الدين السبكي، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ.

٤١٧- الطبقات الكبرى: لمحمد بن سعد بن منيع، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م.

٤١٨- الطبقات الكبرى: لمحمد بن سعد، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٦٨م.

٤١٩- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ليحيى بن حمزة، المؤيد بالله، الناشر: المكتبة العنصرية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

٤٢٠- طرح التثريب في شرح التقريب: لعبد الرحيم بن الحسين العراقي - أكمله ابنه: أحمد بن عبد الرحيم، أبو زرعة ولي الدين، الطبعة المصرية القديمة، وصورتها دور عدة منها (دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، ودار الفكر العربي).

٤٢١- طريق الهجرتين وباب السعادتين: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار السلفية، القاهرة، الطبعة: الثانية ١٣٩٤هـ.

٤٢٢- عارضة الأحوذي: لمحمد بن عبدالله، ابن العربي، تحقيق: صدقي جميل العطار، الناشر: دار الفكر، تاريخ النشر: ١٤١٥هـ

٤٢٣- عالم الملائكة الأبرار: لعمر بن سليمان الأشقر، الناشر: مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.

٤٢٤- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٤٢٥- العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير: لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦هـ.

٤٢٦- العرش: لمحمد بن أحمد بن عثمان، الذهبي، تحقيق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٤٢٧- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: لأحمد بن علي، بهاء الدين السبكي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

٤٢٨- العظمة: لعبد الله بن محمد، أبي الشيخ الأصبهاني، تحقيق: رضاء الله ابن محمد إدريس المباركفوري، الناشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٤٢٩- العقود: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي، وناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة السنة المحمدية، الطبعة: الأولى، ١٣٨٦هـ.

٤٣٠- العلل المتناهية: لعبدالرحمن بن علي ابن الجوزي، تحقيق: إرشاد الحق الأثري، الناشر: إدارة ترجمان السنة.

٤٣١- عمدة التفسير: لأحمد بن محمد شاكر، الناشر: دار الوفاء، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦هـ.

٤٣٢- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: لأحمد بن يوسف بن عبد الدائم، السمين الحلبي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٤٣٣- عمدة القاري شرح صحيح البخاري: لمحمود بن أحمد العيني، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٣٤- العنوان في القراءات السبع: لإسماعيل بن خلف بن سعيد المقرئ السرقسطي، تحقيق: زهير زاهد وخليل العطية، الناشر: عالم الكتب، بيروت عام النشر: ١٤٠٥هـ.

٤٣٥- العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم: لمحمد بن إبراهيم، ابن الوزير، حققه وضبط نصه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٤٣٦- العيال: لعبد الله بن محمد، ابن أبي الدنيا، تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف، الناشر: دار ابن القيم، الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٤٣٧- عيون الأخبار: لعبد الله بن مسلم بن قتيبة، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١٨هـ.

٤٣٨- غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني: لأحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني، دراسة وتحقيق: محمد مصطفي كوكصو، الناشر: جامعة صاقريا كلية العلوم الاجتماعية، تركيا: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٤٣٩- غرائب التفسير وعجائب التأويل: لمحمود بن حمزة بن نصر الكرماني، الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة.

٤٤٠- غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب: لمحمد بن عُزير السجستاني، تحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران، الناشر: دار قتيبة، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ.

٤٤١- غريب القرآن: لعبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: أحمد صقر، الناشر: دار الكتب العلمية، : ١٣٩٨ هـ.

٤٤٢- الغريبين في القرآن والحديث: لأحمد بن محمد الهروي، تحقيق ودراسة: أحمد فريد المزيدي، قدم له وراجعه: فتحي حجازي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٤٤٣- غوامض الأسماء المبهمة والأحاديث المسندة في القرآن: لعبد الرحمن ابن

عبد الله السهيلي، تحقيق: هيثم عياش، الناشر: دار الفكر العربي، دار الوسام، ١٩٨٨م.

٤٤٤- الفتاوى الكبرى: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، ومصطفى عبدالقادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٤٤٥- فتاوى اللجنة الدائمة - المجموعة الأولى: جمع وترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، الناشر: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء - الإدارة العامة للطبع، الرياض.

٤٤٦- فتاوى نور على الدرب: لعبدالعزيز بن عبد الله بن باز، الناشر: الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء- الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ.

٤٤٧- فتح الباري شرح صحيح البخاري: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٤٤٨- فتح الباري شرح صحيح البخاري: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، الناشر: المكتبة السلفية، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٧هـ.

٤٤٩- فتح الباري: لعبد الرحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق: طارق بن عوض الله، الناشر: دار ابن الجوزي، السعودية، الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤٢٢هـ.

٤٥٠- فتح البيان في مقاصد القرآن: لمحمد صديق خان، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، ١٤١٢هـ.

٤٥١- الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني: لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: محمد صبحي حلاق، الناشر: مكتبة الجيل الجديد، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

٤٥٢- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: لزكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنيكي، تحقيق: محمد علي الصابوني، الناشر: دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

٤٥٣- فتح الرحمن في تفسير القرآن: لمجير الدين بن محمد العليمي، اعتنى به تحقيقًا وضبطًا وتخريجًا: نور الدين طالب، الناشر: دار النوادر (إصدارات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - إدارة الشؤون الإسلامية)، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٤٥٤- فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٠٧هـ ـ ١٢٧٦هـ) اعتنى به: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، الناشر: دار الفضيلة، الجزائر، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٤٥٥- الفتح القدسي في آية الكرسي: لإبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: سعود بن عبد الله الفنيسان، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٤٥٦- فتح القدير (مطبوع مع الهداية للمرغيناني ونتائج الأفكار لقاضي زاده): لكمال الدين محمد بن عبد الواحد، ابن الهمام، الناشر: دار الفكر.

٤٥٧- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: لمحمد بن علي الشوكاني، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

٤٥٨- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: سيد إبراهيم، الناشر: دار زمزم، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ.

٤٥٩- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: لعبد الرحمن بن حسن بن محمد ابن عبد الوهاب، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، الطبعة: السابعة: ١٣٧٧هـ.

٤٦٠- فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام: لمحمد بن صالح العثيمين، تحقيق وتعليق: صبحي بن محمد رمضان، أم إسراء بنت عرفة بيومي، الناشر: المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م.

٤٦١- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف): لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج، القسم الدراسي: جميل بني عطا، المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب: محمد عبد الرحيم سلطان العلماء، الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.

٤٦٢- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية (حاشية الجمل على الجلالين): لسليمان بن عمر، المعروف بالجمل، الناشر: المطبعة الشرفية العامرة، مصر، الطبعة: الأولى، سنة ١٣٠٣هـ.

٤٦٣- الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية: لمحمد بن علان الصديقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٦٤- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية: لعبد القاهر بن طاهر البغدادي، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٧٧م.

٤٦٥- الفروق (أنوار البروق في أنواء الفروق): لأحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، القرافي، الناشر: عالم الكتب.

٤٦٦- الفروق اللغوية: للحسن بن عبد الله ، أبي هلال العسكري، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.

٤٦٧- الفصل في الملل والأهواء والنحل: لأبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة.

٤٦٨- الفصول المفيدة في الواو المزيدة: لخليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي، تحقيق: حسن موسى الشاعر، الناشر: دار البشير، عمان، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٤٦٩- فضائل القرآن: لإسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: أبي إسحاق الحويني، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ.

٤٧٠- فضائل القرآن: للقاسم بن سلام، أبي عبيد، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، الناشر: دار ابن كثير (دمشق، بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ-١٩٩٥م.

٤٧١- فضل قيام الليل والتهجد: لمحمد بن الحسين الآجري، تحقيق: عبد اللطيف بن محمد الجيلاني الآسفي، الناشر: دار الخضيري، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٤٧٢- فقه أشراط الساعة: لمحمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم، الناشر: الدار العالمية للنشر والتوزيع، الطبعة: السادسة، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٤٧٣- فقه اللباس والزينة: إعداد القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية. إشراف علوي بن عبد القادر السقاف، الطبعة: الأولى. ١٤٣٨ هـ.

٤٧٤- فقه اللغة وسر العربية: لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل، أبي منصور الثعالبي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٤٧٥- الفقيه والمتفقه: لأحمد بن علي، أبي بكر الخطيب البغدادي، المحقق: عادل بن يوسف الغرازي، الناشر: دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢١هـ.

٤٧٦- فهم القرآن ومعانيه: للحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق: حسين القوتلي، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٨هـ.

٤٧٧- الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية: لنعمة الله بن محمود النخجواني، الشيخ علوان، الناشر: دار ركابي للنشر، الغورية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٤٧٨- فوائد مستنبطة من سورة يوسف عليه السلام: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، اعتنى به وعلق عليه: أشرف بن عبد المقصود، الناشر: أضواء السلف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

٤٧٩- الفوائد: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٣هـ.

٤٨٠- فيض القدير شرح الجامع الصغير: لعبد الرؤوف المناوي، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٥٦هـ.

٤٨١- القاموس المحيط: لمحمد بن يعقوب الفيروزابادى، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثامنة: ١٤٢٦هـ.

٤٨٢- القدر: لجعفر بن محمد الفريابي، تحقيق: عبد الله بن حمد المنصور، الناشر: أضواء السلف، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ- ١٩٩٧م.

٤٨٣- القرآن ونقض مطاعن الرهبان: لصلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النشر: دار القلم، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ- ٢٠٠٧ م.

٤٨٤- قضاء الأرب في أسئلة حلب: لعلي بن عبد الكافي، تقي الدين السبكي، تحقيق محمد عالم عبد المجيد الأفغاني المكتبة التجارية، مكة المكرمة مصطفى أحمد الباز.

٤٨٥- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان: لأحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: إبراهيم الإبياري، الناشر: دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢ م.

٤٨٦- قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن: لمرعي بن يوسف الكرمى، تحقيق: سامي عطا حسن، الناشر: دار القرآن الكريم، الكويت.

٤٨٧- قواعد الأحكام في مصالح الأنام: لعبد العزيز بن عبد السلام، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

٤٨٨- القواعد الحسان لتفسير القرآن: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٤٨٩- قواعد العقائد: لمحمد بن محمد الغزالي، تحقيق: موسى محمد علي، الناشر: عالم الكتب، لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

٤٩٠- القواعد النورانية الفقهية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣٧٠هـ.

٤٩١- القواعد والأصول وتطبيقات التدبر: لخالد بن عثمان السبت، الناشر: دار الحضارة للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٣٧ هـ- ٢٠١٦م.

٤٩٢- القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع: لمحمد بن عبدالرحمن السخاوي، تحقيق: بشير محمد عيون، الناشر: مكتبة المؤيد.

٤٩٣- القول السديد شرح كتاب التوحيد: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: المرتضى الزين أحمد، الناشر: مجموعة التحف النفائس الدولية، الطبعة: الثالثة.

٤٩٤- القول المحمود في تنزيه داود (عليه السلام): لتقي الدين السبكي الشافعي، قدم لها وعلق عليها: حسام الحفناوي.

٤٩٥- القول المفيد على كتاب التوحيد: لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين، الناشر: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ.

٤٩٦- الكامل في التاريخ: لعلي بن أبي الكرم محمد، ابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

٤٩٧- الكامل في الضعفاء: لعبد الله بن عدي بن عبدالله، تحقيق: يحيى مختار غزاوي، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ.

٤٩٨- الكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها: ليوسف بن علي، أبي القاسم اليشكري ، تحقيق: جمال بن السيد بن رفاعي الشايب، الناشر: مؤسسة سما للتوزيع والنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ- ٢٠٠٧ م.

٤٩٩- الكامل في اللغة والأدب: لمحمد بن يزيد، أبي العباس المبرد ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

٥٠٠- كتاب التوحيد: لمحمد بن عبد الوهاب النجدي، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: أبو مالك الرياشي أحمد بن علي بن كثنى القفيلي، الناشر: مكتبة عبد الرحمن، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

٥٠١- كتاب الصيام من شرح العمدة: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري، الناشر: دار الأنصاري، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

٥٠٢- كتاب العين: للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

٥٠٣- الكتاب: لعمرو بن عثمان، سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

٥٠٤- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (تفسير الزمخشري): لمحمود ابن عمرو الزمخشري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٧هـ.

٥٠٥- كشف الأسرار شرح أصول البزدوي: لعبد العزيز بن أحمد، علاء الدين البخاري، الناشر: دار الكتاب الإسلامي.

٥٠٦- كشف المشكل من حديث الصحيحين: لعبد الرحمن بن علي، أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: علي حسين البواب، الناشر: دار الوطن، الرياض.

٥٠٧- كشف المعانى فى المتشابه من المثانى: لمحمد بن إبراهيم، بدر الدين ابن جماعة، تحقيق: عبد الجواد خلف، الناشر: دار الوفاء، المنصورة، مصر الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

٥٠٨- الكشف والبيان عن تفسير القرآن: لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٥٠٩- الكفاية في علم الرواية: لأحمد بن علي بن ثابت، أبي بكر الخطيب البغدادي، تحقيق: أبي عبد الله السورقي، وإبراهيم حمدي المدني، الناشر: المكتبة العلمية، المدينة المنورة.

٥١٠- الكليات: لأيوب بن موسى، أبي البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥١١- كناشة النوادر: لعبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ.

٥١٢- الكنز الثمين في سؤالات ابن سنيد: لابن عثيمين إعداد: فهد بن عبد الله بن إبراهيم السنيد، الناشر: الدار العالمية للنشر والتوزيع.

٥١٣- الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري: لمحمد بن يوسف، شمس الدين الكرماني، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان الطبعة الأولى: ١٣٥٦هـ -

١٩٣٧م، الطبعة الثانية: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٥١٤- اللامات: لعبد الرحمن بن إسحاق، أبي القاسم الزجاجي، تحقيق: مازن المبارك، الناشر: دار الفكر، دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٥١٥- لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن): لعلي بن محمد ابن إبراهيم الخازن، تحقيق: محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٥١٦- اللباب في علوم الكتاب: لعمر بن علي بن عادل، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ.

٥١٧- لسان العرب: لمحمد بن مكرم ابن منظور، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٤هـ.

٥١٨- لطائف الإشارات: لعبد الكريم بن هوازن القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، الطبعة: الثالثة.

٥١٩- لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف: لعبد الرحمن بن رجب الحنبلي، الناشر: دار ابن حزم للطبع والنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ.

٥٢٠- لقط المرجان في أحكام الجان: لجلال الدين السيوطي، دراسة وتحقيق: مصطفى عاشور الناشر: مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.

٥٢١- لمعة الاعتقاد: لعبد الله بن أحمد، ابن قدامة، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٥٢٢- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية: لمحمد بن أحمد السفاريني، الناشر: مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م.

٥٢٣- مباحث التفسير: لأحمد بن محمد، بدر الدين الرازي، دراسة وتحقيق: حاتم بن عابد بن عبد الله القرشي، الناشر: كنوز إشبيليا، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

٥٢٤- مباحث في إعجاز القرآن: لمصطفى مسلم، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

٥٢٥- المبسوط في القراءات العشر: لأحمد بن الحسين بن مِهْران النيسابورى، تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي، الناشر: مجمع اللغة العربية، دمشق: ١٩٨١ م.

٥٢٦- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لنصر الله بن محمد، ابن الأثير الكاتب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٠ هـ.

٥٢٧- مجاز القرآن: معمر بن المثنى، أبي عبيدة البصري، تحقيق: محمد فواد سزگين، الناشر: مكتبة الخانجى، القاهرة، الطبعة: ١٣٨١ هـ.

٥٢٨- مجالس ثعلب: لأحمد بن يحيى ثعلب، شرح وتعليق: عبد السلام محمد هارون. النشرة الثانية، دار المعارف مصر.

٥٢٩- المجروحين: لمحمد بن حبان البستي، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي، الناشر: دار الصميعي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٥٣٠- مجلة المنار: مجموعة من المؤلفين، محمد رشيد بن علي رضا وغيره.

٥٣١- مجمع الأمثال: لأحمد بن محمد النيسابوري، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

٥٣٢- مجمع الزوائد: لعلي بن أبي بكر الهيثمي، الناشر: مؤسسة المعارف، ١٤٠٦هـ.

٥٣٣- مجموع الفتاوى: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، اعتنى بها: أنور الباز، وعامر الجزار، الناشر: دار الوفاء، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦هـ.

٥٣٤- مجموع الفتاوى: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن ابن محمد بن قاسم، الطبعة: الأولى ١٣٩٨هـ.

٥٣٥- مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي: لعبد الرحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق: طلعت بن فؤاد الحلواني، الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ.

٥٣٦- مجموع فتاوى ومقالات متنوعة: لعبد العزيز بن باز، جمع وإشراف: محمد بن سعد الشويعر، الناشر: دار القاسم للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى: ١٤٢٠ هـ.

٥٣٧- المجموع: ليحيى بن شرف النووي، الناشر: دار الفكر.

٥٣٨- مجموعة الرسائل والمسائل: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، علق عليه: السيد

محمد رشيد رضا، الناشر: لجنة التراث العربي.

٥٣٩- مجموعة رسائل في التوحيد والإيمان (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الأول): لمحمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجد، تحقيق: إسماعيل بن محمد الأنصاري، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٥٤٠- محاسن التأويل: لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلميه، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٥٤١- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: لعثمان بن جني، أبي الفتح الموصلي، الناشر: وزارة الأوقاف-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الطبعة: ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٥٤٢- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية): لعبد الحق ابن غالب ابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٥٤٣- المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة: لخالد بن سليمان المزيني، الناشر: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ.

٥٤٤- المحكم والمحيط الأعظم: لعلي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.

٥٤٥- المحلى بالآثار: لعلي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٥٤٦- المحلى: لابن حزم، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الجيل.

٥٤٧- مختار الصحاح: لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر، زين الدين الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٥٤٨- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم: لمحمد ابن محمد ابن عبد الكريم ابن الموصلي، تحقيق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٥٤٩- مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية: لمحمد بن علي البعلي، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار ابن القيم، الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ.

٥٥٠- مختصر فقه الصلاة: إعداد القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية، الناشر: مؤسسة الدرر السنية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ.

٥٥١- مختصر فقه الطهارة: إعداد القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية، الناشر: الدرر السنية، الظهران، الطبعة: الأولى، ١٤٣٥هـ.

٥٥٢- المختصر في تفسير القرآن الكريم: تصنيف: جماعة من علماء التفسير، إشراف: مركز تفسير للدراسات القرآنية، الطبعة: الثالثة، ١٤٣٦هـ.

٥٥٣- مختصر منهاج القاصدين: لأحمد بن عبد الرحمن، أبي العباس ابن قدامة، قدم له: الأستاذ محمد أحمد دهمان، الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق عام النشر: ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م.

٥٥٤- المخصص: لعلي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: خليل إبراهم جفال، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٥٥٥- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ.

٥٥٦- مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي): لعبد الله بن أحمد ابن محمود حافظ الدين النسفي، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي - راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

٥٥٧- مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة: لزغلول النجار، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٥٥٨- المذكر والمؤنث: لمحمد بن القاسم، أبي الحسن الأنباري، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة مراجعة: رمضان عبد التواب، الناشر: جمهورية مصر العربية - وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.

٥٥٩- مذكرة في أصول الفقه: لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الخامسة، ٢٠٠١م.

٥٦٠- مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات: لعلي بن أحمد بن سعيد ابن حزم الظاهري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٦١- مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: لمحمد بن عمر نووي الجاوي، تحقيق: محمد أمين الصناوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

٥٦٢- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: لعبد المؤمن بن عبد الحق، القطيعي، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٥٦٣- مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع: لجلال الدين السيوطي، قرأه وتممه: عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ.

٥٦٤- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: لعلي بن سلطان محمد الملا الهروي القاري، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٥٦٥- المسائل البصريات: لأبي علي الفارسي، تحقيق: محمد الشاطر أحمد محمد أحمد، الناشر: مطبعة المدني، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٥٦٦- المستدرك: لمحمد بن عبد الله، أبي عبد الله الحاكم، تحقيق: عبد السلام بن محمد ابن عمر علوش، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٧هـ.

٥٦٧- المستدرك: لمحمد بن عبدالله، الحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

٥٦٨- مسند ابن عباس: لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني، القاهرة.

٥٦٩- مسند أبي عوانة: ليعقوب بن إسحاق، أبي عوانة، تحقيق: بدون، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

٥٧٠- مسند أبي يعلى: لأحمد بن علي بن المثنى، أبي يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة: بدون، ١٤٠٤هـ.

٥٧١- مسند أحمد: لأحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ.

٥٧٢- مسند البزار: لأحمد بن عمرو بن عبد الخالق، أبي بكر البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، الناشر: مؤسسة علوم القرآن، بيروت ، مكتبة العلوم والحكم، المدينة، الطبعة: بدون، ١٤٠٩هـ.

٥٧٣- مسند الحارث: للحارث ابن أبي أسامة، تحقيق: حسين أحمد صالح الباكري، الناشر: مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ.

٥٧٤- مسند الحميدي: لعبد الله بن الزبير، أبي بكر الحميدي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، مكتبة المتنبي، القاهرة.

٥٧٥- مسند الطيالسي: لسليمان بن داود، أبي داود الطيالسي، تحقيق: محمد عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٥٧٦- مسند عبد بن حميد: لعبد الحميد بن حميد، تحقيق: مصطفى العدوي، الناشر: دار بلنسية للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ.

٥٧٧- مشارق الأنوار على صحاح الآثار: للقاضي عياض بن موسى، الناشر: المكتبة العتيقة ودار التراث.

٥٧٨- مشكل إعراب القرآن: لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ.

٥٧٩- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (المقصد الأسمى في مطابقة اسم كل سورة للمسمى): لإبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٥٨٠- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: لأحمد بن محمد بن علي الفيومي، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت.

٥٨١- مصنف ابن أبي شيبة: لعبدالله بن محمد، أبي بكر بن أبي شيبة، تحقيق: محمد عوامة، الناشر: طبعة الدار السلفية الهندية القديمة.

٥٨٢- مصنف عبدالرزاق: لعبدالرزاق بن همام، أبي بكر الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ.

٥٨٣- المطالب العالية: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: غنيم بن عباس بن غنيم وآخر، الناشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٥٨٤- مطالع الأنوار على صحاح الآثار: لإبراهيم بن يوسف، ابن قرقول، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٥٨٥- المطلع على ألفاظ المقنع: لمحمد بن أبي الفتح البعلي، تحقيق: محمود الأرناؤوط وياسين محمود الخطيب، الناشر: مكتبة السوادي للتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٥٨٦- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول: لحافظ بن أحمد ابن علي الحكمي، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، الناشر: دار ابن القيم، الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ.

٥٨٧- معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي): للحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٥٨٨- معالم السنن (شرح سنن أبي داود): لحمد بن محمد الخطابي، الناشر: المطبعة العلمية، حلب، الطبعة: الأولى، ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢م.

٥٨٩- معانى القرآن: لأبي الحسن الأخفش، تحقيق: هدى محمود قراعة، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٥٩٠- معاني القراءات: لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، الناشر: مركز البحوث في كلية الآداب- جامعة الملك سعود، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٥٩١- معاني القرآن وإعرابه: لإبراهيم بن السري بن سهل، أبي إسحاق الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٥٩٢- معاني القرآن: لأحمد بن محمد، أبي جعفر النحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، الناشر: جامعة أم القرى، مكة المرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.

٥٩٣- معاني القرآن: ليحيى بن زياد الفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي ومحمد علي النجار وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، الطبعة: الأولى.

٥٩٤- معجم (مقاييس اللغة): لأحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، ١٣٩٩هـ.

٥٩٥- معجم ابن الأعرابي: لأبي سعيد ابن الأعرابي، تحقيق: عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ.

٥٩٦- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب): لياقوت بن عبد الله الحموي،

تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.

٥٩٧- المعجم الأوسط: لسليمان بن أحمد، أبي القاسم الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبدالمحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.

٥٩٨- معجم البلدان: لياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥م.

٥٩٩- معجم الصحابة: لعبد الله بن محمد، أبي القاسم البغوي، تحقيق: محمد الأمين بن محمد الجكني، الناشر: مكتبة دار البيان، الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

٦٠٠- المعجم الصغير: لسليمان بن أحمد، أبي القاسم الطبراني، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، دار عمار، عمان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ.

٦٠١- معجم الفروق اللغوية: للحسن بن عبد الله، أبي هلال العسكري، تحقيق: بيت الله بيات، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٦٠٢- المعجم الكبير: لسليمان بن أحمد، أبي القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الثانية، ١٩٨٣م.

٦٠٣- المعجم الوسيط: قام بإخراجه (إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار) إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الناشر: دار الدعوة.

٦٠٤- معجم متن اللغة: لأحمد رضا، الناشر: دار مكتبة الحياة، بيروت: ١٣٧٧ - ١٣٨٠هـ.

٦٠٥- المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم: لموهوب بن أحمد، أبي منصور الجواليقي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، الناشر: مطبعة دار الكتب، الطبعة: الثانية، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

٦٠٦- معرفة السنن والآثار: لأحمد بن الحسين، أبي بكر البيهقي، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: جامعة الدراسات الإسلامية كراتشي بباكستان، دار الوعي حلب، دار قتيبة دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٦٠٧- معرفة الصحابة: لأحمد بن عبد الله، أبي نعيم الأصبهاني، تحقيق: عادل بن يوسف

العزازي، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٦٠٨- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: لعبد الله بن يوسف، ابن هشام، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، الناشر: دار الفكر، دمشق، الطبعة: السادسة، ١٩٨٥م.

٦٠٩- المغني: لعبد الله بن أحمد بن محمد، أبي محمد موفق الدين ابن قدامة، الناشر: مكتبة القاهرة: ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

٦١٠- مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني: لمحمد بن محمود، أبي العلاء الكرماني، دراسة وتحقيق: عبد الكريم مصطفى مدلج، تقديم: محسن عبد الحميد، الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

٦١١- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): لمحمد بن عمر، فخر الدين الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠هـ.

٦١٢- مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار: لعبد العزيز بن محمد السلمان.

٦١٣- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٦١٤- المفردات في غريب القرآن: للحسين بن محمد، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٦١٥- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام: لجواد علي، الناشر: دار الساقي، الطبعة: الرابعة ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٦١٦- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: لأحمد بن عمر، أبي العباس القرطبي، حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب ميستو وأحمد محمد السيد ويوسف علي بديوي ومحمود إبراهيم بزال، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

٦١٧- المقاصد الحسنة: لمحمد بن عبدالرحمن السخاوي، تحقيق: محمد عثمان الخشت، الناشر: دار الكتب العربي، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ.

٦١٨- المقتضب: لمحمد بن يزيد بن عبد الأكبر، أبي العباس المبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، الناشر: عالم الكتب، بيروت.

٦١٩- المقدمات الممهدات: محمد بن أحمد، أبي الوليد ابن رشد، تحقيق: محمد

حجي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٦٢٠- المكتفى في الوقف والابتدا: لعثمان بن سعيد الداني، تحقيق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، الناشر: دار عمار، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٦٢١- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: لأحمد بن إبراهيم بن الزبير، أبي جعفر الغرناطي ، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٢٢- ملخص فقه العبادات: إعداد القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية، إشراف علوي ابن عبد القادر السقاف، الطبعة: الأولى، ١٤٣٧ هـ.

٦٢٣- الملل والنحل: لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الناشر: مؤسسة الحلبي.

٦٢٤- المنار المنيف في الصحيح والضعيف: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة: الأولى، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

٦٢٥- منار الهدى في بيان الوقف والابتدا: لأحمد بن عبد الكريم الأشموني ومعه المقصد لتلخيص ما في المرشد لزكريا بن محمد الأنصاري، تحقيق: شريف أبو العلا العدوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

٦٢٦- مناقب الإمام أحمد: لعبد الرحمن بن علي، أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٩ هـ.

٦٢٧- مناهج الجدل في القرآن الكريم: لزاهر عواض الألمعي، الطبعة: الثانية، ١٤٠٠هـ.

٦٢٨- المنتخب من غريب كلام العرب: لعلي بن الحسن الهنائي الأزدي، تحقيق: محمد ابن أحمد العمري، الناشر: جامعة أم القرى (معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي)، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٦٢٩- المنتقى: لعبدالله بن علي بن الجارود، تحقيق: عبدالله عمر البارودي، الناشر: مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٦٣٠- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ.

٦٣١- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: ليحيى بن شرف النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢ هـ.

٦٣٢- المهذب في فقة الإمام الشافعي: لإبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي، الناشر: دار الكتب العلمية.

٦٣٣- المهذب: لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: ياسر إبرهيم محمد، الناشر: دار الوطن للنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٦٣٤- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري: للحسن بن بشر الآمدي: تحقيق: المجلد الأول والثاني السيد أحمد صقر، الناشر: دار المعارف، المجلد الثالث: عبد الله المحارب، الناشر: مكتبة الخانجي، الطبعة: الأولى، ١٩٩٤ م.

٦٣٥- الموافقات: لإبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

٦٣٦- المواهب الربانية من الآيات القرآنية: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، المحقق: عمر بن عبد الله المقبل، الناشر: دار الحضارة للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ ه- ٢٠١١ م.

٦٣٧- موجز البلاغة: لمحمد الطاهر ابن عاشور، الناشر: المطبعة التونسية نهج سوق البلاط عدد ٥٧، تونس، الطبعة: الأولى.

٦٣٨- الموسوعة القرآنية: لإبراهيم بن إسماعيل الأبياري، الناشر: مؤسسة سجل العرب، الطبعة: ١٤٠٥ هـ.

٦٣٩- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: إشراف وتخطيط ومراجعة: مانع بن حماد الجهني، الناشر: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٠ هـ.

٦٤٠- الموضوعات: لعبدالرحمن بن علي ابن الجوزي، تحقيق: نور الدين شكري بوياحيلار، الناشر: أضواء السلف، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٦٤١- الموطأ: لمالك بن أنس، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة: بدون، ١٤٠٦ هـ.

٦٤٢- الموطأ: لمالك بن أنس، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ

- ٢٠٠٤ م.

٦٤٣- ميزان الاعتدال: لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

٦٤٤- ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه: لهبة الله بن عبد الرحيم، شرف الدين ابن البارزي الحموي، تحقيق: حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

٦٤٥- الناسخ والمنسوخ رواية أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي: لمحمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، تحقيق: حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٦٤٦- الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن: للقاسم بن سلام، أبي عبيد، دراسة وتحقيق: محمد بن صالح المديفر (أصل التحقيق رسالة جامعية)، الناشر: مكتبه الرشد، شركة الرياض، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٦٤٧- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم: لعلي بن أحمد بن سعيد بن حزم، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٦٤٨- الناسخ والمنسوخ: لأحمد بن محمد بن إسماعيل، أبي جعفر النَّحَّاس، تحقيق: محمد عبد السلام محمد، الناشر: مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٦٤٩- الناسخ والمنسوخ: لقتادة بن دعامة بن قتادة، تحقيق: حاتم صالح الضامن، كلية الآداب، جامعة بغداد، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٦٥٠- الناسخ والمنسوخ: لهبة الله بن سلامة بن نصر المقري، تحقيق: زهير الشاويش ، ومحمد كنعان، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ.

٦٥١- النُّبوَّات: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، الناشر: أضواء السلف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٦٥٢- نتائج الفكر في النَّحو: لعبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السُّهيلي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ.

٦٥٣- النحو الوافي: لعباس حسن، الناشر: دار المعارف، الطبعة: الخامسة عشرة.

٦٥٤- نسب قريش: لمصعب بن عبد الله، أبي عبد الله الزبيري، تحقيق: ليفي بروفنسال، الناشر: دار المعارف، القاهرة، الطبعة: الثالثة.

٦٥٥- النشر في القراءات العشر: لمحمد بن محمد بن يوسف، ابن الجزري، تحقيق: علي محمد الضباع، الناشر: المطبعة التجارية الكبرى .

٦٥٦- نصب الراية لأحاديث الهداية: لعبد الله بن يوسف الزيلعي، تحقيق: إدارة البحث العلمي، الناشر: دار الحديث.

٦٥٧- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: لإبراهيم بن عمر البقاعي، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٦٥٨- نقد الشعر: لقدامة بن جعفر، الناشر: مطبعة الجوائب، قسطنطينية، الطبعة: الأولى، ١٣٠٢هـ.

٦٥٩- النكت الشنيعة في بيان الخلاف بين الله تعالى والشيعة: لإبراهيم بن صبغة الله الحيدري، تحقيق وتعليق: عبد العزيز بن صالح المحمود الشافعي، الناشر: مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٦٦٠- النُّكت والعيون (تفسير الماوردي): لعلي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٦١- النهاية في غريب الحديث والأثر: للمبارك بن محمد الجزري، ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت، : ١٣٩٩هـ.

٦٦٢- نواسخ القرآن (ناسخ القرآن ومنسوخه): لعبد الرحمن بن علي، أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: محمد أشرف علي المليباري، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ.

٦٦٣- نيل الأوطار: لمحمد بن علي الشوكاني، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ.

٦٦٤- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه: لمكي بن أبي طالب، الناشر: كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، الشارقة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ.

٦٦٥- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: لجلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة التوفيقية، مصر.

٦٦٦- هواتف الجنان: لعبد الله بن محمد، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد الزغلي، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٦٦٧- الوابل الصيب من الكلم الطيب: لمحمد بن أبي بكر بن أيوب، ابن قيم الجوزية، تحقيق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٩م.

٦٦٨- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لعلي بن أحمد الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داودي، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٦٦٩- الوسيط في تفسير القرآن المجيد: لعلي بن أحمد الواحدي، تحقيق: مجموعة محققين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٦٧٠- الوهم والإيهام: لعلي بن محمد بن القطان، تحقيق: الحسين آيت سعيد، الناشر: دار طيبة، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٦٧١- ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن: لمحمد بن عبد الواحد، المعروف بغلام ثعلب، حققه وقدم له محمد بن يعقوب التركستاني، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.



تم الصف والإخراج في مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠